نظرية الثورة والمقاومة في الإسلام

دراسة في ضوء المواجهة الراهنة بين الإسلام و الاستكبار الأمريكي

عبد الكريم آل نجف

مكتبة
مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)

moamenquraish.blogspot.com

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الكريم آل نجف

نظرية الثورة والمقاومة في الإسلام

دراسة في ضوء المواجهة الراهنة بين الإسلام والاستكبار الأمريكي

مؤسسة صادق آل محمد(ص) للنشر و الطباعه

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

اسم الكتاب............................ نظرية الثوره و المقاومة فى الاسلام

تأليف.. عبدالكريم آل نجف

الناشر.. مؤسسه صادق آل محمد(ص)

الطبعه.............................. رمضان ١٤٢٥ هـ. ق

ايران / طهران / ت ٣١٣٨٢٨٢ / فاكس ٣١٣٨٤٨٤

E-mail: SADEGH_ALEMOHAMAD@Yahoo.Com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومـن ربـاط الخيل ترهبون به عـدوالله وعـدوكم وآخـرين مـن دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون ﴾.

(الانفال / ٦٠)

الإهداء

إلـى

رمز الثورة والعدالة والمقاومة الإسلامية منذ منتصف القرن الثالث الهـجري وإلى نهاية التاريخ...

إلـى

من يتحدى الطواغيت بقوله:

وإني أخرج، حين اخرج ولا بيعة لأحد من الطواغيت في عنقي.

إلـى

سيدي ومولاي صاحب العصر والزمان الإمام المهدي المنتظر(عج)

أُهدي هذه الصفحات قائلاً:

﴿يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجـاة فأوفِ لنا الكيل وتصدق علينا إنّ الله يجزي المتصدقين﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على خير خلقه وخاتم رسله محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

قال مولانا أمير المؤمنين يوم بيعة الناس له في المدينة: «**ألا وإن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه (ص). والذي بعثه بالحق لتبلبلُنَّ بلبلة، ولتغربلُنَّ غربلة، ولتساطُنَّ سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم، وليسبقَنَّ سابقون كانوا قصروا، وليقصرَنَّ سبّاقون كانوا سبقوا ...**»(١).

كلام أمير المؤمنين هذا يصدق على حال الأُمة الإسلامية اليوم، فقد عادت بلية الاحتلال والاستعمار القديم إليها كما كان حالها في مطلع القرن العشرين يوم تعاوت كلاب الرأسمالية الجشعة لتسقط السيادة الإسلامية عن بلاد الإسلام، وتفرض عليها السيادة الغربية الكافرة وتنهب ثرواتها وتمزقها شذر مذر، وتسلط عليها الأحزاب العلمانية والثقافة الغربية وتطارد الإسلام في عقر داره، وتمكن للصهيونية الحاقدة من تنفيذ مآربها وأطماعها القديمة، وحصيلة الحملة

---

(١) نهج البلاغة: من خطبة ١٦.

الاستعمارية الجديدة حتى الآن عبارة عن سقوط بلدين من بلدان المسلمين تحت الاحتلال الأمريكي العلني الصريح، وثلاثة بلدان أُخرى تقضي أياماً سوداء تحت وطأة الجيوش الأمريكية الجاثمة على أراضي المسلمين المقدسة، ولازالت الوحوش الكاسرة تفغر أفواهها الكريهة لتبتلع بلداناً جديدة عبر التهديد والإرعاب، ساعية إلى إسقاط أروع تجربة إسلامية عصرية في الحكم والدولة، وإجهاض أعظم ثورة إسلامية عرفها المسلمون منذ عصر صدر الإسلام وحتى الآن، وتصفية ما وصفه السيد الشهيد الصدر «قدس سره» بحلم الأنبياء، فيما تقوم بعمليات ترويضية لبقية حكام المسلمين، لتحولهم من رؤساء دول إلى رؤساء بلديات لايملكون من أمر أنفسهم وشعوبهم وبلدانهم شيئاً ، ويصبح أمرهم على غرار قول الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلسٍ ... أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

وكما كانت الدورة الاستعمارية السابقة تجري تحت لافتة التحرير جاءت الدورة الجديدة تحت لافتة الديمقراطية، وكما كان الإسلام يُوصَم في الدورة السابقة بالرجعية، أَصبح في الدورة الجديدة يوصف بالإرهاب، حتى وصف القرآن الكريم على لسان زعماء الحرية والتمدن الجديد بأنّه كتاب الإرهابيين والعياذ بالله.

ولا أكاد أجد في وصف حالة المؤمن الغيور على دينه وبلاده وأمنه وكرامته المهدورة في هذا الزمان أفضل من كلام أميرالمؤمنين (ع) يوم استنهض الناس إلى الجهاد قائلاً : **«ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً . وسرّاً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلاّ ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات ، وملكت عليكم الأوطان. وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكري ، وأزال خيلكم عن مسالحها.**

ولقد بلغني: أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأُخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبتها وقلائدها ورعثها ما تمتنع منه إلاّ بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أُريق لهم دم، فلو أنّ امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديرا؛ فيا عجباً! عجباً، والله يميت القلب ويجلب الهم».(١)

ولقد دعاني إلى تأليف هذا الكتاب ما وجدته من فارق مرير ومفارقة مؤسفة بين النهضة الجهادية الثورية الرائعة التي وقفها المسلمون ضد الاستعمار في الدورة السابقة وبين حالة التراخي والفتور التي عمت قطاعات واسعة منهم إزاءه في الدورة الجديدة، ولو أنّ أمرا مسلماً مات أسفاً من سماع الكلام العليل والشبهات الواهية التي راج سوقها في تبرير الدورة الجديدة وتوجيهها وتحسين صورتها لما كان به ملوماً، ولكان بذلك جديراً، طبقاً لما تقتضيه الغيرة الإيمانية العلوية.

إنّ الفارق بين الحالتين يعود بالدرجة الأساس إلى ما أشار إليه المفكر الإسلامي مالك بن نبي من عامل القابلية على الاستعمار، فلقد استطاع الاستعمار في دورته السابقة وعبر قرن من العمليات التخريبية على مستوى الثقافة والسياسة والتربية، من دسّ الفكر الغربي في الشخصية الإسلامية وتحويله إلى جزء من أجزائها وعنصر من عناصرها، ومعلوم أنّ الإنسان لا يعادي نفسه، ولاأمراً داخلياً في شخصيته، وإنما يعادي أمراً في الخارج، وحينما أصبح الغرب بمفاهيمه وأفكاره جزءاً من شخصية الإنسان المسلم الجديدة صار من الطبيعي أن يفقد المسلم جزءاً من حساسيته تجاه الاستكبار الغربي، وحينما يفقد الإنسان حساسيته تجاه العدو تتجه حساسيته تجاه الصديق ويبدأ يتصوره عدواً، وتنقلب المفاهيم عنده رأساً على عقب، الأمر الذي يوضح الحاجة إلى اقتلاع ذلك الجزء الغربي الأجنبي

---

(١) نهج البلاغة: من خطبة ٢٧.

الذي تسلّل إلى الشخصية الإسلامية، والذي أحدث فيها خلل القابلية على الاستعمار. وجعلها تنظر إلى الأُمور من زاوية مختلفة. وأزال عنها الحساسية الصادقة وأوجد فيها حساسية كاذبة وصور لها الصديق عدواً والعدو صديقاً ،تصديقاً لقول الإمام علي (ع) حيث يقول: «**إنّ أوّل ما تغلبون عليه من الجهاد بأيديكم ثم الجهاد بألسنتكم ثم الجهاد بقلوبكم، فمن لم يعرف قلبه معروفاً ولم ينكر منكراً انتكس قلبه فصار أسفله أعلاه فلم يقبل خيراً أبداً**»(١).

والمنطلق الأساس للكتاب هو أنّ الأزمة القائمة في الأُمة الإسلامية، ليست أزمة واقع ، الواقع بحد ذاته لا يمثل أزمة حقيقية ، وهو لا يتحمل مسؤولية نفسه، ولا مسؤولية النواقص والسلبيات والمشاكل التي تعترضه ، والمسؤولية كلها تقع على عامل الوعي ، وما تظهر مشكلة في ساحة من الساحات إلاّ نتيجة لتفاعل بين وعي معادٍ ناجح في اختراق تلك الساحة ووعي محلي فاشل في مجال الدفاع، وفشل الثاني هو الأساس في نجاح الأوّل، وبالتالي فالمسؤولية الأساسية تقع على عامل الوعي المحلّي الفاشل، الوعي الناجح هو الذي يخلق من مساوئ الساحة ونقاط ضعفها محاسن ونقاط قوة والوعي الفاشل يفعل العكس، فيقع في مطبات التبرير وخط السفاهة.

وليس المقصود بالوعي أن يملك الإنسان مجموعة من المعلومات ويتابع الأخبار عبر وسائل الإعلام، وإنما الوعي مقولة تتّصل بمصير الإنسان وأهدافه ومستقبله، فلو قرأ الإنسان كل كتب الدنيا ولم يقرأ القرآن الكريم الذي يمثل مصيره وأهدافه ومستقبله في الحياة فهو غير واعٍ، ولو قرأ سورة الفاتحة بتدبر وتفكر

(١) مختصر بصائر الدرجات، الحسن بن سليمان الحلي: ١٦٩، ط: المطبعة الحيدرية، ونقل البيهقي في سننه مثله عنه (ع): ١٠/ ٩٠، ط: دار الفكر.

لأصبح واعياً بالمعنى الكامل للوعي، وهنا تظهر أزمة الوعي في الساحة الإسلامية الراهنة ، إنها أزمة الأهداف التي يرسمها الغربيون في أذهاننا من حيث لا نشعر، فنتصورها أهدافنا الحقيقة التي اخترناها بأنفسنا ، وأزمة النظرة الغربية المتسللة إلى فكرنا والتي نخلطها مع الإسلام فتخرج النتيجة إسلاماً أمريكياً من حيث لا نشعر. وربما افتخر البعض منا بسفاهة بأنّه قد اكتشف إسلاماً جديداً يجنب الأُمة ويلات الصراع مع المارد الأمريكي. متناسياً أنّ خسائر السفاهة أضعاف خسائر المقاومة.

وفي مثل هذا الظرف التأريخي الذي تجتازه الأُمة الإسلامية بين تهديدات صليبية صهيونية جدية وخطيرة وشاملة وبين تداعيات داخلية تنذر باضمحلال الأُمة ـ لا سمح الله ـ تظهر الحاجة الملحة إلى نشر وتعميق وتأصيل مقولة الثورة و المقاومة الشاملة في وعي الأُمة ووجدانها، وإزالة العناصر التغريبية الأجنبية التي تسلّلت إلى شخصيتها في ظل ظرف تأريخي طارئ واضعفت روح المقاومة فيها،

والكتاب الذي بين يديك ـ عزيزى القارئ ـ يأتي في هذا الاتجاه. ساعياً لاستحضار الأصالة والقيم والمنطلقات الأساسية للإسلام. ودفع التصورات الخاطئة التي يسعى العدو الأمريكي إلى تسويقها إلى الساحة الإسلامية، والتي تركز على إزالة قبح الاحتلال وتصوير إمكانية التعايش مع الهجمة الأمريكية، وترجح للمسلمين عدم المقاومة، وتبين هذا الطريق كما لو كان الأُسلوب الأمثل لدفع تهمة العنف والإرهاب عن الإسلام والمسلمين وتجنب أضرار المواجهة مع القوة الأمريكية التي لا تقهر، وربما استحسن بعض المسلمين هذا الطريق، وتصور أنّ المقاومة تمثل أيديولوجية إضافية لا مبرر لها!!.

ونحن في هذا الكتاب وإن كنا نسعى لبيان نظرية الثورة والمقاومة في الإسلام من جهاتها المختلفة إلاّ أنّنا لا نقصد من ذلك البيان الأكاديمي النظري بقدر ما نقصد خطة للعمل ونهجاً للتطبيق وحلاً جذرياً لمشكلة عدو تأريخي وقح وسيّئ الخلق

والنوايا لازال يزاحمنا على أرضنا وثرواتنا وسيادتنا منذ عدّة قرون ، وقد شدّد هجمته أخيراً علينا ليخيّرنا بين السلّة والذلة، ولذا استبعدت الأُسلوب الأكاديمي في البحث. وعنيت عناية خاصة في عدم انحصاره بهذه الجنبة ليأخذ صفة ميدانية عملية أيضاً.

ومن جملة ما يهدف إليه هذا الكتاب بيان أنّ الثورة الشعبية سلوك حتمي وخيار ستراتيجي على الأُمة الإسلامية أن تسلكه، وأن تعتمد في هذا الخيار على نفسها ولا تنظر إلى الحكومات، أساءت أم أحسنت، أيدت أم عارضت، وافقت أم رفضت.

وكل من يترك هذا السبيل أنما يقع في تسويلات وأوهام ووعود فارغة ومزيد من الانهيار والانسحاق أمام عدو استكباري صهيوني لم يشهد التاريخ أسوأ منه ، ويعرّض شعبه ومستقبل أُمته إلى أخطار أكبر؛ لأنّ العدو لا يكرم أحداً يتوافق معه ، وإنما يستذله أكثر من غيره، وهو يعرف في داخله أنّ الذي يقاومه أولى بالكرامة ممن يتوافق معه.

إنّ هذا الكتاب محاولة نظرية من واقع ميداني ساخن لإشباع مقولة الثورة الشعبية بالدراسة والبحث والتحليل الشامل بهدف رفد الساحة بالوعي المطلوب الذي يجعلها بمستوى الظرف التاريخي الذي تجتازه.

المؤلف

مدخل

إلى نظرية الثورة والمقاومة في

الإسلام

الهدف من كتابنا هذا عبارة عن:

١ - بيان نظرية وأُطروحة الثورة والمقاومة من وجهة نظر الإسلام.

٢ - المساهمة بجهد فكري في مواجهة الهجمة البربرية الأمريكية الحالية علىٰ العالم الإسلامي.

الهدف الأوّل علمي أكاديمي، والثاني عقائدي يأتي في سياق الوظيفة التاريخية للأُمة الإسلامية في الدفاع عن نفسها والحيلولة دون انـهيارها أمـام التـحديات الحالية الظالمة، فليس الكتاب رسالة علمية لنيل شهادة أكاديمية بقدر ما هو رسالة عملية لأداء المستطاع من الوظيفة الشرعية أمام الله سبحانه، والتاريخية أمام الأُمة، وهذا ما يوجب عقد بحث تمهيدي في مدخل الكتاب نتناول فيه طبيعة الهـجمة الأمريكية ومنطلقاتها وستراتيجيتها واختيارات الأُمة في مواجـهتها فـي ضـوء ستراتيجية المقاومة بالشكل الذي يـبين مـوضع الفـصول التـالية ذات الطـبيعة الأكاديمية ومدى حيويتها وفاعليتها بالنسبة إلى هذه الستراتيجية.

وسنتناول في هذا المدخل المحاور التالية:

١ - واقع ومستقبل العالم الإسلامي في ظل التحديات الراهنة.

٢ - معالم الستراتيجية الاستكبارية الجديدة وأهدافها.

٣ - أزمة الوعي الراهنة في العالم الإسلامي.

٤ - خيارات المسلمين في المواجهة الراهنة.

٥ - معالم الستراتيجية الإسلامية المطلوبة.

وسنعتمد فيه على قراءة الواقع كما هو، ومن خلال ابعاده المعلنة والمحسوسة لدى الجميع، وجهدنا ينصب على جمع هذه الابعاد واعطاءها القراءة التي نراها صحيحة. مما لانحتاج معه إلى الاستشهاد بمصادر معينة.

واقع ومستقبل العالم الإسلامي
في ظل التحديات الراهنة

يمرّ العالم الإسلامي في هذه السنوات بمقطع تاريخي لا نظير له منذ عدة قرون، وهو أكثر حساسية مما كان عليه الحال إبان سقوط الدولة العثمانية وقيام الكفار الأجانب بتقسيم بلاد المسلمين كغنائم بينهم. وعلىٰ المسلمين في هذا المقطع أن يحسنوا التعامل مع اللحظة التاريخية التي يجتازونها، وأن يختاروا طريقهم بوضوح وتأنٍّ ودراسة، ومن موقع الإحساس بالمسؤولية التاريخية تجاه الحملة البربرية الاستكبارية عليهم، والنظر للمسألة كمسألة مصير ومستقبل وكرامة للأُمة في حاضرها ومستقبلها، والحذر من كل ما من شأنه أن يفقدهم صوابهم ووعيهم ويؤدي بهم إلى سلوك طريق يضرهم وينفع عدوهم وهم لا يشعرون. وستحلّ علينا لعنة التاريخ والأجيال، وستهزأ بنا الأُمم والشعوب، وسيضحك الأعداء بملء أشداقهم علينا إن لم نحسن تقدير الظرف التاريخي ولم نعرف العدو من الصديق، ولم نميّز النافع من الضار، واختلط علينا الحق بالباطل، وخدعنا الاستكبار الأُمريكي عن أهدافنا الحقيقية، وجعلنا نتمسك بأهداف وهمية تنفعه وتضرنا.

بين نظرية العولمة وستراتيجية صراع الحضارات

لقد طرح الأمريكان نظرية العولمة، وجرى حولها كلام كثير وبحث واسع في الأوساط ذات العلاقة بها سلبا أو إيجاباً، ونحن هنا نتناولها من زاوية ارتباطها بمقولة المقاومة.

إننا نميز العولمة إلى سياقين مختلفين كل له حكمه واستحقاقه:

١ – دور التطور العلمي والتقني في التقارب بين الشعوب والأُمم، وهذا سياق تاريخي طبيعي وصحيح ولا شأن له بالسياسة، ولا مشكلة لنا معه.

٢ – دور القوى السلطوية الاستكبارية في استغلال السياق الأوّل لصالحها، وتحويله إلى وسيلة تتسلط بها علىٰ الكرة الأرضية، وهذا سياق استعماري يستحق المواجهة.

وقد رفعت أمريكا شعار العالمية في الثلاثينات من القرن العشرين ضمن محاولة لاجتذاب المتنفرين من العنصرية الهتلرية، لكنّ محاولتها باءت بالفشل؛ لأنّ الحركة القومية كانت لا تزال قوية آنذاك، وكذا الفكرة الوطنية كانت قوية بحيث لا تسمح بظهور فكرة العالمية التي فهمت آنذاك علىٰ أنها دعوة لاضمحلال الوطنية لصالح دولة عظمى ترفع شعار العالمية لتؤكد كيانها الوطني والقومي.

وفي العقد المتأخر من القرن العشرين عادت أمريكا إلى هذا الشعار تحت تسمية جديدة هي العولمة، ورأت أنّ الفرصة التاريخية لأنّ تكون أمريكا هي القائد للعالم قد حانت.

وموقفنا من هذه الدعوة هو أنّ العالمية شعار إنساني رفعه الإسلام قبل غيره، ولكن هذا لا يعني أن نصدق بكل من رفع هذا الشعار، فهناك قادر صادق وعاجز كاذب، فالإسلام يرفع شعار العالمية وهو قادر عليه صادق فيه، وأمريكا ترفعه وهي عاجزة عنه كاذبة طامعة فيه، والسرّ في ذلك أنّ العالمية بما هي مطلب وإطار أخلاقي إنساني لا يمكن أن تتحقق في ظل حضارة مادية أرضية. ولا تقبل التحقق إلّا في إطار حضارة سماوية ربانية؛ لأنّ الأُخوّة بين البشر لا تتحقق إلّا في إطار قد تحقق قبلها وهو إطار الأُبوّة، فإذا كان البشر كلهم إخوة فمن هو الأب الذي ينبغي عليهم التسليم بأُبوته لهم، والذي يجب أن يكون حقيقة أُخرى منفصلة وسابقة عليهم وأكبر من كل واحد منهم، كما هو المتبادر من مفهوم وخصائص الأُبوة؟

الإسلام هو الأيديولوجية الوحيدة التي تستطيع أن تجيب على هذا السؤال. باعتبار أنّ الله سبحانه وتعالى هو الحقيقة المنفصلة عن البشر، ومعنى ربوبيته مطابق لمعنى الأُبوّة؛ لأنّ الأب والرب لهما شأن واحد مشترك بينهما هو إدارة وتدبير شؤون التابعين، وبالتالي فالإسلام وحده القادر على رفع شعار العالمية والأُخوّة البشرية؛ لأنه يمثل الامتداد لموقع الأُبوّة السماوية في حياة الناس، بينما يعجز الإنسان بما هو إنسان وفرد في العائلة البشرية أن يطرح هذا الشعار؛ لأنّ الأخ يعجز أن يكون إطاراً يجمع هذه العائلة، فالظرف يجب أن يكون أكبر من المظروف، بينما الأخ حقيقة مساوية لسائر الأفراد، وانتفاء الأُبوّة يعني انتفاء الأُخوّة، فالحضارة الأرضية التي ترفض القيم الإلهية السماوية لا يمكنها أن ترفع شعار الأُخوّة البشرية، وإذا أصرّت على رفعه، فهذا يعني أنها تفكر في اغتصاب موقع الأُبوّة والاستحواذ على امتيازاته، ومن هنا كانت الحضارة الأرضية حضارة مشركة وطاغوتية وظالمة دائماً، مشركة لأنها تغصب موقعاً ليس لها، وإنما هو لله سبحانه وتعالى، وطاغوتية لأنها تمثل حالة انتفاخ وزيادة مترهلة عن الحجم الطبيعي الذي تستحقه، وظالمة لأنّ هذه الزيادة جاءت نتيجة التمدد على حساب الآخرين[1].

وحينما يطرح الأمريكان هذه الأيام شعار العولمة فهم يريدون بذلك منازعة الله سبحانه في ردائه وكبريائه في أن يكون التوحيد مركز الحضارة البشرية، فيحاربون التوحيد ويجعلون الإرادة الأمريكية بدلاً عنه كمحور للمسيرة البشرية.

وهذا هو الشرك، وشعارهم شعار طاغوتي؛ لأنه يمثل انتفاخاً وتورماً في الشخصية الأمريكية يساوي أضعاف الحجم الذي تستحقه، كما أنه شعار ظالم في

---

(١) بحث صاحب هذه السطور أُطروحة العالمية الإسلامية بشكل موسع ومبتكر وشامل في كتابه المعد للنشر قريبا إن شاء الله تعالى باسم «العالمية الإسلامية»، وأثبت فيه ما ورد أعلاه بشكل مفصل ومؤكد.

الوقت نفسه؛ لأنه يعني تسلط الإرادة والهوية والشخصية الأمريكية علىٰ باقي دول وشعوب العالم، وسحق إرادة وهوية وشخصية هذه الدول والشعوب، وبالتالي فهم يقفون في مواجهة الخالق والمخلوق معاً، وهم أعداء الله وأعداء عباده.

وشعار العولمة وإن كان جديداً في اسمه، لكنه قديم في مضمونه، وهو يمثل الصيغة العصرية من الأُطروحة الامبراطورية الاستعمارية التي عرفها الإنسان منذ أقدم العصور، فالكتاب قديم والغلاف جديد. وعلينا أن لا نؤخذ بجدّة الكتاب ونلهو بها عن مضمونه الاستعماري المكشوف، بل علينا أن نتحلّىٰ بالحلم والبصيرة ولا نسمح بتمرير المشروع الاستعماري الجديد، وأن ندع ظاهرة «العبقرية المتأخرة» التي تسمح للاستعمار بتحقيق أهدافه كاملة، فإذا أتمها تفتقت العبقرية عندنا وعقدنا مؤتمرات ندرس فيها كيف نجح الاستعمار في تحقيق أهدافه!!! وعلينا أن نتحلّىٰ بدلاً عن ذلك بالبصيرة والعبقرية المبكرة التي تجعلنا ندرك الخطر قبل أن يتجه إلينا وقبل أن يسقطنا، ولا خير في عبقرية تأتي بعدما نسقط.

وتقوم أُطروحة العولمة علىٰ أساس الإمساك بشرايين الحياة الأساسية في العالم، وجعل الأُمم والشعوب تدور في حلقة ضيقة بحيث لا تجد في حياتها معنى للاستقلال والسيادة والإرادة السياسية المستقلة. بل لا تجد معنى حتى للشريعة الإسلامية التي قد تسمح أمريكا في هذه الحالة بتدوينها كأساس للقوانين في بلد إسلامي، فالإنسان الذي يجد شرايين حياته الأساسية قد أصبحت بيد الاستعمار لا يجد مبرراً للدفاع عن أُمور أصبحت هامشية وقشرية، وها هي أمريكا تحتل افغانستان والعراق ثم تقيم مؤتمرات دولية لإعادة إعمارهما، فيصدق السذج والبسطاء بأنّ أمريكا قد أصبحت رحمة للعالمين، وهذه هي أزمة الوعي الأشد فتكاً بالشعوب من الأيدز والسرطان، وعلىٰ الواعين المخلصين أن يسألوا هؤلاء: لماذا حولت أمريكا هذين البلدين إلى خرائب ومقابر جماعية بأيدي عملائها؟ ولماذا تريد إعمارهما؟ ما

مغزى هذا السلوك؟ إنه استنزاف للمسلمين في المرحلة الأُولى، واستلاب لإرادتهم وسيادتهم وكرامتهم في المرحلة الثانية، وهذا المنهج راسخ في سلوك الغربيين تجاهنا، فهم يسلطون علينا حاكما إرهابيا ديكتاتورياً ويدعمونه دعماً مطلقاً بحيث يرى في نفسه الجرأة علىٰ أن يحوّل العراق إلى مقبرة جماعية ويقتل عبقرياً عظيماً كالشهيد السيد محمّد باقر الصدر، ويقتل أهالي حلبچة بالأسلحة الكيمياوية، فإذا هـرب الناس بجلودهم إلى أوروبا وأُعطوا حقوق اللجوء تصوروا خطأً أنهم في كنف العدل والإنصاف وحقوق الإنسان والقيم الإنسانية، وأنّ هناك من يحترمهم، ولكنهم إذا نظروا نظرة عميقة وجدوا أنفسهم أخسر الخاسرين، وذلك إذا سألوا أنفسهم: لماذا لم يحترمنا الغربيون في بلداننا؟ ولماذا منحونا حقوق اللجوء في بلدانهم؟. المغزى السياسي لهذا السلوك هو أنّ هناك عملية ترويض يراد من خلالها أن يقال للاجئين: عليكم أن لا تبحثوا عن سيادة سياسية، فهذا مطلب لا يحق لكم أن تخوضوا فيه، ولكم فقط حقوق إنسانية، ونحن نقبل بكم كشحاذين تستحقون الصـدقات، ولا نقبل بكم أسياداً في بلدانكم، هذا هو المغزى العميق لما يقوم به الغربيون حينما يحوّلوا بلداننا إلى محرقة ثم يأتون ليقدموا النا خدمات إنسانية، إنها إنسانية الثعلب الماكر في كل شيء.

ويعتقد الأمريكان أنهم قادوا صيرورة تاريخية باتجاه العولمة، فمشاركتهم في الحرب العالمية الأُولى كانت في سبيل إسقاط الامبراطوريات المتبقية من التاريخ البائد وهي: الامبراطورية العثمانية، والامبراطورية القـيصرية، والامـبراطـورية الألمانية، ومشاركتهم في الحرب العالمية الثانية كانت من أجل إسـقاط النـازية والشوفينية، وقيادتهم للحرب الباردة كانت من أجل إسقاط المعسكر الشرقي، وإنّ عليهم الآن أن يقودوا الحرب الأخيرة ضد خطر محتمل هو الخطر الإسلامي باسم الحرب علىٰ الإرهاب، ولذا أطلقوا علىٰ هذه الحرب اسم «الضربة الاستباقية»

وأسموا ستراتيجيتهم فيها بـ«صراع الحضارات».

وقد وصلت القيادة الرأسمالية الاستكبارية في أمريكا إلى هذه النتيجة بعد ملاحظة أن تجربة الاستعمار والتغريب في العالم الإسلامي كشفت عن حضارة حية عميقة الجذور لا يمكن أن تموت وهي الحضارة الإسلامية، وأنّ الحكومات العميلة والعلمانية في العالم الإسلامي لم تفلح في الترويج للمقولات الغربية، وأنّ هذه الحضارة تمثل المعارض الوحيد الذي يمكن أن يخل باستقرار السيطرة الأمريكية علىٰ العالم، خاصة وأنها قد أفلحت في أن تمدّ بأذرعها إلى داخل أوروبا، وتوجد هناك حركات إسلامية تجتذب إليها الأوروبيين وتؤثر فيهم، مما يدل علىٰ أنّ مستقبلاً جيداً ينتظر الإسلام في أوروبا فضلاً عن آسيا. وهذا ما يثير الذعر والفزع لدى الأمريكان. ويجعلهم يفكرون جدّياً في إسقاط الخطر الإسلامي القادم عليهم، فطرحوا ستراتيجية صراع الحضارات وغرضهم من ذلك الصراع مع الحضارة الإسلامية، وقصدهم من تعميم العنوان استغفال المسلمين. وسيأتي أنّ هذه الستراتيجية تقوم أساساً علىٰ تفجير العالم الإسلامي من الداخل وإشغاله بفتن واضطرابات، وإغراقه بحروب وقلاقل داخلية تبدأ ولا تنتهي، وعلىٰ محاور متعددة طائفية وحزبية وإقليمية وقبلية من أجل استنزاف المسلمين وإشغالهم عن الخطر الأمريكي الصهيوني وتركيعهم أمام الإرادة الأمريكية وإقناعهم بأنّ الطريق الوحيد أمامهم هو أن يتركوا أمريكا تفعل بهم ما تريد، وأن يعطوها ما تشاء وتشتهي، وهذه النظرية تمثل تطبيقاً وتجلياً واضحاً من تجليات ظاهرة نوازع الدمار في الفكر الغربي التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً في الفصل الثالث ضمن البحث في نظرية المؤامرة.

الخطر الأكبر على الإسلام والبشرية

إنّ الخطر الأكبر علىٰ الإسلام والبشرية اليوم بما في ذلك الشعب الأمريكي نفسه هو القيادة الرأسمالية الأمريكية الطاغية والمستكبرة التي تطمع في فرض سيطرتها علىٰ البشرية، وتريد أن تعمل كل شيء وتقود كل حرب فتّاكة وتستعمل كل سلاح مدمّر في أي نقطة من الأرض إذا تطلبت مصالحها الشريرة ذلك، وهي الشــر المطلق والشيطان الأكبر والفتنة العظمى التي ينطبق عليها قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾[1]، وهي التي يجب أن تقف منها البشرية المعاصرة موقفاً مسؤولاً وجدياً، والتي يجب علىٰ كل مسلم أن يتبرأ منها براءة عملية ولفظية وقلبية جازمة وقاطعة. وأن يدعو الآخرين إلى ذلك، وأن يكون موقفه منها موقفاً واضحاً لا يقبل المطاطية والغموض واللف والدوران، بوصفها محض الشر الذي لا يمكن للإسلام إلاّ أن يقف بوجهه موقفاً ثورياً جهادياً صلباً، وإنّ ما تحصل عليه هذه القيادة الشريرة من اتساع وتمدد في النفوذ يعود إلى تهاون في مواجهتها والمواقف الضعيفة إزائها، وحينما يصف الإمام الخميني (رض) أمريكا بأنها الشيطان الأكبر ويحذر من التقرب إليها ويعتبر رضا أمريكا عن أي شخص أو جماعة أو حزب دليلاً علىٰ انحراف هؤلاء عن الصواب، فليس المقصود بذلك الشعب الأمريكي الذي يخضع لعمليات تضليلية واسعة ولعمليات صناعة الرأي العام البديل عن رأيه الحقيقي، وإنما المقصود بذلك الموقف هو الديكتاتورية الرأسمالية الطاغية والمستكبرة التي تقود أمريكا إلى العداء مع البشرية وتصادر الديمقراطية في أميركا والعالم معاً لصالحها، وكل مورد نذكر فيه أمريكا أنما نقصد هذه الطغمة الفاسدة وليس الشعب الأمريكي.

---

(١) الانفال: ٣٩.

معالم الستراتيجية الاستكبارية الجديدة وأهدافها

إنّ معرفة العدو نصف المعركة، كما يقال، وعلينا أن نبدأ من معرفة ستراتيجية العدو حتى نستطيع أن نحدد بدقة الموقف المطلوب المكافىء لها عدداً وعدة. ومنهجنا في اكتشاف ذلك هو المواقف المعلنة والسياسات الواضحة المعتمدة عملياً من قبل الأمريكان مع اللوازم المترتبة عليها والمؤيدة لها.

إنّ الشيء المعلن والواضح هو أنّ الستراتيجية الأمريكية هي ستراتيجية صراع ومواجهة مع شيء وهمي يرفض الأمريكان تعريفه حتى الآن تعريفاً واضحاً اسمه الإرهاب، ومجموع المواقف العملية والتصريحات والمقالات المتناثرة هنا وهناك تفيد أنّ المقصود بالإرهاب هو الإسلام والأُمة الإسلامية، وقد عبّروا عن ذلك صراحة حينما وصفوا القرآن الكريم بأنّه كتاب الإرهابيين ـ والعياذ بالله ـ. المقصود بالستراتيجية الأمريكية من جهتنا هو كل موقف ورأي يؤدي إلى انتصار أمريكا بنحو مباشر أو غير مباشر، معلن أو خفي، في هجمتها الراهنة علىٰ العالم الإسلامي، ومن خلال استقراء الحالة الأمريكية نستطيع أن ندون النقاط التالية كأُسس للستراتيجية الأمريكية الجديدة. وهي:

١ ـ أزمة الوصي

في المرحلة السابقة كان الاستعمار يعتمد علىٰ صناعة أحزاب ونخب تؤمن بالقيم الغربية وتستنكر القيم الإسلامية، وكانت هذه الصناعة تنتج عملاء يعتمد عليهم الاستعمار في تنفيذ برامجه والوصول إلى أهدافه.

ووجد الاستعمار في المرحلة الراهنة هذه الصناعة غير مجدية، فالمسألة مسألة إسلام عميق الجذور في وجدان الأُمة، ومواجهة هذا الخطر تستدعي من جهتهم القيام بكل عمل يؤدي إلى تشتيت الأُمة الإسلامية وإشغالها بنفسها وإصابتها بالشلل.

وأوّل سم ينفعهم في هذا المجال هو أزمة الوعي، باعتبار أنّ الوعي الصحيح ينتج مواقف صحيحة والوعي المتأزم يؤدي إلى مواقف خاطئة، فلو قام الاستعمار من خلال آلية ميدانية معينة بتأزيم الوعي في المنطقة، كانت النتيجة أن تسلك الأُمة الإسلامية مسلكاً خاطئاً يضر بأهدافها ومصالحها ويخدم الاستعمار بالمحصلة النهائية، فالعمالة خط ينتج نخبة عميلة، وأزمة الوعي خطٌّ ينتج أُمة خاطئة وجمهوراً مشلولاً ومسيرة مرتبكة لا تدري أين تتجه ولا تميز بين الهدف الصحيح والهدف الزائف. وسنأتي علىٰ تفصيل هذه النقطة في البحث التالي.

٢ ـ عمليات النفاق وإثارة الفتن بين المسلمين

فهناك فتنة بين الأُمة وحكامها العملاء، و هناك فتنة بين السنة والشيعة، وهناك فتن إقليمية موزعة علىٰ نقاط جغرافية متعددة داخل بلاد المسلمين. وهناك النزاعات الفئوية والحزبية، وهناك الخائفون من أمريكا الداعون إلى مسالمتها في كل ما تريد. ومصلحة الاستعمار تقتضي الاستفادة القصوى من كل هذه الفتن، والبحث عن أرضية مناسبة لظهور كل فتنة أُخرى ممكنة والسعي الحثيث لإدامة هذه الفتن واستمرارها وتوسيع نطاقها وترسيخ جذورها وتلقين الأطراف المتنازعة ما تحتج به بعضها علىٰ البعض الآخر، وإثارة النفاق بين المسلمين علىٰ أوسع نطاق ممكن.

وخطر هذه العمليات لا يكمن في ضياع القوة الإسلامية وتشرذم المسلمين فقط، وإنما يمتد ليختطف من المسلمين بصيرتهم ويجعلهم يتعاملون مع أمريكا معاملة

الصديق، فيحتل الصديق في وعيهم مكان العدو، ويجلس العدو في مكان الصديق، وهذه النتيجة لا تقل سوءاً عن سابقتها.

٣ ـ الإسلام الأمريكي الجديد

قبل سنتين من وفاته حذّر الإمام الخميني(رض) الأُمة الإسلامية من بوادر ظهور إسلام أمريكي في المنطقة يقف في مواجهة الإسلام المحمدي الأصيل، وقد كان علىٰ الحركات الإسلامية والنخب المؤمنة أن تأخذ هذا التحذير مأخذ الجد وتستفيد من العبقرية المبكرة لهذا الرجل العظيم، ولكنها لم تفعل ذلك، حتى وقع بعضها في فخ الإسلام الأمريكي الجديد من حيث لا يشعر ولا يقصد.

وحينما نتحدث عن إسلام أمريكي فهذا لا يعني أنّ الإسلام مقولة تقبل التعدد، وأنّ مقولة التعددية مقولة صحيحة، فالإسلام مقولة وحدانية تنطبق علىٰ ما جاء به القرآن والنبي(ص) وأهل بيته المنتجبين وصحابته الكرام فقط، والتعددية أمر ممكن في حدود الاستنباط الفقهي ضمن الإطار العلمي والآلية المشخصة له في الكتاب والسنة فقط. أمّا الإسلام نفسه بما هو مقولة عقائدية تعني التسليم للحق والرفض للباطل والشر فلا يقبل التعدد، وليس هناك إسلام مقاوم وإسلام متخاذل، وإنما هناك إسلام واحد يرى نفسه النقيض للشرك والشر والباطل والظلم، إنما الفتنة تأتي من جبهة الظلام هذه حينما تحاول أن تلبّس علىٰ الناس وتصور لهم أنّ الإسلام مقولة تتواءم مع الحكم الأُموي تارة ومع الستراتيجية الأمريكية الراهنة تارة أُخرى، وأنّ من يتناقض مع الحكم الأُموي والستراتيجية الأمريكية أنما هو إنسان متطرف، فيظهر إسلام أُموي أمريكي زائف يتصالح مع الطغاة ويبرر الشر، ويدعو إلى السكوت عليه، والهدف من صناعة الإسلام الأمريكي شق الأُمة وتشويه الإسلام وإنتاج خط السفاهة وإسقاط الوعي والمقاومة وتصفية الصحوة الإسلامية القائمة

علىٰ أساس استنهاض المسلمين والمستضعفين وتعبئتهم في خط المواجـهة مـع الاستكبار العالمي.

٤ ـ ربط المقاومة بالتخريب والإرهاب والأسماء المنبوذة

من أجل تبرير المواجهة مع المقاومة من جهة، وتشويه صورة المقاومة من جهة ثانية، والتشكيك في مشروعيتها من جهة ثالثة، وسلب روح المبادرة من الأُمة من جهة رابعة، وتسويغ الهجمة الأمريكية من جهة خامسة، تقوم أمريكا بربط المقاومة بالتخريب وتنفذ من أجل ذلك سلسلة من الأعمال الإرهابية.

٥ ـ مشروع الاضطراب واللإستقرار المستمر

الاستعمار من حيث الأصل مشروع لعدم الاستقرار فـي المسـتعمرات، لأنّ الاستقرار يعني البناء، والبناء يعني القوة، والقوة تعني الاستغناء عن المستعمر، وهذا ما لا ينبغي أن يكون من وجهة النظر الاستعمارية، والمشروع الأمريكي الراهن مشروع لنوع مضاعف من الاضطراب واللإستقرار، لأنه مشروع قائم علىٰ أساس استنزاف قدرات المسلمين وتجزئة بلدانهم وتدمير البنية التحتية لحياتهم اليومية حتى يبقوا مشغولين بأُمورهم المعاشية، محتاجين إلى الاستعمار، وفي حالة بعيدة جداً عن التفكير في معارضة موقف أمريكي في قضية من القضايا، ولذا نجد أمريكا تدعم الحكام في المنطقة وتقيم العلاقات معهم، ولكنها من جهة أُخـرى تـدعم قـوى المعارضة وتتبناها، تقود جيوشها لاحتلال العراق انطلاقاً من قطر، وفي قطر توجد فضائية كبيرة ومشهورة تعارض الاحتلال وتؤيد المقاومة حتى لو كانت صدّامية، وهذه الازدواجية ركيزة مهمة لتفجير المنطقة.

٦ ـ الروح الهجومية الإرهابية

يتمسك المشروع الأمريكي بالروح الهجومية من أجل أن يسلب من المسلمين

روحية الدفاع والمبادرة، ولذا تجده في حالة هجومية متواصلة، ويؤكد على جانب واضح وصريح من عنصر الإرغام للآخرين، وما يعدّه الآخرون مؤاخذة قانونية علىٰ أمريكا حينما تخالف الإرادة الدولية وتفرض موقفها عليها وتخرج عن الإطار القانوني يعتبره الأمريكان ضرورة من أجل إرغام الآخرين وإشعارهم بالعجز أمام القوة الأمريكية الغالبة بالنحو الذي يوحي للشعوب بأن تتخذ موقف السكوت وتنتظر الرحمة الأمريكية.

٧ ـ نشر الخوف والذعر من القدرة الأمريكية التي لا تقهر

المنهج المتبنّى لدى كل استعمار وقوة طاغية أن يظهر الطغاة أنفسهم قوة قاهرة لا تملك الشعوب بإزائها حولاً ولا قدرة. والشيء الشائع في هذه الأيام أنّ الاستقلال أمر غير ممكن، والعالم أصبح أُلعوبة بيد الأمريكان، وبالتالي فمقاومتهم أمر لا يجدي نفعاً، فلا أقل من أنّ المسالمة تبقي لنا شيئاً ما. وقد اتضح من النقطة السابقة أنّ هذا الشعور يمثل ضرورة أمريكية من أجل إسكات الشعوب وسدّ طريق المقاومة عليها، وإلّا فالتاريخ مليء بشواهد الانتكاس لقدرات استكبارية كبيرة جداً أمام شعوب صغيرة جداً.

والقرآن الكريم يؤكد ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله**﴾(١) والتجارب الفيتنامية واللبنانية والإيرانية والفلسطينية تجارب حية علىٰ نجاح المقاومة ضد الأمريكان.

٨ ـ ربط الشعوب بالوعود الفارغة دائماً

قام العالم الروسي بافلوف بتجربة في مجال اختصاصه كعالم نفسي، وكانت نتيجة هذه التجربة سيئة بالنسبة إلى البشرية، فقد وضع كلباً في قفص كبير وأخذ يقدم له

---

(١) البقرة: ٢٤٩.

قطعة لحم، فسال لعاب الكلب لها، ثم وضع جرساً وأخذ يدق الجرس في كل مرة يقدم له فيها اللحم، ثم أخذ يدق الجرس بدون أن يقدم له شيئاً من اللحم، فلاحظ أنّ الكلب يسيل لعابه حتى في الحالة الأخيرة التي يسمع فيها صوت الجرس فقط ولا يرى فيها شيئاً من اللحم، هذه النتيجة أفادت المستعمرين نظرية تقول لهم: إنّ بإمكانهم أن يجعلوا شعوب المستعمرات تنسى الاحتلال وتترك المقاومة إذا ما ربطت بوعود حتى لو كانت فارغة علىٰ غرار الكلب الذي نسي القفص وسال لعابه من أجل صوت الجرس فقط المجرد عن قطعة اللحم. والشعوب بالنسبة للمستعمرين شيء مساوٍ لكلب بافلوف، وما يقوم به المستعمرون في مستعمرات شيء تمرنوا عليه في داخل بلدانهم من خلال عمليات صناعة الرأي العام وشراء الأصوات وتزييف العملية الديمقراطية وركوب الموقف الشعبي العام بديكتاتورية خفية ذكية تضمن لهم احتكار سدّة الحكم وتداول السلطة بين فريقين لا يسمح بظهور ثالث لهما أبداً؛ لأنهما في الأصل حزب واحد.

ولذا نجد الاستعمار يركز علىٰ جانب الوعود، والتجربة الفلسطينية شاهد حي علىٰ ذلك، فما جاء رئيس أمريكي جديد إلّا وطرح مشروعاً لحل القضية الفلسطينية من أجل أن تشرئب أعناق الفلسطينيين إليه ويعولوا علىٰ وعوده وتجمد القضية الفلسطينية أربع سنوات يستفيد منها الكيان الصهيوني كفرصة زمنية للتقدم بمشروعه إلى الإمام. ثم يتضح أنّ الرئيس الأمريكي نفسه لا يريد لمشروعه التطبيق وإنما التسويف وتكريس روح الهزيمة عند الفلسطينين وسلب روح المقاومة منهم. كما هو واضح من قضية خارطة الطريق الأخيرة.

والوعد الذي يطرحه الأمريكان اليوم هو الديمقراطية، وهو ليس بوعد جديد، فقد ألفنا الاستعمار منذ مطلع القرن العشرين يؤكد أنه نبي الديمقراطية في العالم. فما بال الديمقراطية تستقر في الهند ولا تستقر في باكستان؟ وما بالها تستقر في جنوب

افريقيا ويحاربها الأمريكان في شمال أفريقيا ـ كالجزائر ـ؟ نقف عند هذا الحدّ من التساؤل ونترك التفصيل إلى فقرة آتية.

٩ ـ كذبة مكافحة الإرهاب

الإرهاب نغمة خاصة يركز عليها المشروع الأمريكي وله فيها مآرب عديدة، ونحن هنا نكتفي بالإشارة إليه كركيزة من ركائز المشروع الأمريكي، وسنأتي علىٰ بيان موقفنا منه في فقرة آتية.

١٠ ـ كذبة فكرة نهاية التاريخ

يركز المشروع الأمريكي علىٰ نشر فكرة نهاية التأريخ ليقول للبشرية: إنّ التأريخ قد تجمد عند النقطة التي وصل الأمريكان فيها إلى السيادة، وبالتالي فنهاية التاريخ تعني تكريس السيادة الأمريكية علىٰ العالم وتجميد التاريخ عند هذه النقطة، وأنّ البشرية لا تستطيع أن تضيف شيئاً إلى الحضارة الأمريكية، وأنّ أحداً لا يستطيع أن ينفلت منها.

وبذا يتضح إنّ فكرة نهاية التاريخ تأتي في سياق دعاية استعمارية ولا تمثل ما يبدو من ظاهرها أنها فكرة أيديولوجية. ويحاول الأمريكان جاهدين أن يسبغوا عليها صبغة أيديولوجية من خلال حديثهم عن ظهور المسيح (ع)، وهي محاولة سيئة جداً تريد أن تستغل المسيحية وتجعلها في خدمة الأغراض الرأسمالية الاستعمارية.

ومن وجهة النظر الإسلامية أنّ التاريخ لا ينتهي بالاستعمار والظلم والكفر، وإنما ينتهي بالعدل الكامل والإيمان التام، وذلك بظهور الإمام المهدي(ع) وصلاة المسيح(ع) خلفه التي ستؤدي إلى إقرار المسيحيين بالإسلام ودخولهم فيه، وبالتالي سقوط الحضارة الرأسمالية الفاسدة التي أذاقت البشرية حروباً عالمية، وملأت الدنيا

أسلحة دمار شامل وقوانين دولية يتكئ عليها الطغاة في اضطهاد المستضعفين. ومن يدري فلعل احتلال العراق سبب لظهور العصر المهدوي الذي سيشهد انتفاضة المسلمين علىٰ الطغاة والمستعمرين وتحرير البشرية منهم؟.

١١ ـ التأكيد علىٰ ضرورة إسقاط الدولة الإسلامية الفتية في إيران

تمثل الدولة الإسلامية المباركة في إيران نموذجاً محرجاً جداً للمشروع الأمريكي. لا لأنّ هذه الدولة قاومت السيطرة الأمريكية في إيران، ولا لأنها تقدم الدعم المعنوي لكل الأحرار في العالم. بل لأنّ هذه الدولة تمثل النموذج الإسلامي الناجح الذي حقق كل متطلبات الأصالة الإسلامية في نظام سياسي عصري يمكن أن يكون أُمثولة للشعوب الإسلامية.

إنّ القلق الأمريكي من إيران ناشئ من كونها النموذج الذي يلفت نظر شعوب المنطقة إليه. ويشغلها عن التجاوب مع النموذج الذي تريده أمريكا لها.

ويشيع في بعض الأوساط الآن الترويج لنماذج هزيلة كصورة للدولة التي يمكن للناس أن يعيشوا فيها بأمن وسلام، وهذا يعني أنّ قدوتنا في الحياة الدولية أصبحت المستعمرات المجهرية الصغيرة التي لا ترى بالعين المجردة، ويمكن لجندي أمريكي واحد أن يقودها بطرفة عين. هذا هو قدرنا من وجهة نظر أمريكا، أما قدرها هي فهو أن تفكر بالعولمة، بل أن تفكر في التحول إلى جرم من الأجرام السماوية بحيث تحتل القمر والمريخ وتنتصر في حرب النجوم!!!

١٢ ـ الاتكاء علىٰ عامل الجريمة

الحياة الأمريكية تركز علىٰ ثقافة الجريمة والعدوان، فالسينما الأمريكية تنتج أفلام الدم والقتل والحروب والفتك والعصابات، والطلاب في امريكا يحضرون في المدارس ومعهم اسلحة، والجريمة منتشرة علىٰ أوسع نطاق، والسجناء في أمريكا

يمثلون أعلى نسبة في العالم.

وهذه الظاهرة تحكي حضارة متفسخة آيلة إلى الزوال والسقوط، وهي جزء من ظاهرة نوازع الدمار في الفكر الغربي وفي كل فكر مادي، لكنها من وجهة النظر الاستعمارية تمثل ضرورة لإيجاد مجتمع يفكر بالغزو والعدوان ولا يحقق في المبررات الأخلاقية ولا الدوافع الوجدانية لما تريده القيادة الرأسمالية، ولو أنّ القيادة لا تفكر بطريقة استعمارية وظلت حبيسة الحدود الجغرافية لها لقضت هذه الظاهرة على المجتمع الأمريكي، ولأكل هذا المجتمع بعضه بعضاً، ومن هنا فالنهج الاستعماري نهج ضروري وحتمي في كل حضارة مادية. ولذا نعتقد أنّ ثقافة الجريمة والعدوان تدخل في الستراتيجية الأمريكية كركيزة من ركائزها، لأنّ الذي يريد السيطرة على العالم يحتاج إلى مجتمع يتفهم هذا المنطق، وبالتالي لا بد من إشاعة ثقافة العدوان والجريمة داخل هذا المجتمع.

هذه هي المعالم والأُسس والمرتكزات الملموسة في المشروع الأمريكي، وهي تمثل أيديولوجية الاحتلال، فماذا أعددنا لها؟ وما هو الموقف الضروري بإزائها؟

أزمة الوعي الراهنة في العالم الإسلامي

تقوم وجهة النظر الإسلامية للإنسان والحياة علىٰ أساس أنّ سعادة الإنسان وهدايته ترتبط بمقدار تمسكه بالهدف الذي خلق من أجله والمطابق لقانون الفطرة، قال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾(١) وكمال الإنسان ورشده يقاس بمقدار تبعيته وذوبانه في المثل المقدسة، والإنسان وإن كان مخلوقاً هادفاً دائماً ولا تنفصل حركته عن هدف ما، إلّا أنّ مشكلته الدائمة هي مشكلة مخلوق يُخطئ الهدف الصحيح وينساق خلف هدف خاطئ يضرّ به ويسوقه إلى الهاوية والضلال، قال تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أوكظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾(٢).

فالإنسان السعيد الكامل من وجهة نظر القرآن هو الذي يتبع هدفاً مقدساً يقوده نحو الكمال والرشد، وكمثال علىٰ الدور الخلاّق الذي يلعبه الهدف المقدس في حياة الإنسان نجد أنّ ركاب حافلة معينة ونتيجة لاشتراكهم بهدف معين يتجهون نحوه تحصل لديهم درجة من الانضباط الاجتماعي والأخلاقي، فيعتنون بسائق الحافلة دون أن ينقبوا في سلبياته وشكله وجنسيته وقبيلته، ويعتنون بالحافلة نفسها ويهتمون لسلامتها وعدم حصول عطل فيها، ويعتني بعضهم بالبعض الآخر،

---

(١) المؤمنون: ١١٥.

(٢) النور: ٣٩ ـ ٤٠.

ويحرص كل منهم علىٰ أن ينظر في إيجابيات الآخر وتجاهل سلبياته. فإذا وصلوا إلى الهدف زالت هذه الحالات عنهم، فلا يهتم أيٌّ منهم بالسائق ماذا يحصل له، ولا بالحافلة ماذا يحل بها، ولا بالآخرين أين يذهبون، فالهدف هو الذي قادهم إلى هذه الدرجة من الكمال والانضباط الأخلاقي والاجتماعي، وبزواله زالت هذه الدرجة، وكلما كان الهدف سامياً أكثر كانت درجة الكمال والانضباط الناشئة عنه أكبر، حتى يكون الله سبحانه وتعالى هو الهدف المقدس للمسيرة البشرية فيكون انضباط الإنسان وكماله في درجته القصوى.

والإنسان هو الإنسان سواء كان فرداً أو أُمة، فكما أنّ كمال الفرد منوط بالتبعية لهدف مقدس، كذلك كمال الأُمة منوط بالانسياق والتمحور حول هذا الهدف، ولذا كان تعريف الأُمة من وجهة نظر القرآن الكريم هو الجماعة ذات المقصد الواحد، بغض النظر عن القومية والعرق واللون والوطن واللغة والقبيلة، وحينما يذوب الفرد الواحد في هدفه المقدس إلى منتهاه يصبح أُمة كاملة، قال تعالى: ﴿**إنَّ إبراهيم كان أُمة قانتا لله...**﴾(١). وحينما تتجه البشرية كلها نحو الله سبحانه وتعالى تصبح بمجموعها من أوّل فرد فيها وحتى آخر إنسان يبقى علىٰ وجه الأرض أُمة واحدة، قال تعالى: ﴿**ان هذه أُمتكم أُمة واحدة وأنا ربكم...**﴾(٢)، فالهدف المقدس هو الذي جعل إبراهيم (ع) لوحده أُمة، وهو القادر وحده علىٰ أن يصنع أُمة بهذا المستوى من الرقي والكمال. وبالتالي هو أساس الكمال للفرد والأُمة معاً، وحينما يفقد الإنسان الهدف، أو يخطئ في عملية التشخيص والانتخاب فينتخب هدفاً زائفاً أنما يفقد مصيره ومستقبله وكماله وسعادته، ومقولة الوعي ترتبط بجانب الهدف

---

(١) النحل: ١٢٠.
(٢) الأنبياء: ٩٢.

دون سواه، فالإنسان الواعي هو الإنسان المتمسك بهدفه والرافض لكل المحاولات الرامية إلى إبعاده عنه، أو إبداله بهدف آخر زائف. والإنسان غير الواعي هو الذي لا يبالي بأي اتجاه يسير وبأي هدف يتمسك، ويمكن للعدو أن يخدعه عن هدفه ويصور له هدفاً آخر يضرّه ويسيء إلى مصيره ومستقبله. ولذا فأزمة الإنسان ومشكلته الأُولى والأخيرة هي أزمة وعي، فحينما يخطئ الإنسان عبادة الله ويعبد الأصنام، وحينما يترك شرع الله ودينه ويتبع الأيديولوجيات الوضعية، وحينما يترك الأنبياء ويتبع الطواغيت، وحينما يفقد أصالته الدينية ويستمع لكلام الشيطان ويعلق آماله عليه، وحينما يشتبه عليه العدو بالصديق والحق بالباطل والشر بالخير، هذه الحالات وأمثالها تمثل أزمة وعي تجعل الإنسان يفقد هدفه ويتمسك بهدف باطل زائف، فيرمي الكرة في ملعبه، ويحفر قبره بيده.

وخط الأنبياء والأئمة عليهم السلام هو خط الوعي، والمعارضون له هم أئمة الكفر والطواغيت الذين يضللون الناس ويوقعونهم في أزمة وعي، فيساندون الطواغيت نتيجة أفكار وحسابات وأهداف يتصورونها صحيحة وهي ليست كذلك، وما يحكيه التاريخ والقرآن عن أقوام الأنبياء ومعارضي الأئمة (ع) مطابق لهذه الرؤية تماماً، ولولا خوف الإطالة لذكرنا شواهد من القرآن الكريم من سيرة المخالفين للرسول (ص).

ولا تختص أزمة الوعي بأعداء الرسالة، بل تشمل أتباعها أيضاً، فمن يعيشوا ظرفاً تاريخياً معينا تختلط عليهم فيه الأوراق ويشتبه الحق عندهم بالباطل وتتراكم الفتن ويتصوروا الصواب في غير محله فيسلكوا طريقاً لا يتناسب وشأنهم، ويتمسكوا بأهداف مغشوشة، ويفكروا بأفكار غير أفكارهم. ويتحدثوا بمفاهيم تنفع العدو وتضرهم، ويشيعوا الفكر التبريري، ويأخذ الإسلام بالتدريج صبغة

أُموية تبرر الطغيان وتفضل السكوت عليه.

الاستعمار من خط العمالة إلى أزمة الوعي

اعتمد الاستعمار في بداية أمره النخب المتغربة كعملاء يعتمد عليهم في السيطرة علىٰ المستعمرات وإدارتها بعناصر محلية يتخذها كقناع لتمرير سيطرته عـليها. واستمرت هذه الطريقة طيلة القرن الماضي.

ويبدو أنّ الاستعمار في المرحلة الراهنة قد غير خطته وبدأ يعتمد علىٰ وسيلة جديدة، وهي أزمة الوعي، وذلك نظراً للمتغيرات التالية:ـ

١ ـ إنّ الغرب كان في المرحلة السابقة صاحب حضارة يتخذها كستار لتبرير سيطرته علىٰ العالم، وبعد أكثر من قرن من الاحتلال والسيطرة ونهب الثـروات فقدت هذه الحضارة جذوتها في النفوس، ولم تعد هناك شعارات جذابة يمكن خداع الشعوب بها كما كان الأمر في السابق، خاصة أنّ الإنسان الغربي نفسه لم يعد يعير أهمية لتلك الشعارات، وبدأ يبحث عن شعارات بديلة.

٢ ـ إنّ خط العمالة نجح في تحقيق بعض الأهداف الاستعمارية ولم يفلح في إنجاز المهمة الأساسية الموكلة إليه، المتمثلة بالقضاء علىٰ الحضارة الإسلامية وإفراغ العالم الإسلامي من محتواه التاريخي، الذي يمثل الهدف الأمريكي الأوّل في هذه المرحلة.

٣ ـ إنّ عمليات صناعة الرأي الجارية داخل العالم الغربي المتبناة هناك كأساس في إدارة الحكم والدولة باسم الديمقراطية قد تطورت وأُصبح بالإمكان تعميمها علىٰ المستعمرات وإدارتها بالوسيلة نفسها، مع إضافة عنصر جديد إليها هو أزمة الوعي.

فبأزمة الوعي داخل العالم الإسلامي، وفي كل بلد منه يمكن استنزافه من خلال إجراء عمليات النفاق علىٰ عدة محاور، الحكام والشعوب من جهة، والسنة والشيعة من جهة ثانية، وحكومات المسلمين مع بعضها من جهة ثالثة، والتيارات السياسية

والنخب الثقافية من جهة رابعة، بالنحو الذي يقود العالم الإسلامي نحو مزيد من التجزئة، وينشغل بعضه ببعض، وينسى الجميع عدوهم المشترك الذي يجري كل هذه العمليات ضدهم، ويفقدون روحية الدفاع، ويضيعون الهدف الخلاق، وتتسلل إليهم أهداف زائفة باطلة صورية، وتصبح الفرصة مهيئة للانقضاض علىٰ كل بلد مسلم أو فئة مسلمة أو تيار إسلامي معين في ظل فكر تبريري يبرر لباقي البلاد والفئات والتيارات الإسلامية السكوت والتفرج علىٰ ما يجري، وربما المشاركة في الجهد الأمريكي المعادي أيضاً.

وفي ظل هذه الحالة لا يجد الأمريكان فرقاً بين أن يتولى الحكم في البلد المسلم عميلاً تقليدياً لهم أو فئة ذات وعي متأزّم، وربما فضلوا هذه الفئة علىٰ ذلك العميل باعتبار أنّ الوقيعة مستقبلاً بالعميل تسقطه وحده، بينما الوقيعة بالفئات الإسلامية تؤدي إلى سقوط الأُمة وإرباكها في العمق، وإثبات عجز الإسلام في أن يكون شيئاً مهماً في حياة الإنسان المعاصر، وبذا فأزمة الوعي أخطر علىٰ الأُمة وأنفع للاستعمار من خط العمالة؛ لأنّ أزمة الوعي يمكن أن تؤدي إلى انهيار الأُمة وانتقالها من قوة إلى ضعف إلى أضعف وهكذا حتى تتلاشى وتضمحل، وما تحرزه أمريكا من تقدم علىٰ الساحة الإسلامية ناشئ بالدرجة الأساس من أزمة الوعي الحالية التي تفتك بالعالم الإسلامي، وليس ناشئاً من القوة الأمريكية نفسها. فالمغول الذين احتلوا العالم الإسلامي لم يحققوا ذلك؛ لأنهم يمثلون حضارة أفضل مما عند المسلمين، وإنما حققوا ذلك لأنّ المسلمين قد بلغوا غاية الضعف، فأصبح بإمكان قبائل متوحشة أن تهزمهم وتحتل بلادهم، والعالم الإسلامي ليس ضعيفاً إلى هذه الدرجة، ولكن أزمة الوعي الحالية تنذر بشرّ مستطير ينقلهم من ضعف إلى أضعف حتى يصبحوا لقمة سائغة يمكن إدارتها بأجهزة التحكم من بعد.

كيف قامت أمريكا بتأزيم الوعي في المنطقة؟

ذكرنا أنّ الوعي مقولة تتصل بالهدف، وأنّ أزمة الوعـي هـي أزمـة هـدف، وبالتالي فعملية تأزيم الوعي تتم بامتصاص الهدف من الساحة، والسـؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف تمكنت أمريكا من تأزيم الوعي في المنطقة؟.

هذا السؤال يجعلنا نعود إلى زمان ظهور أمريكا كقوة استعمارية في المنطقة، فبعد الحرب العالمية الثانية أدركت أمريكا أنّ المنطقة تتجه نحو القومية، و أنّ هذا الاتجاه ناشئ كرد فعل علىٰ وقوع المنطقة تحت الاستعمار البريطاني والفرنسي، والمصلحة الاستعمارية الأمريكية كانت تقتضي مسايرة هذا الهدف من أجل اجتذاب المنطقة وانتزاعها من الاستعمار الانجلو ـ فرنسي والحيلولة دون وقوعها في الفخ السوفيتي، فعمدت أمريكا إلى تدبير انقلاب ١٩٥٢ في مصر بقيادة الضباط الأحرار وتبني الحركة القومية في المنطقة كلها، وساعدت علىٰ إيصال الهدف القومي إلى ذروته، ثم عرضت هذا الهدف المتضخم المفتعل، وهذا الرمز الكبير إلى امتحان تاريخي بسيط يتمثل في حرب الأيام الستة في حزيران سنة ١٩٦٧ م. فاكتشف الناس في نكبة حزيران التاريخية مدى خواء هذا الهدف، وكان هدف أمريكا إسقاط الأُمة كلها من خلال عملية إسقاط تاريخية مدبرة لهدف أُريد له أن يكون مستولياً علىٰ وجدان الأُمة ومعبراً عن وجدانها بحيث إذا أُسقط في مرحلة تالية أُسقطت الأُمة من خلاله وتمكنت إسرائيل منها، وأصبحت حالة رخوة يمكن اختراقها من كل جهة.

فكانت تلك أول تجربة أمريكية في مجال امتصاص الهدف وتأزيم الوعي في المنطقة، إلّا أنّ الأُمة تجاوزت هذه الأزمة؛ لأنها اكتشفت الهدف الحقيقي لها وهو الإسلام. فبدأت إرهاصات الصحوة الإسلامية تعلن عن وليد إسلامي يصر علىٰ قيادة الساحة نحو الإسلام حتى ظهرت الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام

الخميني (رض). ولم يكن الإسلام هدفاً زائفاً حتى تقوم أمريكا بمسايرته كما فعلت مع القومية، وما كان بوسعها إلّا أن تقف بوجهه بجد وحزم، فحركت شبكة عملائها في الداخل والخارج ضدها، إلّا أنّ زوبعة الوعي الإسلامي الأصيل الذي أحدثته في المنطقة أسقط كل المؤامرات والتحديات في الداخل والخارج ولم يسمح لأمريكا بالمبادرة لتأزيم الوعي، حتى جاءت قضية سلمان رشدي المدبرة لتكون بداية لأزمة الوعي في المنطقة، فإنّ الإسلام كهدف يتجسد في وعي الناس في ثلاث مفردات هي القرآن والنبي(ص) وعلماء الدين، وقضية سلمان رشدي كانت مواجهة مع هذه المفردات الثلاث؛ لأنّ كتابه السيّئ الصيت شكك في القرآن الكريم وفي شخصية النبي (ص)، وحينما تصدى علماء الإسلام وعلىٰ رأسهم الإمام الخميني (رض) للمسألة ووقفت أوروبا وأمريكا خلف الرجل وكتابه أصبحت قضيته عنواناً مثيراً للجدل حول حقوق الإنسان في الإسلام، وبالتدريج بدأت تتبلور حركة فكرية تستهدف الحط من مكانة العلماء في المجتمع الإسلامي.

هذه كانت بداية الاتجاه الأمريكي نحو تأزيم الوعي في المنطقة، وبالتدريج بدأت تظهر أربعة أركان لأزمة الوعي في المنطقة، وهي:

١ ـ تملص أمريكا من عملائها والسعي لتثوير المنطقة بهدف تمزيق المنطقة بين معارض للحكومات القائمة ـ وإن أدّىٰ الأمر إلى مسايرة الأهداف الأمريكية ـ وبين معارض لأمريكا وإن أدّىٰ الأمر إلى تأييد الحكومات القائمة، بما يثير جدلاً عقيماً مغلقاً لا يمكن أن ينتهي إلى نتيجة إيجابية، والنتيجة الوحيدة هي أن يفقد الجمهور صوابه وأهدافه الحقيقية بين خيارين لا ندري أيهما أشد قبحاً وسواداً من الآخر.

٢ ـ ربط الشعوب بوعود أمريكية فارغة بالنحو الذي يسلب عنها أهدافها وروح الدفاع والمبادرة.

٣ ـ النفاق بين المسلمين بتقريب السنة تارة والانتصار لهم وبهم علىٰ الشيعة، وتقريب الشيعة والانتصار لهم وبهم علىٰ السنة، بنحو يجعل الطرفين يفقدان الهدف الإسلامي المشترك بينهما.

٤ ـ حكاية الإرهاب واتهام الإسلام والمسلمين بها بالنحو الذي جعل كل مسلم يتردد في سلوك طريق الإسلام المحمدي الأصيل خشية الاتهام بالإرهاب، ويفكر بإنتاج إسلامٍ جديد ينجو من هذه التهمة ويحظى برضا الأمريكان.

ركزت أمريكا علىٰ هذه الأركان الأربعة تركيزا شديداً كطريق ذهبي لامتصاص الهدف الإسلامي وإفراغ المنطقة من مضمونها الإسلامي الحقيقي وتأزيم الوعي، ولا زالت ماضية في هذا الاتجاه بكل إصرار ضمن ستراتيجية صراع الحضارات. خلاصة الأمر، أنّ عملية إسقاط الإسلام كهدف في حياة المسلمين المعاصرة تقتضي تحويل الإسلام إلى مفهوم غامض في حياة الناس بحيث لا يدري الناس من هو الإسلام؟ الطالبان، أم الحكومة السعودية، أم الجمهورية الإسلامية في إيران، أم مجلس الحكم الانتقالي تحت الاحتلال في العراق، أم حزب الله لبنان أم الإسلام الليبرالي الذي تتحدث عنه إذاعة لندن العربية، أم الإسلام الساكت الذي لا يهمه ما يحصل على الساحة؟ فكل هؤلاء يتحدثون عن الإسلام، على ما بينهم من تناقضات جدية، الأمر الذي يؤدي إلى تشرذم الإسلام والمسلمين وهو ما دعانا إلى تأليف هذا الكتاب لمكافحة هذا المفهوم الغامض المصطنع وبيان المفهوم الأصيل الواضح.

مظاهر أزمة الوعي

لأزمة الوعي جانب فاعلي وآخر تقبلي انفعالي. الجانب الفاعلي جزء من الستراتيجية الأمريكية، والجانب التقبلي الانفعالي تتحمل مسؤليته النخبة التي

تصاب بهذه الأزمة وتحاول أن تنقل هذا المرض إلى الجمهور، فالجمهور ضحية النخبة، والنخبة ضحية الاستعمار، ومعلوم أنّ الموقع الطليعي المتقدم للنخبة يقتضي منها أن تكون حالة محصنة بحيث تكون حصناً للأُمة ودرعاً يحمي البلاد من اختراقات الأجانب وتحديات الأعداء، فإذا أُصيبت بالاسترخاء ثم نقلت هذه الحالة إلى الجمهور فهذا يعني أنها قد أخلّت بالمسؤولية التأريخية، ولم تكن مؤهّلة للتعامل بكفاءة مع اللحظة التاريخية التي تجتازها الأُمة.

وتبرز أزمة الوعي من خلال عدة مظاهر يجمعها إطار واحد هو التقبل للستراتيجية الأمريكية بمرتكزاتها وأُسسها المذكورة، والانسجام مع الأركان الأربعة المذكورة لأزمة الوعي، باعتبار أنّ تلك الأركان والمرتكزات والأُسس تمثل الوجه الفاعلي، والمظاهر تمثل الوجه التقبلي الانفعالي لها. وهي: ـ

١ ـ الفكر التبريري.

٢ ـ الروح الانهزامية.

٣ ـ تعليق الامال على الأجنبي.

٤ ـ تجاهل الذات وفقدان الثقة بالنفس.

٥ ـ رفض الخطاب النهضوي التغييري والاتجاه نحو السكون وترك الأُمور تسير كيفما اتفق.

٦ ـ التثقيف على العجز وعدم القدرة وعدم الاستطاعة.

٧ ـ البحث عن أعذار لإسقاط الواجب التاريخي النهضوي، والتفريط بالقوة الممكنة كوسيلة لإثبات العجز.

٨ ـ الموقف الانفعالي والتفكير بروحية ردود الأفعال وفقدان النظرة الستراتيجية.

٩ ـ فقدان الإرادة والعزم والمبادرة والإقدام.

١٠ ـ التعويل على الحسابات والمعادلات والروح التساومية.

١١ ـ حذف الجمهور وإعطاؤه دوراً هامشياً بحيث يكون تابعاً أعمى لمن يحتكر الساحة.

١٢ ـ التعامل مع قضايا الأُمة بسفاهة بعيداً عن الخيارات الحقيقية التي تضمن للأُمة أهدافها ومستقبلها ومصيرها.

١٣ ـ عدم الحساسية تجاه الاستكبار العالمي وخططه الرامية إلى تمزيق المسلمين وإسقاط الإسلام.

١٤ ـ ترديد المقولات الاستكبارية. وترك المقولات الوطـنية والإسـلامية الأصيلة.

١٥ ـ التفكيك بين العملاء والاستكبار، وتركيز الهجوم على العملاء ومواجهة الاستكبار الذي هو أصل المشكلة للمسلمين وعموم البشرية بالسكوت.

١٦ ـ الاستغراق في الحس الفردي والفئوي والفرار من الإحساس بـوحدة الأُمة.

١٧ ـ التقاطع مع التجارب الثورية التحررية الجماهيرية، وتجميع الشبهات والإشكالات عليها.

١٨ ـ اتخاذ الأفراد والجماعات مقياساً للصواب والخطأ بدلاً عن الحق والهدف المقدس، وتحويل الوعي من وعي هادف إلى وعي شخصاني ينقسم فيه الناس إلى مؤيدين ومعارضين لشخص معين وجماعة معينة بدلاً عن الوعي الهادف الذي يجمع الناس كتلة واحدة خلف هدف مقدس معين، وباختصار إنّ أزمة الوعي هي التي تجعل الإنسان يفضل البقاء بلا علاج وعدم إجراء عملية جراحية ضرورية في بدنه، مهما كانت النتائج المترتبة على هذا الموقف، فيتقاطع نتيجة لذلك مع الطبيب والمستشفى والدواء ويتصورها أُموراً ضده، ويبقى يتعايش مع غدة سرطانية في داخله وهو يتصورها شيئاً مفيداً له.

خيارات المسلمين في المواجهة الراهنة

من الناحية النظرية يمكن أن نفترض ثلاثة خيارات مطروحة أمام المسلمين في المواجهة الراهنة مع الخطر الأمريكي، وهي: ـ

١ ـ التسليم.

٢ ـ المواجهة السياسية فقط.

٣ ـ المواجهة الشاملة.

إلّا أننا ومن ناحية عملية وميدانية نعتقد أنّ الخيار الثاني لا يختلف عن الأوّل بشيء عملي حقيقي، وبالتالي فهما من الناحية العملية خياران متقاربان يمكن جمعهما في خيار واحد، وذلك للأسباب التالية:

١ ـ أنّ المواجهة الأمريكية لنا ليست مواجهة سياسية حتى نقابلها بمثلها، وإنما هي من حيث الأصل مواجهة تستند إلى تهديد عسكري، فكل من لا يستجيب للمطالب الأمريكية يجد نفسه في مواجهة عسكرية أمريكية طاحنة لا تتورع فيها أمريكا حتى عن الأسلحة المحرمة دولياً. أو مواجهة استخبارات سرية تطارده حيثما كان فتقتله ثم تطالب بالثأر له!!!.

٢ ـ إنّ الخيارات الأمريكية في المواجهة السياسية أكبر من خياراتنا، فالمؤسسات الدولية تخضع للهيمنة الأمريكية، وكذا المعادلات الدولية والإقليمية، وحتى المعادلات الداخلية ضمن بلد واحد تعاني من اختراقات أمريكية، الأمر الذي يجعل المواجهة السياسية مع أمريكا ذات أثر محدود لا يتجاوز تلبية المطالب الشكلية.

٣ـ إنّ الاكتفاء بالمواجهة السياسية يعني الاحتماء بالمعادلة الدولية، وهي معادلة لا تقوم على حماية الضعيف حتى نحتمي بها، وما يحصل فيها من الاختلاف أنما هو اختلاف بين الذئاب حول الغنائم، وقد أثبتت التجارب التاريخية أنّ أطراف المعادلة الدولية يختلفون في حدود معينة ولن يصل الاختلاف بينهم حداً يخل بموقعهم الاستكباري على الساحة الدولية، وبالتالي فالحمل الوديع لا يكسب شيئاً من هذه المعادلة، نعم يمكن لطرف أن يستفيد من الاختلافات بين أطراف المعادلة الدولية إذا كان هذا الطرف قوياً بحيث يستطيع أن يفرض خياراته ويعمق الخلاف بين هذه الأطراف، والطرف القوي هو الذي يستند إلى قوّة ثورية شعبية كافية، أو قوّة عسكرية كافية.

٤ - إنّ الاكتفاء بالمواجهة السياسية يعني السماح لأمريكا في أن تفتخر بأنها قد أعطت الديمقراطية للآخرين وسمحت لهم في أن يقولوا ما يشاؤون، فهي من جهة لا تعطي شيئاً بهذه المواجهة، ومن جهة ثانية تحاول أن تستثمرها سياسياً لصالحها.

٥ - إنّ المواجهة السياسية تعني الدخول إلى المعركة مع العدو من دون سلاح الأُمة وانفراد الاستعمار بالنخبة التي تعجز لوحدها مهما كانت عن تحقيق الهدف، وفي أكثر الحالات تقع ضحية لألاعيب الاستعمار من ترهيب وترغيب وتقتيل.

٦ - إنّ ما نبحث عنه هو الهدف وهو الاستقلال المضمون والمصالح الوطنية والإسلامية المضمونة، والوسيلة الصحيحة هي التي تضمن الهدف بلا أدنى نقيصة، ومشكلتنا أننا نأنس بالألفاظ ونترك المعاني، ونتحدث عن مقاومة سياسية دون أن ننظر إلى الهدف هل سيتحقق أم لا؟ فالمسألة الأساسية هي أن نصل إلى الهدف لا أن نردد عبارات وألفاظاً، والتجارب التاريخية الحديثة أثبتت أنّ المواجهة السياسية لوحدها مواجهة لفظية، صورية، والاستعمار لا يخرج من بلد بالنصائح الوجدانية والمطالبات السلمية، وإنما يخرج حينما يرى دماء جنوده تسيل في الشارع ويرى

عدد قتلاه أكبر من المصالح التي يجنيها من الاحتلال.

ولم يحدث في التاريخ أن أجمعت البشرية علىٰ رفض شيء كما رفضت احتلال أمريكا للعراق، وخرجت مظاهرات مليونية حتى في أمريكا ضد هذا النهج، لكن الديكتاتورية الرأسمالية الحاكمة في أمريكا من وراء ستار زائف اسمه الديمقراطية لم تجد نفسها محرجة من كل ذلك، بل تبجحت بأنها مسرورة لهذه المظاهر الديمقراطية؛ لأنّ المعنى الحقيقي للديمقراطية ليس هو حكم الأكثرية للأقلية وإنما هو أن تعرف الأقلية الرأسمالية المتسلطة علىٰ الأُمور كيف تستوعب التحديات وكيف تـحقق صناعة الرأي وكيف تسحق الأكثرية الناقمة وكيف تتلاعب بالألفاظ وتدعي في الوقت نفسه أنها جاءت من أجل الديمقراطية رغم الإجماع البشري المـعارض ورغم أنّ الاحتلال والديمقراطية نقيضان لا يجتمعان أبداً!!

لقد جرت سيرة العقلاء علىٰ أن يسيروا علىٰ قدمين، وأن لا يثقوا بمسيرة القدم الواحدة، وهذه هي الدول والأحزاب والحركات تحاور وتناور في الخط السياسي ولها جيوش وبرامج تسليحية في الخط القتالي، وتجمع بين هذين الخطين في ظروف السلم فضلاً عن ظرف الحرب الذي يعيشه العالم الإسلامي الان بتمام معنى الكلمة.

إذن فالخيارات الحقيقية هي خياران فقط، فإمّا التسليم وإمّا المواجهة الشاملة سياسياً وإعلامياً وجماهيرياً في الداخل والخارج ومن قبل قطاعات الأُمة كافة، النخبة والجمهور معاً.

مبررات خيار التسليم

من الممكن تقرير مبررات خيار التسليم علىٰ الوجه التالي:

١ - إنّ الخطر الأمريكي خطر مطبق علىٰ الجميع، حتى علىٰ الدول الكبرى فضلاً عن شعوب العالم الثالث ودوله الضعيفة.

٢ - ان المقاومة غير مجدية؛ لأنّ هدفها الاستراتيجي المتمثل بالاستقلال التام الناجز أمر غير ممكن، فإذا كان مجلس الأمن وهيئة الأُمم المتحدة وسائر المؤسسات الدولية قد تحولت إلى مؤسسات تابعة لأمريكا، فمعنى الحديث عن مقاومة يقوم بها شعب ضعيف هنا ودولة ضعيفة هناك هو مزيد من الدمار، وإذا حققت المقاومة في مقطع معين انتصاراً وإنجازاً فهذا لا يعني أنّ المسألة قد انتهت، وستبقى تلك المقاومة هدفاً ستراتيجياً للأمريكان في الفترات اللاحقة بالنحو الذي يؤدي إلى شعب متعب مُرهق لا يملك بنية تحتية كافية لإدارة شؤون الحياة اليومية إلى أمد لا نهاية منظورة له.

٣ - والنتيجة من المقدمتين السابقتين هي التسليم ومجاراة الأمريكان في هذه المرحلة لاستنقاذ ما يمكن استنقاذه وانتظار فرصة تاريخية لاحقة تصبح فيها المقاومة أمراً مجدياً ومفيداً.

وربما أكّد أنصار هذا الخيار رأيهم بأنّ الخطر الأمريكي يتحرك انطلاقاً من آلية ميدانية ذات مركز قيادي محدّد، بينما المقاومة تفتقد إلى تلك الآلية، إذ لا يوجد مركز واحد يمكنه أن ينسق عملية المقاومة ويديرها، فالمقاومة أشبه ما تكون بخيار نظري، ثم ان المقاومة تعني إبقاء وتأييد الحكومات العميلة الديكتاتورية التي يمكننا أن نتخلص منها في ظل الظرف الأمريكي الراهن.

وإذا كان لابد لنا من أن نخضع لأحد الشرّين أمريكا أو عملائها فما معنى المقاومة إذن؟ وما الفرق بين دولة تديرها أمريكا مباشرة وأُخرى تديرها عبر عملائها؟ ثم إنّ الاحتلال والاستعمار ظاهرة عفى عليها الزمان وليس بوسع الأمريكان أن يمارسوا هذا السلوك من جديد إلّا لفترة محدودة، وسيرحلون بسرعة بفعل عوامل دولية لا يمكنهم مواجهتها بشكل مستمر.

مبررات خيار الثورة والمقاومة الشاملة

الثورة مقولة تنطلق من قاعدة أخلاقية عقائدية لابد لنا من أن نأخذها بنظر الاعتبار قبل أن نأتي إلى الناحية السياسية الميدانية، وهي أنّ خيار التسليم يصطدم مع فلسفة وجود الإنسان وظهور الإسلام وانبثاق الحركة الإسلامية علىٰ الساحة الدولية، فإنّ الإنسان مخلوق وجد ليؤدي دوره في ميدان الحياة لصالح الحق والخير والعدل وضد جبهة الباطل والشر والظلم، وهو مكلف من قبل الله تعالى بالمسير في هذا الخط دائماً سواء كانت جبهة الحق في ضعف أو قوّة وسواء كانت الغلبة لهذا الطرف أو ذاك، وليس مسموحاً له في ظرف من الظروف أن يسكت عن الحق في مكان ما أو زمان ما أو قضية ما، مهما كانت بعيدة أو قريبة منه. وهو مكلف بأداء ما عليه، وليس مكلفاً بأن يضمن النتيجة ويحرز الانتصار.

والإسلام هو الآخر جاء لمكافحة الشر والظلم والباطل وإقرار قيم الحق والخير والعدل. ولا يمكننا أن نتصور الإسلام في موقف من المواقف ساكتاً عن الحق وراضياً بالظلم والباطل.

ومن هنا كان ظهور الحركة الإسلامية تعبيراً عن نشاط مزدوج انبعث من إنسان أدرك دوره الأخلاقي علىٰ الساحة البشرية، ورسالة سماوية جاءت لتنادي بالعدل والخير والحق وتكون ظهيراً معنوياً وعقائدياً وسياسياً للسائرين علىٰ هذا الدرب، وبالتالي فخيار التسليم يمثل حالة النقض والنفي لفلسفة وجود الإنسان وفلسفة ظهور الإسلام وفلسفة انبعاث الحركة الإسلامية، إذ ليس للإسلام إلّا معنى واحد هو التسليم للحق، والتسليم للباطل والشر يعني انتفاء الإسلام.

بعد هذه المقدمة التي لا يرقى إليها شك عند أحد من العقلاء عامة والمسلمين خاصة نأتي وننظر في الجانب الميداني سنرى فيه الحالة التي جرى وصفها في خيار

التسليم لنسجل النقاط التالية:

١ - إنّ علىٰ الإنسان المسلم أن يكون جزءاً من حركة الحق علىٰ الأرض وجزءاً من جبهة الرفض للباطل، بالمقدار الممكن، سواء أطبق الباطل علىٰ الأرض أم لا؛ لأنّ مساندة الحق ورفض الباطل أمر واجب عقلاً وشرعاً سواء وقع الاحتلال والعدوان علينا أو علىٰ غيرنا، ولأنّ سنة الصراع بين الحق والباطل سنة جارية مع الزمان وفي كل مكان ولو زالت الطغمة الأمريكية الحالية لظهر الباطل في نقطة أُخرى وسيجب الكفاح ضدها أيضاً، وهذه هي سنة الابتلاء والامتحان الإلهي للبشرية.

٢ - إنّ علىٰ الإنسان المسلم أن يتمسك بالمقدمة العقائدية الأخلاقية التي مرّ ذكرها، ويتخذها منظاراً يطل منها علىٰ الواقع الميداني ولا ينظر إلى الواقع الميداني بمعزل عنها؛ لأنه إذا فعل ذلك أخذ بما لهذا الواقع من هالة، ووقع تحت تأثيره، وأحسّ بالانهيار النفسي أمامه، وجعل هذا الانهيار أساساً لتصورات وأفكار جديدة تتسم بالتشاؤم والسلبية واليأس والانهزامية والروح التبريرية، ويتصور أنّ التسليم هو الخيار الواقعي والعملي، وان المقاومة خيار نظري مثالي. ومنشأ ذلك يعود إلى أنه نظر إلى الواقع بمعزل عن النظرة العقائدية التي يجب عليه أن يتحلى بها بحكم إنسانيته أوّلاً، وبحكم انتمائه إلى الإسلام ثانياً. وغفل عن أنّ النظرة التي يحتاجها الإنسان في الحياة هي التي تعينه علىٰ تصحيح الواقع وإنقاذه وتقويمه، وتجعله قادراً من الناحية المعنوية علىٰ أن ينهض بأعباء هذه المهمة، وهي يجب أن تكون أسمى من الواقع، وما قيمة النظرة التي تجاري الواقع وتبرر له الفساد والطغيان، وتنظر للسكوت عنه؟ وما الحكمة من بعثة الأنبياء وإنزال الكتب السماوية إذن؟ وهكذا فما يفتتن به الكثير من الناس بنظرة يسمونها واقعية ليست بواقعية؛ لأنّ الواقع الذي يستحق الاعتراف به هو ما كان واقعاً فعلاً، أما ما كان نتيجة

لتطاول طرف واستسلام طرف آخر فهو ليس واقعاً يستحق الاعتراف، بل هو واقع زائف يتوجب العزم على تغييره وإزالته، وإلّا وجب حذف مقولة الرفض والتغيير والمقاومة والنهوض، وإلغاء سنة التكليف والابتلاء، وإبطال قانون العقاب والثواب.

٣ ـ والقرآن الكريم يرفض الاعتراف بطغيان القوي وضعف الضعيف، ولذا يطلق علىٰ الطغيان تسمية الاستكبار، وعلى حالة التقبل له اسم الاستضعاف، فهناك في الطرفين حالة استفعال، طرف يصطنع لنفسه حالة الكبر وهو في الحقيقة ليس أكبر من غيره، ويحاول أن يفرض علىٰ غيره أن يكون ضعيفاً، وهو في الحقيقة ليس ضعيفاً، وبالتالي فالعدوان ليس ناشئاً من قوة المعتدي بقدر ما هو ناشئ من التصديق باستكبار المستكبر وضعف المستضعف، فهناك ادعاءان كاذبان اجتمعا وأدّىٰ التصديق بهما إلى سلسلة تراجعات من قبل المستضعف، وسلسلة من حالات التقدم والعدوان من قبل المستكبر، مما أدّىٰ في النتيجة إلى إطباق الشر وانسحاق المستضعفين، بمعنى أنّ الضعف فرضية مرفوضة، وأنّ الله لم يخلق قوياً يعتدي علىٰ ضعيف، وإنما خلق إنسانين متساويين سلك أحدهما طريقاً جعله قوياً، وسلك الآخر طريقا آخر جعله ضعيفاً، ولذا كانت الأيام متداولة بين الناس.

فإذا التفت الضعيف إلى خطاه وغيّر مساره صار في المرحلة التالية قوياً، وإذا مال القوي إلى اللامبالاة في أمره صار في المرحلة التالية ضعيفاً.

٤ ـ والنتيجة العملية المستفادة من ذلك هي أن لا يعزم الضعيف علىٰ الاستسلام؛ لأنّ ذلك يؤدي إلى مزيد من الضعف، بل عليه أن يعزم علىٰ أن يترك طريق الضعف ويبحث عن طريق القوة، القوة الأخلاقية بالتدريب علىٰ الشجاعة، والقوة العقائدية بالإيمان بالله وأنّ النصر يأتي منه لعباده المؤمنين، والقوة الاجتماعية والسياسية من خلال طرح استراتيجية الوحدة الإسلامية مع المشاركين له في

العقيدة، واستراتيجية الوحدة الإنسانية مع المشاركين له في المظلومية، و هذا معنى أمر القرآن الكريم للمؤمنين بإعداد القوة.

٥ ـ وبذا يتضح الجواب علىٰ مبررات خيار التسليم، فليس المقصود بالمقاومة عملاً انتحارياً يقضي علىٰ الضعيف ويؤدي إلى انتصار القوي، وإنما المقصود أن ينتبه الضعيف ويستيقظ من غفلته ويكتشف أخطاءه التي أدّت إلى ما حصل، وأن يسلك طريقاً جديداً يؤدي إلى استعادة القوة التي فقدها وإزالة قوة العدو التي أدت إلى طغيانه. وأن يتحلى بثقة كافية بالنفس وبالله بأنّه سيصل إلى النتيجة حتماً عاجلاً أم آجلاً، وأن لا يصدق بمقولة: أنّ أمريكا لا تقهر ولا ينفلت من قبضتها أحد، وأنّ يؤمن بأنّ استراتيجية ما إذا أحكمت واتبعت بعزم وصدق وإرادة قوية مع استعداد للتضحية من أجل الأهداف المقدسة يمكنها أن تؤدي إلى انتصار فئة قليلة العدد والعدة علىٰ فئة كبيرة في العدد والعدة، وهذا هو الطريق المعهود في التاريخ لأهل الحق، وكل الحضارات الكبيرة والدول القوية في التاريخ تبدأ بهذه الكيفية، وتاريخ صدر الإسلام شاهد علىٰ ذلك.

أما حكاية ان المقاومة إذا انتصرت في مقطع معين فسوف لن تنتهي المسألة، فجوابها: أنّ الصراع بين الحق والباطل مستمر منذ الأزل وسيستمر إلى الأبد، وعلىٰ الإنسان أن يكون مستعداً للدفاع عن نفسه باستمرار، فالأمر لا يختص بالقضية الراهنة بين الإسلام وأمريكا.

وأما القول بأنّ الستراتيجية الأمريكية تنطلق من آلية ميدانية ذات مركز واحد بنحو يجعلها قادرة علىٰ إنجاز ما تريد بخلاف مشروع المقاومة، فجوابها: إنّ الله سبحانه لم يجمع نقاط القوة كلها لأحد، ولم يجمع نقاط الضعف كلها في آخر، وما من قوي إلّا وفيه نقاط ضعف قاتلة يجب البحث عنها واستثمارها، وما من ضعيف إلّا وفيه نقاط قوة حاسمة يجب البحث عنها والاستفادة منها، فالرأي العام العالمي

إلى جانب المقاومة بما في ذلك الشعب الأمريكي نفسه، والجيش الأمريكي يظهر الطاعة للقيادة الرأسمالية المستكبرة حينما تكون هناك معركة مضمونة لا تنطوي على خسائر بشرية ومادية، وحينما تكون هناك خسائر ولو قليلة سيفقد الجيش تماسكه، وسيظهر الخلل والارتباك في الجبهة السياسية، وسيتبرأ أركانها بعضهم من البعض الآخر، والطرف الذي يعتمد على القوة المادية فقط لا يملك إلّا قوة ظاهرية، وأما مسألة الحكومات العملية التي لا يختلف أمرها عن الاحتلال فجوابها: إننا إذا كنا متحيرين بين شرين فالصحيح هو أن نرفضهما معاً، لئلا نكون كرة يتقاذفها الشيطان وعملاؤه بين أقدامهما، وحينما تعلن أمريكا براءتها من عملائها لا تريد أن ترفع بذلك شراً عن المسلمين وإنما تريد إيقاعهم بما هو أشر، وهو تجزئة البلدان الإسلامية وإثارة القتال والنزاعات الشديدة بينها في سياق أُطروحة العولمة واستراتيجية صراع الحضارات، فليست هناك فرصة قابلة للاستثمار، وليس هناك خلاصٌ يمكن الحصول عليه إذا ما تسامحنا مع أمريكا، ولا زالت المسألة التي تواجهنا هي مسألة الطغيان الأمريكي الذي لا يقبل بأقلّ من استعباد الشعوب والتحكم بمصائرها بالنحو الذي يحلو له، وحينما نصل إلى مأزق تاريخي من قبيل ما نحن فيه من التخيير بين الاحتلال والاستبداد فهذا يكشف عن خلل في المسيرة الإسلامية أدّىٰ إلى هذا المأزق، والخلل هو غياب الجمهور عن الساحة، وعجز النخبة عن استحضاره فيها، بنحو أتاح للطاغوت أن يستفرد بهذه النخبة ويظهر نفسه كمعبر عن الجمهور الغائب، ويتحول إلى ديكتاتور يلغي الشعب.

وإذا كانت أمريكا عاجزة عن الاستمرار في الاحتلال فترة طويلة فهذه نقطة ضعف كبيرة يجب الاستفادة منها في الانتصار عليها وطرد الاحتلال بالقوة؛ لأنّ هذا الأُسلوب يفضح العدو، ويعبئ الأُمة ضده، ولا يبقي له باقية، بخلاف ما لو خرج باختياره، فإنه سيكون خروجاً مشرفاً له، ومغرياً للكثيرين من ضعاف النفوس

بإقامة الروابط غير المشرفة معه، وسيخرج بشروط تساوي في مضمونها استمرار الاحتلال، كإقامة القواعد العسكرية أو المعاهدات العسكرية المهينة، فينبغي عدم الاغترار بمثل هذه الأفكار، صحيح أنّ المعادلة الدولية تشكل عامل ضغط لصالحنا، ولكن هذا العامل لا يمكننا الانتفاع منه كثيراً والتعويل عليه كأساس في حلّ مشكلتنا مع الأمريكان وذلك للأسباب التالية:

١ ـ إنّ الطغيان الأمريكي بلغ أوجَهُ بحيث لم يَعُد الأمريكان يعتنون كثيراً بشيء اسمه المعادلة الدولية، ويرون ضرورة أن يخضع الصغار والكبار لسلطتهم، وهذه حقيقة أصبحت واضحة وغنية عن البرهنة والإثبات.

٢ ـ إنّ أطراف المعادلة الدولية لا يفكرون بنصرة الضعيف وإنما يفكرون بحصصهم التي يجب أن يعترف بها الذئب الكبير للذئاب الصغيرة من الفريسة.

٣ ـ إنّ الاستفادة من المعادلة الدولية أمر يحققه طرف قوي ودولة ذات حضور ميداني واسع، بحيث يستطيع أن يفرض موقفه علىٰ أطراف هذه المعادلة، كما فعل ذلك الإمام الخميني (رض) حينما استفاد من النزاع بين المعسكرين الشرقي والغربي من تحقيق الانتصار للثورة الإسلامية انطلاقاً من ثورة شعبية جذرية واسعة، أما الحمل الوديع فلا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك، بل إنه سرعان ما يتحول إلى مهزلة دولية.

إن خيار التسليم هو خيار الهزيمة، ولا يمكن أن تحظى الهزيمة بحجج منطقية، وإنما هو وليد أزمة الوعي والنزعة الفردية القاتلة.

المواجهة المقدسة

إنّ الاستكبار الأمريكي أكبر خطر يواجه البشرية أجمع، بما في ذلك الشعب الأمريكي نفسه، وهو غدة سرطانية تهدد حياة المسلمين بالفناء، ومواجهة هذا

الخطر تعد مواجهة مقدسة مصيرية بالنسبة للإسلام والمسلمين وعموم البشرية.

إنّ مصلحة البشرية متوقفة علىٰ قيادة الإسلام للمواجهة الحالية المقدسة، ومصلحة الإسلام تتطلب التضامن مع البشرية في مواجهة الخطر المشترك، والبشرية الحاضرة عطشى لمن يرفع شعار العدالة ضد الظلم الرأسمالي، والإسلام هو العنوان الوحيد للعدالة علىٰ وجه الأرض، والبشرية الحاضرة في أشوق حالاتها إلى الإسلام، وهذا الارتباط المصيري الستراتيجي الجبهوي بين الإسلام والبشرية أكبر ضمانة لانتصار العدالة علىٰ الاستكبار الأمريكي. فلتتلاحم كل الجهود وتتلاحم كل الطاقات في العالم ضد القوى الرأسمالية التي تحولت إلى أكبر خطر يواجه البشرية اليوم. ومعالم المواجهة المقدسة اليوم تتمثل بـ:

١ ـ بلوغ العدو أعلى درجات الوضوح، فأمريكا مشروع صريح وعلني لاستعمار البشرية وضرب الإسلام وظلم المستضعفين، والاستهزاء بالشعب الأمريكي الذي أدرك أكثر من أي زمن مضى خطر قيادته عليهم، وكل ذلك يعين علىٰ تعبئة الرأي العالم العالمي ضد الاستكبار الأمريكي، وبالتالي الانتصار عليه.

٢ ـ احتياج البشرية إلى من يرفع شعار العدالة ضد الاستكبار الأمريكي، وهو منحصر في الإسلام الذي بدأت البشرية تلتف حوله وتظهر الحنين له بشكل خفي تارة وصريح تارة أُخرى.

٣ ـ إصرار أمريكا علىٰ مواجهة وتصفية وتدجين الصحوة الإسلامية المعاصرة وإلصاق تهمة الإرهاب بها من أجل إقناع البشرية بالانصراف عن الإسلام والتصديق بالمقولات الاستكبارية.

٤ ـ إصرار أمريكا علىٰ صرف المسلمين عن قيادة المواجهة المقدسة من خلال إشغالهم بفتن واضطرابات داخلية مستمرة تحت شعار الديمقراطية، أي إشغالهم بمواجهات جانبية داخلية تؤدي إلى استنزاف المسلمين من جهة والاصطفاف مع

أمريكا بدلاً عن مواجهتها من جهة ثانية، وهي مواجهات خاسرة من جهة ثالثة، لأنّ العميل إذا سقط قام عدة عملاء بدلاً عنه، بينما إذا سقطت أمريكا سقط عملاؤها معها، ولأنّ المعركة مع العميل تعني في الحقيقة معركة عميل مع عميل آخر، وبالتالي فهي معركة خيانية، ولأجل ذلك كله فالمعركة المقدسة الوحيدة في هذا الزمان تتمثل بالمواجهة مع الاستكبار الأمريكي، وأقدس حلم وهدف يحمله المسلم في هذا الزمان هو إجهاض المشروع الاستكباري الأمريكي، وما عداه فتن باطلة ومعارك خيانية، وإذا كان لحياة الإنسان مغزى ومعنى، فمعنى حياة الإنسان هو أن ينخرط في معركة مقدسة ذات أهداف مقدسة ويتجنب الفتن والمعارك الخيانية.

معالم الستراتيجية الإسلامية

بعد اتضاح فساد خيار التسليم نأتي لندرس خيار المقاومة، ونوضح ان المقاومة ليست دخولاً في المجهول، وليست خياراً ارتجالياً ولا موقفاً انفعالياً عاطفياً، بل هي طريق مدروس لا يتم إلّا في ضوء استراتيجية شاملة ومتكاملة، نأتي علىٰ بيانها في سياق الفقرات التالية:

١ ـ ضرورة التمسك بنظرة استراتيجية

إنّ بداية النهج الصحيح هو الانطلاق من نظرة استراتيجية تجعلنا ندرك حقيقة الأُمور وجوهرها العميق الكامن فيها، وترك النظرة الموضعية الضيقة التي تخدعنا وتوقعنا في سلسلة أخطاء تنتهي بنا إلى الهاوية ونصبح من **﴿الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾**(١) والذين **﴿إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا انما نحن مصلحون﴾**(٢)، والذين يعتبرون أنفسهم حلماء ويرون غيرهم سفهاء والحقيقة **﴿إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾**(٣)، مشكلة هؤلاء أنهم ينظرون نظرة خاطئة ويتبعون حسابات خاطئة ويحسبون أنهم يتسلقون الكمال ويتجهون نحو الصواب، فيقعون في جهل مركب ويثيرون جدالات عقيمة تبدأ ولا تنتهي. وهذه الإشكالية تأتي في القضايا الإنسانية كلها، العقائدية والسياسية والاجتماعية معاً.

---

(١) الكهف: ١٠٣.
(٢) البقرة: ١١.
(٣) البقرة: ١٢.

إنّ الذين ينظرون إلى الإسلام من زاوية ما هم فيه من شهوات ومصالح وأهواء ورغبات في أن يصلوا إلى ما تشتهيه لهم أنفسهم يرون هذا الدين خياراً مظلماً، والذين ينظرون إلى المقاومة نظرة موضعية فردية يرونها خسارة وانتحاراً، ويدافعون عن هذه النتيجة التي توصلوا إليها كما يدافع المؤمن عن إيمانه، والمشكلة تعود إلى النظارة الخاطئة التي تلبسوا بها وجعلتهم يرون الدنيا بلون أحمر أو أسود فيتقاطعون مع الحقيقة ويصرون على هذا التقاطع وهم لا يعلمون أنهم في جهل ونظرة خاطئة، النظرة الموضعية الفردية تجعل الإنسان يعتقد أنه فرد وأنه عاجز عن أن يفعل شيئاً في مواجهة الخطر الأمريكي، وإذا سرت هذه النظرة في مليار إنسان تحولوا إلى مقبرة عظيمة وإلى قطيع من الأغنام يملأ الفيافي، لكنه عاجز أن يفعل شيئاً أمام ذئب واحد، والخطر في هذه الحالة لم يأت من الذئب وإنما جاء من النظرة الموضعية الفردية الخاطئة التي حولت مليار إنسان إلى هذا المستوى من الضعف، والنظرة الصحيحة هي النظرة الستراتيجية التي تقول للإنسان: أنت لست فرداً، أنت جزء من كل، وحينئذ فالموقف الصحيح إزاء الخطر الأمريكي هو الذي تتوصل إليه بعد ما تدرس الموقف الذي يجب على الكل أن يتخذه وأن تؤدي الحصة التي عليك من هذا الموقف سواءً عمل الآخرون بما عليهم أم لا.

وهذه النظرة إذا سرت ستحيي أهل القبور وسيتحول الضعف إلى قوة وتمتص روح الهزيمة من الأُمة وتتضاعف الشجاعة فيها وستجد الناس يتسابقون على الشهادة في سبيل الله تعالى. والإنسان الذي كان في النظرة الأُولى يرى نفسه لا شيء سيجدها في ظل النظرة الثانية شيئاً عظيماً يغير مجرى التاريخ.

وكلما تعاظم الكل الذي ينتمي الإنسان اليه تعملق في داخله شعور خلاّق بالقوة، وليس هناك في الأرض كلٌّ ينتمي الإنسان إليه أعظم من الكل الذي ينتمي إليه الإنسان المسلم، إنه ينتمي إلى أُمة سماوية مقدسة تحمل رسالة إنقاذ إلهي إلى

البشرية وتدافع عن المظلومين والمضطهدين في العالم في وجه الطواغيت، وهي ليست نقيضاً لأُمة من الأمم ولا لشعب من الشعوب، وإنما هي النقيض الأخلاقي والعقائدي لحفنة الطواغيت والجبابرة الذين يريدون قهر البشرية واستعباد الناس باسم الديمقراطية.

وهذا الكلام يفهمه علىٰ وجهه السعداء بالنظرة الثانية الستراتيجية، بينما يراه ضحايا النظرة الفردية الموضعية شعارات فارغة. فالمسألة الأساسية في الستراتيجية الإسلامية هي اشاعة النظرة الستراتيجية والتغلب علىٰ النظرة الفردية الموضعية التي توقع الإنسان المسلم في هوة من الحسابات والمفاهيم والأفكار الخاطئة وتشيع الضعف في المسلمين وتحولهم إلى مجموعة كبيرة من الثكالى اللاتي يحسّن العويل والبكاء ولا يحسّن صنع الانتصار.

وأوّل بركات النظرة الستراتيجية أنّها تجعلنا نشعر بأن الضعف ليس قضاءً ولا قدراً، وأنّ المواجهة والانتصار أمر ممكن، ومسؤولية هذه المواجهة تقع علىٰ عاتق الطواغيت والجبابرة الذين اختاروا طريق صراع الحضارات وتركوا نداء حوار الحضارات الذي تبنته الأُمة الإسلامية والبشرية جمعاء.

والشيء المهم أن يتجه الفرد المسلم في الاتجاه الصحيح، ويدرك وظيفته الطبيعية ومسؤوليته التأريخية في هذا الزمان سياسياً وعقائدياً وثقافياً واجتماعياً، بغض النظر عن سائر الأفراد، ويدرك دوره المطلوب إدراكاً صحيحاً، والإدراك الصحيح لا يتم إلّا في إطار رؤية استراتيجية شاملة للموقف، والذين ينخرطون في خيار التسليم هم ضحايا الرؤية الموضعية الفردية الخاطئة، ومن يتحلى برؤية ستراتيجية يفهم استراتيجية العدو، ومن يفقدها يتصور خطأ أنّ العدو يتخبط مثله. وبالتالي فالرؤية الستراتيجية تعين علىٰ اكتشاف حقيقة العدو، والنظرة الستراتيجية تقتضي أن تُقابل كل خطوة أمريكية بخطوة إسلامية مضادة، تُقابل العولمة بالعالمية

الإسلامية، وتُقابل نهاية التاريخ بالمهدوية، وتُقابل الضـربة الاسـتباقية بـالثورة الإسلامية وتقابل صراع الحضارات بـحوار الحـضارات، وتـقابل الديـمقراطـية بالشورى والمشاركة الشعبية في الحكم.

٢ ـ ضرورة حل أزمة الوعي

والأساس الثاني من أُسس الستراتيجية الإسلامية هو مكافحة أزمة الوعي، لما لهذه الأزمة من دور يراد له أن يؤدي إلى انهيار الأُمة أمام الغزو الأمـريكي الشامل، وبالنحو الذي يصور أمريكا الغازية بصورة المنقذ، كما هو الأمر في كل أُمة تفقد هدفها فتنهار، وفي لحظة الانهيار والفقدان تتصور أنّ ما عند العدو هدفٌ مشتركٌ بينها وبينه، وهذه نهاية السقوط والانهيار.

يقال في المنطق: إنّ النفس قد تذعن للوهم أكثر مما تذعن للبرهان وقد يستولي عليها الزيف أكثر من استيلاء الحقيقة، وهذه هي الثغرة التي يتسلل منها الشيطان إلى الضحية ليضلها، والاستعمار صورة من صور الشيطان الذي يسقط الوعي؛ لأنه لا حياة له إلّا في وعي متأزم.

والسلوك الطبيعي في معالجة أزمة الوعي هو التركيز بالوسائل المتاحة وبأقصى ما يمكن علىٰ الأهداف المقدسة للأُمة الإسلامية، ومكافحة الأهداف الزائفة البديلة التي يريد العدو تسويقها وتسريبها إليها، وبيان زيفها وقبحها وضررها علىٰ الأُمة الإسلامية، وأنها ترتبط بالعجلة الاستعمارية، وبيان مصداقية الأهداف الإسلامية المقدسة وقدرتها الفائقة علىٰ حل مشكلات الأُمة الإسلامية وسوقها نحو الكمال المنشود في المجالات المختلفة.

وآلية ذلك هي أن ننظر في العوامل التي من شأنها إضعاف الهدف المـقدس وامتصاصه ومصادرته من الساحة، والسعي لمكافحتها وهي:

أ ـ التركيز علىٰ أن تكون علاقة الأُمة بأهدافها هي الأساس والمقياس لعلاقتها مع القيادات الإسلامية، وأن لا يحدث العكس؛ لأنّ الهدف متقدم علىٰ الشخص حتى لو كانت استقامته بنسبة ١٠٠٪، الهدف لا يموت والشخص يموت، الهدف مطلق والشخص محدود، الهدف مضمون الاستقامة بخلاف الشخص. الهدف واحد دائماً والشخص قد يختلف مع الآخرين، الهدف مقياس للأُمور والشخص لا يمكن أن يكون مقياساً لها.

ب ـ عدم التعلق بوعود الاستعمار مطلقاً؛ لأنّ التعلق بالوعود الاستعمارية يؤدي إلى تضييع الهدف وبقاء حالة شكلية منه يخدع الاستعمار به ضحاياه ليأخذ منهم في المقابل ما هو أعظم منه، وأشقى الناس في هذا الزمان من يرى سعادته في نصرة الأمريكان له واحتلالهم لبلده وسكوته عنهم، فالاستعمار يعطي شيئاً ويأخذ في المقابل إرادة واختيار وحرية وهوية واستقلال الآخرين، وما يعطيه الاستعمار ليس شيئاً مضموناً؛ لأنه هو الطرف القوي في العلاقة، وبوسعه أن يسترجع ما أعطاه ويحاصر المخدوعين بوعوده في مرحلة تالية، بالانقلاب عليهم وبذل وعود مشابهة لآخرين وإحداث منافسات بين ثلاثة أو أربع فرق من المخدوعين، فإن تنازعوا بينهم وحصلت فتنة داخلية، فهذه غاية المنى بالنسبة للاستعمار؛ لأنه سيصور وجوده ضرورة لإدخال هؤلاء حيّز الحضارة وسيأخذ ما يشاء، وإن بذلوا له التنازلات التي يريدها فهو الفائز أيضاً، لأنه استطاع أن يدخلهم في خط التنازلات ويقنعهم في أنّ مصيرهم ومستقبلهم في أن يكونوا من المتنازلين له دائماً وعلىٰ طول الخط.

وأسفه السفاهات ما يقوله البعض من أنّ مصالح الأمريكان قد تتفق وتتحد مع مصلحة شعب معين في مقطع معين من التأريخ، فإنّ هذه الوحدة تشبه وحدة المصالح بين الذئب والحمل، الذئب يذود عن الشاة ذئباً آخر فتتصور الشاة المسكينة أنّ

مصلحتها قد اتحدت هذه المّرة مع الذئب ،والحقيقة هي أنه أراد أن يستفرد بها دون الآخرين، وليس في عقلاء البشر منذ بروز ظاهرة الاستعمار في التاريخ وحتى الآن من ادّعى هذا الادعاء باستثناء البلهاء من ضحايا الدعاية الاستعمارية، والمسألة أوضح من أن تحتاج إلى توضيح، فالاستعمار يرى سلطته و استمرار هيمنته رهينين ببقائه قوياً أكثر ما يمكن، وبقاء المستعمرات ضعيفة أكثر وأطول مدة ممكنة، وبالتالي فمن يدعي اتحاد المصلحة مع الاستعمار يدعي شيئاً مستحيلاً، ومثل هذا الادعاء يصدر عادة من أفراد دفع الاستعمار لهم ثمن هذه الخدمة ليروجه بين البسطاء من الناس ويقنعهم بالسكوت عن الاستعمار وعدم الاستماع لحديث المقاومة والثورة ضده.

وحينما يصل الإنسان إلى طريق مسدود ويرى الارتباط بالاستعمار الخيار الوحيد في الحياة السياسية فالأجدر به في مثل هذه الحالة إن يعيد النظر في مسيرته وستراتيجيته التي عمل بها، ويبحث عن الخطأ الذي ارتكبه وأوصله إلى هذه النتيجة، ووجود الخطأ أمر حتمي؛ لأنّ الله لم يخلق الحياة بكيفية تسمح للطغاة بأن يملكوا كل الخيارات ولا يبقى لأهل الحق شيء منها، وإنما السلوك الخاطئ هو الذي يجعل الإنسان بهذه الحالة، والأخطر من ذلك هو (أن يركب رأسه) ويغطي على فشله بارتكاب خطأ أكبر هو الارتباط مع الاستعمار في سياق حسابات يتصور أنه سيكون رابحاً فيها، متجاهلاً الإمكانات والتجربة التي يملكها الاستعمار والتي تمتد إلى عدة قرون وتشمل أقطار الكرة الأرضية بكافة قاراتها، والتي تجعله يعرف كيف يتعامل مع أمثال الصيد الجديد كمراهق مغامر يحتاج إلى شيء من التدريب والمداراة، وخطأه هذه المرة سوف يكون قاتلاً، وسيكون بمثابة الانتحار السياسي والعقائدي؛ لأنه فقد الهدف والمبرر التاريخي والعقائدي لوجوده وظهوره على الساحة، بينما كان بوسعه أن ينقذ نفسه من هذا المصير فيما لو راجع أمره ونظر في

جانبين:

١ ـ هل كانت علاقته حسنة مع الجماهير الشعبية مع الأُمة؟ وهل استطاع أن يصنع قاعدة شعبية مضحية من أجل الهدف المقدس؟ فإنّ إخفاق النخبة في استحضار الجمهور هو الذي يوصلها إلى طريق مسدود.

٢ ـ إنّ العلاقة مع الاستعمار لا تمثل حالة واعية، وإنما هو سلوك انفعالي ناشئ من ضغط حالة الانسداد القاسية التي وصلت إليها مسيرة النخبة.

جـ ـ عدم التصديق بالتفكيك بين الاستعمار والعملاء

إنّ الاستعمار والعملاء يمثلون وحدة نوعية واحدة مهما كانت حالة العلاقة القائمة بينهما ما دام القاسم المشترك بينهما هو ظلم الأُمة واضطهادها والتآمر علىٰ مستقبلها وكرامتها وثرواتها، ولذا نجد أننا حينما نفكك بينهما نقع في دائرة واسعة من التخبط والحسابات الخاطئة والنظرات القاصرة والجدل العقيم، وقد اكتشف الاستعمار هذه النتيجة ووجد أنّ عملية تأزيم الوعي في الأُمة وانتزاع أهدافها المقدسة الخطيرة عليه يمكن أنّ تتم من خلال الانفكاك عن عملائه التقليديين بحيث يتصور الناس أنّ الاستعمار يريد أن ينصر الشعوب هذه المرة، وأنّ ابن آوى قد تاب من أكل الدجاج، ويتصور هؤلاء المساكين أنّ ظرفاً تأريخياً جديداً قد بدأ، وأنّ بالإمكان الاستفادة منه، دون أن يعلموا أنّ الاستعمار يريد بذلك أنّ تفقد الشعوب أهدافها ويتأزم وعيها وتعلق آمالها عليه ثم لا تجد إلّا مزيداً من الأزمات والفتن والاضطرابات التي ستلقى علىٰ عاتق الإرهاب والإرهابيين بالشكل الذي يوحي لهذه الشعوب بأن تلتحم أكثر مع الاستعمار لتأمن شر شبكات الظلام التي يغذيها الاستعمار نفسه.

إنّ الشر كل الشر يأتي من التفكيك الكاذب بين الاستعمار وعملائه. أو بشكل أدق من التصديق بهذا التفكيك. وطبقاً لعقيدتنا الإسلامية أنّ الآمر بالجريمة يتحمل

مسؤولية منفذيها، ولذا نطلق اللعنة علىٰ يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن، رغم أنّ الأخير هو القاتل الفعلي للحسين(ع)، لكن يزيد يتحمل وزر نفسه ووزر هذه السلسلة الآثمة، وهو بالتالي أقبح من شمر بن ذي الجوشن.

د ـ مقاومة النفاق بين المسلمين

والوقوف بوجه كل محاولة لضرب المسلمين بعضهم ببعض في مجال طائفي أو سياسي أو إقليمي أو قومي، وتبني ستراتيجية الوحدة الإسلامية الشاملة التي تكرس وتخدم أهداف المسلمين وتحول دون فقدانها ووقوعهم في أهداف أمريكية، قال تعالى: ﴿إنّما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء...﴾[1].

هـ ـ التحرر من عقدة الخوف من الاستعمار؛ لأنّ الذي يخاف من شيء يفقد القدرة علىٰ التفكير الصحيح في المسائل المرتبطة بمصيره ومستقبله، ويفقد الهدف الطبيعي له.

و ـ معالجة أسباب الميل إلى عدم المقاومة، باعتبار ان المقاومة تمثل السلوك الطبيعي الذي يحفظ الهدف، بينما تمثل عدم المقاومة سلوكاً يؤدي إلى ضياع الهدف.

هذه الأسباب الستة من شأنها حفظ الحالة الهادفة في المجتمع الإسلامي، وبالتالي استقامة الوعي فيه، ومعالجة الأزمات والتشوهات التي تظهر فيه وسيأتي الحديث مفصلاً عن الأسباب الثلاثة المتأخرة ضمن الحديث عن الأركان التالية من الستراتيجية الإسلامية.

٣ ـ ضرورة استنفار الجمهور بأقصى حدّ ممكن

الأُمة طائر يطير بجناحين هما النخبة والجمهور، وللجمهور امتيازان أساسيان

---

(١) المائدة: ٩١.

علىٰ النخبة يجعلان مسيرة الأُمة بلا جمهور مسيرة تواجه خطر الهزيمة والانحراف، والامتيازان هما:

أ ـ إنّ الجمهور إذا حضر في الساحة عجز الطاغوت أن يفعل شيئاً، بخلاف ما لو حضرت النخبة وحدها في الساحة فإنّ الطاغوت يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة ضدها.

ب ـ إنّ استقامة الجمهور مضمونة بخلاف استقامة النخبة، فليس في التاريخ جمهور يبيع نفسه للأجنبي، بينما حصل كثيراً أن باعت النخبة نفسها له.

وبالتالي فحضور الجمهور يضمن انتصار المسيرة واستقامتها. والمقصود بالجمهور تلك الحالة الشعبية المفتوحة والواسعة والتي ترفض أن تكون ذيلاً لأحد وتقع دائماً كمخاطب للنخبة، وتنتخب قائدها باختيارها وتدافع عنه في الأزمات، وما عدا ذلك تحايل علىٰ معنى الجمهور وليس جمهوراً بالمعنى الحقيقي، ومن أجل هذا الدور المصيري والذهبي الذي يلعبه الجمهور في حياة الأُمة لا بد من تهيئة الأسباب التي تؤدي إلى جمهور مستنفر في الساحة بأعلى درجة وكيفية ممكنة وهي:

أ ـ معالجة التراكمات التاريخية والثقافية السلبية التي تصنع جمهوراً متكلساً ذا نزعة سكونية يفضل التقوقع علىٰ الحركة والانبعاث. ذلك أنّ الأصل في حالة الجمهور هو الحضور في الساحة والمشاركة في قضاياه المصيرية، والتقوقع حالة مرضية ناشئة من تراكمات تاريخية وثقافية سلبية تجعل الجمهور يفكر بعدم جدوى الحضور، وبإيكال الأُمور إلى غيره، ويفضل الحديث عن العجز وعدم القدرة وعدم توفر الشروط اللازمة ونحو ذلك من الأفكار التي يبدو منها الاعتذار والتبرير، والتراكمات السلبية التي تؤدي إلى بروز هذه الظاهرة عبارة عن حالات مختلفة، فقد يريد الجمهور بهذه الحالة أن يعبر عن عدم ثقته بالنخبة المتصدية للأمور، وقد يكون ذلك ناشئاً من تجارب تاريخية سابقة شارك فيها الجمهور مشاركة فعالة ولم

يحصل منها علىٰ شيء، وقد يكون السبب هو ثقافة سائدة تمجد النخبة ولا تبيح للجمهور أن يقول شيئاً لم تقله، وقد يكون السبب اليأس من المستقبل، وما لم تعالج هذه التراكمات معالجة جدية صادقة وجذرية وما لم تكن هناك نخبة تؤمن بالجمهور كحالة نوعية متقدمة عليها لا يمكن الثقة بعودة الجمهور إلى الساحة.

ب ـ عنصر البطولة

إنّ النخبة التي لا تستند إلى قاعدة جماهيرية كافية تبقى حالة عائمة وعاجزة عن أن تفعل شيئاً، وعندها ستشعر بالفشل، وسيقودها شعورها هذا إلى أن تلقي بنفسها في أحضان اللعب السياسية والمعادلات الدولية بنحو قد يجعلها معرضة لخطر الانحراف والقاعدة الجماهيرية لا تأتي من عمل ثقافي، وإنما تأتي من طريق واحد هو لعب دور البطل المنقذ في حياة الأُمة، الأُمة لا تريد أن تكون تلميذاً لأحد، ولا تسمح لأحد أن يهمشها ويجعل نفسه أُستاذاً لها، وهي ترى نفسها متن الساحة وعمود الخيمة، ولا تقبل من أحد أن يفرض نفسه بديلاً عنها، ويعتبر نفسه متن الساحة ويجعلها امتداداً له.

ومن الطبيعي أن لا تلتحم مع نخبة تتصرف معها بهذه الطريقة، فتختفي عن الساحة لتعبر عن رفضها لهذه المعاملة، وتبقى تعيش حالة بحث وجداني عن فارس أحلامها الذي يعطيها كل شيء ويتسم بشعور حاد بالمسؤولية تجاه مصيرها ومستقبلها ويجند نفسه لصد هجوم الأعداء عليها، ويتصرف ببطولة تجاه التحديات التي تواجهها. ويرفض الدخول في لعب ومساومات وطرق ملتوية، ويصر علىٰ أن يبقى البطل الذي يلهب مشاعر الجمهور ويملأه حماساً وشعوراً بالانتصار والقدرة علىٰ تحطيم الأعداء والغلبة علىٰ مضايق التاريخ، والنتيجة هي أنّ الطريق الوحيد لاستحضار الجمهور في الساحة هو ممارسة دور البطولة في حياة الأُمة، والبطولة حس عميق يأسر الأُمة باستمرار، وهي في بحث دائم عن البطل المنقذ

في القضايا التي تعيشها كافة، خاصة قضية الاستقلال من السيطرة الأجنبية بوصفها القضية التي يتضاعف فيها دور البطولة وينحصر العلاج بهانحصاراً تاماً، وما عداه حركة خارج التاريخ ليس لها لون ولا طعم ولا رائحة.

جـ ـ معالجة أسباب الميل إلى عدم المقاومة

المقاومة سلوك لا يأتي بين عشية وضحاها، ومن الطبيعي أن يواجه في الأيام الأُولى مجموعة من الإبهامات التي تحتاج إلى معالجة ودفع، ومن الضروري السعي لحلها ووضع الحلول لها، بمقتضى الشعور بالمسؤولية تجاه الأُمة وقضاياها. وأسوأ الحالات أن تترك هذه الإبهامات والإشكالات في ذهن الأُمة بلا حلول وإجابات، وأسوأ من ذلك تعميقها وترسيخها، وكأنّ هناك من يرى نصرة الاستعمار وخذلان الأُمة بذلك، وأسوأ أساليب ترسيخها التحدث مع الأُمة بإسلوب الإشفاق عليها من المقاومة وكان الاستعمار ربح لها والاستقلال خسارة عليها، فإنّ الساكت الذي لا يدافع عن حقه المهضوم هو الذي يستحق الإشفاق، لا المقاوم الذي يريد استخلاص حقه، وهل كانت حروب النبي(ص) خسارة؟ وهل كانت ثورة الحسين (ع) خسارة؟ وهل الثورة الإسلامية في إيران خسارة؟ وأيهما أولى بالإشفاق، أولئك الذين حرروا بلدانهم من الاستعمار وعاشوا أحراراً في دنياهم أم أولئك الذين ظلوا أرقّاء تحت سلطة الأجانب؟

٤ ـ ستراتيجية التكليف لا النتيجة

إنّ العلاقة مع المقاومة لها ثلاث حالات، فهناك من يرتبط بها من جهة النتيجة وهي تهمه؛ لأنها تحقق له المكاسب التي يريدها، وهناك من يرتبط بها من جهة التكليف والنتيجة معاً، فهو يريد النتيجة ويساهم فيها أيضاً، وهناك من يرتبط بها من جهة التكليف فقط فهو يريد أداء ما عليه ولا يهمه أن يكون ممن يجني الثمرة أم

لا. الحالة الأُولى حالة انتهازية يؤدي شيوعها إلى فناء المقاومة، فمن الذي يقاوم إذا كان الجميع ينتظرون النتائج؟ والحالة الثانية لا مانع منها، وهنيئاً لمن يعمل ويجني ثمرة عمله، والحالة الثالثة هي الحالة النموذجية التي يجب أن تتبنى ستراتيجية ثقافية وإعلامية وقيمية، فإن أشرف الناس من كان ربحاً خالصاً لغيره وثمرة تامة لشعبه ودينه، وهي التي يحث عليها الإسلام من خلال مفهوم الجهاد والشهادة في سبيل الله، فالجهاد ليس من أجل النفس، وإنما من أجل الله، والشهيد شمعة تحرق نفسها من أجل أن يستضيء بنورها المجتمع.

٥ ـ ستراتيجية محاصرة الطاغوت وتحويل الضعف إلى قوّة

إنّ الإنسان الذي يحق له الافتخار هو الذي يعرف كيف يحول التراب إلى ذهب ولديه إرادة جادة في هذا الاتجاه، أمّا الذي يحول الذهب إلى تراب فلا يجد احتراماً بين العقلاء، ومن هنا لا بد للإنسان المسلم وهو يواجه الطغيان الأمريكي أن يتحرك علىٰ أساس ستراتيجية واضحة تحاصر الطغاة في أضيق دائرة وتوسع دائرة المطالبين بالحق والعدالة لتكون أوسع ما يمكن، فالجبهة المقابلة للستراتيجية الإسلامية ليس الغرب ولا الحضارة الغربية ولا الشعب الأمريكي ولا حتى الدولة الأمريكية بما هي مؤسسات، وإنما هي تتمثل في القوى الرأسمالية التي تتترس بالشعب الأمريكي وبالحضارة الغربية لتجعلهما وسائل في تدمير العالم وإشعال نيران الحروب فيه من أجل المزيد من الأطماع والهيمنة، وقد كشف القرآن الكريم عن ذلك قبل أربعة عشر قرناً حينما بيّن **﴿وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير إلّا قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أُمة وإنّا علىٰ آثارهم مقتدون﴾**[١]، فالقوى الرأسمالية التي تتولى الحكم تمثل الرمز التأريخي للشر، ورمز الحرب علىٰ الخير والمسيرة

---

(١) الزخرف: ٢٣.

البشرية.

وفي مقابل هذا الرمز هناك حاجة لتعبئة البشرية كافة لتأخذ دورها في المواجهة وإنقاذ نفسها منه، فهي معسكر السلام والمستضعفين في مقابل طغمة الحرب والمستكبرين، وعلىٰ المسلمين أن يتصدوا لقيادة هذه المسيرة المقدسة. قال تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربَّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾[1].

والذين ألفوا الضعف يشفقون علىٰ أنفسهم من هذه النظرة ويتصورنها عبئاً إضافياً عليهم، بينما هي عند من يثقون بأنفسهم خطوة ضرورية باتجاه محاصرة العدو وتعبئة البشرية كلها ضده كمقدمة للانتصار عليه.

ولكي يحسن المسلمون قيادة هذه الجبهة عليهم أن يكونوا حالة موحدة منسجمة مع بعضها وتجميد كافة الخلافات الدائرة بينهم، ومكافحة الفتنة الطائفية التي يصر الاستعمار علىٰ إثارتها بين المسلمين في كافة المجالات،ففي المجال العقائدي لا مانع من أن يعتقد السني ويتمسك بما عنده من الرؤية العقائدية التي يراها صحيحة، وعلىٰ الشيعي أن يحترم هذه الرؤية مهما كانت مخالفة لرؤيته، ولا مانع من أن يعتقد الشيعي ويتمسك بما عنده من الرؤية العقائدية التي يراها صحيحة، وعلىٰ السني أن يحترم هذه الرؤية مهما كانت مخالفة لرؤيته، وليس في أي من المذهبين ما يخالف هذا الأساس، بل هو موافق للإطار الاجتهادي العام المشترك بين المسلمين الذي يجعل الاجتهاد بشروطه الصحيحة دليلاً يجوز لكل مسلم أن يتخذه أساساً للاعتقاد بما يراه صحيحاً طبقاً للأدلة التي قامت عنده. وهو في الوقت نفسه مانع من

---

(١) النساء: ٧٥.

تكفير المسلم وهدر دمه حتى لو ارتكب ما يوجب التكفير وهدر الدم، ما دام أنه قد ارتكبه اتباعاً لدليل شرعي في إطار رؤية اجتهادية يراها صحيحة، بحكم القاعدة الشرعية الثابتة القائلة: «تدرأ الحدود بالشبهات» وبالتالي فلا توجد إمكانية لتبرير التقاطع والتكفير بين المسلمين مطلقاً، وهكذا الأمر في المجال الفقهي والالتزام العملي في مجال العبادات والمعاملات وفي المجال التبليغي والثقافي يحق للجميع أن يكتب ويؤلف ويبحث ويبلغ لمذهبه في كل القنوات المتعارفة في هذا الزمان ويستدل لما يراه صحيحاً في دائرة الاحترام والالتزام بالآداب الإسلامية التي لا تسمح بتحقير وتوهين وإيذاء المسلمين.

وما يحصل في هذا المجال في دائرة العلاقة بين السنة والشيعة لا يختلف جوهرياً عما يحصل بين اتجاهات الرأي المختلفة داخل المذهب الواحد، وكذلك لا معنى للطائفية في المجال السياسي؛ لأنّ الفقه السياسي الإسلامي يستند إلى جوهر مشترك، والاختلافات بين السنة والشيعة لا تختلف عن الاختلافات داخل كل من هذين المذهبين وهي تمثل ثروة فكرية غنية تناظر ما نشاهده من اتجاهات ونظريات عند الغربيين في مجالات الحكم والدولة، ولكننا تعودنا مع الأسف الشديد علىٰ أن نرى ما عندنا سيئاً دائماً وما عند الغربيين شيئاً حسناً دائماً، والإنسان العاقل هو الذي يحول المساوئ إلى محاسن والضعف إلى قوة، والأزمة إلى انتصار كبير، وبوسعنا في هذه الأيام أن نحول الأزمة الراهنة إلى انتصار كبير ووحدة إسلامية راسخة وعظيمة، ونتخذها سبباً للقضاء علىٰ الطائفية بكافة أشكالها. وإذا ما اجتمع العقلاء من الطرفين لوجدوا أنّ قاعدة ﴿وتعاونوا علىٰ البر والتقوى ولا تعاونوا علىٰ الاثم والعدوان﴾[1] تلزمهم بالسعي لدفع عوامل الخلاف وإقرار نظرية ميدانية سياسية

---

(١) المائدة: ٢.

إسلامية مشتركة تأخذ بنظر الاعتبار كافة الخصوصيات الموجودة عند الطرفين في مرحلة المقاومة وإسقاط الطاغوت، ومرحلة إقامة الحكم الإسلامي بصيغة سنية شيعية مشتركة لا يقال عنها سنية ولا شيعية، بل يقال عنها شيء واحد هو أنها إسلامية فقط، صيغة تنظر إلى الإسلام قبل المذاهب وإلى الأُمة الواحدة قبل القوميات والحدود الإقليمية، دون أن تتنكر إلى المذاهب والقوميات والخصوصيات الإقليمية، بل تجعل هذه العناوين عناصر قوة بعدما كانت عناصر ضعف وتمزيق.

وفي هذه الحالة سيتاح للمسلمين تعبئة جهودهم داخل الأراضي الأُوروبية وتفعيل دور الجاليات الإسلامية هناك لتكون قوة فعالة في مجال نشر الإسلام والاستفادة القصوى من القدرة الانتشارية الكبيرة التي يتسم بها الإسلام نفسه، والضعف العقائدي الذي يعتري الغرب ونزوع الإنسان الغربي نحو الأديان والمعنويات، وممارسة هذا الدور المقدس حتى مع الجيوش الأمريكية والغربية المحتلة داخل البلاد الإسلامية.

كما سيتاح لهم أيضاً المناداة بنقل المؤسسات الدولية من نيويورك إلى مكة؛ لأنها وضعت في نيويورك استناداً لنتائج الحرب العالمية الثانية التي انتصر فيها الحلفاء، وهذا الوضع يجعلها مؤسسات تسير مع القوي المنتصر بغض النظر عن مسألة الحق والباطل. والأُولى أن تتخذ مكة عاصمة للسلم والأمن والهيئات الدولية ذات العلاقة بمصير البشرية؛ لأنها الأرض التي تحضى باحترام اتباع الديانات السماوية الرئيسية، باعتبارها المدينة التي أسسها إبراهيم (ع) أبو الأنبياء وجعلها مدينة للسلم والأمن في العالم.

وحينئذ سيتاح لهم أيضاً الدعوة إلى محاكمة الطغاة في هذا الزمان ونشر جرائمهم وخططهم الإجرامية بحق البشرية، وبيان أنهم الخطر الوحيد عليها.

٦ ـ ستراتيجية الحماس والشهادة

إنّ معركة المظلوم مع المعتدي معركة يحاول فيها كل طرف محاصرة الطرف الآخر، المعتدي يحاصر من خلال وسيلة القوة التي يريد بها إغلاق باب الانتصار وفرض الاستسلام علىٰ الضحية، وفي هذه الحالة لا يجد المظلوم وسيلة لمحاصرة المعتدي أرقىٰ من وسيلة الشهادة في سبيل الله. قال تعالى: **﴿قل هل تربصون بنا إلاّ أحدى الحسنيين﴾**[1] لأنّ الشهادة تفك عنه حصار القوة وتجعله أمام خيارين كلاهما ثقيل علىٰ المعتدي، النصر أو الشهادة، وينغلق بذلك خيار الاستسلام الذي أراد المعتدي فرضه علىٰ الضحية. وتفشل خطته وينتصر بذلك الدم علىٰ السيف، فالشهادة مشروع لإبطال القوة وإرغام الأقوياء علىٰ التنازل عن الباطل، فالباطل لا يرتدع من تلقاء نفسه ولا يتراجع باختياره، بل يجد في سكوت الحق عنه دافعاً لمزيد من الاعتداءات، وسبباً لإغراء الآخرين بأنّه هو الحق وأنّ خصمه علىٰ باطل. فيلتبس الحق بالباطل. وتنطلي الحقيقة علىٰ الكثير من الناس، والشهادة أفضل طريق لإقناع الطواغيت بعجزهم عما يريدون. وأفضل وسيلة لفتح مضايق التاريخ وحالات الانسداد أمام المضطهدين، وأفضل وسيلة لردع المعتدي ومحاصرته، وبالتالي فالشهادة مشروع لحياة الأُمة والعقيدة وإنقاذ البلاد، كما قال الإمام الحسين (ع): **«إني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما»**.[2]

وقيم الشهادة لا يختص أثرها بمن يريد الإقدام عليها، وإنما يشمل كافة أفراد المجتمع الذين سيعيشون حالة تعبوية تضحوية إيثارية، وحالة ثبات وإقدام

---

(١) التوبة: ٥٢.

(٢) مقتل الحسين، للمقرم: ٢٣٢ ط قم.

وشجاعة، وحالة تكريم وعناية للشهداء وعوائلهم، وحالة مبادرة وهجوم واندفاع وحماس وروح معنوية تفوق كل الحدود، وحالة أمل وثقة بالمستقبل. وهذه المجموعة من القيم والمشاعر الذهبية الحاسمة لا يمكن استحصالها إلاّ عبر الشهادة. وهذا ما جعل الخط الفكري التابع لأمريكا في المنطقة الإسلامية يسعى لضرب مفهوم الشهادة في الإسلام ويركز علىٰ وصفه بالدموية والإرهاب، مخالفاً بذلك سيرة الأُمم والشعوب القائمة علىٰ تكريم المضحين من أجلها وبناء النصب التذكارية لهم.

٧ ـ ستراتيجية الأمل والثقة بالمستقبل

حينما يصرّ الأمريكان علىٰ طرح فكرة نهاية التاريخ وظهور المسيح(ع) لا يقصدون من ذلك معنى عقائدياً. وإنما يقصدون معنى استعمارياً هو إسقاط الأمل عند الشعوب والأُمم، ومحاصرتها معنوياً إضافة إلى المحاصرة العسكرية التي يسعون إلى إحكامها عليها.

وحينما نتأمل ونجد فكرة مصطنعة لا تحظى بأي دليل فلسفي ولا ديني كفكرة نهاية التأريخ، وشعاراً دينياً لا يمت إلى السياسة الأمريكية الليبرالية كشعار ظهور المسيح (ع)، نستطيع أن نستنتج أنّ هناك محاولة تشبث بالمستقبل ناشئة من أزمة ثقة بالمستقبل؛ لأنّ الواثق بالمستقبل يتمسك بالأسباب الطبيعية الحقيقية التي يملكها، ومن يتشبث بأسباب مصطنعة إنما ينطلق من أزمة ثقة بالمستقبل.

إنّ الشواهد والمؤشرات الراهنة تدل علىٰ حضارة أمريكية آيلة إلى الزوال، لأنّ الحضارة التي لا تملك من أسباب البقاء والاستمرار شيئاً غير القوة العسكرية والرأسمالية والاستخباراتية، وأصبحت غير جذابة حتى عند أهلها الذين بدأوا يظهرون الحنين إلى الأديان والمعنويات والقيم الإيمانية التي لا يجدونها في غير

الإسلام، مثل هذه الحضارة تعيش نهاية تأريخها، وما تقوم به أمريكا الآن تحت شعار صراع الحضارات هو محاولة لإيقاف عجلة التاريخ والقضاء علىٰ البـديل الإسلامي لكي تبقى الحضارة الراهنة هي الخيار الوحيد أمام البشرية.

وإذا كان الأمريكان يتشبثون بوسائل مصطنعة نحو المستقبل، فالمهدوية هي الوسيلة الطبيعية العقائدية نحو مستقبل سعيد ينطلق من بين الحجاز والعراق ويعم البشرية كلها، ويختتم به التاريخ.

٨ ـ إبطال دعوى الإرهاب

تبرر أمريكا حملتها الحالية علىٰ العالم الإسلامي بدعوى مكافحة الإرهاب. ومن المفترض أنّ هذه مسألة دولية يرجع أمرها إلى هيئة الأُمم المتحدة،وهي التي تحقق بوجود أو عدم وجود الإرهاب، وهي التي تتولى مكافحة وتصفية العوامل المؤدية إليه. وإصرار أمريكا علىٰ أن تقود هذه الحملة بنفسها يحمل مدلولاً خطيراً يأتي في سياق أُطروحة العولمة وتكريس القيادة الأمريكية للعالم، والتعامل مع البشرية كرعايا ومواطنين يقودهم البيت الأبيض أينما كانوا، وبالتالي فمن حق الأمريكان أن يتعاملوا مع الرافضين لهذه القيادة كإرهابيين، كما يفعل رؤساء الدول مع المواطنين المعارضين لهم، فأمريكا تفترض لنفسها القيادة وتتعامل مع البشرية علىٰ هذا الأساس، وترتب أثراً قانونياً صارماً هو تصفية المعارضين لهذه القيادة المزعومة والتعامل معهم كرعايا خارجين عن طاعة قيادة شرعية، وتطلق علىٰ هذا الموقف نفس التسمية المستخدمة لحالة رئيس يؤدب رعايا خارجين علىٰ طاعته، وهي تسمية مكافحة الإرهاب.

ولذا يصر الأمريكان علىٰ عدم تعريف الإرهاب، وتركه في صورة مبهمة غير محددة تتيح لهم استغلال هذا الشعار استغلالاً كافياً؛ لأنّهم إن وضعوا تـعريفاً له

فسيصطدمون مع القانون الدولي الذي سيرفض تعريفهم وستنكشف مآربهم بشكل صريح، وسيتضح أنّ مصدر الإرهاب في العالم هو أمريكا نفسها، وأنّ ما يجري في العالم ليس إرهاباً وإنما رفضاً عالمياً للإرهاب الأمريكي؛ لأنّ المدلول الواضح للإرهاب هو اللجوء إلى القوة كوسيلة لفرض الآراء والمعتقدات والسياسات على الآخرين، وهذا المعنى لا ينطبق في عالم اليوم إلّا على أمريكا وإسرائيل، وكل ما يحصل في عالم اليوم عبارة عن شعوب وأُمم ضاقت ذرعاً بالإرهاب الأمريكي الإسرائيلي خاصة أنّ أمريكا بدأت تعلن وبشكل صريح عن رفضها الالتزام بالقانون الدولي، وضرورة تغيير هذا القانون العاجز عن حل مشكلة جديدة كمشكلة الإرهاب، أي ضرورة تحويل هيئة الأُمم المتحدة من مؤسسة نصف أمريكية إلى مؤسسة أمريكية تماماً تستطيع أن تواكب التطلعات الاستعمارية الأمريكية الجديدة التي تعتبر نفسها أنها قادت صيرورة تاريخية بدأت بالمشاركة في الحرب العالمية الأُولى من أجل إسقاط الامبراطوريات القديمة، وانتهت بانتصار باهر في الحرب الباردة على الامبراطورية السوفيتية والمعسكر الشرقي، وبالتالي فمن يخرج على الإرادة الأمريكية أنما هو إرهابي يرفض الانصياع للصيرورة الأمريكية ومن يوافقها فهو مواطن صالح يفهم معنى العولمة.

لقد نشرت أمريكا الرعب والذعر والإرهاب في كل أنحاء العالم، وهي تشعر أنّ البشرية تبحث عن الأمن والسلام، وهذا البحث سيجعلها يوماً تكتشف الحقيقة الإرهابية لأمريكا، الأمر الذي يقتضي منها تحويل التهمة على عاتق عدو مفترض هو الإسلام، بحيث تبدو رمز الإنقاذ والرحمة للبشرية من أُمة يجب إخضاعها للاحتلال الأجنبي حتى تأمن البشرية شرها.

والموقف الصحيح من دعوى مكافحة الإرهاب هو فضحها وكشف زيفها وعدم التأثر والتجاوب معها مطلقاً، ومواجهتها بالرفض المطلق؛ لأنّ التجاوب يعني

التصديق بوجود إرهاب يمارس من قبل المسلمين ضد آخرين، والتصديق بأن أمريكا تكافح الإرهاب، والتغطية علىٰ الإرهاب الحقيقي الوحيد في العالم وهو الإرهاب الأمريكي، وتقبّل أن نكون مواطنين خاضعين للسيادة الأمريكية، وكيف يجوز التجاوب مع شعار مكافحة الإرهاب من زاويته الأمريكية التي اعتبر فيها القرآن كتاب الإرهابيين والعياذ بالله؟

إنهم يريدون أن يهزمونا بالشتائم، وعلينا أن نقف منهم موقف النبي(ص) من قريش يوم صمد بوجهها وهي تشتمه بأنّه ساحر مجنون. وعلينا أن نعرف أن الإرهاب بمعنى الحرب النفسية ضد الطواغيت أمر واجب قال تعالى: **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله﴾**[1] وقال تعالى: **﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله﴾**[2].

إنّ الإرهابي هو ذلك الذي يسرق ثرواتنا ويحتل أرضنا ويهددنا بالحروب والقنابل النووية ويدعم إسرائيل دعماً مطلقاً، والذي يؤسس أنظمة ديكتاتورية عميلة له ويحرضها علىٰ قتلنا وتشريدنا وتحويل بلداننا إلى مقابر جماعية. ويصنع كل شيء من أجل استمرار دوامة العنف في بلادنا.

٩ ـ إبطال دعوى الديمقراطية

منذ بداية عصر الاستعمار وحتى الآن والاستعمار يؤكد علىٰ أنه جاء من أجل الديمقراطية، لكنه إلى الآن لم يحقق شيئاً منها، فما هي قصة هذا الهدف الذي استبيحت حرماتنا بسببه طيلة قرن من الزمان ولم يتحقق منه شيء حتى الآن؟ وما هي قصة هذا الهدف الذي كلما أراد الغربيون غزو ديارنا جعلوه ذريعة وحجة وعنواناً

---

(١) الانفال: ٦٠.
(٢) آل عمران: ١٥١.

يبينون به فضلهم علينا؟

القصة تكمن في عاملين:

أ - إنّ الديمقراطية تعني نظاماً سياسياً مستقراً يتربى عليه المجتمع السياسي جيلاً بعد جيل، وهذا ما يتعارض مع المصالح الاستعمارية التي تتطلب أوضاعاً قلقة تساعد على إبقاء دوّامة العنف السياسي في البلاد الإسلامية، حتى تكون هناك فرص واسعة ومستمرة للتدخلات الأجنبية والتخلف السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعلمي، وتنمو في النفوس عقدة الحقارة تجاه الغرب ويزدري الناس أوطانهم وبلدانهم، فإنّ من مساوئ النظم الديكتاتورية أنها تنسي المواطن وطنه وتجعله يفكر بالخلاص من الديكتاتور ولو كان الثمن مجيئ الأجنبي، بل ربما كان الاحتلال في حساباته أفضل من الحكم الديكتاتوري، ولذا يبدأ الاستعمار غزوه للبلدان الإسلامية برفع شعار الديمقراطية وكأنه يلوح أمام الجموع الجائعة برغيف الخبز، لكنه بمجرد أن يستلم مقاليد الأُمور في البلاد ينشغل عن هذا الشعار بعمليات زرع النفاق والفتن والاضطرابات ليوحي أنّ الناس غير مؤهلين للديمقراطية، وأنّ المشروع قد تعثر لأسباب داخلية.

ب -إنّ الديمقراطية لا تحل في مجتمع مشبع بفلسفة اجتماعية معينة وإنما تحل في مجتمع خالٍ من كل فلسفة اجتماعية سابقة، كالإناء المملوء الذي لا يتقبل الماء الجديد الذي يسكب فيه، مادام مملوءاً بما فيه، وقد جاءت الديمقراطية إلى المجتمعات الغربية بعد انهيار الكنيسة وخلو هذه المجتمعات من فلسفة اجتماعية معينة، فتمسكوا بالديمقراطية كبوابة للوصول إلى الفلسفة الاجتماعية الجديدة، فكان إناء هذه المجتمعات خالياً، بخلاف حالة المجتمعات الإسلامية التي لا زالت تعتز بالإسلام كنظام اجتماعي شامل وتفصيلي للحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وبالتالي فهي لا ترى مبرراً موضوعياً تاريخياً لتقبل الديمقراطية، ولا

تعاني من أزمة في مضمار الفلسفة الاجتماعية حتى تتخذ من الديمقراطية طريقاً لحل هذه المشكلة.

إنّ الإنسان يولد ويولد معه شعوران متمازجان، شعور بأنّه حر، وشعور آخر بأنّ عليه أن يسير نحو نقطة معينة فيها الكمال والعدالة والسعادة، والشعور الثاني هو المتأصل في الإنسان، فإذا أحسّ بفلسفة اجتماعية فيها الكمال والسعادة والعدالة انصرف عن شعور الحرية ولم ير له أهمية، لكنه إذا افتقد إلى تلك الفلسفة ظهر لديه الشعور بالحرية ورفض كل محاولة لفرض فلسفة اجتماعية معينة عليه، وتمسك بالحرية كطريق لاكتشاف هذه الفلسفة، وهذا هو الفرق الجوهري بين الإنسان الغربي والإنسان المسلم، الإنسان الغربي افتقد بانهيار الكنيسة الفلسفة الاجتماعية التي توصله إلى الكمال والسعادة والعدالة، فتمسك بالحرية كطريق ينتهي عبر التجربة إلى الفلسفة الاجتماعية المنشودة، وهو حينما يدافع عن الحرية والديمقراطية فإنما يدافع في حقيقة الأمر عن الليبرالية كفلسفة اجتماعية أفرزتها التجربة التاريخية الغربية، ولا يدافع عن الحرية بما هي حرية، بينما الإنسان المسلم لا يزال يعيش الإسلام فلسفة اجتماعية حية ونابضة في وجدانه وضميره، وهو يراها الطريق الوحيد للعدالة والكمال والسعادة، وبالتالي فهو يشعر بالاستغناء عن شيء اسمه الديمقراطية ما دام الإسلام يملأ شعوره ووجدانه، ولا يريد أن يصل إلى الليبرالية، إلّا إذا كانت الديمقراطية بمعنى المشاركة الشعبية في الحكم، ولكن هذا المعنى لوحده لا يسمّىٰ ديمقراطية؛ لأنّ الديمقراطية بمعناها الكامل هي الخضوع لحكم الواقع الذي يريده الشعب بغض النظر عن مسألة الحق والباطل، ومسألة الحلال والحرام، ومسألة الجور والعدل، ومسألة الخير والشر. وهذا المعنى لا يقبله أحد من المسلمين أبداً، فالمشاركة الشعبية في إطار هذه المسائل الأربع لا تنتج ديمقراطية وإنما تنتج ما أسماه الإسلام بالشورى، وإذا ما

جردت عن هذه المسائل الأربعة كانت النتيجة الديمقراطية التي يرفضها كل مسلم بيده ولسانه وقلبه. وهذا هو العامل الأصيل والعميق لعدم نجاح مشروع الديمقراطية في العالم الإسلامي.

وبذا يتضح أنّ الغرب كاذب في ادعاء تصدير الديمقراطية من جهة، وأنّ المسلمين غير مستعدين لتقبل فلسفة اجتماعية بديلة عن الإسلام من جهة ثانية، فلا فاعلية في الفاعل، ولا قابلية في القابل، فمن أين تأتي الديمقراطية؟

والموقف الذي يجب التسمك به هو رفض هذا الشعار والتأكيد علىٰ بديل إسلامي في الحكم والدولة يذعن المسلم بشرعيته بحكم إسلامه الجامع بين المذاهب، بحيث يراه السني والشيعي معاً حجة عليهما معاً سواءً عاشا في بلد واحد وتحت لواء دولة واحدة، أو عاشا في بلدين مختلفين وتحت لواء دولتين مختلفين في المذهب الفقهي، حتى يحترم كل منهما الدولة الأُخرى ويرى حرمتها وقدسيتها واستحقاقها للدفاع.

يضاف إلى ذلك كله أنّ الديمقراطية لا يمكن أن تقام من خلال القوة والاحتلال العسكري الغاشم فهذا الأُسلوب مناقض لمنطق الديمقراطية، ولو كانت أمريكا تريد الحرية للمسلمين لأطلقت حركة الإسلام التي تمثل روح الأُمة الإسلامية النابض، والموقف الحالي للأُمة الإسلامية قاطع الدلالة علىٰ أنها تريد الإسلام، فلماذا تحارب أمريكا ما تريده الأُمة الإسلامية؟

١٠ - ضرورة تفصيل أركان المقاومة في المجتمع الإسلامي

حينما يراد بناء مجتمع مقاوم فلابد من تغذيته بعوامل المقاومة وأركانها وروافدها، وسيأتي أنها ثلاثة، عقيدة المقاومة، وأخلاق المقاومة، وفقه المقاومة.

وفي عقيدة المقاومة لابد من رفد المجتمع الإسلامي برؤية عقائدية متكاملة

بحيث يستغني عما في أيدي الغربيين من مفاهيم وأفكار وشعارات بديلة ومعارضة.

ولابد من إشباعه بالإسلام المحمدي الأصيل ليستغني به عن الإسلام الأمريكي الذي يراد منه تحويل المسلمين إلى عصافير لا تحسن إلّا الزقزقة أمام الجيوش الغازية، ولا بد من إشباعه بروح نقدية للفكر الغربي وبيان الإسلام كمنقذ وحيد للبشرية في هذا الزمان وفي كل زمان؛ لأنّ الذي لا ينفي الإله الفاسد يعجز أن يثبت الإله الحق. ومن لا يفكر بنقد الحضارة الغربية التي تهتز لكلب وقط وتحول بلادنا إلى مقابر جماعية، وتأمر بقتل عبقري عظيم كالشهيد السيد محمّد باقر الصدر، لا يستطيع أن يفكر تفكيراً إسلامياً أصيلاً.

وفي أخلاق المقاومة لابد من إشباع المجتمع بقيم أخلاقية تجعله متماسكاً بوجه الغزو.

وفي فقه المقاومة لابد من التحلّي بروح شفافة ومستقيمة نستطيع من خلالها أن نفهم الفقه الإسلامي فهما صحيحاً ومطابقاً للحقيقة الإسلامية.

الفصل الأول

الثورة والمقاومة
مفهومها وأركانها وخصائصها

المقاومة والثورة في اللغة والاصطلاح الحديث

المقاومة لغة واصطلاحاً

مادة «ق.و.م» في اللغة العربية تحظىٰ بجنبة اشتقاقية واسعة، ويشتق منها عدد كبير من الكلمات والمفردات، من جملتها المقاومة بمعنى المنازلة ووقوف طرف في وجه طرف آخر، قال ابن منظور: «ويقال: ما زلت أُقاوم فلاناً في هذا الأمر، أي أُنازله»[١] وفي المعجم الوسيط: «قاومه في المصارعة وغيرها قام له... تقاوموا في الحرب قام بعضهم لبعض»[٢].

ورغم أن مفردة المقاومة محدودة التداول في اللغة العربية. كما هو مشاهد من مراجعة معاجم اللغة وموسوعاتها، إلاّ أنّ معناها منتشر بشكل ضمني في كثير من المفردات المشتقة من مادة قوم، فالقوم في اللغة العربية هم عشيرة الرجل ورهطه من الرجال دون النساء، واستثناء النساء يعني بوضوح أنّ مفردة القوم أخذت في اللغة العربية بمعنى الأفراد الذين يتقوى بهم الرجل على مواجهة الخصوم ويشد بهم أزره ويستعين بهم على مواجهة الأعداء. وكثيراً ما يؤخذ القيام بمعنى النهوض بأمر جليل أو مواجهة خطر جسيم، فيقال: قام فلان بالأمر وقعد الآخرون عنه في موارد كثيرة يشتمل بعضها على مناهضة خصوم ورفض لإرادات معادية، بما يجعل القيام معنى متداخلاً مع المقاومة ومشرّباً به، خاصة أنّ القيام هو قوام المقاومة والقعود عكسهما معاً.

---

(١) لسان العرب ١١: ٣٦١، دار احياء التراث.

(٢) المعجم الوسيط ٢: ٧٧٣، ط:٢.

هذا ما عليه أمر اللغة .

ولم تنتشر هذه المفردة في عالم الاصطلاح إلاّ في زمان متأخر عند ما برزت ظاهرة الاستعمار وقيام بلدان باحتلال بلدان أُخرى ولجوء أهالي البلدان المستعمرة إلى القيام بأعمال وأنشطة مختلفة بهدف تحرير بلدانهم من شر الاستعمار، حيث أُطلقت تسمية المقاومة على تلك الأعمال ، ورغم أنّ الاحتلال والتحرير ظاهرة قديمة تسبق عصر الاستعمار إلاّ أنّ هذه التسمية لم تنتشر قبل هذا العصر الذي عرف القومية والاستعمار والمقاومة في آنٍ واحد ، فالاستعمار سلوك طبيعي بالنسبة إلى القومية الغالبة الطاغية ، والمقاومة سلوك طبيعي بالنسبة إلى القومية الضعيفة المغلوبة ، الأمر الذي يؤكد ما استظهرناه من الترابط المعنوي اللغوي بين مفردة القومية ومفردة المقاومة ، ويستشهد القوميون كثيراً على ضرورة القومية في حياة الشعوب والأُمم بما توفره من شعور دفاعي يوحّد الأُمة ويعبئها ضد العدو، ويتناسون أنّ القومية نفسها كانت السبب في لجوء القومية الغالبة إلى احتلال البلدان الأُخرى واستعمارها ، وما كان مشكلة لا يمكن أن يكون حلاًّ صحيحاً ، ولذا يأتي الإسلام ويدخل الساحة الإنسانية ليؤكد الدفاع عن النفس ويعتبره وظيفة مقدسة ويشجب الاحتلال والعدوان في الوقت نفسه ، فيدرأ بذلك الطابع العدواني عن القومية من جهة ويعمق دورها الدفاعي من جهة ثانية ، وليست المسألة مسألة شعارات وألفاظ، وإنما مسألة واقع إنساني يدور بين إنسان قوي وآخر ضعيف فيفرض القوي إرادته على الضعيف ، فيأتي الإسلام ليُدخل التوحيد كقيمة عليا فوق الواقع الإنساني تعمل كنصير طبيعي لصالح الضعيف ضد القوي المعتدي الذي يطغى ويحتل دور الإله فيتعارض في موقعه مع موقع التوحيد على الساحة الإنسانية . بمعنى أنّ الإسلام يلعب دوره الفعال من خلال تغيير المعادلة على الساحة الإنسانية من معادلة ثنائية تدور بين الإنسان

والإنسان الآخر بما يؤمن لأحدهما بالتسلط على الآخـر ، إلى مـعادلة ثـلاثية تفرض التوحيد كقيمة عليا أسمى من الطرفين وأولى بالحاكمية والعلو كـصفة لا يحق لاي من الطرفين الادعاء بها . وأنّ الادعاء بها بداية العدوان والظلم ، ظلم لله سبحانه باعتبار ذلك الادعاء نوعاً من المنازعة مع الله سبحانه وتعالى في ردائه واشتراك معه فيما هو مختص به ، وظلم للإنسان باعتبار أن نفي التوحيد يؤدي إلى تعالي الناس بعضهم على بعض ، ومن هنا وصف الشرك في القرآن الكريم بـأنّه ظلم عظيم : ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾.[1]

وإذا راجعنا القواميس والمعاجم السياسية وجدناها تركز على عناصر خاصة في تعريفها للمقاومة ، ففي موسوعة المورد نقرأ أنّ : « حركات المقاومة حركات تنظمها الأحزاب السياسية عادة لشغل العدو المحتل واستنزاف قواه من طـريق القيام بعمليات التخريب وحرب العصابات ، ومن طريق المظاهرات والإضرابات وغيرها من أشكال المقاومة السلبية»[2].

فهنا عنصر الأحزاب السياسية والعدو المحتل ، وفي الموسوعة العربية الميسرة نقرأ : ان المقاومة السرية « اصطلاح يطلق على المقاومة السرية المنظمة التي قام بها الفرنسيون ضد الاحتلال الألماني لبلاد هم إبان الحرب العالمية الثانية. ولو أنـه حدثت مقاومات سرية أُخرى في إيطاليا وهولندا وبلغاريا».[3]

هنا كذلك ظهر الاحتلال كعنصر ملحوظ في تعريف المقاومة ، وفي موسوعة السياسية نقرأ : ان مقاومة الطغيان والاضطهاد هي « الحق الذي يتمتع به الأفراد أو الجماعات والذي يتيح لهؤلاء أن يتصدوا لكل التصرفات غير القانونية والجائرة

---

(١) لقمان: ١٣ .

(٢) المورد: ٨ / ١٤١.

(٣) الموسوعة العربية الميسـرة، ١٧٣٠، ط: دار العلم للملايين.

التي تصدر عمن هم في موقع المسؤولية»[1].

ونلاحظ في هذا التعريف اختفاء عنصر الأحزاب وعنصر العدو المحتل واتساع دائرة المقاومة بحيث تشمل الأفراد والجماعات وتستهدف كل سلوك غير قانوني سواءً صدر من عدو محتل أو حاكم وطني أو أي فرد آخر في موقع المسؤولية.

كما نلاحظ ظهور عنصر جديد هو عنصر الحق، حيث جرى التعبير عن المقاومة بأنها حق. وقد ظهر هذا التعبير لأول مرّة في الإعلان الفرنسي عن حقوق الإنسان الصادر في آب ١٧٨٩ م، والذي ينص على حق الإنسان في مقاومة الاضطهاد[2].

أما الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في كانون الأوّل ١٩٤٨ م فلم ينص على ذلك، نعم نص ميثاق الأُمم المتحدة على حق تقرير المصير، وهو يتضمن حق المقاومة إذا توقف تقرير المصير على ذلك.

الثورة لغة واصطلاحاً

والثورة في اللغة بمعنى الهيجان والغضب، قال ابن منظور: «ثور الغضب حوته والثائر الغضبان... ويقال: انتظر حتى تسكن هذه الثورة وهي الهيج»[3].

وفي المعجم الوسيط: «الثورة تغيير أساسي في الأوضاع السياسية والاجتماعية يقوم به الشعب في دولة ما»[4].

وفي موسوعة المورد: «الثورة انتفاضة على الحكم القائم وطنياً كان أو أجنبياً

---

(١) موسوعة السياسة ١ : ٤٠.

(٢) المورد ٨: ١٥٢.

(٣) لسان العرب ٢ : ١٤٨.

(٤) المعجم الوسيط ١ : ١٠٢، دار العلم للملايين.

تؤدي في كثير من الأحيان إلى الإطاحة به»[١].

وفي الموسوعة العربية الميسرة: «تغيير جوهري في الأوضاع السياسية والاجتماعية لدولة معينة لا تتبع في أحداثه الوسائل المقررة لذلك في النظام الدستوري لتلك الدولة، ويفرق بعضهم بين الثورة وبين قلب نظام الحكم، على أساس الأوّل يقوم بها الشعب نفسه بينما يقوم بالانقلاب بعض رجال الحكم، ويبني آخرون هذه التفرقة على أساس أنّ الهدف من الثورة هو أحداث تغييرات جوهرية في النظام السياسي أو الاجتماعي، بينما يهدف قلب نظام الحكم إلى مجرد إعادة توزيع السلطة السياسية بين هيئات الحكم المختلفة أو أشخاص القائمين به»[٢].

ومع ان المقاومة والثورة تشتركان في ارتكازهما على ثلاثة عناصر هي: رفض ومرفوض ومطلوب إلاّ أنّ الفرق الأساسي بينهما في هوية الأمر المطلوب، فالأمر المطلوب في المقاومة تحرير البلاد من سلطة ديكتاتورية أو احتلال أجنبي دون النظر إلى بديل محدد، بينما الأمر المطلوب في الثورة يتمثل في بديل اجتماعي وسياسي محدد، أو أنّ الأمر المطلوب في المقاومة مندك في الأمر المرفوض، بخلافه في الثورة فإنه أمر مستقل عنه.

وعلى ذلك فالثورة في الإسلام: عمل تغييري جذري يستهدف نقل المجتمع البشري من حضارة أرضية مادية إلى حضارة سماوية معنوية.

---

(١) المورد ٨: ١٤٣، ط: دار العلم للملايين.

(٢) الموسوعة العربية الميسرة ٥٨٣، ط: ٢.

مفهوم الثورة والمقاومة وأركانه في الإسلام

مفهوم الثورة والمقاومة في الإسلام

إذا تتبعنا القرآن الكريم في سوره وآياته سوف لا نجد فيه أثراً لكلمة المقاومة، رغم تردد مادة «قوم» فيه تردداً واسعاً وبصيغ مختلفة، الأمر الذي يجعلنا نبحث عن معادل قرآني له، فإنّ القرآن الكريم طرح مفاهيم القتال والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحرب والبراءة واللعن والتقية والدفاع والتغيير. وكل واحد منها يتضمن معنى الرفض والمقاومة. فهل المقاومة تساوي مجموع هذه المفاهيم؟

إذا تأملنا تلك المفاهيم وجدنا أنّ مفهوم الدفاع يمثل المعادل القرآني لمفهوم المقاومة، ذلك أنّ عنصر الدفع لأمر سيّيء غير مرغوب فيه يمثل العنصر المشترك بين مجموع المفاهيم القرآنية المذكورة من جهة، والعنصر المشترك بينها وبين مفهوم المقاومة من جهة ثانية، وقد استخدم القرآن الكريم مادة«دفع» عشر مرات بصيغ مختلفة، والآيات هي: **﴿إنَّ عذاب ربّك لواقع ما له من دافع﴾**[1]، **﴿سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع﴾**[2]، **﴿فإذا دفعتم اليهم اموالهم فاشهدوا...﴾**[3] **﴿فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم اموالهم﴾**[4]، **﴿ادفع بالتي هي احسن السيئة ...﴾**[5] **﴿ادفع بالتي**

---

(١) الطور: ٧ و ٨.

(٢) المعارج: ١ و ٢.

(٣) النساء: ٦.

(٤) النساء: ٦.

(٥) المؤمنون: ٩٦.

هي احسن...﴾[١]، **﴿ان الله يدافع عن الذين آمنوا ...﴾**[٢] **﴿ولو لا دفع الله الناس بعضهم بعض لفسدت الأرض...﴾**[٣] **﴿ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع...﴾**[٤] **﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله اوادفعوا ...﴾**[٥] **﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**[٦].

ففي جميع هذه الآيات هناك دفع لأمر غير مرغوب، وحتى في دفع الأموال إلى الأيتام في المرتين الثالثة والرابعة هناك أمر غير مرغوب يحتاج إلى دفع، وهو بقاء هذه الأموال خارج أيدي الأيتام بعد تحقق رشدهم، فلم تعبر الآية الكريمة بالإعطاء إليهم واختارت كلمة الدفع بدلاً عن الإعطاء لتشعر المخاطب بوجود خطر على مصلحة الأيتام يحتاج إلى دفع.

وربما اعتقد البعض وفقاً لذلك ضرورة التمسك بمصطلح الدفاع وعدم صحة استعمال مصطلح المقاومة كبديل عنه، وذلك انطلاقاً من الحرص على عدم استعارة المصطلحات من الآخرين، والتمسك بالأصالة الإسلامية، وهو حرص صحيح وضروري، ولكنه في هذا المورد لا ضرورة له؛ لأنّ المصطلحات على نوعين:

١ ـ مصطلحات ذات صبغة أيديولوجية، كالليبرالية والديمقراطية والاشتراكية والبرجوازية والديالكتيك.... الخ

٢ ـ مصطلحات محايدة، كالدولة والحكومة والقانون والثورة.... الخ والأصالة الإسلامية أنما تقتضي الحذر من النوع الأوّل دون الثاني الذي بوسع أصحاب جميع

---

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) الحج: ٣٨.

(٣) البقرة: ٢٥١ .

(٤) الحج: ٤٠.

(٥) آل عمران: ١٦٧.

(٦) الرعد : ١١ .

الأديان والمذاهب والأيديولوجيات استخدامه، ومصطلح المقاومة من جملة مصطلحات النوع الثاني. ويترجح استعمال هذا المصطلح على مصطلح الدفاع بلحاظ أنّ الدفاع مصطلح فقهي خاص بحالة الحرب ضد اعتداء خارجي ولا يشمل المفاهيم القرانية الأُخرى التي تنطوي على بعد دفاعي بمعنى خاص كالجهاد الذي هو دفاع عن حق التوحيد في أن يكون محور الحضارة والمسيرة البشرية بدلاً عن الطواغيت والشرك، ودفاع عن المسيرة البشرية التي يتحكم بها الطواغيت من غير حق لا بمعيار وضعي ولا سماوي. مع أنّ مصطلح المقاومة متداول في كتب الفقه منذ القدم[1]، وإن كان المقصود منه عندهم خصوص الدفاع، خلافاً لما نحن بصدده من تعميم هذا العنوان على الجهاد والأمر والنهي أيضاً.

وبملاحظة الجهات المختلفة نجدان المقاومة في الإسلام تعني فريضة شرعية يجب على المكلف القيام بها لنفي ودفع ما حكمت الشريعة بنفيه ودفعه، وهي فريضة ذات مراتب قلبية وعقائدية إضافة إلى المرتبة العملية المتوقفة على أعمال الجوارح، ويتميز هذا التعريف بثلاثة امتيازات أساسية هي:

١ ـ ان المقاومة فريضة.

٢ ـ إنها فريضة على كل مكلف.

٣ ـ إنها فريضة شاملة تعم القلب والعقل والجوارح.

والكلام في كل واحد من هذه الامتيازات تارة يقع في إثباته وأُخرى في بيان حقيقته.

أمّا الامتياز الأوّل فمن الواضح أنّ الجهاد والدفاع والأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) انظر ـ على سبيل المثال ـ الفصل الخاص بأحكام الجهاد من كتاب الشرائع للمحقق الحلي.

المنكر والبراءة من أعداء الله ورسوله وأوليائه أنما هي فرائض شرعية ينبغي على المسلمين القيام بها، كما أنّ التقية تعني الثبات على المرتبة القلبية من فريضة البراءة، واللعن تعبير لفظي عن هذه الفريضة في المواطن الضرورية. وهذا يعني ان المقاومة في الإسلام ليست مجرد حق من الحقوق، وإنما هي بمرتبة أعلى من ذلك، وهي الفريضة التي يلزم المسلم القيام بها، وهذا ارتقاء لا يجده مفهوم المقاومة في غير الإسلام، فقد مرّ أن بعض المواثيق والمقررات الدولية أهملت الصفة الحقوقية للمقاومة أصلاً، وأنّ بعضها الآخر أشار إليها ونص عليها، ونجد في الإسلام أنّ هذه الصفة ترتقي درجتها القصوى فتأخذ طابع الوجوب والفريضة الشرعية اللازمة.

وهنا ينبغي التمييز بين نوعين من المقاومة، المقاومة في أمر شخصي والمقاومة في أمر عام، النوع الأوّل حق شخصي يقبل الإسقاط، بل إسقاطه والعفو والصفح فيه أمر مستحب ومن مكارم الأخلاق. قال تعالى: ﴿**وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم له خير للصابرين**﴾[1] ﴿**الذين ينفقون في السّراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾[2] والنوع الثاني هو الفريضة الشرعية التي لا تقبل الإسقاط. وهو محل البحث.

وهنا يتجلّىٰ امتياز الإسلام على ما سواه. فالذين اعتبروا المقاومة حقاً من الحقوق نظروا اليها نظرتهم إلى أمر شخصي. وهم عاجزون عن الارتقاء إلى نظرة أفضل، فإنّ غاية ما تستطيع النظرة الوضعية الأرضية أن تقوله للإنسان المظلوم هو أن تقول له: من حقك أن تدافع عن نفسك. وليس بوسعها أن تقول له: يجب عليك ذلك؛ لأنّ الوجوب ينطلق من قدرة أعلى، والنظرة الوضعية أنما هي نظرة الإنسان

---

(١) النحل: ١٢٦.
(٢) آل عمران: ١٣٤.

لإنسان آخر مثله ، والفرق بين الحق الشخصي والحق العام ، بين الحق والوجوب، ناشئ من الشعور بالمسؤولية تجاه قضية الإنسان ومصيره ، فالمقاومة أخذت في النظرة الوضعية طابع الحق الشخصي الذي يقبل الإسقاط؛ لعدم الإحساس بقدرة أعلى تكلف الإنسان بمسؤولية مكافحة الظلم والفساد في الأرض وتحاسبه عند عدم القيام بذلك ، بينما أخذت طابع الحق العام والفريضة الشرعية اللازمة على كل حال نتيجة الإحساس بمثل هذه القدرة والشعور بالمسؤولية تجاه مظاهر الفساد والظلم في الحياة . ومن هنا ندخل في الامتياز الثاني.

فقد وجدنا في التعاريف الوضعية للمقاومة أنها سلوك تقوم به جمعيات وأحزاب معينة ، وترقى بعضها، فحذف هذا العنوان وذكر عنواناً عاماً هو الأفراد والجماعات ، وهذا أقصى ما يمكن في النظرة الوضعية التي تنظر إلى المقاومة من زاوية الحق الشخصي ، ومقتضى هذه النظرة أن تكون المقاومة حقاً شخصياً لمن اضطهد وظلم ، فهنا قيدان.

الأوّل: ان المقاومة حق يقبل الإسقاط، وقد مرّ الحديث عنه.

والقيد الثاني: ان المقاومة خاصة بمن اضطهد وظلم ، فلا يحق لغيره أن يقاوم، ومقاومة الغير فضول وتدخل فيما لا يعنيه من أُمور الآخرين ؛ والمنشأ للقيد الأوّل هو ذاته السبب للقيد الثاني أيضاً ، فإنّ الشعور بالمسؤولية أمام الله سبحانه وتعالى والذي كلّف الإنسان بمقاومة الظلم والفساد في الأرض ، هذا الشعور حوّل المقاومة من حق شخصي خاص بالمظلوم وقابل للإسقاط إلى فريضة شرعية عامة يقوم بها المظلوم وغيره ولا تقبل الإسقاط ، وهذا ما يكشف عن الخلل الأيديولوجي والأخلاقي العميق القائم في الحضارة الغربية منذ ظهورها وحتى الآن، باعتبارها حضارة استعمارية على طول الخط، وأنها تبرر الاستعمار بالديمقراطية، إذ ليس هناك في الأيديولوجية الليبرالية الغربية ما يسمح بهذا السلوك حتى لو كان

الغربيون صادقين في شعار الديمقراطية، إذ ليس هناك ما يبرر نشر الديمقراطية عبر الغزو. بخلاف ما عليه الإسلام الذي يجد نفسه رمز الحق في الأرض، ووظيفته الطبيعية هي الدفاع عن المظلومين.

ويأتي الامتياز الثالث ليجعل المقاومة في أعلى ما يمكن تصوره من الزخم والفاعلية، فإن أقصى ما تستطيعه النظرة الأرضية هو أن تمنح المظلوم حقاً في التعبير العملي عن المقاومة باليد أو باللسان، بينما تأتي النظرة السماوية لتتغلغل إلى أعماق النفس وتوظف القلب والعقل والعاطفة بالمقاومة وتعتبر ذلك الحد الأدنى من فريضة المقاومة، وأساسها العميق.

فإنّ الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع والبراءة من أعداء الله ورسوله فرائض عملية تنطلق من أعماق وجدانية وعقائدية تمثل القاعدة والأساس الأوّل لها، من خلال فكرة الإسلام عن صراع الحق والباطل، ونزاع الخير والشر، فالمؤمن يقف دائماً في معسكر الحق والخير ليكافح معسكر الباطل والشر من خلال ممارسته لتلك الفرائض، ومن هنا فالمرتبة العقائدية والقلبية تمثل الأساس الذي إذا تنازل المؤمن عنه أنما يخرج بذلك عن معسكر الحق، والإيمان وعدم الإيمان يدور مدار الالتزام وعدم الالتزام به.

قد يقال: إنّ هذا الكلام نوع من تحصيل الحاصل، فكل من يقاوم أنما يقاوم أمراً مرفوضاً من الناحية الوجدانية لديه، والمؤمن والكافر في ذلك سواء.

الجواب:

إنّ الفرق بين المؤمن والكافر في ذلك هو أنّ المؤمن يمارس المرتبة القلبية من المقاومة في إطار عقائدي صحيح يضمن مسيرة المقاومة واستقامتها ويحدد أهدافها الصحيحة ويبعدها عن الأهداف الانحرافية التي قد تطرأ عليها في المستقبل، من خلال ما يرسمه هذا الإطار من خط مستقيم له بداية معلومة ونهاية واضحة، بما

يؤدّي إلى تعميق حس المقاومة في النفس وشدة اندفاعتها على الساحة الاجتماعية، بخلاف الكافر الذي يمارس المرتبة القلبية كشعور مبهم بلا إطار عقائدي يعمقه ويجعله حالة تفصيلية ذات بداية واضحة ونهاية معلومة وأهداف مستقيمة على طول خط المقاومة ، تأكيد الإسلام الدائم على المرتبة القلبية أنما هو تأكيد على استحضار هذا الإطار في صقع النفس كطريق لضمان مسيرة المقاومة وأهدافها ومصيرها ، وعدم تحولها في المستقبل إلى استعمار جديد على طرف ضعيف، كما فعلت الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية ذلك، حينما أصبح نابليون ورؤساء أمريكا طغاة جدد على الساحة البشرية.

أركان الثورة والمقاومة

ومن خلال الامتياز الثالث ينفتح الباب للحديث عن أركان المقاومة.

فالمقاومة إذا ما أخضعناها لنظرة تحليلية فاحصة وجدناها سلوكاً يبدأ من نظرة كونية معينة وينتظم من خلال مقررات معينة ويتحرك على الساحة الاجتماعية من خلال ما يملكه الشخص من ملكات معينة، بمعنى أنها وليدة ثلاثة أركان متفاعلة مع بعضها ، نظرة كونية ومقررات وملكات ، النظرة الكونية هي ما يراه الشخص من ان المقاومة أمر ينبغي القيام به ، والمقررات هي المسيرة التي عليه أن يطويها في هذا الاتجاه، والملكات هي نوع الاستعدادات الأخلاقية التي تستلزمها هذه المسيرة.

الركن الأوّل يمثل الركن العقائدي ، والثاني يمثل الركن التطبيقي العملي ، والثالث يمثل الركن الأخلاقي ، ومن مجموع هذه الأركان تتكون مقولة المقاومة في حياة الإنسان ، فالذي لا يملك عقيدة المقاومة لا يستطيع أن يكون مقاوماً ، وكذا الذي لا يملك تصوراً عن المسيرة العملية للمقاومة ، والآخر الذي لا يملك الاستعدادات

الأخلاقية والملكات الشخصية اللازمة لهذه المسيرة.

إن عقيدة المقاومة تعني التمسك بنظرة كونية مقاومة للباطل وإشباع العقل بمثل هذه النظرة، وأخلاق المقاومة تعني إشباع الصورة الباطنية للنفس بروحية المقاومة وتهيئتها بهذا الاتجاه، وفقه المقاومة يعني البرنامج العملي التطبيقي الذي تتكفل به الجوارح،عقيدة المقاومة تعني العقل المقاوم،وأخلاق المقاومة تعني النفس المقاومة، وفقه المقاومة يعني الجوارح المقاومة، والأركان الثلاثة تعني الشخصية المقاومة في عقلها وملكاتها النفسية وجوارحها.

ان المقاومة أُطروحة تحمي العقيدة والأخلاق والفقه من الاختراق الغربي، ولا معنى لهذه الأركان الثلاثة ما لم تكن حاوية على بعد من المقاومة يحميها من الأخطار المحيطه بها ويحول دون ظهور أركان ثلاثة جديدة مشوهة ذات صبغة معادية، كظهور الإسلام الأمريكي الذي يحمل صبغة محرفة في عقيدته وأخلاقه وفقهه.

وهذا يعني ان المقاومة في جوهرها مقولة حضارية شاملة، سوى أنّ هذا الطابع الشامل له حالتان، حالة المقاومة في صراع داخلي ضمن حضارة واحدة، وحالة المقاومة في صراع بين حضارتين مختلفتين،في الحالة الأُولى يختفي الطابع الحضاري، ولا ويظهر في الحالة الثانية فحينما يثور الفرنسي ضد الاحتلال الألماني لبلاده أنما يخوض صراعاً سياسياً من أجل الاستقلال، ولكن حينما يثور المسلم ضد الاحتلال الغربي لبلاده تأخذ هذه الثورة طابع الصراع الحضاري بين طرف إسلامي وآخر غربي، وربما لجأ الطرف الغاشم إلى إنكار ذلك، ولكن على الطرف الآخر أن لا يصدق بهذا الإنكار وأن ينظر إليه كوسيلة خادعة يلجأ إليها الخصم للتخفيف من حدّة المقاومة المضادة، ولذا تجد الاستعمار الغربي يحاول في الجانب السياسي إنكار هذا الطابع والتأكيد على الأهداف الإنسانية لما يقوم به من استعمار بلدان المسلمين ونهب

ثرواتهم، رغم أنه على الصعيد الفلسفي يؤمن بهذا الطابع إيماناً عميقاً من خلال ما يتحدث عنه من صراع الحضارات تارة وصراع العرق الأبيض مع العروق الصفراء والسمراء والسوداء تارة أُخرى، ونظرية القوة والمنفعة واللذة تارة ثالثة.

إنّ المفهوم الحضاري الشامل للمقاومة هو المفهوم الواقعي والطبيعي لكل صراع يدور بين طرفين، والدليل على ذلك أنّ المسلم الذي يتخلى عن إسلامه ويؤمن بشيء مما يقوله المستعمر الغربي لا يستطيع أن يدخل ميدان التحرير من السيطرة الغربية على بلاد المسلمين، ويرى موقفه الطبيعي هو تبرير العدوان الغربي وضرب المقاومة الإسلامية له والوقوف إلى جانب المستعمر.

خصائص مفهوم الثورة والمقاومة في الإسلام

يحظىٰ مفهوم المقاومة في الإسلام بأربع خصائص أساسية هي:

١ ـ مفهوم حضاري شامل

ذكرنا أنّ الطابع الحضاري للمقاومة هو الطابع الطبيعي لها ، سوى أنه طابع محسوس في حالة وغير محسوس في حالة أُخرى ، وخصوصية الإسلام في ذلك أنه يبرز هذا الطابع ويجلّيه ويؤكد عليه؛ لأنه يمثل الحضارة الصحيحة في دنيا الإنسان ، قال تعالى : **﴿والعصر ان الإنسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾**[١] وما عداه خطوات ومحاولات يظنها أصحابها أنها حضارات، ولكنها سراب يحسبه الضمآن ماءاً . قال تعالى : **﴿والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الضمان ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، اوكظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾**[٢] .

وكل عمل صغير أو كبير يقوم به الإسلام على الساحة الإنسانية أنما هو في إطار نشر الحضارة الصحيحة ومكافحة الحضارة الفاسدة . وبالتالّي فكل عمل مخالف للإسلام لابد أن يندرج في إطار صراع الحق والباطل الجاري بين الحضارتين ، ومكافحة الإسلام لمخالفيه تأتي في هذا الإطار وكل من ينسب نفسه للإسلام لابد أن

---

(١) سورة العصر .

(٢) النور: ٣٩ ـ ٤٠.

يستحضر هذا الإطار في ما يقوم به من أعمال وأنشطة مختلفه ذات علاقة بحركة الإسلام على الساحة البشرية سواءً ما كان منها داخل العالم الإسلامي وما كان منها خارجه، باعتباره الإطار الذي يمثل الحقيقة، وكلما فارق الإنسان الحقيقة وقع في الوهم والخيال والخديعة وصار في النتيجة ضحية لسلسلة من الأضرار الفادحة؛ لأنّ الإنسان الناجح هو الذي يبني أمره على الحقيقة، والإنسان الفاشل هو الذي يفرّ من الحقيقة، وفي ظل هذا الإطار يكتشف الإنسان الحقيقة، ويفقدها كلما خرج عنه، والخروج عنه هدف يطلبه الخصم ليضلل الضحية وليقلل من درجة رد الفعل لديه، فيما يتمسك هو بهذا الإطار ويلتزم به التزاماً كاملاً، ليوفر على نفسه الزخم المطلوب للانتصار في المعركة الجارية. ونحن نسأل: لماذا يتحسس الغربيون من عدد من الفتيات المسلمات المحجبات إذا دخلت المدارس الغربية بحجابهن؟ أليس الزي من جملة الحرية الشخصية التي هي أقدس مقدساتهم؟ ولماذا يقلق الغربيون أشدّ القلق من مفاعل نووي يقام للأغراض السلمية في إيران أو باكستان أو العراق وإن خضع للرقابة الغربية الصارمة، فيما يباح لهم ولإسرائيل إنتاج الأسلحة النووية التي يمكنها أن تهدم الكرة الأرضية بأجمعها وعدم الخضوع لرقابة من أحد في ذلك؟ وما معنى حديثهم عن صراع الحضارات؟ وما معنى الضربة الاستباقية التي يوجهونها نحو العالم الإسلامي؟ وما معنى توجيه وتركيز تهمة الإرهاب بحق المسلمين وقرآنهم العزيز رغم أنهم لا يقومون إلاّ بعمل مشروع وطبيعي في حساب كافة النظم والأعراف والقوانين والشرائع، وهو المقاومة من أجل ضمان استقلال بلدانهم من سيطرة الغربيين عليها؟. وما معنى حديث بوش عن حروب صليبة جديدة؟ ولماذا يدخل اللورد اللنبي القدس في مطلع القرن العشرين وهو يقول: الآن انتهت الحروب الصليبية؟ ولماذا يقول غلادستون وزير المستعمرات البريطانية: ما دام هذا القرآن بأيدي المسلمين فلن يقر لنا قرار في بلادهم؟ وما

معنى الإسلام الليبرالي الأمريكي الجديد الذي صنعته المخابرات الأمريكية؟ أليس ذلك كله يدل على أنهم يتحركون في إطار حضاري ؟ بينما يصدّق المسلم المسكين أنّ الغرب يريد الخير للمسلمين، وأنّ هناك تهويلاً وأدلجة مصطنعة للأمور . دون أن يكلف نفسه أن يقرأ قوله تعالى: **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾**(١) ويسأل سؤالاً بسيطاً هو:

لماذا يباح للغربي أن يتحسس من حجاب الفتيات المسلمات في مدارس ولا يباح للمسلم أن يتحسس من وقوع العراق وأفغانستان وفلسطين تحت الاحتلال الأمريكي الصهيوني الصريح ، ودولٍ إسلامية أُخرى تحت الاحتلال العسكري الأمريكي غير المعلن ؟ بل إنّ تحسسه هذا يضعه في دائرة الإرهاب ؟ ولماذا يباح للغربيين ، معاداة المسلمين إلى هذا الحد، وإذا قام أحد من الناس بعمل ضد المصالح الصهيونية اتهمه الغربيون بمعاداة السامية المتمثلة بشعب الله المختار ؟

إنهم يؤكدون على إخراج المسلمين من الإطار الحضاري للمعركة من أجل امتصاص روح المقاومة وتقليلها إلى أقل حدّ ممكن ، وهذا درس أفادته الحروب الصليبية التي استمرت ١٧٧ عاماً ما بين عامي ١٠٩٥ م ـ ١٢٧٢ م، وانتهت بانكسار الصليبين ، حيث وجدوا أنّ فشل هذه الحملات في تحقيق أهدافها يعود إلى تمسك المسلمين بحضارتهم ، فالإناء المملوء يقاوم انصباب ماء جديد فيه . والإناء الخالي يتقبل ذلك ، وإذا ما أُريد للحملات الجديدة النجاح فينبغي قبل ذلك تفريغ إناء المسلمين ليفقدوا حساسيتهم ومقاومتهم ضدها .

ذلك ان المقاومة تستمد أصل وجودها من عامل، وتستمد زخمها وقوتها وفاعليتها من عامل آخر ، العامل في أصل وجودها يتمثل بالقانون الطبيعي القائل:

---

(١) البقرة: ١٢٠.

لكل فعل رد فعل يساويه في القوة ويعاكسه في الاتجاه، وقد أقرّ القرآن الكريم دور هذا القانون في إيجادها، قال تعالى: ﴿وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾[1] قال تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ....﴾[2] وقال تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا...﴾[3] ففي هذه الآيات الثلاث جعل القرآن الكريم معاقبة الكفار ورد اعتدائهم ومقاتلتهم ردود فعل على أعمالهم.

والعامل في قوة المقاومة وضعفها يتمثل في مدىٰ قوة وضعف الشعور الذاتي عند المقاوم، فكلما اشتد هذا الشعور وتعمق إحساس الإنسان بذاته أكثر كلما اشتدت مقاومته، ويبلغ الإنسان أعلى مراتب الشعور الذاتي حينما ينتمي لحضارته ويرى نفسه صاحب رسالة منقذة للبشرية، وهذا ما لا يتحقق للمسلم إلاّ حينما ينتمي لحضارته ويعتز بدوره كإنسان صاحب رسالة سماوية منقذة للبشرية، قال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم انفسهم﴾[4] فنسيان النفس تعبير عن تضاؤل الشعور الذاتي وفقدان الهوية. وقد قررّت الآية أنه ناشئ من نسيان الله سبحانه وتعالى، وحال المسلم حينما ينسى الله أسوأ من حال الكافر؛ لأنّ المسلم لا يملك ذاتية خارج دائرة الإسلام، فإذا خرج من الإسلام فقد خرج من كل شيء، بينما يملك الخصم قوة مادية تتمثل بالتكنلوجيا، والاقتصاد والأسلحة الفتاكة والسيطرة السياسية على العالم، إضافة إلى الحضارة التي يخدع بها كل من سلب عنه الشعور الذاتي، ولذا فحينما يؤكد الخصم على محاربة الإسلام فإنما يريد أن يسلب من المسلم كل شيء ويحوله إلى عصفور لا يحسن إلاّ الزقزقة أمام

---

(١) النحل: ١٢٦.

(٢) البقرة: ١٩٤.

(٣) البقرة: ١٩٠.

(٤) الحشر: ١٩.

الغزوات الاستعمارية المتكررة والمتواصلة منذ عدّة قرون.

وموقفنا الطبيعي في مواجهة هذه المحاولة يتمثل بالتأكيد على تقوية الشعور الذاتي حتى نوصله نهاية مداه عبر التأكيد على الطابع الحضاري للحالة القائمة بيننا وبين الاستعمار الغربي.

ولذا ذكرنا سابقاً ان المقاومة في الإسلام وليدة التفاعل بين ثلاثة أركان هي: عقيدة المقاومة ، وفقه المقاومة ، وأخلاق المقاومة . وسنخصص الفصول الثلاثة المتأخرة لشرح هذه الأركان ، وسنتناول فيها العناوين العقائدية والفقهية والأخلاقية الدخيلة في تكوين كل ركن فيها ، بالنحو الذي يعكس مدى قدرة الإسلام على إنجاز مقاومة متكاملة وفعالة وهادفة بأقصى ما يمكن تصوره . ومدى نجاح هذا الدين في حل مشكلة مصيرية من مشاكل الإنسان المسلم وغير المسلم في هذا العصر وفي كل عصر، والعناوين الدخيلة في كل ركن من الأركان الثلاثة هي ما كان له نوع علاقة ومدخلية مباشرة بمقولة المقاومة بحيث يقدم لها عطاءه على مستوى معين ويشكّل مع نظائره وحدة نوعية واحدة منسجمة مع بعضها ، وبالنحو الذي يجسد وبوضوح توفر الإسلام على مشروع متكامل وناضج بشان المقاومة.

٢ ـ مفهوم حيوي

الدفاع والمقاومة من خصائص الكائن الحي، وشأن الميت شأن الجمادات لا تقاوم ولا تدافع . ولذا قال الشاعر:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

ويعد الشعور بالألم هو أوّل بادرة للمقاومة عند الكائن الحي ، وهو بمثابة إعلان حالة الإنذار إزاء خطر داهم ، وقد أودع الله سبحانه وتعالى حس المقاومة عند كل كائن حي ، وزوده بإمكانات الدفاع ، كلٌّ بما يناسبه، حتى نملة سليمان كانت تملك

وسيلة المقاومة أمام ملك عظيم كسليمان (ع) وجنوده . قال تعالى : **﴿حتى إذا اتوا على واد النمل قالت نمله يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾**(١) وهذا من حكم الله العظيمة في خلقه ، وغيرته ومحبته لمخلوقاته أن يمنحها فرصة الدفاع عن نفسها أمام كل خطر يواجهها . ولذا فالدفاع حالة فطرية في كل كائن حي، أي أنها من الأُمور الذاتية التي لا تقبل الوضع ولا الرفع ولا التعليل ، كالدهنية في الدهن والحرارة في النار،فالحرارة لم يضعها إنسان في النار ولا يستطيع إنسان أن يرفعها عنها، ولو سأل أحد الناس: لماذا النار حارّة لاستهجن الآخرون منه هذا السؤال.

وكذا المقاومة سلوك طبيعي في كل كائن معتدى عليه ، فهي ليست أمراً مجعولاً ولا قابلاً للرفع من قبل أحد ، ولو سأل سائل : لماذا دافع فلان عن نفسه؟ لاستهجن الآخرون هذا السؤال ؛ لأنّ ما يستحق السؤال والتعليل هو الاعتداء بأن يقال : لماذا اعتدى فلان على فلان ؟ فما يُعلل ويسأل عن علته هو الفعل لا ردّ الفعل ، ومقولة : «أنا أُفكر إذن أنا موجود» يمكن تحويرها بالنحو التالي : «أنا أقاوم إذن أنا كائن حي» وخصوصية الإسلام في ذلك كله أنه يمنح الإنسان المعنى الحقيقي لحياته ، قال تعالى : **﴿يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾**(٢) والحياة التي يضيفها الإسلام إلى الإنسان هي حياة القلب والبصيرة والإحساس بالأهداف المقدسة للوجود على ظهر الأرض ، بما يجعل المؤمن أكثر حساسية تجاه العدو ومخططاته وأساليبه.

ولذا شبّه أمير المؤمنين تارك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنّه ميت بين

---

(١) النمل: ١٨.

(٢) الانفال: ٢٤ .

الأحياء قال (ع) : «من ترك إنكار المنكر بقلبه ولسانه فهو ميت بين الأحياء»[١].

وقال في موضع آخر: «قد استطعموكم القتال فأقِرّوا على مذلة وتأخير محلة، أو روّوا السيوف من الدماء ترووا من الماء ، فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين»[٢] فالساكت عن ظالم يظلمه أو قاهر يقهره إنسان ميت . ومن هنا جاء وصف الرسول الأعظم (ص) لمرتبة الإنكار بالقلب بأنها أضعف الإيمان، وهو وصف يوحي بالاستنكار ، وكأنها مرتبة من ليس له من الحياة إلاّ أضعف درجة، وذلك بلحاظ أنّ الإنكار بمرتبة اليد واللسان لا يخلو من طريق يؤدي إليه إذا كان هناك حرص وجدية في البحث عنه.

٣ ـ مفهوم مرن يدور بين حدّين

المقاومة في الإسلام مشروع عملي يسعى لضمان الهدف وتحصين الأُمة ضمن ظروف الواقع ، ولذا فهو يدور بين حدّين أصل واستثناء ، الأصل هو المقاومة الإيجابية الفعالة ، والاستثناء هو المقاومة السلبية ، المقاومة الإيجابية تمثل مبادرة لمواجهة الخطر ، والمقاومة السلبية ليست مبادرة وإنما هي موقف احترازي يتخذ لإفشال مبادرة العدو والحيلولة دون نجاحه في تحقيق أهدافه. المقاومة الإيجابية تمثل حدَّ الكمال في مواجهة الخطر، والمقاومة السلبية تمثل حد دفع النقيصة ، الجهاد والدفاع ومرتبة اليد واللسان من وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاثة مواقف شرعية تمثل المقاومة الإيجابية في الإسلام، والتقية ومرتبة الإنكار بالقلب موقفان آخران يمثلان المقاومة السلبية . وبعد المقاومة السلبية يأتي التخاذل الذي يمثل حالة الوقوع في الخطر والاستسلام له ، فهنا ثلاث حالات بين كل حالتين منها

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ١٣٢.

(٢) نهج البلاغة : من خطبة ٥٢.

عدة فروق .

فالفروق بين المقاومة الايجابية والسلبية هي :

١ ـ الذي يمارس المقاومة الإيجابية يمارس الأصل الذي لا أصل بعده، والذي يمارس المقاومة السلبية يمارس حالة استثنائية، بما يعني أن يوطن نفسه على العودة إلى الأصل، وأن يسعى إلى رفع موجبات حالة الاستثناء، كلما أمكن ذلك أو اتضح له ان المقاومة السلبية غير مفيدة لوحدها .

٢ ـ ان المقاومة السلبية تواجه خطر الترويض، فالعدو يتابع خطواته وأهدافه، والتخلي عن المقاومة الإيجابية يُعتبر نوعاً من الانتصار له، وهذا الانتصار يتم بترويض المقاومة السلبية وتذويبها وحرفها عن أهدافها، بينما المقاومة الإيجابية لا تواجه هذا الخطر، أو تواجهه بدرجة أقل .

٣ ـ الذي يمارس المقاومة السلبية يدافع بها عن نفسه لئلا يقع في خطر التخاذل، والذي يمارس المقاومة الإيجابية يدافع عن الأُمة وكرامتها ووجودها .

٤ ـ المقاومة الإيجابية يمكن أن تتعذر في حالة من الحالات، ولكن المقاومة السلبية لا يمكن أن تتعذر بحال من الأحوال، ولذا فهي مرتبة أضعف الإيمان والحد الأدنى الذي يجب على كل مكلف به أن يقوم به، ومرتبة التقية التي يصفها الإمام الصادق بقوله : «التقية ديني ودين آبائي»[1] .

٥ ـ المقاومة السلبية مظهر لمقاومة ناقصة على مستوى العقيدة فقط، بينما المقاومة الإيجابية مظهر لمقاومة كاملة على مستوى الأركان الثلاثة، فقه المقاومة وأخلاق المقاومة وعقيده المقاومة .

أما الفروق بين المقاومة السلبية والتخاذل فهي عبارة عن :

---

(١) وسائل الشيعة ١٦ : ٢١٠، ط: مؤسسة آل البيت.

١ ـ المقاوم سلبياً إنسان صاحب قضية ويبحث عن أنصار، والمتخاذل إنسان بلا قضية .

٢ ـ المقاوم سلبياً إنسان يختزن أحاسيس ومشاعر ثورية، والمتخاذل إنسان يعيش أحاسيس ذليلة تجاه العدو.

٣ـ المقاوم سلبياً إنسان ينتظر الفرصة المناسبة للوثوب نحو المقاومة الإيجابية والمتخاذل يخلو من هذه الصفة .

٤ ـ المقاوم سلبياً إنسان متحرز عن الوقوع في التخاذل .

٥ ـ المقاومة السلبية تعني استمرار الرفض، والتخاذل يعني انقطاع الرفض.

٦ ـ المقاوم سلبياً إنسان واعٍ والمتخاذل إنسان مخدوع .

وهذا معنى قول الإمام الصادق التقية ديني ودين آبائي، فليس المقصود بهذه الكلمة إنّ التخاذل ديني ودين آبائي ، وإنما المقصود أنّ سبل المقاومة الإيجابية إذا لم تتيسر فعليكم بالمقاومة السلبية التي تحميكم من الوقوع في الجاهلية، وتحرسكم عن التخاذل، فالتقية هي الاحتفاظ بروح المقاومة والحرص على عدم ضياعها احترازاً من خطر الوقوع في الجاهلية.

٤ ـ المقاومة مفهوم هادف

المقاومة مفهوم يتحرك باتجاه هدف هو دفع التحديات ومكافحة الأخطار ورد عادية الأعداء ، فالمقاومة وسيلة من أجل هدف ، والوسيلة يجب تنظيمها في ضوء ذلك الهدف ، ويترتب على ذلك أثران :

أ ـ إننا لا نستطيع أن نكتفي بنوع من المقاومة دون آخر مالم ننظر إلى الهدف، فالهدف هو الذي يتحكم بنوع ودرجة المقاومة المطلوبة، فربما اقتضى الهدف في زمان ومكان نوعاً ودرجة منها ، واقتضى في زمان ومكان آخر نوعاً ودرجة

أُخرى منها ، ولذا فمن غير المناسب أن يتحدث البعض عن الاكتفاء بـالمقاومة السلمية وعدم الاحتياج إلى المقاومة المسلحة بنحو منفصل عن الهدف ، خاصة في هذا الزمان الذي ربما اعتبرت أمريكا المقاومة السلمية نوعاً من إتاحة الديمقراطية وتمرين شعوب المستعمرات عليها . فما يعتبره المضطهدون مقاومة لا يحقق الهدف المنشود، بل يضرُّ به وينفع الاستعمار الأمريكي .

ب ـ الهدف هو الجوهرة الثمينة التي ينبغي التمسك بها ، والحيلولة دون ضياعها ، وهو أغلى شيء في الساحة ؛ لأنه يقودها إلى التكامل ، يستثمر محاسنها، ويوحد قواها المختلفة ، ويجعلها تستفيد من كل نقطة قوّة ممكنة وتستبعد كل نقطة ضعف في الداخل أو الخارج . فإذا وجد الهدف المقدس وتمحورت الساحة حوله حضرت الأُمة في الساحة ؛ لأنّ الأُمة لا تحضر ولا تضحي إلاّ من أجل هدف مقدس ، وإذا فقد الهدف المقدس غابت الأُمة عن قضيتها ، وانفصم بذلك ظهر الساحة الإسلامية . وبدأت تتحرك على أساسين كلاهما شرٌّ عليها ، أساس الأسماء والعناوين الفئوية والشخصية التي تتكاثر إلى حدّ لا يعرف الحصر والعّد فتهدد الساحة بالتشرذم ، وأساس ردود الأفعال تجاه الآخرين ، فكل طرف يتحرك بذهنية نفي الآخر مهما كانت النتائج ، الأمر الذي يجعل الأطراف بالنتيجة تلقي مـفاتيح الساحة بـيد الأجنبي.

نظرية الصمت والسكوت

لو أنّنا لم نأخذ بنظرية الثورة الشعبية الإسلامية، ولم نتخذها منهجاً وسلوكاً، فما هي النظرية البديلة، والموقف البديل عنها؟ لاشك أنّ البديل هو نظرية الصمت والسكوت، كما تسكت الشاة أمام الجزار، ونظرية السكوت هي الأُخرى تتكون من ثلاثة أركان، سكوت العقيدة، وسكوت الأخلاق، وسكوت الفقه، فنظرية الثورة تأتي إحياءً لهذه الأركان الثلاثة، ونظرية السكوت تأتي للقضاء عليها؛ لأنّ الثورة وجود، والسكوت عدم، الله سبحانه وتعالى وجود وما سواه عدم، ومن يتعلق بما سوى الله والإسلام أنما يتعلق بعدم، العلم وجود والجهل عدم، والإسلام هو العلم وما عداه جهل، الصحة وجود والمرض عدم وفقدان، والإسلام هو الصحة وما عداه مرض، الشريعة وجود وما عداها أهواء وضلالات، الإيمان إيمان بموجود والكفر ستر لذلك الموجود، والاستقلال وجود والاحتلال عدم، الأُمة وجود وسقوطها يعني التحول إلى غثاء كغثاء السيل، الخير وجود والشر عدم، والإسلام هو الوجود وما عداه شر وتعلق بعدم، الحق وجود والباطل عدم، والإسلام هو الحق ومن تعلق بغيره أنما تعلق بعدم، حاكمية الله على عباده وجود يصنع العدل، والعلمانية والليبرالية وكل من لم يخضع لحاكمية الله أنما تعلق بعدم، والتعلق بعدم يصنع الظلم. وحقاً قال الإمام الحسين (ع) في دعائه: «**ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك**»[1].

(١) بحار الانوار ٩٥: ٢٢٦، ط: مؤسسة الوفاء.

أثر نظرية السكوت على العقيدة

أنّ نظرية السكوت تحوّل الإسلام إلى قشور وصناعة ألفاظ وعبارات منمقة وشعارات فارغة، تُحول الإيمان لدينا من إيمان بإله مبير الظالمين، مدرك الهاربين، نكال الظالمين، صريخ المستصرخين، غياث المستغيثين، موضع حاجات الطالبين، ولي المؤمنين، يهلك ملوكاً ويستخلف آخرين، ويمد المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، إلى إله ساكت لا شأن له مع الظالم ولا يغار على مظلوم، من الإيمان بإله عادل إلى الإيمان بإله ظالم، والإله الظالم لا وجود له، والإسلام الذي يبنى على إله ظالم ساكت لا وجود له، بمعنى أنّ نظرية: الصمت تنقلنا من الوجود إلى العدم، لأنّ الإسلام الساكت لا وجود له، وهو وهم يلقيه الشيطان في أذهان المؤمنين ليبعدهم عن دين الله سبحانه وتعالى، الإسلام الصامت إسلام كاذب يجعل أهله يكذبون على الناس بادعاء الإسلام، الإسلام الساكت إقرار لنظرية اليهود القائلة: ﴿**يد الله مغلولَةٌ غُلَّتْ أيديهم ولُعنوا بما قالوا بَل يداه مبسُوطَتَانِ**﴾[1] يقيم بهما العدل ويدفع بهما الجور وينصر بهما المظلوم ويكف بهما الظالم.

نظرية الصمت تعني النبوة الصامتة، وهي مما لا وجود له في التاريخ والعقيدة، والنبوة الموجودة في العقيدة والتاريخ هي النبوة الثائرة على الظلم والمكافحة للظالمين، إنّ النبوة والإمامة عندنا خط العدالة والحق الثابت عبر التاريخ، ورموزه رموز العدالة والحق في كل مكان وزمان، ونظرية السكوت تحول الأنبياء والأئمة من خط ثابت عبر التايخ إلى أفراد ظهروا في الماضي وانتهى دورهم، بما يسمح للناس في أن يتعلقوا بأفراد من قبيل هتلر ولينين وبوش وصدام على أنهم منقذين ورموز

---

(١) المائدة: ٦٤.

صالحين للمسيرة البشرية الجديدة، إنّ الناس لم يتعلقوا بالشيوعية والديمقراطية والقومية العربية بما هي هي، وإنما تعلقوا بهذه العناوين بحثاً عن العدالة، شأنهم في ذلك شأن الظامئين الذين يبحثون عن السراب وربما شربوا من ماء آسن وهم يتصورون من فرط عطشهم أنهم يشربون الماء العذب، فتعلقوا ببوش وصدام وهتلر ولينين دون أن يعلموا أنّ هؤلاء ماء آسن، ففرحوا ببوش وصارت فرحتهم أفجع من فجيعتهم، وصاروا لا يميزون بين الفرح والفجيعة، لأنّ الماء العذب قد حجبته نظرية: الصمت عن هؤلاء المظلومين في الحياة، فنظرية الصمت هي الوجه الداخلي للطغاة، والطغاة هم الوجه الخارجي لنظرية الصمت.

قال رسول الله (ص): **«يا علي شرُّ الناس من باع آخرته بدنياه، وشر منه من باع آخرته بدنيا غيره»**[1]. ولا يبيع إنسان دينه بدنيا غيره إلاّ بسبب نظرية الصمت، وقال تعالى: **﴿ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين﴾**[2].

ونظرية الصمت هي التي تجعل الناس يخوضون مع الخائضين، تارة مع جيفارا وأُخرى مع هتلر، وثالثة مع صدام ورابعة مع بوش؛ لأنها تستر عن الناس الوجه الحقيقي للإسلام، إسلام نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد وأهل بيته الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين.

نظرية السكوت تؤدي إلى دين كاذب لعق على ألسنة الناس يحوطونه ما درّت معايشهم، دين اللاأُبالية والفرار من المسؤولية حتى يظهر الإمام المهدي(ع) ويظهر معه الدين الحقيقي، فيتصور الناس أنّ ديناً جديداً قد ظهر، من شدّة ما قامت به

---

(١) وسائل الشيعة ١٦ : ٣٤، ط: آل البيت.

(٢) المدثر: ٤٢ ـ ٤٥.

نظرية الصمت من طمس معالم الإسلام.

إنّ محبة الإمامة الواجبة على المؤمنين هي محبة العدل وعشق العدالة، وما تبع الناس أهل البيت(ع)، وما ظهر في التاريخ شعار الرضا من آل محمّد إلاّ مما كانوا يمثلونه من صرخة العدل في وجه الطغاة، فجاءت نظرية الصمت وحولت ارتباط الناس بأهل البيت(ع) من ارتباط بخط العدالة إلى ارتباط بمسألة الشفاعة فقط ، ومن محبة لخط العدالة إلى محبة لأفراد بما هم أفراد وأشخاص؛ لأنها فككت بين الأئمة(ع) وبين خط العدالة، وجعلت الناس يحبون أهل البيت(ع) فراراً من المسؤولية وبحثاً عن الشفاعة الأُخروية رغم أنّ أهل البيت(ع) قد تبرّأوا من الغلاة والكسالى والصامتين.

وجاءت نظرية الصمت إلى الانتظار المهدوي وحولته إلى سكون تحت سكين الجزار، بينما هو في الحقيقة مصنع لمهدويين صغار يبشرون البشرية بالعدالة المهدوية، ويجعلون البشرية تتعلق بالمهدي الصغير وتبحث عن المهدي الكبير بفارغ الصبر.

وما اشتراط قبول الأعمال بولاية الأئمة(ع) إلاّ اشتراط بالارتباط بخط العدالة، فلا يقبل عمل من أعمال المؤمن إلاّ إذا جاء ذلك في إطار خط العدالة المنحصر بهم(ع)، وحينما استولت نظرية الصمت على الأذهان وفصلت خط الإمامة عن خط العدالة أصبح هذا الشرط نوعاً من اللغز الذي يتعسر فهمه، وما برزت ظاهرة الغلاة في التاريخ إلاّ حينما قام هؤلاء بفصل الأئمة(ع) عن خط العدالة، واستغرقوا في الجانب الشخصاني من الأئمة(ع) وأهملوا الجانب الإنساني المتمثل بخط العدالة الاجتماعية. وما تأكيد الأئمة(ع) على إحياء الشعائر الحسينية باستمرار إلاّ تاكيد على الارتباط بخط الثورة من أجل العدالة، وبمصنع يجهز الأُمة بحسينيين صغار يربطونها بالحسيني الكبير القادم في آخر الزمان تحت شعارات يالثارات الحسين(ع). فجاءت نظرية الصمت وقضت على هذا المصنع وحولته إلى أنقاض وصار الحسين(ع) معركة

منتهية، وصار الناس يلعنون يزيد كشخص ولا يلعنونه كخط مستمر في صدام وبوش والسائرين على دربهما، بل جعلت الناس يتنازعون بين مؤيد لصدام بعنوان أنه أقل سوءاً من بوش، ومؤيد لبوش بعنوان أنه أقل سوءاً من صدام. بين مؤيد لظالم ومؤيد لكافر، وهكذا يخرج الناس من النور إلى الظلمات بسبب نظرية الصمت التي تحجب عنهم عدالة الإسلام وتجعلهم في أزمة عقائدية، لأنّ الظالم تلميذ الكافر، والنجاسات شيء واحد.

أثر نظرية الصمت على الأخلاق

لقد أدّت نظرية الصمت إلى ظهور شخصية غريبة قلقة مضطربة تحمل في داخلها حضارتين متناقضتين، حضارة الإسلام وحضارة الغرب، ومن الطبيعي أن لا تكون شخصية كهذه شخصية منتجة ولا مستقيمة، وأسوأ ما في الأمر أن تنظر هذه الشخصية لحالها ولا تدري ما الذي دهاها؟ وماهو السبب في انحطاطها؟ وكيف اصبحت مهزلة بين الأُمم؟ وكيف يجب أن تفكر؟ مما يجعلها عرضة لأن تأخذ بكل شيء يقال لها، فتزداد بذلك قلقاً وإرباكاً. الشخصية الإسلامية المعاصرة لا تتحلى بالأخلاق الإسلامية؛ لأنّ الإسلام لا يمثل حالة متكاملة قائمة في الدولة والمجتمع، وهو في وعي الناس صورة مشوهة ناقصة، ولا تتحلى بما عليه الغربيون من الانضباط القانوني؛ لأنّ الانضباط القانوني يتولد في ظل ثقافة وقيم اجتماعية مستقرة وحياة سياسية راسخة عبر عدة أجيال. والمجتمعات الإسلامية لا تملك ثقافة مستقرة ولا قيم اجتماعية ثابتة ولا حياة سياسية وقانونية راسخة، وكل ذلك بفعل التدخلات الغربية الثقافية والسياسية والاقتصادية والقانونية في حياة المسلمين طيلة أكثر من قرن من الزمان، الأمر الذي يجعل الإنسان المسلم فاقداً لكلا الحسنين، الانضباط القانوني الذي عند الغربيين، والأخلاق الإسلامية معاً،

عقدة الحقارة عند الإنسان المسلم حالتها القياسية، فيفقد ثقته بنفسه، ويرى كل شيء عنده دنيئاً وكل ما عند الغربيين حسناً، قال الرسول(ص) لأصحابه يوماً: **«كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟ فقال: نعم وشرّ من ذلك كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فقيل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم وشرّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً»**(١).

وبذلك تكونت لنا شخصية مشوهة لا تنتمي إلى الإسلام ولا إلى الغرب ولا تنتج شيئاً، وتتسم بفقدان الاختيار والإرادة، وعدم القابلية على الوعي الصحيح، وأصبحنا أسرى نكرر مقولات الغربيين بلا تحقيق، ولا نعرف أساساً ندرسها في ضوئه.

إنّ نظرية السكوت هي الوجه التقبلي الداخلي لنظرية المؤامرة الغربية، ونظرية المؤامرة هي الوجه الفاعلي الخارجي لنظرية السكوت. وإذا كانت المبادرة والنطق والفاعلية مقياس لتطور الشخصية، فالصمت والسكوت مقياس لانحطاطها.

والإشكال الأساسي يتمثل في أنّ نظرية السكوت تمثل صوت الفرد المنفصل روحياً وفكرياً وعقائدياً ومصيرياً عن الأُمة. فللفرد حالتان، حالة يرى نفسه فيها عضواً في الأُمة له ما لها وعليه ما عليها، ويرى سعادته في انتمائه إليها وشقاءه في انفصاله عنها. ومثل هذا لا يعد فرداً بل هو أُمة بحجم شخص واحد، ونظرية الثورة والمقاومة هي الصوت الطبيعي المعبر عن وجدان الأُمة سواءً ظهرت بحجم شخص واحد أو ملايين الأشخاص.

وحالة أُخرى يرى نفسه فيها فرداً منفصلاً عن الأُمة، في روحه وحاضره

---

(١) وسائل الشيعة ١٦: ١٢٢، ط: آل البيت.

ومستقبله وفكره ومصيره، ويرى سعادته في هذا الانفصال والانعزال، ولا يرى نفسه مسؤولاً عما يحصل للأُمة، مثل هذا الفرد يرى نظرية الصمت الصوت الطبيعي المعبر عن وجدانه الانعزالي الشاذ، وهو في هذه الحالة لا يستطيع أن يفهم نظرية الثورة على وجهها الطبيعي، ويراها شعارات فارغة لا معنى لها، وحينما يرى الدين مقولة ثورية في جوهرها يتجه إلى جعله صناعة ألفاظ خاوية لا روح فيها، ويقضي على الروح الاجتماعية فيه، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً من فرط ما فيه من نزعة فردية مسيطرة على فكره وذهنه بحيث يعجز عن أن يرى حقيقة اجتماعية أمامه. فإن ظهرت هذه الحقيقة في دين تحايل عليها بتحويل الدين إلى صناعة لفظية. ومهما تكاثر الأفراد في هذه الحالة لا يمثل وجودهم هذا أُمة، هناك أفراد يجتمعون فيكوّنون أُمة، وهناك أفراد لا يكوّنون أُمة مهما تكاثروا، بل يكوّنون حالة «ناس»، هناك فرد يؤدي إلى ظهور أُمة، وفرد يكوّن حالة «ناس». فقد كتب الرسول(ص) في صدر صحيفة المدينة التي كانت بمثابة دستور دولة النبي(ص): **«هذا كتاب من محمّد بن عبدالله النبي، نبي المسلمين والمؤمنين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم إنهم أُمة واحدة من دون الناس...»**[(١)].

فالمسلمون كانوا في مكة يمثلون حالة «ناس»، وأصبحوا في المدينة يمثلون حالة أُمة، وغيرهم «ناس». والفرق بين الحالتين كالفرق بين إناء مقعر وإناء مسطح، الأُمة إناء مقعر يحفظ الإسلام والأفراد والاستقلال والمصالح، والناس إناء مسطح لا يحفظ الإسلام ولا الأفراد ولا الاستقلال ولا المصالح. وما لم يتحول الناس إلى أُمة لا يمكنهم أن يفهموا الإسلام على وجهه الحقيقي الكامل، وسيبقى فهمهم له ناقصاً. وهذا معنى ما ورد في زيارة الجامعة: **«بموالاتكم علّمنا الله معالم ديننا وأصلح ما كان فسد من**

---

(١) سيرة المصطفى، هاشم معروف الحسني: ٢٢٧.

دنيانا»[1]. بالأُمة تتم معالم الدين ومصالح المسلمين، وولاية المعصومين(ع) هي الأساس والمظهر للأُمة. ولولاهم لكان المسلمون «ناس».

أثر نظرية السكوت على الفقه

إنّ نظرية السكوت تؤدي إلى ظهور البدع وكتمان الشريعة وإخفاء ما أنزل الله على نبيه، ونشوء الفقه الترقيعي التبريري الذي يؤكد على الألفاظ دون المعاني، ويهتم بالأقوال دون الأعمال، وتتضخم فيه النظرية من دون تطبيق، ويصبح حال الإسلام فيه حال الشرائع المنسوخة، وينسى فيه الناس شيئاً اسمه أشرف الفرائض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشيئاً اسمه الدفاع والجهاد، وشيئاً اسمه الحق والعدالة ويصبحون إناء خالياً يقبل ما يلقيه الغربيون فيه مما عندهم من مفاهيم تضليلية تحريفية تخرجهم من النور إلى الظلمات.

ففقه السكوت ليس بوسعه أن يفهم دولة كدولة الإمام علي(ع) وثورة كثورة الإمام الحسين(ع)، فلو كان الإمام علي(ع) من فقهاء السكوت لاستعمل صناعة لفظية واسعة تجيز له التعامل مع معاوية وطلحة والزبير وأخيه عقيل ورؤساء قبائل الكوفة بطريقة أُخرى غير التي سجلها التاريخ له، ولو كان الإمام الحسن(ع) من فقهاء السكوت لصالح معاوية قبل انفراط جيشه من حوله، ولو كان الإمام الحسين(ع) منهم لما قام بثورته ولما أصبح أعلى رمز ثوري في التاريخ، ولما اصطدم معه فقهاء السكوت الذين قالوا عنه: قتل بشريعة جده[2]، وأوقع نفسه في التهلكة، ولو كان أئمة أهل البيت(ع) من بعده من فقهاء السكوت لما قضوا نحبهم بالسم واحداً

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٠٩ ـ ٦١٧، ط جامعة المدرسين.

(٢) حياة الإمام الحسين، باقر شريف القرشي، ص ٤٠٣، ط: مكتبة الداوري، والكلام لابن العربي في رسالته المعروفة بـ«العواصم».

بعد الآخر.

إنّ فقه السكوت إناء مسطح لا يحفظ الشريعة، وفي ظله يتجاهل الناس مفاهيم الإسلام عن الحق والعدل والاستقلال والكرامة، وفقه المقاومة إناء مقعر يحفظ الشريعة وفي ظله يفهم الناس معنى الحق والعدل والاستقلال والكرامة والهوية في حياتهم، ويرون سعادتهم بذلك، وشقاءهم بغيابه عنهم.

إنّ فقه السكوت يؤدي إلى غياب حاكمية الإسلام، وهذا يؤدي إلى الخضوع لحاكمية أمريكا، ومن مجموع ذلك يتضح أن السكوت لا يمكن أن يكون نظرية؛ لأنّ النظرية أفكار علمية تستحق الدفاع العلمي، والسكوت تعبير عن الكسل واللاأُبالية وانعدام الشعور بالمسؤولية، أي أنه أمر عدمي، والأمر العدمي لا يمكن أن يكون نظرية. قال تعالى: **﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون﴾**[١]، فالشريعة هي الكيان العلمي الوحيد في حياة الإنسان، وما عداها أهواء الذين لا يعلمون، والأهواء فراغ، والفراغ أمر عدمي، والأمر العدمي لا يمكن أن يكون نظرية. ولذا قيل: **«الساكت عن الحق شيطان اخرس»**.

والمقصود بنظرية السكوت من يتخذها منهجاً ثابتاً في الحياة، لوضوح أنّ الإنسان قد يضطر إلى السكوت في بعض الأحيان، فهذه حالة خارجة عن البحث، والمهم أن يكون المنهج الثوري هو الأساس في سلوك الإنسان المسلم كخط ثابت وستراتيجية دائمة، يقيم نفسه على فرائضها ويستزيد من نوافلها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا يتخذ السكوت منهجاً دائماً له، وقاعدة أساسية في سلوكه.

وسيأتي في الفصل الآتي الحديث عن معالم المنهج الثوري عند الأئمة(ع)، وسيتضح ما يؤكده في الفصول اللاحقة أيضاً، ويجب أن لا نغترّ بورود كلمة الصمت

---

(١) الجاثية: ١٨.

على لسان بعض الأئمة (ع) فنتصور ذلك منهم وكأنه إقرار لنظرية الصمت وخروج عن نظرية الثورة، كما في الخبر الوارد عن حمران بن أعين أنه سأل الإمام الباقر(ع) عن نهوض الإمام علي(ع) والإمام الحسن(ع) والإمام الحسين(ع) بطريقة الاستفهام عن سرّ عدم نهوض الأئمة(ع) من بعدهم فقال له الباقر(ع): **«يا حمران إنّ الله تبارك وتعالى قد كان قدر ذلك عليهم وقضاه وأمضاه وحتمه على سبيل الاختيار ثم أجراه، فبتقدم علم إليهم من رسول الله(ص) قام عليّ والحسن والحسين عليهم السلام وبعلم صمت من صمت منّا»**[(١)].

فقوله (ع): «بعلم صمت من صمت منا» يدل على أنّ المنهج الثوري عند الأئمة له مرحلتان، الأئمة الثلاثة الأوائل قاموا بالمرحلة الأُولى، وسائر الأئمة قاموا باستثمار وتركيز وترسيخ معطيات المرحلة الأُولى، وتحويلها إلى منهج تربوي وثقافي في الأُمة، المرحلة الأُولى هي مرحلة أحداث الهزة العنيفة من أجل تصحيح مسيرة الأُمة، والمرحلة الثانية هي مرحلة استثمار هذه الهزة وتحويلها إلى أساس من شأنه إعادة التوازن إلى الأُمة وتعميق المنهج الثوري كحالة ثابتة في المجتمع، وكلمة الصمت عند الإمام(ع) بلحاظ هذا المعنى، وبلحاظ ما سيأتي تفصيله في الفصل الخامس من انقسام خط العدالة إلى ثلاثة أثلاث، وأنّ ثلث الدفاع مقدم على ما عداه، فقام الأئمة(ع) من بعد الإمام الحسين(ع) بثلث الدفاع وصمتوا عن شيء من ثلث الحكومة الإسلامية، وقاموا بشيء آخر هو زرع دولة الفقيه العادل داخل دولة السلطان الجائر، فكان صمتاً بعلم وعلى أساس، ولم يكن بجهل.

---

(١) الكافي ١: ٢٦١ ـ ٢٦٢، ط: آخوندي.

من هو المخاطب بنظرية الثورة؟

حينما يبين لنا الإسلام أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدفاع والجهاد وظائف شرعية، المخاطب بها مجموع الأُمة، فهذا يعنى أنّ الأُمة هي المخاطب بنظرية الثورة، ومن الناحية الميدانية يتم توزيع هذه الوظيفة على المحاور الداخلية التي تمثل مكونات الأُمة، فيقوم كل محور بحصته منها، كأساس في حياته، وستراتيجية ثابتة في سلوكه، ومعنى لوجوده وهدف مقدس يبحث عنه بجد وصدق، مهما طال الزمان، ومهما اقتضى الأمر من تضحيات والمحاور هي:

١ ـ الفرد

وظيفة الفرد هي أن يعيش روحية الأُمة، ولا يستغرق في شعوره الفردي، ولا يعتبر هذا الشعور مخبأً يحصل فيه على الأمان، لأنّ وجوده بوجود الأُمة، ولا وجود له بدونها، وعليه أن يعيش ثقافة الثورة والتغيير الإسلامي ويشيعها بين الآخرين ويقيم نفسه على فرائضها ويقبل على نوافلها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويحرص على إيجاد مجتمع يعيش أصالته الإسلامية والوطنية الثورية باستمرار.

٢ ـ الحركات الإسلامية

المعنى الوحيد للحركة الإسلامية المعاصرة هو أن ترفع لواء الإسلام والاستقلال والعدالة في وجه الشيطان الأكبر، وتطبق الإسلام وتصوراته ومفاهيمه على معركة الحق والباطل، وتترك المفاهيم الأُخرى الضالة المضلّة، ومن لا يكون إسلامياً مع نفسه و لا يطبق الإسلام في سلوكه كيف يستطيع أن يسمي نفسه إسلامياً؟ ومن يخرج عن مفاهيمه وتصوراته العقائدية والشرعية يصبح ليبراليّاً من

حيث يريد أو لا يريد، وقد ظهرت الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي كبديل عن الأنظمة العلمانية لضمان استقلال الأُمة، ولم تظهر على أن تكون العكاز الجديد للاستعمار بدلاً عن أنظمة بالية في حسابات هذا الاستعمار.

٣ ـ حكومات المسلمين

تعيش الحكومات القائمة في العالم الإسلامي بين خيارين، فإما أن تستمر بوضعها الحالي تواجه الإذلال وخطر الإسقاط في كل لحظة، وإمّا أن تسلك طريقاً مشرّفاً يعيدها إلى أحضان الإسلام والأُمة الإسلامية. وعزة الإسلام أفضل لها من ذُلّ الأمريكان، وحماية الأُمة أكرم لها من الاعتماد على البيت الأبيض، وإذا كان لابد لها من السقوط، فسقوطها وهي في حال الدفاع عن الإسلام والأُمة الإسلامية أشرف لها من السقوط وهي في أحضان الاستعمار.

٤ ـ الحوزات والمعاهد الدينية والخطباء

على الحوزات والمعاهد الدينية أن تمارس مسؤوليتها الطبيعية في الحياة وتترك نظرية السكوت والصمت التي تمثل حالة التقبل الضمني لهزيمة الإسلام وسقوط المسلمين في هوّة سحيقة، والتي تحوّل الرسول (ص) وأهل البيت(ع) والسلف الصالح من خط رسالي ثابت عبر التاريخ يرسم للبشرية مصيرها وأهدافها ومستقبلها إلى مجموعة أشخاص مدفونين في قبور، وانتهت علاقتهم بالحياة وعلاقة الحياة بهم، وهذه أسوأ خيانة بحقهم وبحق البشرية المحتاجة إليهم في كل زمان ومكان، وبحق الإسلام الذي يؤكد عليهم كخط ثابت ومستمر، بحيث إنّ النهاية المهدوية للتاريخ ستقوم على أساس شعار: يالثارات الحسين، بما يعني ضرورة التعامل مع الحسين(ع) كرمز لقضية الحق وصراعه مع الباطل في كل زمان ومكان، وأن تأخذ الثقافة والشعائر الحسينية طابع الخط الذي يمد الساحة بجماهير حسينية

وأُمة حسينية على طول الخط.

٥ـ المدارس والصحافة والإعلام

وما يصدق على الحوزات والمعاهد الدينية يصدق على المدارس والجامعات والصحافة والإعلام.

٦ـ الجماهير المسلمة

على الجماهير المسلمة أن تدرك أنها صاحبة المصلحة في الإسلام، وأنّ كل ما حصل ويحصل عليها من ظلامات ناشئ من غيابها عن الساحة واختفائها عن مواقع المسؤولية العامة، وأنها متن الساحة وأساس القضيةً، وأنّ الانتصار لا يتم بدونها، وأنّ حضورها انتصار وغيابها هزيمة.

وعلى كل واحد من هذه المحاور أن يقوم بوظيفته بغض النظر عن حالة الآخرين هل قاموا بوظائفهم أم لا؟

الفَصۡلُ ٱلثَّانِي

الثورة والمقاومة في إطارها العقائدي الشامل

الإطار العقائدي للحياة البشرية واقع وضرورة

يتساءل الكثيرون عن دور العقيدة في حياة الإنسان، وربما مالوا إلى هامشية هذا الدور، واعتقدوا أنّ الإصرار على العقيدة إصرار على أمر غير واقعي أو قليل الواقعية في حياة الإنسان.

ومنشأ هذا التساؤل يعود إلى خطأ في مفهوم العقيدة، فهؤلاء يتصورون أنّ العقيدة هي ما كان على غرار الإسلام والمسيحية والماركسية فقط، وحيث إنّ حضور هذه العقائد في سلوك الناس شيء قليل، لهذا يتصور هؤلاء أنّ العقيدة لا تحظىٰ بأهمية وواقعية في حياة الناس إلاّ بشيء قليل لا يتناسب مع مايدعيه أصحاب العقائد والأيديولوجيات.

والحال أنّ مفهوم العقيدة أعم مما يتصوره هؤلاء، فالعقيدة هي كل فكرة يجعلها الإنسان أساساً لحياته، فإذا جعل الإسلام أساساً لحياته فهو عقيدة، وإذا جعل الليبرالية أساساً لحياته فهي عقيدة، وإذا جعل المصلحة أساساً فهي عقيدة، وحتى لو جعل اللاعقيدة أساساً في حياته فاللاعقيدة تصبح عقيدة في هذه الحالة، وإن كان صاحبها ينكرها في الظاهر.

وبالنتيجة فالعقيدة لا يمكن أن تنفصل عن الحياة وعن السلوك بحال من الأحوال، والإنسان عقائدي في كل حالة من حالاته، حتى حينما يفر من العقيدة، لأنه في كل حالاته يجعل حياته قائمة على فكرة ما، وبحث الإنسان المستمر عن عقيدة أفضل أنما هو في الحقيقة بحث عن فكرة أكثر تطابقاً مع الواقع وأكثر عطاءً لحياته، ولا يوجد إنسان لا يحمل فكرة يجعلها أساساً لحياته، ولا يجعل الإنسان

فكرة معينة أساساً لحياته إلاّ وهو يتصورها الفكرة الأكثر تطابقاً مع الواقع والأكثر عطاءً لحياته، وعلى هذا الأساس تراه يقبل بنظرية ويرفض أُخرى، يؤمن بفكرة ويرفض أُخرى، زعماً منه أنّ هذه تتطابق مع الأساس المذكور وتلك لا تتطابق معه.

إذن فالمسألة العقائدية مسألة واقعية تماماً في حياة الإنسان، ولا يرفض الإنسان عقيدة معينة إلاّ وهو في تلك اللحظة ينتصر من حيث يشعر ويريد، أو من حيث لا يشعر ولا يريد إلى عقيدة أُخرى تسربت بطريقة ما إلى فكره وآمن بها وجعلها أساساً لحياته.

وفي زحمة العقائد يشعر الإنسان أنّ الصحيح منها عقيدة واحدة تتطابق مع الواقع وتمثل مصلحة الإنسان وما عداها عقائد باطلة، وأنّ عليه أن يبحث عن العقيدة الصحيحة ويعمل بها ويبتعد عن العقيدة الباطلة.

ولذا أوجب الإسلام على كل مكلف أن يعتقد بأُصول الدين عبر الدليل والبرهان ولم يقبل بإيمان يأتي بتقليد الآباء والأجداد على ماهم عليه، واعتبر العقيدة الصحيحة هي تلك التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور، والعقيدة الباطلة هي التي تخرجهم من النور إلى الظلمات، قال تعالى: ﴿ **اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إِلى الظُّلُمَاتِ** ﴾[١].

فالإسلام عقيدة النور وما عداه عقيدة الظلمات، ومعنى ذلك ضرورة أن نستحضر هذا النور في كل مسائل الحياة لكي نتمكن من رؤية الواقع على ماهو عليه وبتمام أبعاده، ولا تهجم علينا الظلمات التي تزيفه وتبعدنا عن الرؤية الضرورية الصحيحة له. والفرق بين الإسلامي وغير الإسلامي هو في استحضار

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

وعدم استحضار الرؤية النورية الإيمانية، وكلما غفل الإسلامي عن عقيدته وأخذ يحاكي الآخرين في طريقة تعاطيهم مع الأُمور السياسية أوالاقتصادية أوالقانونية المختلفة فسيخرج عن صفته الإسلامية، ويدخل صفة الآخرين العلمانية الليبرالية من حيث لا يشعر، وهو يظن أنه لا زال إسلامياً.

والثورة كمسألة من مسائل الحياة وموضوع من موضوعاتها الحيوية لابد لكل إسلامي أن يعالجه ويدرسه ويطبقه في ضوء النظرة الإيمانية وفي الإطار العقائدي، وكثيراً ما يحصل أن يجلس الإسلامي على مائدة الحوار مع الليبراليين والعلمانيين، فيراهم يتصرفون بطريقة ويدرسون الأُمور في ضوء معادلات وموازنات معينة فيختار لنفسه الطريق ذاته. وبمرور الزمن تتسرب النظرة العلمانية إليه ويفقد خاصيته الإيمانية من حيث لا يشعر، وإذا واجهه الآخرون بحقيقة إيمانية غابت عنه، اتهمهم بالتحجر والجمود والتطرف العقائدي، واعتبر نفسه اسلامياً واقعياً، مرتكباً بذلك مغالطة فاحشة بحق نفسه وبحق الإسلام وبحق إخوانه المؤمنين ومسيرته الإسلامية.

ولقد رأينا الإمام الخميني (قده) في عصرنا هذا قاد ثورة وأسس دولة وخاض حرباً اعتماداً على نظرة إيمانية صافية، ولم يعتمد على دراسات ستراتيجية، أو موازنات ومعادلات أومحاكاة العلمانيين في طرقهم وأساليبهم، وهذا لا يعني التنافي بين الأمرين، وإنما يعني أن يجعل المؤمن النظرة الإيمانية العقائدية أساساً في سلوكه، فإذا قام بذلك سيكون بصيراً في ما ينبغي وما لا ينبغي عليه دخوله من هذه المعادلات والموازنات، وإذا جعل الموازنات والمعادلات أساساً فسيجد نفسه في غنى عن النظرة الايمانية وسيعتبرها أمراً شكلياً زائداً عن نشاطه السياسي، وهذا يعني أنه أصبح علمانياً من حيث لا يشعر.

إنّ العقيدة والنظرة الإيمانية هي الأساس في كل شيء صحيح وضروري في

الحياة، هي الأساس للفكر الصحيح والحضارة الصحيحة والنظم الصحيحة والقوانين الصحيحة، وكذلك هو الأساس للمقاومة الصحيحة الفعالة التي تصل إلى الهدف الحقيقي بأقل خسائر ممكنة. والواقع التاريخي يشهد لذلك، فهل عرفت البشرية ثورة تصل إلى الهدف من خلال سطر واحد يكتبه القائد فتتلقفه الأُمة وتعمل به فتصل الهدف بسرعة قياسية ودون أن تخسر قطرة دم واحدة، تلك هي ثورة التنباك التي قادها الزعيم الديني السيد محمّد حسن الشيرازي، وهو في سامراء عبر سطر واحد كتبه إلى الشعب الايراني، قال له فيه: إنّ استعمال التتن حرام وبمثابة محاربة إمام الزمان(ع)، ورغم الفاصل الجغرافي وانعدام المواصلات بين القائد والأُمة إلتزم الشعب الإيراني برمته بهذا الحكم الشرعي بمن في ذلك خدام الشاه وحاشيته، فاضطر الشاه أثر ذلك إلى إلغاء اتفاقية التبغ المخلّة بالسيادة الإسلامية والاستقلال الاقتصادي للشعب الإيراني.

ولم يكن ذلك فلتة تاريخية، فثورة الدستور في إيران وثورة العشرين في العراق والثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني تجارب تاريخية متكررة أكدت قدرة الإسلام الرائعة على إنجاز ثورات مشرقة لا يعرف التاريخ لها مثيلاً، فقد كان انتصار الثورة الإسلامية انتصار الزهور على دبابات الشاه، حيث كان الشعب الإيراني يحمل الزهور في مواجهة جيش الشاه، فهل عرف التاريخ زهوراً تنتصر على قوة كانت تدعي أنها سادس قوة عسكرية في العالم؟

وكلما تمسك الإنسان المسلم بنظرته الإيمانية في مواجهة استبداد داخلي أو احتلال أجنبي وصل إلى نتائج قياسية، وكلما تخلّىٰ عن هذه النظرة واعتمد على الموازنات والمعادلات وأساليب الأحزاب العلمانية الأُخرى حصل على سراب ومزيد من الخسائر والدمار.

ثمرات الإطار العقائدي وإنجازاته

ذكرنا أنّ الحياة لا تنفك عن العقائد بحال من الأحوال، وأنّ الإنسان يبحث عن العقيدة التي تضمن مصالحه وسعادته، وأنّ العقيدة التي تحقق ذلك هي التي تتطابق مع الواقع الإنساني بتمام أبعاده وجوانبه، وأنّ المشاكل التي تظهر على الساحة الإنسانية عبارة عن نتائج لعقائد لا تتطابق مع الواقع الإنساني أوتتطابق معه تطابقاً ناقصاً يشمل جانباً ويهمل جانباً آخر، والعقيدة الإسلامية هي العقيدة الصحيحة والوحيدة التي تتضمن سعادة الإنسان وكماله ومصالحه؛ لأنها تتعامل مع الواقع الإنساني بتمام أبعاده، فتتعامل مع الدنيا والآخرة معاً، مع المادة والروح معاً، مع الحس والعقل معاً، وهذا هو السرّ الأساس لكونها العقيدة الوحيدة الصالحة في الإنسان.

وعلى هذا الأساس ينطلق السؤال التالي: ماهي الثمرات المترتبة على الإطار العقائدي؟ ماهي الحلول التي يقدمها هذا الإطار للمشاكل الميدانية التي تعترض سبيل الثورة؟

وكيف يتجلّىٰ كمال الإسلام وقدرته على انجاز الحلول لمعضلة الإنسان حينما يكون في مواجهة عدوغاشم وثورة تغييرية؟

إنّ الحديث عن العقيدة حديث عن الهدف ودوره في تطوير المسيرة البشرية وإنقاذها مما يدب فيها من أسباب الفساد، وقد اتضح آنفاً أنّ الإنسان مخلوق عقائدي هادف دائماً، ومشكلة الإنسان دائماً وأبداً تكمن في أنه لا يمسك بالهدف الصحيح المطلوب ويقع ضحية لهدف ناقص أو زائف يبعده عن الكمال رغم تصوره

أنه يسير نحو الكمال، والفرق بين ما يريده الإسلام وما يقع فيه الإنسان فرق بين الكمال والنقص، بين الحقيقة والزيف، ومنشأ هذا الفرق يعود إلى أنّ الإنسان وإن كان في أصل فطرته يدرك التوحيد كهدف سامٍ يقود الإنسان نحو الكمال، لكنه لوحده لا يتمكن من الإمساك والالتزام بهذا الهدف، وسرعان ما تـأتيه الغـريزة وتضغط عليه في أن يتركه، وكلما وجد نفسه بين هدف يدعوه إلى ضبط وتنظيم الغرائز والشهوات كضرورة للوصول إلى الكمال وغريزة تطالبه بالإشباع وغض النظر عن مسألة الكمال والحسن والعدل والأخلاق يجد أنّ ميزان القوة في داخله يميل إلى جانب الغريزة. وأنّ الهدف لا يحظىٰ بقوّة كافية تتيح له الثبات أمام ضغط الغريزة.

والحضارة الغربية هي صورة من صور الحضارات المادية القائمة على أساس هذه المعادلة التي تجعل الإنسان يفقد العقيدة الصحيحة ذات الهدف المقدس السامي المطلق ويتمسك بعقيدة فاسدة ذات هدف محدود زائف باطل. وهو يتصور أنه يمسك بعقيدة صحيحة وهدف صحيح. على غرار ﴿**الاخسـرين اعـمالا الذيـن ضـل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً**﴾. وهذا معنى الضلال والغواية. ومغزى وصف الدنيا في الخطاب الإسلامي بأنها دار الغرور والخداع. والمـرمى البعيد لفكرة الشيطان وتلبيساته على الإنسان المسكين.

ودور الإسلام في المسيرة البشرية هو دور العقيدة التي تصلح ميزان القوة في داخل الإنسان وتجعله يميل لصالح الهدف المقدس المطلق وتمكن هذا الهدف من ضبط الغريزة وتنميتها وتهذيبها، وذلك من خلال البرامج العبادية المكثفة والتربية الإيمانية المركّزة. والعقيدة الأُخروية الفعّالة التي تثيب المحسن على إحسانه وتعاقب المسيء على إساءته، وتجعل الإنسان يستحسن ماهو حسن فعلاً كما خلقه الله، ويستقبح ماهو قبيح فعلاً بلا خداع وتلبيس وتشبيه، بحيث لا نجاة ولا خلاص

للبشرية إلاّ بهذه العقيدة.

وحينها يدرك الإنسان أنّ الهدف المقصود الذي يقود البشرية نحو الكمال ليس كل هدف، وإنما هو الهدف المقدس المطلق الذي يمثل قيمة أسمى من الإنسان، والذي يعطي للإنسان معنى وجوده وحياته على الأرض، وأنّ العقيدة التي تحقق له أهدافه ليست كل فكرة مهما كانت، وإنما هي تلك العقيدة السامية الإلهية النابعة من مصدر الوجود ورب الأكوان سبحانه وتعالى؛ لأنها العقيدة الوحيده القادرة على دعم وتكريس القيم والأحكام العقلية وجعلها حالة حاكمة في الشخصية الإنسانية، وجعل الغريزة حالة منضبطة بها.

وينشأ البعد الثوري في الإسلام من حيث ينشأ الظلم في الإنسان، الظلم ينشأ من غريزة طاغية لا تخضع للقيم والأحكام العقلية، والبعد الثوري في الإسلام ينشأ من هدف مقدس يرى ضرورة مكافحة الظلم والغريزة الطاغية الباعثة عليه، وهذا البعد حالة متكاملة ترفد الإنسان بمقومات الثورة ولوازمها في مرحلة إسقاط الواقع الفاسد ومرحلة إقامة الواقع المطلوب، وهذا ما سندرسه بشيء من التفصيل.

العقيدة والثورة في مرحلة مكافحة الواقع الفاسد

تلعب العقيدة دورها في المرحلة الأُولى من الثورة من خلال ما يلي:

١ ـ الوعي الثوري السليم

إنّ الوعي مقولة قائمة بالهدف، والإنسان الواعي هو الإنسان المتمسك بأهدافه، والعقيدة أهمّ ضمانة لبقاء الهدف وسلامة الوعي، وأخطر شيء على الهدف والوعي هو أن يصبح الأشخاص والجماعات مقياساً للحقيقة ومحوراً للوعي، ولقد جاء الإسلام ليقول للإنسان: إنك لا يمكنك أن تصبح محوراً للوعي ولا مقياساً للحقيقة ولا يمكنك الثبات على الهدف إلاّ من خلال الارتباط بالله سبحانه وتعالى، وأنّ الله

هو الهدف، وبه يصبح الإنسان واعياً، وهو مقياس الحقيقة، وما يصاب الإنسان بأزمة في وعيه إلاّ حينما يجعل فرداً معيناً أو جماعة معينة مقياساً للحقيقة ويتبعه على هذا الأساس فيبدأ على الحق وينتهي على الباطل، كما حصل للنصارى الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وجعلوهم مقياساً للحقيقة وهدفاً للمسيرة، فكانت النتيجة الانتقال من التوحيد إلى الشرك.

وقد وقع أحد أصحاب أمير المؤمنين ضحية لهذه الأزمة حينما فقد مقياس الحقيقة وشكك في مشروعية حرب الجمل استعظاماً لشأن طلحة والزبير، فقال له الإمام(ع): **يا حارث إنك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت، إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه.** فقال الحارث: إني أعتزل مع سعيد بن مالك وعبدالله بن عمر، فقال له الإمام(ع): **إنّ سعيداً وعبدالله بن عمر لم ينصرا الحق ولم يخذلا الباطل**[(١)].

فمشكلة الحارث أنه كان يقيس الحقائق بالرجال فأُصيب بأزمة في وعيه الديني والسياسي، وقد نهى القرآن الكريم عن اتخاذ الرجال مقياساً للحق، ولئن تطابق الرسول(ص) مع الوحي تطابقاً تاماً فهذا لا يعني أنه قد أصبح مقياساً من دون الوحي، وإنما يعني أنّ الوحي لازال هو المقياس؛ لأنّ استقامة وعصمة الرسول(ص) مكتسبة من الوحي، واستقامة الوحي ذاتية. قال تعالى: **﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِن دُونِ ٱللهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾**[(٢)].

وقال تعالى: **﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ**

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢٦٢ .
(٢) آل عمران: ٧٩ .

﴿ٱلْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[2]. فعظمة الرسول(ص) انه الظرف والمستودع للوحي.

وعلى أساس ذلك نستطيع أن نقسم الوعي إلى وعي هادف يتمحور حول هدف مقدس، ووعي شخصاني يتمحور حول الأشخاص والجماعات، والمطلوب في الإسلام هو الأوّل، والثاني وعي مرفوض يؤدي إلى الانحراف.

٢ ـ وضوح الخط والمنهج

أنّ تمحور الثورة حول أهداف مقدسة يجعلها ذات منهجية واضحة لا تعرف الغموض والالتواء، ذلك أنّ الغموض والالتواء يأتي من جهة المطامع الفردية والفئوية التي تجعل الشخص يلف ويدور ويتلاعب بالألفاظ من أجل أن يصطاد أهدافه الخاصة عندما يصبح الماء عكراًوالجو ضبابياً.

فإذا تم استبعاد عنصر الشخصانية وانصبّ التركيز على الأهداف انتفى المصدر الأوّل للغموض والالتواء، وانتفى المصدر الثاني لهما أيضاً وهو تقارب المسافة وانعدام الحدود الفاصلة بين طرفي النزاع، وذلك حينما يتم التركيز على الإطار العقائدي الحضاري للثورة باعتبارها مظهراً للصراع بين حضارتين متضادتين، حضارة ورسالة سماوية وأُخرى أرضية عدوانية لاترى لنفسها وجوداً واستمراراً إلاّ حينما تكون معتدية على العالم الإسلامي وناهبة لثرواته ومحتلة لبلدانه، وكل من يتحرك في إطار ورؤية من هذا القبيل سوف تراه واضحاً لا يعرف الالتواء والغموض في مواقفه، وكل من يتساهل في هذه الرؤية تراه غامضاً ملتوياً يتلاعب

---

(١) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧ .

(٢) آل عمران: ١٤٤.

بالألفاظ. والثورة بأمسّ الحاجة إلى الوضوح في المواقف والرؤى.

٣ ـ المرحلية في الثورة

المرحلية فكرة عقلائية لا يناقش فيها أحد من الناس، وقد أمضت السماء ذلك حينما تدرجت في إظهار المضامين الدينية إلى البشرية عبر مراحل متعددة من النبوات والرسالات، وفي داخل الرسالة الإسلامية نجد شواهد واضحة من المرحلية والتدرج من الخفاء إلى العلن، ومن الدعوة السلمية إلى إقامة الدولة المسلحة بتشريعات جهادية.

إنما الكلام في كيفية التطبيق، وما هي الأُمور التي تجب مراعاتها والأُمور التي لا تجب مراعاتها؟ المرحلية الناجحة هي التي تقود الواقع نحو الهدف من خلال مراعاة الجهات الدخيلة في الوصول إليه، والمرحلية الفاشلة هي التي تريد أن تقود الواقع نحو الهدف لكنها تراعي ما لا يجب مراعاته، ولا تراعي ما يجب مراعاته فتفشل بسبب ذلك في الوصول إلى الهدف.

فلو حاولنا احتذاء التجربة النبوية وتنسيق مرحليتنا في ضوء مرحلية التجربة النبوية لكانت النتيجة فاشلة بالتأكيد؛ لأنّ مرحلية التجربة النبوية قائمة على معطيات كانت موجودة بحسب الظروف الزمانية والمكانية التي كانت موجودة، وأهمها أنّ التجربة النبوية بدأت مع المجتمع البشري من الصفر بخلاف ظروفنا القائمة التي نعيشها الآن مع مجتمع إسلامي لا ينقصه إلاّ ما عليه من غشاوة الجهل وغبار التراكمات السلبية فإذا ما جاء قائد ناصح واحدث فيه هزّة صحيحة وجد نفسه أمام مجتمع إسلامي متوثب ومستعد للنهوض والتقدم.

وأهم جهة تجب مراعاتها جهة العدو، فمن يدخل ميدان المواجهة ويريد الوصول إلى هدف معين لابد له من مراعاة أنّ عدوه يتجه نحو هدف مضاد، وأنه

يسلك مرحلية نحو هذا الهدف، وبالتالي فالمرحلية الناجحة هي التي تحاصر مرحلية العدو وتسقط الهدف المضاد، والمرحلية الفاشلة هي التي تنشغل بنفسها ولا تراقب هدف العدو وحركته ومرحليته بما يؤدي في النتيجة إلى أن تتغلب مرحلية العدو وأهدافه على مرحلية الحركة الإسلامية وأهدافها.

وحينما نتحدث عن المرحلية فلابد من استحضار أن المقصود بها مرحلية بناء القوة الإسلامية وتصفية القوة الطاغوتية، باعتبار أنّ الأهداف المنشودة لا يمكن ضمانها إلاّ من خلال القوة، وأنّ قانون الحكمة يقتضي من الإنسان أن يبحث عن أهداف مضمونة بقوة كافية، الأمر الذي يقتضي منا البحث عن مصدر يوفر لنا قوة كافية تضمن الأهداف المنشودة وتحقق الانتصار المطلوب. وهذا البحث هو الذي يحسم لنا الخيار المناسب من الخيارات المطروحة، مقاومة سلمية، ممانعة، مقاومة إيجابية، منهج ثوري، عمليات استشهادية، انقلاب عسكري، مفاوضات سلمية، معارك انتخابية، تحالفات جبهوية، فلكي لا نضيع في متاهات لفظية علينا أن نحقق في هذه الخيارات ونخضعها لدراسات كافية ونختار ماهو المناسب في مقياس القوة الكافية المطلوبة لضمان الأهداف المنشودة، ويجب أن تأخذ عملية الاختيار بنظر الاعتبار الخصوصية الإسلامية. فالانقلاب العسكري ـ مثلاً ـ لا يتناسب مع هذه الخصوصية ولا يؤدي إلى قوة كافية تضمن الأهداف المنشودة، نعم هو يتناسب مع حركات علمانية ليبرالية مدعومة من قبل الغرب، أما الحركات الإسلامية المرفوضة غربياً فلا يمكنها المراهنة على مثل هذا الخيار الملوث بأوساخ المخابرات والدوائر الاستعمارية، إلاّ إذا ساومت على خصوصيتها الإسلامية.

وعلى أساس ذلك كله نجد أنّ مرحلية بناء القوة المطلوبة للوصول إلى الأهداف الإسلامية المنشودة هي مرحلية تفجير وتطوير القوة الجماهيرية، بوصف أنّ القوة الميدانية الحاسمة الوحيدة هي قوة الجماهير المؤمنة بالإسلام إيماناً فطرياً، والتجربة

التاريخية طيلة القرن العشرين أثبتت نجاح هذا الخيار وفشل ما سواه بالنسبة إلى الإسلاميين.

وهكذا نجد أنّ الإطار العقائدي للثورة يعيننا على انتخاب الخيار الصحيح والمرحلية الصحيحة، وأنّ الغفلة عنه تقودنا إلى خيارات خاطئة ومرحلية فاشلة.

٤ ـ الثورة بين التطرف والاعتدال

حينما يكون الإسلام أساس الثورة، والهدف المقدس مقياساً لها فذلك ضمانة حتمية لاعتدالها وسلامتها من الإفراط والتفريط، وغالباً ما يتهم الإسلاميون بالتطرف، ويحاول الإسلاميون درء هذه التهمة عن أنفسهم فيبدي بعضهم التنازلات من أجل ذلك، وعند البحث والتحقيق نجد أنّ كلا الموقفين خاطئان، وأنّ منشأ الخطأ فيهما يعود إلى غياب المقياس، فالاتهام الغربي ناشئ من ملاحظة المصالح الغربية، وإذا كان الغربيون محرجين من طفلة مسلمة ترتدي الحجاب في المدارس الغربية، فمن الطبيعي أن يعتبروا كل عمل لاسترداد مصالح وهوية واستقلال المسلمين تطرفاً، خاصة أنهم يعتبرون أصل وجود الإسلام السياسي على الساحة الدولية تطرفاً، كما أن تنازلات الإسلاميين خاطئة؛ لأنها تكشف عن ضعف واستلاب وفقدان للهدف والمقياس الذي يتم به إثبات وجود أو عدم وجود التطرف.

إنّ التطرف يتحقق في صور ثلاث هي:

أ ـ الزيادة على الحق، فمن يطالب بأكثر من حقه فهو إنسان متطرف، وهذه الصورة منفية عن الإسلام تماماً، إذ ليس لأحد أن يطالب بأكثر من حقه، نعم يجب على المسلم نصرة المظلوم، وهذه وظيفة إنسانية وجدانية وليست استيفاءً لحق، وفي الواقع الراهن لا يوجد مسلم يطالب بأكثر من حقه في الاستقلال والسيادة على

بلاده ومصالحه وثرواته ومصيره ومستقبله دون تدخل من الآخرين.

ب ـ الأُسلوب الخشن في استيفاء الحق، وقد أوصانا الرسول(ص) بالإحسان في كل شئ حتى في ذبح الذبيحة بمراعاة آداب الذبح المعروفة في كتب الفقه الإسلامي، وما يجري اليوم على الساحة الدولية يشهد بوضوح لخشونة الاستبكار الأمريكي المعتدي على حقوق المسلمين، وما حصل ويحصل من الأعمال الإرهابية هو من تدبير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية التي تقتل الأبرياء وتنسب ذلك إلى المسلمين حتى تثبت وجود شيء اسمه إرهاب.

ج ـ التعامل بروح الانتقام مع الخصم، وهذا أيضاً منفي عن الإسلام، ويشهد لذلك حادثة فتح مكة التي أعطى النبي(ص) فيها الراية لسعد بن عبادة وطلب منه أن يدخل مكة، فذهب سعد وهو يقول:

اليوم يوم الملحمة   اليوم تسبى الحرمة

فطلب الرسول(ص) من علي(ع) أن يدرك سعداً ويأخذ منه الراية، فذهب الإمام وأخذ الراية ودخل مكة وهو يقول:

اليوم يوم المرحمة   اليوم ترعى الحرمة[1]

فكل مطالبة بحق تخلو من هذه الحالات والصور الثلاث مطالبة معتدلة لا يحق لأحد أن يصفها بالتطرف. ولا يحق لصاحبها أن يتأثر بهذه التهمة ويتراجع عن حقه بسببها، وعليه أن يميز بين الثبات على الحق وبين التطرف، فالثبات على الحق أمر ممدوح ومطلوب. والمذموم هو التطرف الذي تنحصر مصاديقه في الصور الثلاث المذكورة وأسوأ الحالات ما يقوم به البعض من المناداة بالمرونة والتسامح والليونة احتجاجاً بما ورد من أنّ الإسلام دين التسامح والتساهل والرحمة والدعوة

---

(١) تفسير الميزان ٢: ٣٨٢، ط: الأعلمي.

بالحكمة والموعظة الحسنة والقول اللين، فهذه كلمات حق في غير موضعها، فالحكمة والموعظة الحسنة والقول اللين أساليب الدعوة ونشر الإسلام والمحاججة مع خصوم الدين، ولكن حينما تقوم الحرب ويعتدي المعتدون على المسلمين فلا معنى لهذه الشعارات، صحيح أنّ الإسلام دين السلم والتسامح والتساهل والرحمة، ولكن هذه الصفات لا تشمل الطواغيت والمعتدين الذين يجب أن يؤخذوا بأشق الأحوال، وهي خاصة بالأُمم والشعوب دون قادتها الرأسماليين المعلنين العداوة للإسلام والمسلمين انطلاقاً من مصالحهم الرأسمالية لا مصالح شعوبهم، وحينما يكون الإسلام دين السلم والتسامح والتساهل فمقتضى ذلك أن تكون المبادرة الدولية بيده حتى تستفيد البشرية مما فيه من قدرة على إنجاز حياة دولية مفعمة بالسلم والتسامح، إذ لا فائدة من طبيب سجين لا يملك قدرة ولا اختياراً على فعل شيء من الأشياء، ومن يوصف بالتسامح هو الإنسان القادر، أما الإنسان العاجز الذي لا يملك الفعل ولا الترك لا يستحق هذا الوصف.

٥ ـ وحدة الأمة الإسلامية

تقدم أنّ مقاومة الاعتداء واجب إسلامي لا ينحصر بمن وقع الاعتداء عليه، بل يعم الأُمة الإسلامية كافة، باعتبار أنّ المسلمين أُمة واحدة، والاعتداء على أي منهم اعتداء على سائر الأُمة، وهم يد واحدة على من سواهم، كالجسد الواحد والبنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضاً، وإذا كان المسلمون مكلفين بنصرة المستضعفين من غير المسلمين فبالأُولى يجب عليهم نصرة بعضهم البعض الآخر، ومعلوم أنّ مفهوم الوحدة الإسلامية والأُمة الإسلامية الواحدة المتناصرة مع بعضها يلعب دوراً فعالاً في خدمة الثورة الإسلامية، حيث يضيف إليها قوة ساحقة تمثل خمس البشرية، والإيمان الصحيح والوعي الصحيح والمنطق الصحيح يقتضي من كل عاقل

يقاوم عدوّاً ما أن يفعّل هذه القوة الإضافية لصالحه ويستعين بها على عدوّه، ويحذر من كل تصرف يؤدي إلى التفريط بشيء منها. وهو ما لا يتم إلاّ حينما تدخل الثورة الإطار العقائدي الذي يفعّل مفهوم الأُمة الإسلامية الواحدة المتناصرة مع بعضها، ويفعّل الحساسية الصادقة بين هذه الأُمة وبين الاستكبار الأمريكي، ويفعّل حالة الاستنفار ضده، ويزيل كلّ حساسية كاذبة يصطنعها من شأنه تفتيت وحدة الأُمة وامتصاص حالة التناصر فيما بينها، وإلهائها عن حساسيتها الصادقة ضده، وكما تؤدي الحساسية الصادقة إلى تعميق الإيمان الصادق تؤدي الحساسيات الكاذبة إلى اصطناع إيمان كاذب يجعل المسلم ينصر العدوالمشترك ضد المسلم الآخر بدافع الطائفية، وإذا كان الإمام الخميني(رض) يقول: إنّ الذين يثيرون الفتنة بين السنة والشيعة ليسوا من السنة ولا من الشيعة، فمن الصحيح أن نقول أيضاً: إنّ الإيمان الذي يجعل الإنسان المسلم يتحسس من أخيه المسلم الذي يتفق معه في أصول الدين وفروعه، ولا يختلف معه إلاّ في أُمور ثانوية ولا يتحسس من العدو الأمريكي الذي يعلن العداوة للإسلام والمسلمين ومقدساتهم ومصالحهم لهو إيمان كاذب، وقد بيّن القرآن الكريم صفة المؤمنين الذين مع الرسول(ص) أنهم: ﴿**أشدّاء على الكفّار رُحماءَ بَينهم**﴾[١] وهذه معادلة لا تقبل الخطأ، وكلما وجد المسلمون أنفسهم رحماء مع الكفار أشدّاء بينهم فليعلموا أنهم قد خرجوا من ولاية الله ودخلوا ولاية الشيطان، قال تعالى: ﴿ **لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللهَ وَرَسُولَهُ...**﴾[٢].

إنّ الوحدة الإسلامية أُطروحة ستراتيجية أصيلة تقدم الحلول الشافية لمشاكل

---

(١) الفتح: ٢٩ .

(٢) النور: ٣٥ .

الأُمة كافة، وتعينها على تحقيق أهدافها في الحياة الدولية، وهي البنية التحتية للاستقلال ومقاومة التبعية والأهداف الاستكبارية، ومن لا يفكر بالوحدة الإسلامية تفكيراً جدياً صادقاً لا يستطيع أن يضمن الاستقلال، وسيجد نفسه بحاجة إلى مهادنة العدو والدخول في مساومات ذليلة، وأسوأ موقف سيرتكبه هو حينما سيلجأ إلى تبرير هذه الذلة بأنها نظرة واقعية وأنّ العلاقة مع أمريكا هي من نوع صلح الحديبية، وأنّ عدم المقاومة سلوك متحضر، وأنّ أمريكا ليست دولة سيئة، وأنّ الارتباط معها أفضل من الارتباط مع المسلمين من مذهب إسلامي آخر، وأنّ الانتصار على المذهب الآخر أولى من الاستقلال والانتصار على أمريكا!

ومثل هذه الأفكار تمثل مظاهر طبيعية لإسلام كاذب، لأنّ الإسلام الصادق يغار على المسلمين من سيطرة الكفار ويجعلهم يداً واحدة، كما وقف الإمام علي(ع) مع الخليفة الثاني في قضية فتح بلاد فارس، وكما دعا الإمام السجاد(ع) بدعاء الثغور رغم أنّ الجيش الإسلامي كان آنذاك بقيادة أُموية ارتكبت قبل عدة سنوات بحق أهل البيت(ع) فاجعة كربلاء الشهيرة.

إنّ الخلاف السني الشيعي يجب أن يبقى في دائرة الاجتهاد الذي نتعامل معه من زاوية إبراء الذمة أمام الله سبحانه وتعالى بالعمل بما نراه مذهباً صحيحاً واحترام ما نراه مذهباً غير صحيح، بالنحو الذي يؤكّد الوحدة الإسلامية ولا يسمح بالتنازع ولا يدخلنا في إيمان كاذب يبرر النزاع على الخلافة هل هي لعلي أم لعمر حتى أصبح خليفتنا الـ «ميسو» والـ «مستر».

والوحدة الإسلامية أُطروحة شاملة لا تقف عند حدود المسألة المذهبية، بل تشمل المسألة القومية أيضاً، فالعرب والأكراد والفرس والترك وسائر القوميات المسلمة المتعايشة داخل بلد إسلامي واحد عليهم أن يتمسكوا بالوحدة الإسلامية ولا يسمحوا للمبدأ القومي والحاجز الإقليمي ان يتحول إلى قيمة سياسية حاكمة؛

لأنّ الحد الفاصل بين القومية والوطنية الصحيحة والقومية والوطنية الجاهلية الباطلة هو أنّ الإسلام هو القيمة الحاكمة الوحيدة في حياة المسلمين والشعور القومي والوطني الصحيح هو الذي ينسجم مع حاكمية الإسلام ولا يزاحمه، أما إذا تضخم هذا الشعور وتحول إلى قيمة حاكمة تزاحم الإسلام على الحاكمية في الحياة السياسية فهذا شعور جاهلي مرفوض يمزق المسلمين ويقضي على استقلالهم ويصادر الإسلام والمضمون الإسلامي في حياتهم.

كما تشمل أُطروحة الوحدة الإسلامية المسألة السياسية أيضاً، فعلى الأحزاب والقيادات والجماعات السياسية أن لا تتمسك بعنوانها الشخصي والفئوي كمحور متأصل في الحياة السياسية وأن تتمسك بدلاً عن ذلك بمبدأ الوحدة الإسلامية.

فهنا ثلاثة مستويات للوحدة الإسلامية، المستوى المذهبي والقومي والحزبي السياسي، والمحور الذي تدور حوله هذه الوحدة في كافة المستويات هو الأهداف الإسلامية المقدسة، فمن يتحرك نحو أهداف مقدسة يجد نفسه في اتجاه وحدوي يسوقه للاندماج مع إخوة الدين والإيمان، ولكن من ينطلق في تحركه السياسي من منطق أناني ذاتي يجد نفسه في اتجاه انشقاقي يدعوه إلى الانشقاق عن الآخرين انطلاقاً من شعورٍ أناني يأخذ مظهراً حزبياً تارة ومظهراً طائفياً تارة أُخرى، ومظهراً قومياً ووطنياً تارة ثالثة؛ لأنّ العناوين الطائفية والحزبية والقومية والوطنية عناوين أنانية انتهازية تمثل النقيض للأهداف الإسلامية المقدسة، وربما دعا البعض إلى الوحدة الإسلامية على أساس أن يكون هو المحور وأن ينضم الآخرون إليه، مثل هذه الدعوة تمثل حالة تحايل على الوحدة الإسلامية، لأنها تعني إلغاء الأهداف الإسلامية وجعل العنوان الشخصي والفئوي محوراً لها؛ لأنّ الوحدة الإسلامية لا يمكن أن تدور حول عنوان أناني، ولا تقوم إلاّ على محور الأهداف المقدسة.

ونحن نسلّم من ناحية عملية أنّ الوحدة الإسلامية لا تتم بقرار رسمي يتخذه

طرف معين، وإنما تتم بخطوات عملية ومنهج سليم ومنطلقات صادقة، ولكننا نميز بين حالتين، بين من يستسلم للتجزئة والتشتت ويتعامل معها كأمر واقع ويبني منهجه السياسي على ذلك، وبين من يرفض هذا الأمر الواقع ويتحرك على أساس أنّ الوصول إلى الأهداف المقدسة عملية لا تتم إلاّ بإنجاز الوحدة الإسلامية وإلغاء التجزئة.

ويظهر الفرق العملي الأساسي بين الحالتين في طريقة التعامل مع الاستعمار، فالذي يستسلم للتجزئة والتشتت يفقد الحساسية المطلوبة أزاء الخطط الاستعمارية المبنية على التجزئة، ويتقبل لعبة التوازنات الحزبية والطائفية والقومية والإقليمية التي يتخذها الاستعمار كوسيلة فعالة للتسلط على المسلمين، وهكذا يبقى الأمريكان يتجولون بين السفهاء الذين يساندون عمليات الاستنزاف الأمريكي للأُمة الإسلامية وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

٦ ـ البصيرة أو الكشاف واقع المعركة

يقال في المنطق العسكري: معرفة العدو نصف المعركة، وحينما نكون في ثورة نحتاج إلى تحديد هوية المعركة الجارية بيننا وبين الخصم، فهناك معركة سياسية وأُخرى اقتصادية وثالثة ثقافية ورابعة عسكرية وخامسة حضارية عقائدية شاملة، ففي كل واحدة منها نحتاج إلى نوع معين من الرد والمقاومة.

وقد تطرقنا إلى هذا الجانب في الفصل السابق وتوصلنا هناك إلى أنّ مفهوم الثورة في الإسلام مفهوم عقائدي حضاري شامل دائماً وذلك بلحاظين، بلحاظ الإسلام الذي يعتبر نفسه حضارة ورسالة، وكل من يتحداه ـ وبغض النظر عن هويته ومرماه ـ أنما ينال بهذا التحدي من رسالة الإسلام وحضارته وبالتالي فهو خصم عقائدي وحضاري فإذا أُضيف إلى ذلك لحاظ هوية العدو وأنه يمثل حضارة

وعقيدة أُخرى تريد لنفسها أن تحكم وتصادر غيرها، أصبح الطابع العقائدي الحضاري في الإسلام في هذه الحالة مؤكداً ومضاعفاً، وهذا هو الواقع الجاري فعلاً، وهو ما لا يمكن استكشافه إلاّ من خلال الإطار العقائدي والنظرة الإيمانية، بمعنى أنّ النظرة الواقعية لا يمكن إحرازها إلاّ بالنظرة الإيمانية، ومن لا يتحلى بنظرة إيمانية إنما يحرم نفسه من النظرة الواقعية، ومن لا يملك نظرة واقعية لا يستطع أن يتصرف تصرفاً صحيحاً؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى ﴿نور السموات والأرض﴾[1] ولا نستطيع أن نستكشف الواقع إلاّ بهذا النور، وبدونه يصبح أمر الإنسان ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾[2].

إنّ الثورة بحاجة إلى انكشاف الحقيقة انكشافاً تاماً، حتى يكون هناك وعي كامل وصحيح لما يجري على أرض الواقع؛ لأنّ معرفة العدو نصف المعركة، وهذا الوعي الكامل هو الذي يسميه القرآن الكريم بالبصيرة، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾[3]، ﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إلى ٱللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾[4]. فمن يتحلَّ بالبصيرة فلنفسه ومن يلُذ بالوعي الناقص المشوّه فلا يضرّ إلاّ نفسه.

والبصيرة هي الرؤية النافذة التي تخرق الظاهر وتكشف العمق، بحيث يعرف الإنسان بفضلها عدوه من صديقه، ويميز بين ما يضرّه وما ينفعه، ولا تختلط عليه الحقيقة بالزيف والخداع، ولا يغره الظاهر عن معرفة الباطن، ولا يصل الإنسان إلى

---

(١) النور: ٣٥.

(٢) النور: ٤٠.

(٣) الأنعام: ١٠٤.

(٤) يوسف: ١٠٨.

هذه النتائج الضرورية والمصيرية في ميدان المقاومة إلاّ إذا وضع المقاومة في إطارها العقائدي الصحيح وتمسك بنور الله سبحانه وتعالى.

وحينئذٍ سيكتشف عدوه الحقيقي ولو أخفى نفسه خلف مئات من الأقنعة، وهو الشيطان المتجسد بأمريكا. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1]، وسيكتشف الألاعيب والمهازل الشيطانية التي يعتمدها الأمريكان كستراتيجية في الوصول إلى أهدافهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ﴾[2].

٧ ـ العمق الستراتيجي المتكامل للثورة

ذكرنا أنّ المقاومة تعبير عن قانون طبيعي معروف في الحياة، هو قانون الفعل ورد الفعل، وأنّ الاعتداء يمثل جانب الفعل، وأنّ المقاومة تمثل جانب رد الفعل ومن ثمرات الإطار العقائدي أنه يحوّل المقاومة من حالة ردّ الفعل إلى حالة الفعل الإيجابي، ذلك أنّ حالة رد الفعل تنطوي على سلبيتين:

أ ـ إنّ الإنسان ربما تجاوز حد رد الفعل وزاد عليه، وستكون الزيادة ظلماً، وسيبقى الإنسان في دوامة الظلم والظلم المضاد، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾[4]. فهاتان الآيتان تشجبان الزيادة، وربما اقتضت الظروف السيطرة على المشاعر والعواطف والتوقف عن رد الفعل أصلاً، كما في حادثة فتح مكة التي كانت تتطلب عدم المقابلة بالمثل درءاً للشر وإقراراً للأمن، باعتبار أنّ مكة قد دخلت نطاق الدولة الإسلامية، وهذا

---

(١) فاطر: ٦.

(٢) البقرة: ١٦٨.

(٣) النحل: ١٠٦.

(٤) البقرة: ١٩٤ .

الانتصار يغني عن المقابلة بالمثل، بل يقتضي عدم ذلك باعتبار أنّ الدولة يجب أن تبادر إلى السلم والأمن وتقطع دابر الفساد ولو بالتنازل عن الحقوق الشخصية، فأخذ سعد بن عبادة الراية ولم يكن ملتفتاً إلى هذه الاعتبارات فأخذ يقول:

اليوم يوم الملحمة   اليوم تسبى الحرمة

فأمر النبي(ص) علياً(ع) أن يأخذ الراية منه ويدخل مكة برفق، فأخذ الإمام علي(ع) الراية منه ودخل مكة وهو يقول:

اليوم يوم المرحمة   اليوم ترعى الحرمة(١)

ب ـ إنّ البقاء في دائرة رد الفعل يعني السكوت عن أصل الفعل السيّئ الذي ينشر الاعتداءات هنا وهناك، وحينئذٍ يجب تحويل رد الفعل هذا إلى فعل إيجابي يتجه لمعالجة ومكافحة أصل الفعل السيّئ وقطع دابر الفساد في الأرض. وهذه العملية يحققها الإطار العقائدي للمقاومة، فالعقيدة تأتي وتقول: إنّ هذه الاعتداءات ناشئة من خلو الساحة الإنسانية من قيم ومشاعر نبيلة، فلو سادت مشاعر الأُخوّة الإنسانية بين البشر لما اعتدى إنسان على آخر، وفقدان هذه المشاعر من الساحة الإنسانية ناشئ من فقدان محور الأُبوّة، لأنّ الأُخوّة والأُبوّة من المعاني المتضايفة التي تستلزم بعضها بعضاً، فإذا أردنا للبشر أن يستشعروا معنى الأُخوّة في حياتهم فلابد من الإيمان مسبقاً بمحور يلعب دور الأُبوة حتى يصبح البشر إخوة على أساس الانتماء لذلك المحور الذي إذا فقد من الساحة تكالب الناس بعضهم على بعض، وحاول القوي الغالب ان يصور نفسه كذباً وبهتاناً إنه الأب لمن سواه ليخدع الضعفاء بذلك.

والمحور الطبيعي الذي يلعب دور الأُبوّة في حياة البشر هو المحور السماوي

---

(١) تفسير الميزان ٢٠ : ٣٨٢.

التوحيدي المتمثل بالرسالات السماوية المعبّرة عن الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانـاً﴾[1]. ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مَّـاأَلَّفْتَ بَـيْنَ قُـلُوبِهِمْ وَلَٰكِـنَّ ٱللهَ أَلَّـفَ بَيْنَهُمْ﴾[2].

فالأُخوّة لا تتحق إلاّ بفعل التوحيد ونعمته، ومن المستحيل أن يتآخى البشر خارج هذا المحور.

وعلى هذا الأساس فبداية الشر والعدوان في العالم تتمثل بالمحور الزائف المتمثل بالطاغوت الذي يزيح المحور الطبيعي التوحيدي السماوي ليحلّ محلّه ويأمر الناس بطاعته والدوران من حوله. وما لم يُزَل المحور الزائف ويحل المحور التوحيدي الطبيعي محله ستبقى البشرية تعاني من الشرّ والعدوان، وهذه العملية تتكفل بـها فريضة الجهاد في الإسلام قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُـونَ ٱلدِّيـنُ لِلهِ﴾[3].

وعلى هذا فالمقاومة في الإسلام خط يبدأ بردّ الفعل وينتهي بإزالة الفعل نفسه باعتباره منبع الشر في حياة الناس، وفي ظل الإطار العقائدي فقط يعثر الناس على مقاومة كاملة متكاملة وذات مضمون اخلاقي ينشر مفاهيم الأُخوّة والأُبوّة والرحمة بين بني البشر، والمقاومة هي رسالة إنقاذ لكل البشرية، بل هي رسالة إنقاذ حتى لمثل فرعون وهتلر وبوش. قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[4].

---

(١) آل عمران: ١٠٣ .

(٢) الأنفال: ٦٣ .

(٣) البقرة: ١٩٣ .

(٤) طه: ٤٣ ـ ٤٤ .

فهناك ثلاث ثورات بلحاظ البعد الستراتيجي ، ثورة قائمة على أساس ردّ الفعل المحلي المحدود، وثورة قائمة على أساس ستراتيجي محلّي، وثورة قائمة على أساس ستراتيجي عالمي، ويكاد يتفق الجميع على فشل الثورة الأُولى؛ لأنّ رد الفعل رهين بحركة الفعل، ولا فائدة ترجى من ثورة يقودها ثائر بشكل ظاهري ويقودها الطاغوت بشكل حقيقي غير مباشر، والثورة الثانية وإن انطوت على بعد ستراتيجي لكن الدائرة المحلية المحدودة لهذا البعد تعني أنه بعد ناقص، فهي ثورة ستراتيجية في الدائرة المحلية وغير ستراتيجية في الدائرة الدولية، والإشكال المتوجه على الأُولى سيتوجه بتمامه على الثانية في الدائرة الدولية، وبالتالي فالثورة الثالثة هي الثورة الحقيقية الوحيدة في دنيا الإنسان والتي جاء بها الإسلام وقادها الأنبياء على مدى التاريخ.

٨ ـ الثورة المقدسة

ثورة الإسلام ثورة مقدسة لأنها تتبع أهدافاً مقدسة وتدور حول محور الملك القدوس الذي لا إله إلاّ هو، والذي يضفي على من يتبعه ويدور حوله شيئاً من القداسة، فالوادي الذي يحلّ فيه يصبح مقدساً: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[١]. والأرض التي تحل بها أهداف مقدسة هي الأُخرى تصبح مقدسة: ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[٢].

وبالتالي فالثورة الإسلامية ثورة مقدسة، والأُمة الإسلامية أُمة مقدسة يصلّي عليها ربها ونبيها والملائكة، والدولة الإسلامية دولة مقدسة.

على هذا الأساس نستطيع أن نصنف الثورات إلى عدة أصناف بلحاظ ملاكات

---

(١) طه: ١٢.

(٢) المائدة: ٢١.

معينة، فبلحاظ الشرعية هناك ثورة مشروعة وأُخرى غير مشروعة، وبلحاظ القداسة هناك ثورة مقدسة وأُخرى غير مقدسة، الثورة غير المشروعة هي تلك التي تخرج ضد حكم عادل، صحيح أن الثورة لا تتحقق إلاّ حينما يكون هناك ظلم، وأنّ العادة لا تسمح بظهور ثورة ضد حكم عادل، ولكن من الممكن أن لا يفهم بعض الناس وجوه العدالة في حكم عادل قائم فعلاً، ومن الممكن أن يخضع ضعاف الناس وبسطاؤهم لتسويلات أهل الفتن والمطامع الذين يقلّبون الأُمور ويصورون الحق باطلاً والباطل حقاً فتنطلق على أساس ذلك ثورة غير مشروعة ضد حكم عادل، كما فعل طلحة والزبير في حرب الجمل ضد أميرالمؤمنين(ع).

والثورة غير المشروعة يصطلح عليها في الفقه بـ«البغي» وعلى القائمين بها «البغاة»، والثورة المشروعة هي كل ثورة قائمة على أساس نفي الظلم واسترجاع الحقوق وإعطاء كل ذي حق حقه، وهذه تارة تكون غير مقدسة وأُخرى مقدسة، الثورة الشرعية غير المقدسة هي تلك التي تنادي بالعدل ورفع الظلم خارج الإطار الديني، كالثورة الفرنسية والأمريكية والثورات التحررية التي تكافح الاستعمار، فهذه ثورات مشروعة بحكم منطلقاتها الأولية المتمثلة بنفي الظلم والمناداة بالعدل، لكنها ليست مقدسة؛ لأنها تخلو من الضمان الإلهي الذي يجعلها تسير في خط العدل على نحو دائم، ولذا تصبح الثورة الفرنسية بداية لحروب استعمارية ظالمة بحق الشعوب الأُخرى، وتتحول الثورة الأمريكية إلى بداية للسيطرة على العالم واسترقاق البشرية.

فهي ثورات مشروعة في لحظة انطلاقها فقط، وفي اللحظة التالية تصبح واقعاً ظالماً تجب الثورة عليه، وهكذا تدور المسيرة البشرية في دوامة الثورة والثورات المضادة حتى تأتي الثورة المقدسة التي تضع المسيرة في سكة العدل الدائم؛ لأنها ثورة الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والذين لا يثورون من أجل الانتقام

وإنما من أجل العدل، والذين يغضبون لله لا لأنفسهم.

٩ ـ الثورة الواجبة

الثورة عبارة عن مطالبة المظلوم بحقه من الظالم، وهذه المطالبة عندما تخرج عن إطار الدين تأخذ صفة الحق الذي بوسع الإنسان أن ينتزعه وبوسعه أن يتركه، ولا تأخذ صفة الواجب الإلزامي إلاّ عندما ندخل في الإطار الديني العقائدي. حيث تأخذ صفة الفريضة الشرعية التي يجب امتثالها على كل حال. وهذه ثمرة مهمة وأساسية تحتاجها الثورة للقضاء على منابع السفاهة واللامبالاة والميل إلى السكوت والتفريط بالحقوق.

إنّ الحق الذي يقبل الإسقاط هو الحق الشخصي، أما الحق العام فهو ملك للأُمة وليس ملكاً لأحد حتى يجوز إسقاطه، وإسقاط الحق العام يعني تمكين الظالم في مرحلة تالية من مصادرة الحق الخاص، ثم إن الإسقاط يكون بالاختيار ولا يكون بالظلم والإجبار والقوة الغاشمة، ولا يسقط الإنسان حقاً من حقوقه إلاّ في مقابل الحصول على ماهو أهمّ، وهل هناك شيء أثمن من حرية الإنسان وكرامته واستقلاله وسيادته؟ وإذا أسقط الإنسان مثل هذه الحقوق فماذا يبقى لديه؟ فهناك حق يقبل الإسقاط كحقه في سهمه من إرث أبيه، وهناك حق لا يقبل الاسقاط لأنه أصل وجوده وسائر الحقوق متعلقة به وقائمة عليه، كحق الحرية والاستقلال والسيادة والكرامة. قال تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾[١].

فمع أنّ الأموال أموال الناس وحقوقهم، والشريعة تعترف بذلك لكنها لا تسمح بإعطائها إلى السفهاء؛ لأنّ قوام الناس وقوام حياة المجتمع بالمال، وقوام الأُمور وأساس الحياة يجب حمايته والاحتفاظ به ومنع السفهاء عنه، لكي لا يتعرض

---

(١) النساء: ٩.

أساس المجتمع إلى الخطر، والحرية والاستقلال والكرامة والسيادة قوام الأُمة الذي تحرم السفاهة فيه ويحرم تحويله إلى سفهاء من الانتهازيين وأصحاب المطامع الشخصية وضعاف النفوس والمذعورين وفاقدي البصيرة والمخدوعين وأعلام الفكر التبريري الانهزامي، ومبدعي الفقه الشيطاني الذي يصور الحسين(ع) قد أوقع نفسه في التهلكة، وأنه قد قتل بسيف جده، والذي يتحرج من دم الذباب ويفتي بالسكوت على قتل الحسين وأصحابه وشعبه وضحايا الوعود الشيطانية الذين يقرعون بألف عصا ولا يرعوون، ويجب في المقابل تحويل الأُمور وكافة الملفات إلى عقلاء الأُمة وأحرارها وشجعانها وأولي العزم والإرادة الحديدية منها، الذين إذا قال لهم فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[1] لم يصفقوا له ولم ينخدعوا بكلامه بل أجابوه بجواب صاعق: ﴿وتلك نعمة تَمُنُّها عليّ أن عبدت بني اسرائيل﴾[2].

١٠ ـ الثبات

في كل معركة يحتاج الإنسان إلى ثبات وأمل وثقة بالنفس ومحاربة اليأس، وهذه المعاني هي السلاح الحقيقي الذي يصنع النصر ويدحر العدو، والمقاومة إذا حرمت من الإطار العقائدي فإنما تحرم من هذا السلاح الحاسم، صحيح أنّ الإنسان عقائدي دائماً، ولكنه تارة يتمسك بعقيدة ناقصة زائفة وأُخرى بعقيدة حقيقية كاملة، العقيدة الكاملة تضيف عزماً إلى عزمه وثباتاً إلى ثباته وثقة إلى ثقته بنفسه، فالإيمان بالله سبحانه وبقوته المطلقة وأنه القوي العزيز القاهر القادر الذي يمنح النصر لمن يشاء ويحجبه عمّن يشاء، والإيمان بالآخرة والثواب وبقيم الشهادة في سبيل الله

---

(١) الشعراء: ١٨.
(٢) الشعراء: ٢٢.

بامداداته الغيبية، وأنّ اليأس حرام وأنّ الله قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة، كل هذه المعاني العقائدية تصل بالمقاومة إلى ذروة الزخم والفعالية والثقة بالله وبالنفس وبالمستقبل، بل تصنع مقاومة لا نظير لها.

وكشاهد عصري على ذلك نجد أنّ أُسلوب العمليات الاستشهادية الذي استخدمته المقاومة الإسلامية في لبنان وفلسطين جعلها مقاومة قياسية في قلة الخسائر، وسرعة الوصول إلى الهدف وكثرة الإنجازات، بحيث استطاع المؤمنون في جنوب لبنان بهذه الطريقة أن يهزموا القوات الإسرائيلية والأمريكية والبريطانية التي كانت تحتل الجنوب اللبناني ويحققوا انتصاراً قياسياً. ويحدثنا التاريخ أنّ النبي(ص) تناول معولاً في غزوة الخندق وهو يشد حجر المجاعة على بطنه كسائر أصحابه، وضرب به صخرة فتهشمت فقال: **لقد فتح الله عليّ في ضربتي هذه كنوز كسرى وقيصر**[1] وهذا درس نبوي يفيد أنّ الشخصية السوية تحول حتى الخيال إلى ثقة عارمة بالنفس وبالمستقبل، بينما الشخصية السقيمة تتهم نفسها بالخيال حتى في أبسط الممكنات.

اا ـ العقيدة مصنع النصر الحتمي

تبدأ الثورة من اعتقاد الإنسان بأنّه على حق، وأنه مضطهد، هذه هي نواة الثورة في كل مكان وزمان. وهي بحاجة إلى تنمية وتوجيه، ضرورة التنمية تأتي من أنّ الإنسان قد يضعف أمام التحديات ويتجاهل حقه وييأس من الوصول إليه فيميل إلى السكوت والتخاذل، وضرورة التوجيه تأتي من أنّ المضطهد يجب أن يثور على أساس العدالة لا الانتقام الذي يؤدي إلى ظهور دورات متتالية من الظلم.

وقد اتضح فيما مضى دور العقيدة في تحويل الثورة إلى ثورة مقدسة وستراتيجية

---

(١) الكافي ٨: ٢١٦، ط: آخوندي.

بنحو متكامل. واتضح أيضاً دورها في الحفاظ على نواة الثورة من خلال إضفاء طابع الفريضة الشرعية عليها، وبقي أن نتحدث عن دور العقيدة في تنمية الثورة وتحويلها من نواة أولية إلى ثورة تامة منتصرة بشكل حتمي. وهو ما يتم من خلال الأدوار التالية:

أ ـ حرمة اليأس من روح الله.

ب ـ ثقافة أداء التكليف ضمن الخطة المؤدية إلى النتيجة، أمّا النتيجة نفسها فيوكل أمرها إلى الله سبحانه وتعالى، والنصر الحقيقي هو نصر أداء الوظيفة أمام الله والبشرية.

ج ـ اعتبار الضعف وعدم القدرة فرضية كاذبة، الإنسان لا يكون ضعيفاً إلاّ أمام الله الذي خلقه، فكيد الشيطان هو الضعيف أمام الإنسان الواعي صاحب الإرادة الصلبة، ولا يكون الإنسان أمام القوى الطاغوتية ضعيفاً بل مستضعفاً، أي أنّ الطاغوت يفترضه ضعيفاً فإن أقرّ الإنسان بذلك على نفسه أصبح مستضعفاً. ويؤكد القرآن على ذلك حينما يأمر المؤمنين بإعداد القوة: ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ...﴾[1]، فالقوة موجودة والضعف فرضية كاذبة.

د ـ الاعتقاد بالإمداد الإلهي للمؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا...﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[4].

هـ ـ إنّ التغيير الإلهي متوقف على تغيير الإنسان نفسه. ﴿ان الله لا يغير ما بقوم

(١) الحج: ٣٨.
(٢) الحج: ٣٨.
(٣) الأنفال: ٩ .
(٤) العنكبوت: ٦٩.

حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

و ـ استصغار شأن العدو، وأنّ الله أكبر منه ومن كل شيء.

ز ـ الاعتقاد بأنّ اتباع الإسلام اتباع للفطرة والقوانين الطبيعية للحياة، وأنّ أعداء الإسلام مخالفون للفطرة، وأنّ مسيرة تخالف الفطرة سائرة إلى الانحلال الحتمي وأنّ المسيرة الإسلامية إذا قامت واكتشف الناس حقانيتها يتحول الناس إليها، كما نشاهد في هذه الأيام نضوب الحضارة الغربية وإقبال الناس في كل أنحاء العالم نحو الإسلام.

ح ـ وضوح العدو، قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾[1].

ومن جملة وضوح العدو وضوح مساوئه وأدواره التخريبية في حياة الناس، وأعداء الإسلام بطبيعتهم حالة واضحة ومثيرة لنفور الناس منهم، لكنهم يتسترون بشعارات براقة ويخفون أنفسهم وراء عناوين خادعة، ويحاولون أن يربطوا مصالح الناس بهم ويستغفلوهم فيخفى قبحهم وعداوتهم، ولا تتضح حقيقتهم الكاملة إلاّ في إطار رؤية عقائديه نقية كالتي نطالعها في القرآن الكريم عن أعداء الإسلام ومعاندي النبوات، وهذا الوضوح مقدمة ضرورية لنفور الناس منهم وانتصار الإسلام عليهم، وأسوأ شيء في هذا الزمان التستر على جرائم الاستكبار العالمي بحق البشرية، وأهم وظيفة إنسانية وعقائدية كشف هذه الجرائم وإيضاحها للمستضعفين.

ط ـ ثقافة الشهادة والتضحية والإيثار، الشهادة في سبيل الله تعني أن يتحرر الإنسان من سلطة الموت وينتصر على مخاوف تميل به إلى الجبن وفقدان الإحساس بقيم الحق والعدل التي تكمن فيها إنسانيته، الشهاده في سبيل الله تعني أن ينتصر

---

(١) التوبة: ١٢.

الإنسان لقيم الحق والعدل ويشتري بذلك حياة أفضل من حياته، حياة ﴿احياء عند ربهم يرزقون﴾ التي هي أفضل قطعاً من حياة ذلٍّ عند طغاة يضطهدون.

ي ـ استحضار الأُمة بكل قطاعاتها لما مضى من أنّ المخاطب بالوظائف الثورية في الإسلام كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع والجهاد هو مجموع الأُمة وليس فئة معينة منها، ومعلوم أنّ حضور الأُمة عامل حاسم في المعركة وإحـراز النصر.

ك ـ إنّ النصر من الله سبحانه وتعالى، يهبه لرسله وعباده المؤمنين،: ﴿ولينصرنّ الله من ينصره انّ الله لقويّ عزيز﴾[1]، و﴿ان ينصركم الله فلا غالب لكم﴾[2] ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾[3]، و﴿ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾[4] و﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا﴾[5]، و﴿لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[6] وهذا النصر والوراثة الإلهية منوطة بأن ينصر المؤمن ربّه أولاً، ﴿ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[7]، ومن ينصر الله أنما ينصر نفسه وقضية الإنسان في الحياة، وسبيل الله هو سبيل الإنسان، والله غني عن عباده وهم الفقراء إليه.

ل ـ وينبغي للمؤمن التحلّي بالعزم والإرادة ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم

---

(١) الحج: ٤٠.
(٢) آل عمران: ١٦٠.
(٣) غافر: ٥١.
(٤) آل عمران: ١٢٦.
(٥) يوسف: ١١٠.
(٦) الأنبياء: ١٠٥.
(٧) محمّد: ٧.

الأعلون﴾[1] ووإذا قيل لهم ﴿ان الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم فزادهم ايماناً...﴾[2].

هذه مجموعة العوامل التي تحسم النصر للمؤمنين وتجعله أمراً حتمياً لاشك فيه.

١٢ ـ دور العقيدة في تحديد المنهج الميداني المطلوب للمواجهة

المنهج المطلوب هو الذي يوصل إلى الهدف المطلوب بأقل ما يمكن من الخسائر والتضحيات، والتجارب البشرية هي الحكم الفصل في ذلك، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيثما وجدها.

والمسيرة الناجحة هي القائمة على مبدأ ناجح ومنهج ميداني ستراتيجي ناجح، والإسلام هو المبدأ الناجح الذي نقطع بصلاحيته لقيادة المسيرة البشرية دون غيره، ولكن الإسلام لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من خلال منهج ميداني ستراتيجي ناجح، وغالباً ما تفشل المسيرة وتتعثر فنخطأ في تشخيص العلّة ونتصورها في الإسلام فنتراجع عنه أو عن بعض مفاهيمه وندخل عليه مفاهيم غريبة عنه، وكأنّ الإسلام دين ناقص يحتاج إلى التكميل من الآخرين. وهذه الطامة الكبرى التي تسقط المسيرة من أصلها.

والإسلام هو العقيدة التي تشبع المسيرة بالمبدأ الناجح والمنهج الناجح معاً، المبدأ الناجح هو الإسلام نفسه، والمنهج الناجح وإن كان المتكفل به هو التجارب البشرية، إلاّ أنه ومن كمال الإسلام ورقيه أنه قد أرشد من خلال بعض المفاهيم والمؤشرات التشريعية إليه، بحيث لو استطعنا تجميعها وتنسيقها لأمكننا من خلالها الوصول إلى المنهج الميداني المطلوب الذي تتم به حكمة التشريع.

هناك منهجان في الميدان التغييري هما:

---

(١) طه: ١٢.

(٢) آل عمران: ١٧٣.

١ ـ المنهج النخبوي.

٢ ـ المنهج الثوري الجماهيري.

المنهج النخبوي

ويلاحظ على المنهج النخبوي أنه لا ينسجم مع المؤشرات الشرعية العديدة الدالة على تطابق الإسلام مع المنهج الثوري الجماهيري، الأمر الذي يرشد إلى أنّ المنهج النخبوي قاصر بحد نفسه وبغض النظر عن الأفراد والمجاميع العاملة فيه عن بلوغ الأهداف الإسلامية المنشودة، والنقطة الجوهرية في الموضوع تتمثل في أنّ المنهج النخبوي ناجح في إطار تجربة حضارية ناجزة وكاملة وقائمة على الأرض فعلاً كالتجربة الغربية الراهنة التي تستطيع النخبة أن تلعب فيها أدواراً تكميلية استمرارية، وهذا غير ما يقصد في العالم الإسلامي، حيث الحاجة إلى أدوار تأسيسية ونهوض جذري وتشييد تجربة حضارية جديدة ومواجهة شاملة بالمقدار اللازم لذلك مع الحضارة الغربية القائمة التي لا تسمح بانبثاق ولادة حضارية محرجة لها على الأرض، وظهور هذا المنهج في العالم الإسلامي أمر قائم على المحاكاة غير الواعية للواقع الغربي الراهن.

والمنشأ الأساس لقصور المنهج النخبوي يعود إلى أنّ هذا المنهج قائم على اعتبار الجمهور حالة تابعة للنخبة، وحيث إنّ الجمهور يرى نفسه متن الساحة وأساس القضية لذا فهو غير مستعد لأن يكون هامشاً لأحد. وإذا حصلت النخبة على أفراد يتبعونها فهؤلاء لا يمثلون حالة جمهورية، بل هم نخبة إضافية أو أفراد يبحثون عن مصالح؛ لأنّ الجمهور هو تلك الحالة الشعبية المفتوحة التي ترى نفسها متن الساحة وأساس القضية والتي تختار قيادتها بنفسها وتلتحم معها وترى مصيرها ومستقبلها في الاستماتة من أجل أهداف مقدسة، ويتحول المنهج النخبوي

إلى حالة خطيرة حينما ترى النخبة نفسها معزولة عن الجماهير ولا تستطيع أن تصل إلى الأهداف المنشودة في الخطة المرسومة، فتبدأ بالتخبط في الفشل والانغمار في ظلمات المعادلات الدولية الخاضعة لهيمنة القوى الاستكبارية، وتبدأ تفقد أصالتها الدينية والوطنية بشكل تدريجي، وهي تتصور ـ أو تريد أن تصور للآخرين ـ أنها تحقق فتوحات وانتصارات، وغالباً ما يثير أصحاب المنهج النخبوي على المنهج الثوري إشكالات من قبيل: سذاجة الجمهور، وماذا فعلت جماهير جمال عبدالناصر للبلاد العربية؟ ويحاول هؤلاء أن يصوروا أنفسهم حالة نوعية راقية ومتقدمة على المنهج الثوري المليء بالصخب والضجيج. وإذا اجتمع المنهجان في بلد واحد تجد التنافر بينهما واضحاً، كما تلمس غرور أصحاب المنهج النخبوي وتكبرهم على المنهج الثوري، وكثرة ما يثيرونه من الإشكالات عليه، دون أن يسألوا أنفسهم عن امتيازهم العملي عليه.

إنّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق جمهوراً ساذجاً، وسذاجة الجمهور جاءت من مصالح غربية تقتضي إيجاد حكومات عميلة ديكتاتورية تحذف الجمهور عن الساحة وتصر على إبقائه خارج دائرة المسؤولية العامة، وبعيداً عن الميادين العملية، وكل إنسان لا يدخل معترك الحياة لا يفهم منها شيئاً، ولا يتطور الإنسان إلاّ من خلال التجربة الميدانية، والمنهج النخبوي من جملة الأدوات التي أدّت إلى سذاجة الجمهور نتيجة لقيامه على أساس تبعية الجمهور للنخبة وبالتالي حذف الجمهور من الساحة. ومما لا شك فيه أنّ العمل النخبوي مهما كان واسعاً لا يستطيع أن يستوعب الساحة بكل قطاعاتها، وبالتالي فهو قادر على تطوير جناح محدود من المجتمع وقاصر عن تطوير القسم الأعظم منه.

أما التجربة الجماهيرية الفاشلة لجمال عبدالناصر، فهي من جملة ما كانت تهدف إليه الستراتيجية الأمريكية التي دخلت المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الثانية،

فوجدت الجماهير العربية ناقمة على الغرب ومتجهة نحو الشرق، فاصطنعت موجة القومية العربية الاشتراكية الثورية من أجل انتزاع الجماهير من الجانب السوفيتي إلى جانب ظاهره الاستقلال والتحرر، فلما تحقق لها هذا الهدف ووجدت الجماهير مصطفة تحت لواء القومية العربية جاءت إلى الرمز المتمثل بجمال عبدالناصر وأسقطته بامتحان يسير هو حرب الأيام الستة، فسقط الهدف والرمز وخذلت الجماهير، وكان هدف أمريكا من ذلك إيصال الجماهير إلى نقطة اليأس، وجاءت أمريكا لتعيد اللعبة مع الإسلام فاصطنعت رموزاً زائفة ثم قامت بإسقاطها باسم الحرب على الإرهاب وهي تتصور أنها بهذه اللعبة ستنتصر على الجماهير المسلمة كما انتصرت بها آنفاً. وسيأتي عما قليل إشكال آخر أكثر أهمية على الجمهور وستأتي الإجابة عنه.

والخلاصة أنّ التجارب المتكررة أثبتت فشل المنهج النخبوي وأثبتت أيضاً أنه يقود إلى دورات متتالية من التخبط في الفشل. ولم يحقق هذا المنهج حتى الآن نجاحاً في أي من قضايا العالم الإسلامي، ولم يبدِ الاستعمار انفعالاً منه، بل أبدى رغبته في التعايش معه، الأمر الذي يجعلنا أمام خيار وحيد هو المنهج الثوري، الذي تنحصر حكمة التشريع به، ولولاه تبقى أحكام الإسلام معطلة إلى نهاية التاريخ.

إنّ القرآن الكريم حينما يقول: ﴿إنّ الباطل كان زهوقا﴾[1]، فمفاد ذلك أنّ الباطل لا يملك أهلية الانتصار، فإذا انتصر الباطل يوماً فذلك يدلل على خلل منهجي عند أهل الحق، وقد انتصر الأنبياء جميعاً في مهمتهم التاريخية التي كانت تتمثل بنصر أصل قضية التوحيد ونفي الشرك، وانتصر الرسول(ص) وأهل بيته في قضية إثبات الرسالة الإسلامية ناصعة بيضاء وفي إنجاز حضارة راقية بمجموعها العام. وما

---

(١) الاسراء: ٨١.

شهد الإسلام انكساراً إلاّ بموقف خاطئ من بعض الناس المؤثرين في الساحة كما في غزوة أحد، وصلح الإمام الحسن(ع) وغيرهما. الأمر الذي يرشدنا إلى ضرورة الدقة في اختيار المنهج المطلوب في ميدان المواجهة، وضرورة إلتزام مفاهيم الإسلام وأحكامه التي تأخذ بأيدينا إلى تشخيص هذا المنهج.

المنهج الثوري

يقوم المنهج الثوري على ثلاثة أركان هي: الجمهور والبطل والثقافة الثورية، ولدى المقارنة والمطابقة نجده منهجاً مطابقاً للإسلام من ثلاث جهات أساسية:

١ ـ جهة تأكيد الإسلام على محورية الهدف في حركة الأُمة والمجتمع.

٢ ـ جهة حاجة الإسلام إلى قدرات ثورية كبيرة يتخذها ركيزة كافية في الوصول إلى أهدافه ومواجهة التحديات الغربية المضادة دون الاضطرار إلى المساومات.

٣ ـ جهة انطباق معالم الشريعة على الأركان الثلاثة للمنهج الثوري، بحيث يجد الباحث الإسلام كأنه يهتم بإيجادها.

أما الجهة الأُولى:

فإنّ الأركان الثلاثة للمنهج الثوري تفيد أنه منهج قائم على محورية الهدف في حياة المجتمع وحركة الأُمة. فالثقافة الثورية ثقافة تستنهض حماس الأُمة لأُهداف مقدسة، والجمهور هو تلك الحالة الشعبية التي لا يمكن استنفارها واستحضارها إلاّ على أساس الدفاع عن أهداف مقدسة، وما البطل إلاّ إنسان ذاب في هدف سامٍ وتحلى بدرجة استثنائية من الإحساس بالمسؤولية تجاه هدف معين وأُمة معينة. وعند التحقيق نجد أنّ الهدف المقدس الذي تدور كل التجارب الثورية من حوله عبارة عن المناداة بالعدالة، ومن الممكن أن ينادي إنسان بالديمقراطية وآخر

بالاشتراكية، لكن المقصود الحقيقي البعيد عند الجميع هو العدالة، وما آمن إنسان بهذه الشعارات إلاّ على أساس أنها طريق إلى العدالة، وما نرفع شعار الإسلام إلاّ على أساس أنه الطريق الوحيد للعدالة وأنّ ما عداه طرق زائفة باطلة. والمهم أنّ الحركات الثورية لا تدور إلاّ حول هدف مقدس، وأنّ الأركان الثلاثة للمنهج الثوري قائمة به، وهذه النقطة تمثل نقطة تطابق جوهري مع روح الإسلام القائمة على أنّ كمال الإنسان وصلاحه وسعادته كامنة في دورانه حول المطلق وتبعيته لأهداف مقدسة ومثل عليا حقيقية يتبعها في مجالات حياته المختلفة الفردية والاجتماعية والسياسية والدولية(١)، وسنجد أنّ الجهتين الثانية والثالثة قائمتان بهذه الحقيقة أيضاً. وأنّ ما سيأتي من الحديث عنهما عبارة عن شرح تفصيلي لها.

أما الجهة الثانية:

فإنّ الحديث عن إسلام يطبق في ميدان الحياة الاجتماعية، ويدخل معترك الحياة الدولية حديث عن إسلام مقتدر فعّال بأعلى درجة ممكنة من الفعالية الدولية، ولا طريق إلى إسلام مقتدر فعّال إلاّ بالمنهج الثوري القائم على الأركان الثلاثة المذكورة، والذي وجدنا مثاله الواضح في منهج الإمام الخميني(رض).

أما الجهة الثالثة:

وهي الأهم، إننا إذا نظرنا في مفاهيم الإسلام وأحكامه ذات العلاقة بما نحن فيه وجدنا فيها روحاً تتجه نحو إيجاد الأركان الثلاثة للمنهج الثوري في حياة المسلمين. وعلى النحو التالي:

---

(١) من أجل مزيد من التفصيل في دور المثل العليا في كمال الإنسان في مختلف مجالات الحياة يراجع كتاب: نظرة عامة في العبادات، وكتاب: الإسلام يقود الحياة، وكتاب: المدرسة القرآنية، وكتاب المدرسة الإسلامية، وهي جميعاً من تأليف الإمام الشهيد السيد محمّد باقر الصدر(رض).

١ ـ الجمهور

يعتبر الإسلام الأُمة كلها مكلفة بالوظائف الثورية الثلاث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الدفاع، الجهاد، ولا يسقط التكليف عن المجموع إلاّ إذا نهض من به الكفاية، وميزان الكفاية هو الوصول إلى الهدف، فكلما بقي الهدف معلقاً، بقي التكليف قائماً، وكلما احتاج الأمر إلى انضمام الآخرين وجب على الآخرين ذلك حتى لو استوعب التكليف الأُمة كلها، وهذا يعني بوضوح أنّ الإسلام يعوّل على حضور الجمهور في الساحة.

كما أنّ صلاة الجمعة والجماعة مؤشر آخر يدل على تأكيد الإسلام على ضرورة أن يكون الجمهور على أُهبة الاستعداد لمواجهة التحديات في كل لحظة ولم يخصص الإسلام التكليف بالأبرار والصلحاء، بل هو عام للجميع، فلا يعاب على فاجر دخل جيش المجاهدين ولا يسقط وجوب الأمر والنهي عنه، بل يجب عليه أن يقوم بذلك حتى في زمن فجوره، بل يجوز له أن يقود العمليات الدفاعية، وإذا انحصر الأمر به وجب عليه، كما سيأتي ذلك في فقه الثورة.

ولنستمع إلى كلمات أمير المؤمنين(ع) وهو يحدثنا قبل أكثر من ١٤ قرناً عن هذا الموضوع الحيوي، فقد كتب في كتابه المعروف إلى مالك الأشتر يقول:

«وليكن أحبّ الأُمور إليك أوسطها في الحق، وأعمُّها في العدل، وأجمعها لرضى الرّعيّة، فإنّ سُخط العامة يُجحف برضى الخاصّة، وإنّ سُخط الخاصة يُغتفر مع رضى العامة، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، واضعف صبراً عند ملمات الدّهر من أهل الخاصة، وإنما عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدّة للأعداء، العامة من

الأُمة، فليكن صِغوك لهم وميلك معهم»[١].

إنّ الجمهور انتصار مضمون، واستقامة مضمونة، ولم يدخل الجمهور معركة إلاّ وانتصر فيها، ولم يشهد التاريخ لجمهور باع نفسه للأجنبي، والسرّ في ذلك أنّ الجمهور هو المظهر البارز للأُمة، وحيث إنّ الأُمة في الإسلام وجود قائم على هدف مقدس هو الإسلام، لذا يشعر الجمهور أنّ التنازل عن الهدف يعني التنازل عن أصل وجوده، وهو يرى الدفاع عن الإسلام الصورة الوحيدة للدفاع عن نفسه، فهناك تلاحم مصيري بين الجمهور والإسلام، وهناك في المقابل تنافر مستحكم بين الطاغوت والجمهور، حيث يصبح الطاغوت في أعجز حالاته حينما يواجه الجمهور، ويكون في أقدر حالاته حينما يواجه النخبة، ولذا تجد الطاغوت يبذل أقصى جهده للقضاء على الجمهور، بالاستئصال تارة ﴿يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم﴾[٢]، وبالتجزئة والتفريق تارة أُخرى: ﴿ان فرعون علا في ارض وجعل اهلها شيعاً﴾[٣]، وبإغراق الساحة بالنخب المصطنعة كما يفعل الاستكبار العالمي تارة ثالثة، وبالتركيز على عورات الجمهور رابعة، وبخداع الجمهور بأنّه ضعيف عاجز يستحق الإشفاق خامسة، وبإسقاط البطل الذي التف الجمهور حوله سادسة، وبإسقاط الهدف الذي خرج الجمهور دفاعاً عنه سابعة، وبإيجاد معارك مصطنعة يتم فيها استنزاف الجمهور وحرف مسيرته ثامنة.

وفي مقابل هذه التحديات لابد من التركيز على استحضار الجمهور والبحث عن عوامل ذلك المتمثلة بالخطاب النهضوي الصادق والثقافة الثورية، والتأكيد على العدالة والأهداف المقدسة وأنّ الإسلام هو الطريق الوحيد لها والممثل الوحيد في

---

(١) نهج البلاغة، من كتاب ٥٣.

(٢) ابراهيم: ٦.

(٣) القصص: ٤.

دنيا الإنسان عنها، وأنّ مصير الإنسان والإنسانية مرتبطان به دون سواه، والدفاع عن التجارب الثورية وتفسير فشلها تفسيراً صحيحاً على أساس أنّ الأُمة لا تنهض بتجربة ثورية واحدة، بل تحتاج إلى عدة تجارب حتى تتكامل وتنهض، ومكافحة التفاسير الخاطئة التي تقول للجمهور: لا فائدة من الثورة والمنهج الثوري، وإشعار الجمهور بقداسة المعركة التي هو فيها؛ لأنّ الجمهور لا يدخل إلاّ في معركة مقدسة، وإيجاد حلول لمشكلة القيادة التي قد تكون سبباً لغياب الجمهور بالنحو الذي سيأتي بيانه، والتأكيد عليه بأنّ غيابه عن الساحة تترتب عليه أضرار ومساوئ فادحة كالتي يعاني منها منذ مطلع القرن العشرين وحتى الآن.

وقد يُشكل البعض بأنّ الجمهور كان متقاطعاً مع أهل البيت(ع)، كما هو واضح من تجربة الإمام علي والإمام الحسن والإمام الحسين(ع)، وسائر الأئمة أيضاً، فكيف نستطيع نسبة المنهج الثوري للإسلام في هذه الحالة؟

والجواب: إنّ ما حصل في صدر الإسلام أمر لا يقاس عليه، لأنّ الأُمة كانت في بداية أمرها، والإسلام حالة غامضة وغير متأصلة فيها بعد. ولذا قام مذهب أهل البيت(ع) على أن تكون الدورة الحضارية الأُولى الممتدة عبر قرنين ونصف من الزمان تحت اشراف سماوي مباشر وتدار من قبل أئمة منصوبين سماوياً، حتى تتعاقب الأجيال وتتربى على مفهوم واضح ثابت مستقر، وهذا ما قام به أهل البيت(ع) بالمقدار الذي كانوا قادرين عليه، وحينما وجد الإمام الحسين(ع) أن الأُمة بدأت تتجه نحو السقوط وهي لازالت في بداية أمرها بادر إلى إعلان الثورة لتصحيح وضع الأُمة وإعادتها إلى نصابها الصحيح، وبادر الأئمة من بعده إلى تبني المنهج الحسيني في تربية الأُمة وتثقيفها وجعل ذلك جزءاً من عقيدتها وممارساتها اليومية وفرائضها العبادية.

وبتعاقب الأجيال ومضي الدهور ترسخ الإسلام في وجدان الأُمة وإصبح

حالة مترسخة لا تقبل الزوال. وإصبح ضميرها الحتمي الذي تفصح عنه بشكل جلي في الأزمات المختلفة بفضل الإنجاز الثوري الفريد الذي قام به الإمام الحسين(ع).

٢ ـ البطل أو القيادة الصالحة

إننا وقبل أن نرتبط ونبحث عن القيادة الصالحة يجب أن نرتبط ونبحث عن الهدف الصالح المقدس، ويجب أن نفهم هذا الهدف على وجهه الصحيح المتكامل. وفي إطار هذا الارتباط سوف تتولد القيادة الصالحة، ويجب المحافظة على أولوية الارتباط بالهدف حتى في زمن وجود القيادة الصالحة، ولا نتصور القيادة الصالحة هي الهدف نفسه، فإنّ الهدف يمتاز على القيادة بخمسة امتيازات، القيادة تموت والهدف لا يموت، القيادة كائن محدود والهدف مطلق، القياده تقبل التعدد والهدف واحد لا يقبل التعدد ويحل مشكلة تعددية القيادة، القيادة تخطأ والهدف معصوم لا يخطأ، القيادة ليست مقياساً للاستقامة والانحراف والهدف مقياس لذلك.

ويحدثنا القرآن الكريم أنّ عيسى(ع) لما قال: ﴿لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[١].

حيث نلاحظ في جواب الحواريين تركيزاً تاماً على الهدف واستبعاداً تاماً للعنوان الشخصي حتى لوكان عنواناً طارئاً صادراً من أحد الأنبياء أُولي العزم وهو عيسى(ع)، إذ لم يأتِ جواب الحواريين مطابقاً لسؤال عيسى(ع) ولم يقولوا: نحن أنصارك إلى الله، بل قالوا: نحن أنصار الله، فالجمهور يريد الارتباط المباشر بالهدف ويريد التأكيد عليه، ويرى في العنوان الشخصي مصادرة لوجوده وأهدافه، وليس الجمهور وحده يبدي هذه الحساسية تجاه العنوان الشخصي، بل الرسالات السماوية

---

(١) الصف: ١٤.

تبدي هي الأُخرى حساسيتها منه. قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (١).

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِنْ أحد عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٢). ﴿ وَمَا محمّد إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (٣).

ومجموع ذلك يبين أنّ العلاقة بين الجمهور وبين الهدف المتمثل بالله وبالرسالات السماوية هي علاقة عاشق ومعشوق، ولذا يبدي الطرفان حساسية شديدة تجاه العنوان الشخصي والفئوي الذي يحاول ان يفصل بينهما، ويعتبران ذلك بمثابة المعبود الزائف الذي يريد ان يستولي على الجمهور ويسوقه نحوه بدلاً عن سوقه إلى الله سبحانه وتعالى.

ويبدي الرسول الأعظم(ص) حساسيته من العنوان الفئوي وذلك في كتاب بعثه إلى بني الحارث بن كعب، نهىٰ فيه عن الدعاء إلى القبائل وأمرهم فيه أن يكون **«دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطع بالسيف»** (٤).

ويؤكد الإمام علي(ع) الموقف نفسه في خطاب موجه إلى قبائل الكوفة يقول فيه: **«فإذا انفصل الناس وكانت بينهم الثائرة، وقد تداعوا إلى العشائر والقبائل فاقصدوا لهامهم ووجوههم بالسيوف حتى يفزعوا إلى الله وإلى كتابه وسنة نبيه، فأمّا تلك الحمية من**

---

(١) آل عمران: ٧٩.

(٢) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧ .

(٣) آل عمران: ١٤٤ .

(٤) تاريخ الطبري ٢: ٣٨٧.

خطوات الشياطين، فانتهوا عنها لا أباً لكم تفلحوا وتنجحوا»[1].

إنّ من يؤكد العنوان الشخصي والفئوي أنما يريد أن يدخل جمل الأُمة في سم الخياط، ولا يلاقي في طريقه هذا إلاّ الفشل، ومثل هذا الفشل لا يضره فقط، بل يضر الأُمة ويضر الإسلام أيضاً؛ لأنه سيتحول إلى حافظة الأُمة كاستنتاج تاريخي خطير يفيد عدم جدوى الحضور في الساحة وضرورة الانكماش عنها وترك الأُمور لكل من يريد أن يأتي مهما كان عابثاً وسيئاً.

إنّ أسوأ حالة تمارسها النخبة بحق الجمهور حينما تنظر اليه كأنصار لها لا للهدف، وأسوأ مظهر لهذه الحالة حينما تتنازع عدة نخب على الجمهور كل واحدة منها تدعي أنّ الجمهور لها وليس لغيرها، الأمر الذي يشعر معه الجمهور بالإهانة الشديدة، وبانحراف المسيرة، لأنّ الأصل يقتضي أن تكون النخبة امتداداً للجمهور وآلة بيده ووسيلة لتحقيق أهدافه ومصالحه، بينما أصبح الجمهور في الحالة القائمة امتداداً للنخبة وآلة بيدها ووسيلة لتحقيق أهدافها ومآربها.

ولنستمع إلى أميرالمؤمنين(ع) حيث يقول: **«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تُتّبع، وأحكام تُبتدع، يُخالف فيها كتاب الله، ويتولّى عليها رجال، رجالاً على غير دين الله، فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أنّ الحق خلص من لبس الباطل، انقطعت عنه ألسن المعاندين؛ ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث، فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى»**[2].

فالفتنة تتكون من عدّة عناصر هي:

١ ـ أهواء تتبع بدلاً عن الأهداف المقدسة.

---

(١) الغارات، ابراهيم بن محمّد الثقفي ٢ : ٣٩٦، ط: بهمن.

(٢) نهج البلاغة، خطبة ٥٠ .

٢ ـ أحكام تبتدع بدلاً عن شرع الله.

٣ ـ مبادرة الناس إلى التحزب لأهل الأهواء والبدع بدلاً عـن التـحزب لله وشرعه.

٤ ـ امتزاج الحق بالباطل.

واستخلاص الحق وبيان الحقيقة في كل فتنة يتطلب استخراج هذه العناصر. الأهواء والبدع والتحزب للعنوان الشخصي والفئوي واخـتلاط الحـق بـالباطل، وسنجد أنّ هذه العناصر موجودة في مسألتنا محل البحث، وأنّ بيان الحق والحقيقة متوقف على استخراجها وإنقاذ الساحات الإسلامية منها.

إنّ الأهداف مقدسة بحد ذاتها، والإنسان ليس مقدساً بحد ذاته، وإنما يصبح مقدساً بمقدار تبعيته لها وانسجامه معها وتضحيته من أجلها، ومراتب القرب عند الله سبحانه وتعالى بمقدار ذوبان الإنسان فيها، وما أصبح الرسول الأعظم(ص) في مرتبة قاب قوسين أو أدنى إلاّ لأنه يمثل ذروة الذوبان في الهدف الإلهي، وقد ضرب الإمام الخميني(رض) مثلاً رائعاً حينما قال كلامه المعروف: لو أن جميع الأنبياء اجتمعوا في مكان واحد لما اختلفوا[1]؛ لأنّ ذوبانهم الشديد في وحدة الهدف من شأنه أن يمتص العامل الأساس للاختلاف المتمثل بالهوى وحب النفس وحب الدنيا والتركيز على العنوان الشخصي، وهذا العامل منتفٍ عن الأنبياء بـبركة ذوبـانهم الشديد في الهدف، بل في هذه الحالة سيصبح تعدد الأفراد والزعامات عامل خير وبركة، وفي هذا الإطار يأخذ الحديث النبوي المعروف: **«اختلاف أُمتي رحمة»**[2] معناه الحقيقي.

---

(١) صحيفة امام ٢: ٢١٤، بالفارسية.

(٢) كنز العمال، رقم الحديث ٢٨٦٨٦.

وكل الآيات القرآنية التي تدعو المؤمنين إلى التنافس في الله والتسابق إليه أنما تريد منهم الانخلاع من الشخصانية والذوبان في الهدفية. وكلما سيطر الإطار العقائدي على الساحة ظهرت الأهداف الكبرى واضمحلت الأهداف الصغرى الوهمية المضرة بالأهداف الكبرى الحقيقية، وكلما غاب هذا الإطار ظهرت الأهداف الصغرى والشخصية السيئة واضمحلت الأهداف الكبرى المقدسة.

وفي إطار ذلك كله نجد أنّ الإسلام يتجه لصناعة بطل وقيادة صالحة على أساس الهدف، وهذا ما يتجلّىٰ من خلال التركيز على زهد القيادة من جهة، وشجاعتها من جهة ثانية، والنصيحة للأُمة وعدم التغرير بها من جهة ثالثة، والقاطعية والثبات على المبدأ وعدم الخوض في مساومات من جهة رابعة وضرورة قيام القيادة بالدفاع عن عقيدة الأُمة وتحصينها من الاختراقات والغزو الثقافي من جهة خامسة، وأنّ القيادة الفعلية تتمثل بالمصلح العالمي الإمام المهدي(ع) وأنّ القيادة الزمنية قيادة نائبة وتابعة لخطوات البطل الثائر العالمي المذخور لإنقاذ البشرية من جهة سادسة، مجموع هذه المؤشرات تدل على منهج إسلامي يتجه لصناعة القيادة البطلة التي تتحدى وتكافح من أجل أُمتها وأهدافها وعموم المستضعفين على أساس شعار العدالة.

٣ ـ الثقافة الثورية

وهذا الركن أكثر وضوحاً في الإسلام من الركنين السابقين، فآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآيات الجهاد والشهادة والقتال، وآيات الأخذ بالقوة وإعداد القوة ووصف الله سبحانه بالقوي الذي يقضي على كل قوي معاند، وأنه خالق القوة، والتجربة النبوية الجهادية، والتجربة الجهادية العلوية، وتأكيد

أمير المؤمنين على الجهاد و«إنّ الف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على فراش»[1]، والثورة الحسينية والثقافة العاشورائية القائلة: «إني لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما»[2] و «هيهات منا الذلة»[3] واحاديث الرسول(ص) وأهل البيت الشديدة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك يدلل على شحنة ثقافية ثورية شديدة في الإسلام، ولو أردنا أن نتتبع معالم الثقافة الثورية في الإسلام لطال البحث كثيراً، لكننا أردنا الإشارة إلى المعالم البارزة، وتركنا المعالم الخفية الدفينة في ثنايا القرآن والسنة النبوية، مثل قوله تعالى: ﴿يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم﴾[4] فلم تقل الآية: يذبحون رجالكم، وإنما قالت أبناءكم للإشارة إلى أنّ الشباب هم نواة الثورة في كل مجتمع، فكبار السن تضعف عادة النزعة الثورية فيهم، بخلاف الشباب الذين تكون النزعة الثورية عندهم في أبرز وأوضح حالاتها.

هذه أركان المنهج الثوري في الإسلام، وقد عمل أئمة أهل البيت(ع) بالمنهج الثوري على ثلاثة خطوط هي:

١ ـ خط الدفاع عن الهدف المقدس المتمثل بالإسلام على مستوى أصل وجوده ومستوى إيضاح معالمه الكلامية والفقهية الصحيحة، ونقض ما تنسب إليه من معالم خاطئة، والحرص على وحدة الهدف والحيلولة دون انشقاقه إلى أهداف متعددة بعدد ما ينسب إلى الإسلام من مذاهب وفرق .

٢ ـ خط الدفاع عن وجود الأُمة وترسيخ الإسلام فيها، والعمل على تحويلها إلى حالة مستقرة وموحدة، ومكافحة حالات الشذوذ والانشقاق وعوامل القلق والاضطراب فيها.

---

(١) نهج البلاغة، من الخطبة ١٢٣.

(٢) مقتل الحسين، للمقرم: ٢٣٢، ط قم.

(٣) المصدر نفسه: ٢٥٠.

(٤) البقرة: ٤٩.

٣ـخط الدفاع عن العدالة كما في التجربة العلوية والثورة الحسينية، وتبني أهل البيت للشعائر الحسينية كخط دائم للتربية الثورية في المجتمع ويتبلور هذا الخط بشكل بارز في المفهوم المهدوي الثوري القائم على بسط العدالة ومكافحة الظلم على مستوى العالم كله. وفي قيام الأئمة بزرع دولة الفقيه العادل ضمن دولة السلطان الجائر من خلال أُطروحة ولاية الفقيه، وفي دفاع الأئمة(ع) عن بعض الثورات دون الاشتراك بها.

وفي ضوء هذه الخطوط الثلاثة فقط نستطيع أن نفهم معنى التقية عند أهل البيت(ع) ومغزى سكوتهم في بعض المقاطع، ومعنى ضلالة كل راية تظهر قبل الإمام المهدي(ع). فالتقية تعني ملاحظة أولوية بناء الهدف والأُمة على إسقاط الحكم الجائر من جهة والتوصية بعدم التخاذل والتنازل عن خط العدل من جهة ثانية، والسكوت في بعض المقاطع هو بلحاظ أولوية الانشغال بالخط الأوّل والثاني عن الانشغال بالثالث، وضلالة كل راية تظهر قبل المهدي(ع) هي بمعنى ضرورة متابعة المنهج الثوري عند الأئمة بخطوطها الثلاثة وضمن تشخيصهم(ع) للأولويات إلى حين بدء عصر الغيبة، وعدم الاغترار بمناهج ثورية أُخرى لا تلاحظ الأولويات التي يهتم بها أئمة أهل البيت(ع)، وهذا ما يوضح السر في دعم الأئمة لبعض الثورات من جهة وعدم مشاركتهم فيها من جهة ثانية. فالمقصود بذلك أنّ الهدف في الخط الأوّل، والأُمة في الخط الثاني أمران متوقفان على وجود الأئمة(ع)، وهذا من خواص الأئمة (ع) باعتبارهم استمراراً سماوياً للرسالة والنبوة، ولا يشمل الأُمة في المراحل التالية التي ينبغي لها أن تتابع منهجاً ثورياً في ضوء ظروفها الزمانية وامكاناتها الخاصة بها في إطار الملامح العامة للإسلام وباستلهام من روح المنهج الثوري عند الأئمة(ع).

ولولا ما قام به الأئمة(ع) من جهود على صعيد الخطوط الثلاثة لما حصلنا على

أُمة مستقرة على أساس إسلام واحد لا يقبل التعدد، وبذلك يتضح أنّ الإسلام قد عين للأُمة مبدأها الصالح ومنهجها الميداني الصالح في المواجهة، ثم جاءت التجارب البشرية لتؤكد صحة المنهج الثوري الذي اختاره الإسلام.

العقيدة والثورة في مرحلة إقامة الحضارة المطلوبة

عرفنا فيما مضى كيف تلعب العقيدة دورها في إسقاط الواقع الفاسد، ونأتي الآن لندرس الأدوار التي تقوم بها العقيدة على صعيد إقامة الحضارة المطلوبة التي يتكامل فيها الإنسان ويرى فيها سعادته، وقبل كل شيء لابد أن نعرف أنّ الحضارة البشرية لابد أن تقام على أحد محورين لا ثالث لهما، فإمّا أن تقام على أصالة الإنسان، وإمّا أن تقام على أصالة الله سبحانه وتعالى وتبعية الإنسان له. الأساس الأوّل تقام عليه كل حضارة أرضية مادية سواءً أنكرت وجود الله سبحانه، أو آمنت به وأنكرت حاكميته على الإنسان فقط. الذين أنكروا وجود الله سبحانه هم الملحدون والذين أنكروا حاكميته وأهملوا البحث في إثبات وجوده هم الليبراليون، والحضارة القائمة فعلاً على الأرض الآن هي الحضارة الليبرالية، ويركز القرآن الكريم على أنّ هذه الحضارة تستند إلى أصول ثابتة في كل زمان وتظهر بأشكال مختلفة وأنها أساس المعاندة مع خط النبوات(١). والأساس الثاني تقوم عليه الحضارة السماوية، ومن وجهة النظر الإسلامية أنّ المنشأ الأوّل للفساد في الأرض هو القول بأصالة الإنسان وإنكار مبدأ التبعية لله، وأنّ منشأ الكمال والسعادة يكمن في القول بأصالة الله وخلافة الإنسان وتبعيته له. ومن هنا جاء الإسلام بمعنى التسليم والتبعية لمبدأ الوجود سبحانه وتعالى. وهنا نأتي لندرس كيف تلعب أصالة الإنسان في إفساد الواقع؟ وكيف تقوم أصالة الله المعبر عنها بالتوحيد في إقامة

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الآتي.

الحضارة الصالحة على الأرض؟

إنّ الإنسان إذا أصبح قيمة حاكمة في الحياة، فقد الإحساس بالمسؤولية تجاه مبدأ أسمى منه، وشعر بالحاجة إلى القوة لإثبات وجوده وضمان مصالحه بصورة أفضل، وكلماكان أقوى أصبح بوسعه أن يتمتع بحياة أفضل حتى يمسك بزمام السلطة في بلده ثم في قوميته ثم في قارته ثم في العالم أجمع، وهكذا تتحول الحياة إلى مسرح للصراع بين الضعفاء والأقوياء من أجل البقاء والرفاهية، ومع أنّ الليبرالية تتبجح كثيراً بالحرية والديمقراطية إلاّ أنها في الحقيقة سبب تام للاستبداد؛ لأنّ حاكمية الإنسان تعني حاكمية القوة، وحاكمية القوة تعني أن يصبح الرأسمالي حاكماً على صندوق الانتخابات في بلاده واستعماراً على الشعوب المستضعفة، وهنا تظهر القومية كوسيلة فعالة يستخدمها الرأسمالي لتعبئة شعبه ضد الشعوب الأُخرى، وفي حضارة من هذا القبيل تصبح الحرية والعدالة والأخلاق والسلام العالمي والأُخوّة البشرية والمصلحة الإنسانية شيئاً لا وجود له، فتأتي حاكمية الله لتصلح ما افسدته حاكمية الإنسان، وأوّل شيء تبدأ به أنها تجعل الإنسان خليفة لله ومسؤولاً أمامه سبحانه وتعالى في كل حركة وسكنة، ومن هذه النقطة يبدأ الإنسان طريقه إلى الكمال على النحو التالي:

١ ـ الأخلاق

الأخلاق تعني إيثار «الآخر» على «الأنا»، وهذا لا يتم على مبدأ أصالة الإنسان التي تعني أصالة «الأنا»، إنما يتم على مبدأ أصالة الله التي تعني أصالة الآخر وتبعية «الأنا» له.

٢ ـ العدالة

العدالة بمعنى إعطاء كل ذي حق حقه أمر مسلّم عند كل العقلاء، إلاّ أنّ مشكلة

هؤلاء العقلاء تتمثل في طغيان الغريزة وعجز الإنسان بمفرده عن إخضاعها لهذا الحكم العقلي، فتأتي العقيدة لتدعم مركزية العقل وحاكميته في الشخصية الإنسانية من جهة وتجعل منزلة الإنسان الاجتماعية في الدنيا وسعادته في الآخرة منوطة بمقدار تقيده بهذا الحكم العقلي، وبدون العقيدة يتجه الإنسان إلى الانفلات من العدل كمرحلة أُولى، ثم إنكار أصل وجوده كقيمة خلقية في الحياة في المرحلة التالية، كما نجد ذلك واضحاً في الثقافة الليبرالية.

٣ـ الأُخوّة البشرية والسلام العالمي

الأُخوّة من المفاهيم المتضايفة المقرونة بغيرها، فلا أُخوة بلا أُبوّة وحينئذ فلا أُخوّة بشرية ما لم نتصور محوراً سامياً تدور حوله هذه البشرية، والقول بأصالة الإنسان يؤدي إلى نكران هذا المحور السامي، ولا أُبوّة تلعب دور المحور السامي إلاّ في ظل أصالة الله المعبر عنها بالتوحيد، وبالتالي فلا سلام عالمي بلا أُخوّة بشرية، ولا أُخوّة بشرية بلا ربوبية وأُبوّة إلهية.

٤ـ العالمية

العالمية تعني دوران البشرية حول محور أسمى منها ينظر إلى جميع أفرادها بعين المساواة، وهي لا تتم إلاّ على أساس التوحيد، فإذا أنكرنا أصالة الله وآمنا بأصالة الإنسان، جاء الإنسان الأقوى وفرض نفسه كإطار ومحور لحركة باقي الناس وادعى لنفسه حالة عالمية تشمل ما سواه، وهذا في الحقيقة تحايل على مفهوم العالمية، وتعبير عن «أنا» قومية طاغية فرضت نفسها على قوميات ضعيفة صغيرة، وهذا من نتائج حاكمية الأنا، ومن مظاهر استبدادها على الساحة الدولية.

٥ـ الحرية

إنّ حاكمية الإنسان وأصالته سبب تام لظهور الاستبداد؛ لأنّ أصالة الإنسان

تظهر في الميدان الاجتماعي والسياسي في صورة حاكمية الإنسان القوي على الضعيف فالحرية الحقيقية هي حرية القوي التي تؤدي إلى ضياع حرية مجتمع بأكمله، وهنا تأتي اصالة الله سبحانه لتنزع الحاكمية عن كل إنسان و تجعلها لله وحده بالنحو الذي يؤدي إلى أن يتمتع الجميع بالحرية الحقيقية، وحتى القوي سوف يتمتع بها؛ لأنّ الحرية لا تعني حرية أن يضطهد القوي الضعيف، ولا تعني أن يكون الإنسان حرّاً في الشر، بل تعني أن يكون الإنسان حرّاً في أن يفعل هذا اللون من الخير أو ذاك؟ ان يفعل الخير اولا يفعل الخير، وليس معنى الحرية أن يفعل الإنسان الشر.

٦ ـ أساس الأُمة

الأُمة في الإسلام هي الجماعة ذات المقصد الواحد، أي الجماعة المتمحورة حول هدف واحد، وهو الإسلام، ودخول الإسلام في تكوين الأُمة كأساس لها يجعلها أُمة تتطور مكانياً حتى تستوعب آخر نقطة في الأرض، وذلك مظهر لعالمية الإسلام، وتتطور زمانياً حتى تستوعب آخر نقطة في الزمان، وذلك مظهر لخلود الإسلام، وتتطور في أُفق الحياة لتقضي على كل نقص وشر وباطل في جانب من جوانب الحياة، وذلك مظهر لشمولية الإسلام، ومجموع هذه الأبعاد يكوّن مفهوم الأُمة المكعبة في ميدان التطور.

٧ ـ مصدر الشرعية

مصدر الشرعية في القانون والسياسة بالنسبة لليبرالي هو الإنسان والعقد الاجتماعي، وهذا يعني استناد الناقص إلى ناقص مثله، بينما مصدر الشرعية في الحياة السياسية والقانونية والاجتماعية هو الهدف المقدس المتمثل بالإسلام، فما استند إلى الإسلام فهو شرعي، وهو استناد الناقص إلى الكامل، وما استند إلى غيره فهو غير

شرعي، وهو استناد الناقص إلى مثله.

٨ـ أساس الحقوق

الحقوق في الإسلام تترتب عمودياً على قاعدة: **﴿إنّ أكرمكم عند الله اتقاكم﴾**[١]. فكل من اقترب إلى الهدف أكثر تمتع بمزايا اجتماعيةوحقوقية أكبر، وعلى أساس ذلك هناك درجات حقوقية تبدأ من الصفر وتنتهي بما دون الله سبحانه وتعالى، درجة الصفر هي الشرك، وبعدها أهل الذمة، وبعدها المسلم الناطق بالشهادتين، وبعدها المسلم العادل وبعدها الفقيه العادل، وبعدها الإمام(ع)، وبعدها الرسول الأعظم(ص) الذي كان قاب قوسين أو أدنى.

٩ـ المصلحة والمنفعة

الإنسان كائن باحث عن المنفعة والمصلحة، هذا مما لا مشكلة فيه، وقد جاء الإسلام من أجل مصلحة الإنسان ومنفعته، ولم يأتِ لمصادرتها، لكن عملية تشخيص المصلحة منوطة بانكشاف تمام الأبعاد الدخيلة فيها، والفرق بين الليبرالية والإسلام فرق بين من ينظر إلى نصف القضية ومن ينظر إلى تمام القضية، الليبرالية تنظر إلى الدنيا والجسد فقط وتشخص المصلحة في ضوئهما، بينما الإسلام يرى أنّ المصلحة المبنية على ملاحظة ذلك مصلحة ناقصة والمصلحة التامة هي التي تنظر إلى الروح والجسد وإلى الدنيا والآخرة معاً، وبمجموع هذه الأبعاد تتضح حقيقة المصلحة للإنسان.

والدليل على فساد المصلحة بالمفهوم الليبرالي أنها تجعل المصلحة العامة في صراع مع المصلحة الخاصة وتعطي الفرصة لغلبة مصلحة القوي على الضعيف، فيأتي الإسلام ويحل المشكلة من خلال مفهومه المتكامل الذي يجعل المصلحة العامة

---

(١) الحجرات: ١٣.

موافقة للمصلحة الخاصة، ومصلحة القوي موافقة لمصلحة الضعيف.

هذه النقاط التسع مع نقطة الشعور بالمسؤولية تمثل الروافد العشرة التي توفرها العقيدة في مضمار بناء الحضارة المطلوبة. ومعلوم أنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فهذا ما عند الله سبحانه وتعالى رب الرحمة والفيض والعطاء، وبقي ما على المسلمين القيام به من الانصهار في العقيدة وامتثال خطواتها والتمسك بها والدفاع عنها والسير على نهجها مرحلة بعد أُخرى وجيلاً بعد جيل. ومن خلال هذا السياق يتضح فساد ما قيل من التعددية والقراءات المتعددة، وأنها أشبه بالخدعة الشيطانية منها بالنظرية الأكاديمية، فلو كانت القراءات المتعددة أُمراً صحيحاً للزم من الليبرالية أن تلتزم به في مقولة أصالة الإنسان، فلماذا تجري القراءات المتعددة في طرف الدين وأصالة الله ولا تجري في الليبرالية وأصالة الإنسان؟

الفَصلُ الثَّالِثُ

عقيدة الثورة والمقاومة

المقاومة موقف ينطلق من شخصية ممتلئة ذات محتوى إيجابي فعّال، فالإناء المملوء يقاوم الماء الجديد إذا سكب فيه، وترى الماء الجديد يتساقط من حوله ولا يتمكن من الدخول فيه، والإناء الخالي يتقبل ذلك، وإذا كان المحتوى ـ أي محتوى ـ بحد ذاته يفعل ذلك، فالعقيدة الإسلامية تمثل المحتوى الإيجابي والحيوي الفعال الذي يتسم بحساسية شديدة تجاه التحديات المتوجهة إليه، وهي حيوية تبدأ من عمق عقيدة التوحيد وتنتشر منها في مختلف مجالات وأبعاد العقيدة الإسلامية، ولذا ينبغي التمييز في الحسابات الميدانية والتاريخية بين الإسلام والمسلمين فربما تخاذل المسلمون في قضية، ومع ذلك نشهد انتصاراً إسلامياً في الساحة، وربما اشتبه الأمر على المؤرخ فنسب هذا الانتصار للمسلمين وأنهم لم يتخاذلوا وإنما اتخذوا موقفاً ذكياً، والواقع هو أنّ هذا الانتصار كان من إنجاز الإسلام نفسه؛ لأنه حقيقة مشعة تجذب النفوس إليها وتؤثر فيها، والمثال التاريخي لذلك دخول المغول والتتر الغزاة في الإسلام بعدما تهيأ لهم غزو البلاد الإسلامية واحتلالها، وتتسع رقعة الإسلام في زماننا هذا ويدخل الكثير من الناس في الإسلام من تلقاء أنفسهم من دون جهود دعوية، وبلحاظ زخم المقاومة هناك نوعان من الأديان:

١ ـ دين لا يستمد وجوده من الدليل والبرهان والتطابق مع الفطرة، بل من كونه تراثاً قومياً يمثل الأنا في مقابل الآخر، فالذات إناء وهذا الدين مجرد محتوى يراد منه أن يملأ بشيء ما يستعان به على دفع التحديات الخارجية، وهذا ما يقصده القوميون حينما يتحدثون عن ضرورة القومية في بناء الدولة الحديثة، وأشار إليه

القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(١).

فهؤلاء يقاومون دعوة الأنبياء بدافع قومي هو الحفاظ على آثار الآباء والأجداد ويعتبرون عمل الأنبياء تحدياً يهدد وجودهم القومي، وقد تضمنت الآيتان ثلاث إشارات إلى خلو المنطق القومي من الدليل والبرهان، واعتماده على التعصب، الإشارة الأُولى أنّ المعترضين على الأنبياء هم المترفون فقط، وهؤلاء يتبعون مصالحهم الاقتصادية ويرفضون التغيير؛ لأنه يضر بمصالحهم ويؤدي إلى تغيير موقعهم الاجتماعي، والاشارة الثانية هي أنّ هؤلاء لم يقولوا: أنا وجدنا صلحاءنا وذوي الخبرة والدراية منا على أُمة، وإنما قالوا: إنّا وجدنا آباءنا...الخ. فالتبعية للآباء بدافع العاطفة والعصبية لا الدليل والبرهان، والإشارة الثالثة وهي الصريحة، وهي قول الأنبياء: (أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) فجاء الجواب منهم: (انا بما أُرسلتم به كافرون) فهؤلاء ليسوا بصدد البحث عن الدليل والبرهان، وتمييز الهداية عن الضلال، وإنما بصدد مصالحهم وأهوائهم، مثل هؤلاء يقاومون، ولكن بلا مبدأ صحيح ولا هدف مقدس، ومقاومتهم تصبح أمراً مقبولاً حينما يكون المهاجم لهم طرفاً مماثلاً لهم في المنطق والتفكير، كما لو اعتدت قومية على قومية أُخرىٰ، وقبيلة على أُخرى، في مثل هذه الحالة يأخذ الدفاع شكلاً مقبولاً، لا لأنّ المبدأ القومي في نفسه صحيح، بل لأنّ الاعتداء أمر مرفوض، ولذا فحينما يأتي الأنبياء ليصححوا المسيرة البشرية لا يعتبر عملهم هذا هجوماً، بل تعتبر مقاومته أمراً مستقبحاً، والاستجابة له أمراً مطلوباً، والنتيجة أنّ الدين الذي يستمد وجوده

---

(١) الزخرف: ٢٣ ـ ٢٤.

من كونه تراثاً وحفاظاً على سيرة الآباء والأجداد ليس بدين حقيقي، وإنما هو في الحقيقة مبدأ قومي، والمبدأ القومي يؤدي إلى مقاومة ناقصة ناشئة من قبح الاعتداء فقط، لا من حسن المبدأ القومي.

٢ ـ دين يستمد وجوده من الدليل والبرهان، والتطابق مع الفطرة والحقيقة، مثل هذا الدين يؤدي إلى مقاومة كاملة، لأنّ الدفاع عنه دفاع عن الحقيقة والفطرة ورفض للاعتداء في الوقت نفسه والمقاومة ناشئة من قبح الاعتداء اضافة إلى حسن المبدأ المطابق للفطرة والحقيقة، ومن هنا يرفض الإسلام إيماناً يستند إلى التقليد ولا يستند إلى الدليل والبرهان. حتى يتمكن المسلم من الدفاع عن إسلامه دفاعاً حقيقياً كاملاً. وحتى تصل المقاومة لديه الدرجة القصوى، وهي مقاومة مستمدة من أُصول الدين الخمسة معاً.

الثورة والمقاومة في محور التوحيد

التوحيد هو الرمز المعبر عن الإسلام كلّه، والحديث عنه يعني الحديث عن الإسلام بمجموعه عقيدة وشريعة، لأنّ التوحيد هو عبارة عن شعار الإسلام الخالد: «لا إله إلّا الله» وهو الخلاصة لكل عقائد الإسلام وشرائعه؛ لأنه مركب من جزء سلبي يتمثل بنفي كل إله زائف باطل، وجزء إيجابي يتمثل بإثبات الإله الحق الواحد الذي لا شريك له، وهذا التركيب هو الروح السارية في كل عقائد الإسلام وشرائعه، فالعدل والنبوة والإمامة والمعاد معانٍ إثباتية جاءت بعد رفض المعاني المقابلة لها المتمثلة بالظلم واتباع الأهواء وحكم الظالمين والنظرة القاصرة إلى الدنيا، وإذا انتقلنا من العقيدة إلى الشريعة وجدنا فيها خط المنكر المرفوض وخط المعروف المطلوب، خط الحرام المرفوض وخط الحلال والواجب المطلوب، وبالتالي فالإسلام عبارة عن نفي وإثبات، وبين هذين الجانبين تتولد المقاومة التي تعني رفض ما هو مرفوض والمناداة بما هو مطلوب، وحجم المقاومة وزخمها يقاس بمقدار الفاصل بينهما، وهو بمقدار الفاصل بين الشرك والتوحيد، بين الأرض والسماء، فالمقاومة في الإسلام هي بحجم مقاومة التوحيد للشرك وبزخم رفض النور للظلمات. ومقاومة الخير للشر، وتنافي الحق مع الباطل.

وجانب الإثبات يبدأ من الإيمان بالله ثم يتسع ليشمل حلقات ودوائر أوسع، فهناك ولاية الله وقدرته ونصرته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه يمّد أولياءه بما عنده، وأنه نور السموات والأرض، وهناك موالاة أولياء الله ونصرتهم، وشعار «الله أكبر» يختزن ثورة جذرية على كل طواغيت الأرض وتربية على استصغارهم واستشعار قدرة الله عليهم، وانتماء إلى هذه القدرة المطلقة، واستبعاد تام لروح الهزيمة والخنوع.

وجانب النفي يبدأ من رفض الشرك والكفر بالله، ثم يتسع ليشمل حلقات ودوائر أوسع، فهناك البراءة من الشيطان، وأنه عدو المؤمنين وعليهم أن يتخذوه عدواً، وأنه يستدرجهم بخطواته وعليهم الحذر من اتباع الخطوة الأُولى؛ لأنها ستجر إلى خطوات أُخرى، وهناك اللعن والبراءة من أعداء الله وأعداء رسوله وأوليائه، والبراءة من الطاغوت، وأنه يخرج الناس من النور إلى الظلمات، وبين هذين الجانبين تتولد نواة الثورة والمقاومة، مقاومة الخير كله للشر كله.

والتوحيد ثورة كاملة تبدأ بنفي الشرك والكفر والظلم وتنتهي بإثبات الإيمان والعدل، ومن هنا كان التوحيد الهدف المقدس الوحيد الذي ينقذ الإنسان من الضلال ويقوده نحو الكمال، وقد مضى تفصيل ذلك في الفصل الثاني في بحثنا عن دور الهدف المقدس في العدل والحرية والعالمية والسلام والوحدة البشرية وسائر المقولات المكونة للحضارة والدافعة نحو الثورة والتغيير.

الثورة والمقاومة في محور العدل

إنّ فلسفة وجود الإنسان في الحياة تتمثل بأن يأخذ موقعه في ساحة الصراع ضد الظلم والظالمين، والكفاح من أجل إقرار العدل، وفلسفة وجود الإسلام تتمثل هي الأُخرى ببسط العدل، وقد جمع القرآن الكريم الفلسفتين في موقف واحد حينما بيّن ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾(١).

ومن هنا كانت فلسفة وجود الحركات الإسلامية في الحياة الدولية عبارة عن مكافحة مظاهر الظلم التي يعيشها الإنسان المسلم وسائر المستضعفين في العالم على يد حفنة رأسمالية ظالمة، ومن لم يتحرك باتجاه مكافحة الظلم وإقرار العدل أنما ينقض فلسفة وجوده كانسان، وفلسفة انتمائه للإسلام كدين، وفلسفة وجوده في حركة إسلامية، خاصة لمن ينتمي إلى مدرسة أهل البيت(ع) التي تعتبر العدل الأصل الثاني من أُصول العقيدة.

وواضح أنّ تدوين العدل في أُصول الدين يمثل ارتقاءً بالمسألة الإنسانية من مستوى المسألة الشرعية إلى مستوى المسألة العقائدية، وبالتالي فمكافحة الظلم ومقاومته أمر يعلو على مستوى المسألة القانونية الشرعية ويرتقي إلى مستوى الأصل الثاني بعد التوحيد من أُصول الدين.

والشيء الأهم من ذلك أنّ تدوين العدل كأصل ثانٍ بعد التوحيد يخرجه من دائرة التمييع والإبهام ويدخله دائرة الحقيقة الواضحة. صحيح أنّ العدل مطلب

---

(١) الحديد: ٢٥.

إنساني لكل البشرية، ولكن المشكلة الكبيرة التي تواجه البشرية تتمثل في عملية تحويل العدل من شعار وجداني مجمع عليه إلى منهج اجتماعي وقانوني متفق عليه أيضاً، ذلك أنّ أنصار كل دين وفلسفة ومذهب اجتماعي ونظرية حقوقية واقتصادية معينة يدّعون أنهم يمثلون المنهج العادل في الحياة ويتخذون من هذا الادعاء مبرراً لوجودهم ومعارضتهم للآخرين. الأمر الذي قد يهيّء الأرضية عند الكثيرين لإنكار أصل وجود شيء اسمه العدل. نظراً لهذا الاختلاف والتنازع فيما هو المنهج الاجتماعي العادل.

وتدوين العدل في أُصول الدين وعدّه الأصل الثاني بعد التوحيد يعني من الناحية الأيديولوجية أنّ العدل هو ما جاء في إطار التوحيد، وأنّ كل ما خرج عن هذا الإطار لا يمكن أن يؤدي إلى منهج اجتماعي عادل، الأمر الذي يفتح الباب للبحث في نقطتين:

١ ـ دور الإيمان في تحقق العدل.

٢ ـ دور المفهوم الإيماني التوحيدي للعدل في دعم وتقوية حالة المقاومة للجور والطاغوت.

أما النقطة الأُولى فدور الإيمان في العدل نوضحه من خلال المثال الاجتماعي التالي:

إذا ذهب الإنسان إلى السوق فلكي يكون عادلاً يحتاج إلى أن يعرف المبلغ المساوي للسلعة التي يريد شراءها وأن يكون عازماً على دفع هذا المبلغ بلا غش ولا تحايل. وهكذا الأمر في كل القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحقوقية، فالعدالة تحتاج دائماً إلى أمرين:

١ ـ وضوح حالة التساوي بين طرفي القضية الحقوقية.

٢ ـ التزام وعمل بهذه الحالة.

وكل منهج اجتماعي يضمن تحقق هذين الأمرين في مختلف مستويات الحياة هو منهج عادل، والإسلام هو المنهج الوحيد الذي يتضمنهما، لأنّ العدالة أمر مطلوب في الحقوق والواجبات والعقوبات، وإجراء العدالة في هذه المجالات يتطلب وضوح طرفي الأُمور فيها لكي نعرف تحقق أو عدم تحقق حالة المساواة، ومشكلة الإنسان أنه لا يملك وضوحاً كافياً عن حالة التساوي بين طرفي قضايا الحقوق والواجبات والعقوبات.

ومن هنا يقع التنازع فيما هو مقتضى العدالة فيها، ولذا جاءت الشريعة لتحل هذه المشكلة وتبين مقتضى العدالة في مختلف مجالات الحقوق والواجبات والعقوبات، باعتبار صدورها من الله سبحانه وتعالى مهندس هذا الكون وخالقه والعالم بخفاياه علماً مطلقاً لا حد له، بينما تعجز الأنظمة الوضعية عن حلّ هذه المشكلة، ولذا تلجأ إلى التغيير المستمر في القوانين والمقررات، وهو يعني الاعتراف بعدم إصابة العدل في كل هذه الحالات. هذا بالنسبة إلى الأمر الأوّل.

أمّا الأمر الثاني فدور الدين والحاجة إليه فيه أوضح، لأنّ الإنسان ورغم إدراكه لحسن العدل وقبح الظلم إلاّ أنه حينما يدخل ميدان المجتمع لا يتخذ هذا الإدراك أساساً لسلوكه، وإنما يبني سلوكه على ما يراه من المصلحة والمنفعة بغض النظر عن مسألة العدل والظلم، وهنا يحتاج الإنسان إلى ما يصحح له هذا السلوك طبقاً لقانون المصلحة والمنفعة الذي يتمسك به انطلاقاً من غريزة حب الذات، بمعنى أنّ الإنسان يعيش حالة ازدواجية بين قانون العدل الذي يدرك حسنه ومقتضاه ادراكاً نظرياً واضحاً، وبين قانون المصلحة والمنفعة الذي يطالبه بالإشباع بغض النظر عن قانون العدل، ولو ترك الإنسان على حاله لأخذ بقانون المنفعة المطابق لغريزة حب الذات وترك قانون العدل رغم حسنه بسبب مخالفته لهذه الغريزة، وهنا يحتاج الإنسان إلى ما يعدّل له قانون المنفعة ويجعله موافقاً لقانون العدل، ويرفع

التناقض بينهما، ويرفع بالتالي حالة الازدواجية عن السلوك الإنساني، وهذا ما لا يتم إلاّ في صورة واحدة هي أن يجري تعديلاً على مفهوم المصلحة والمنفعة عبر إدخال عنصر الإيمان بالآخرة، فإذا أدخل هذا العنصر سيتغير مفهوم المصلحة وسيصبح مطابقاً لقانون العدل، وسيرى الإنسان أنّ مصلحته تقتضي أن يكون عادلاً، وأنّ التناقض بينهما ليس متأصلاً ولا حقيقياً، وإنما هو حالة طارئة شاذة ناشئة من النظر للحياة والإنسان نظرة مادية ناقصة.

إذن فكلا الأمرين متوقفان على الدين، ودور الدين في إنجاز العدل دور تام بحيث لا عدل إلاّ بالدين ومن خلاله وفي إطاره، ولذا نجد العدل خطاً يبدأ كأصل ثانٍ من أُصول العقيدة بعد التوحيد وينتهي في شريعة عادلة تحفظ التوازن والتساوي بين أطراف الأُمور في الواجبات والحقوق والعقوبات. وهذه العلاقة الصميمية بينهما تتجلى في تعريف الفقهاء للعدالة، حيث عرفوها بأنها: «عبارة عن ملكة راسخة باعثة على ملازمة التقوى من ترك المحرمات وفعل الواجبات»[(١)]، فلا عدالة خارج التقوى، ولا عادل يفعل محرماً من المحرمات أويترك واجباً من الواجبات الشرعية، هذا بالنسبة إلى دور الإيمان في تحقق العدل.

أمّا النقطة الثانية المتعلقة بدور المفهوم الإيماني للعدالة في تفعيل المقاومة فهو ما يتجلّىٰ في ثلاثة جوانب:

١ ـ انحصار العدالة في الإسلام يعني سد الطريق أمام كل محاولة من طرف غير إسلامي للهجوم على البلاد الإسلامية تحت شعار العدالة، وتحصين المجتمع الإسلامي عن التصديق بكل دعاية مضللة من هذا القبيل، والتصديق بمثل هذه المحاولة إذا حصل فهو يدل على خلل عقائدي في الشخصية الإسلامية، ويفسح المجال للقابلية

---

(١) تحرير الوسيلة ١: ١٠.

على الاستعمار. والقول المأثور المعروف: «يبقى الملك بالعدل مع الكفر ولا يبقى بالجور مع الإيمان»[1]. وإجابة السيد ابن طاووس مع عدد من علماء الإسلام لهولاكو حينما استفتاهم عن رأيهم فيمن هو الأفضل الحاكم الكافر العادل أم المسلم الجائر فأجابه: «بأنّ الكافر العادل أفضل من المسلم الجائر»[2]، ووقع سائر علماء الإسلام عليه، كما أنّ قول ابن تيمية بأنّ: «الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة»[3]، وكلام تلميذه ابن قيم الجوزية بأنّه: «إذا ظهرت إمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه... فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين وليست مخالفة له...»[4].

مثل هذه النصوص والمواقف لا يمكن أن تشكل دليلاً على أنّ أصحابها يقصدون إمكانية تحقيق العدل خارج نطاق الشريعة الإسلامية، ومن المؤكد أنّ هؤلاء جميعاً لا يرون القاضي الذي يحكم بغير ما أنزل الله عادلاً، لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[6].

---

(١) ذكرته بعض المؤلفات ونسبته إلى النبي(ص) ولم أجده في أي من المصادر الحديثية السنية ولا الشيعية. نعم نسب الغزالي في كتابه (التبر المسبوك في نصيحة الملوك) ان النبي(ص) قال: «الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم»، وانه (ص) قال: «ولدت في زمن الملك العادل كسرى انوشيروان»، ولم يذكر مصدراً ولا سنداً ولا راوياً لذلك، ولا وجود لهاتين العبارتين قبل الغزالي الذي عاش عصر الانحطاط السياسي للعالم الإسلامي. (التبر المسبوك في نصيحة الملوك: ١٧٣، ١٨٤، ط: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر).

(٢) الفخري في الآداب السلطانية، ابن الطقطقي: ١١ .

(٣) الحسبة، ابن تيمية: ٨

(٤) الطرق الحكمية: ١٩، ط: القاهرة.

(٥) المائدة: ٤٥.

(٦) المائدة: ٤٤.

وإذا كانوا يقصدون ذلك فهو خطأ جسيم ومخالفة قطعية للعقيدة الإسلامية التي تربط الظلم بالكفر والعدل بالإيمان، وليس هناك ظالم إلاّ أن يكون كافراً أو مستنداً إلى كافر أو عاملاً بمبدأ كفر، وحاكمية الله هي الحد الفاصل بين الظلم والعدل. فلا يكون الظالم ظالماً حتى ينكر حاكمية الله ويتمرد عليها، ولا يكون العادل عادلاً حتى يخضع لهذه الحاكمية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾ فالشرك مصنع الكفر والإيمان مصنع العدل، وكلام ابن طاووس وابن تيمية وابن قيم ظهر في زمن انحطاط المسلمين، كما أنّ الحديث المذكور سابقاً المنسوب إلى النبي(ص) لم يظهر إلاّ في تراث متأخر، وكذا القول المنسوب إلى النبي(ص) بأنّه قال: «ولدت في زمن الملك العادل كسرى انوشيروان» فهذه جميعاً ولادات مشوهة ظهرت في عصر انحطاط العالم الإسلامي، وقد راج سوقها أخيراً لأنّ المسلمين أصبحوا في عصر جديد من عصور الانحطاط السياسي.

إنّ العدل تارة يراد به منهجاً اجتماعياً عاماً في الحكم والدولة والقضاء والاقتصاد والسياسة، وأُخرى يراد به موقفاً خاصاً في قضية معينة أومعاملة عابرة، والتلازم الحتمي بين العدل والإسلام أمر خاص بالحالة الأُولى، فلا يعول في الحكم والدولة والقضاء والاقتصاد والسياسة إلاّ على ما كان قائماً على أساس مفاهيم الإسلام وموازينه، ومن غير الممكن أن تكون دولة ما وحاكم ما عادلاً ما لم يكن ملتزماً بالإسلام، أمّا الحالة الثانية فلا علاقة لها بالإسلام حتى تكون خاصة به دون غيره، كما لو أقدم اثنان على معاملة فوافق أحدهما العدل دون الآخر؛ لأنه أدرك حد التساوي بين طرفيها، ولم يدرك الآخر ذلك، أوأنهما أدركا ذلك معاً لكن أحدهما ألزم نفسه بهذا الحد والآخر لم يلزم نفسه به، فمن أدرك حد التساوي أو إلتزم به فهو عادل سواء كان مسلماً أم كافراً، ومن لم يدرك هذا الحد أوأدركه ولم يلتزم به في إجراء المعاملة فهو غير عادل مسلماً كان أم كافراً، فالدولة القائمة على

أساس غير إسلامي دولة جائرة، ولا يمكن أن تكون عادلة ابداً، والحاكم في هذه الدولة حاكم جائر بنحو عام، نعم من الممكن أن تكون بعض مواقفه في بعض معاملاته عادلة. وعدالة بعض المواقف لا تستلزم وصف الشخص بالعدالة، لأنّ العدالة ملكة راسخة لا تتحقق إلاّ في إطار الإيمان على مستوى بناء الشخصية، ومنهجاً راسخاً لا يمكن العثور عليه خارج دائرة الشريعة على مستوى بناء الدولة، والدولة العادلة عبارة عن مجموع مكون من حاكم عادل على مستوى بناء الشخصية، ومنهج عادل على مستوى الحكم، وهذا المجموع بجزئيه لا يتحقق إلاّ في إطار الإسلام عقيدة وشريعة، ولا يخرج من هذه النتيجة المطردة إلاّ حالات ومواقف عابرة في معاملات معينة.

وحكاية الديمقراطية التي دأب الاستعمار الغربي على اللجوء إليها كغطاء لعمليات الاحتلال والهيمنة منذ أكثر من قرن من الزمان وحتى الآن، ينبغي علينا أن نخضعها لدراسة وتمحيص من عدة جهات، منها جهة العدالة وستأتي باقي الجهات في المحل المناسب لها.

والمقصود بجهة العدالة أنّ الديمقراطية في حد نفسها ليست مقياساً ولا قيمة ذاتية، إنما المقياس والقيمة الذاتية للعدالة، والديمقراطية أمر مطلوب بمقدار ما فيها من العدالة، وإنما احتلت الديمقراطية هذا الموقع المركزي في الذهنية الاوروبية لقلة حساسيتها تجاه فكرة العدالة، كما أنّ قلّة حساسية المسلمين تجاه الديمقراطية ناشئاً من انشغال الذهنية المسلمة بفكرة العدالة أكثر من أي فكرة أُخرى، وهذا من جملة ما يشهد للعلاقة بين العدالة والإيمان، ويشهد لكون العدالة هي المقياس للديمقراطية لا العكس، إنّ العدالة أمر مركوز في النفوس بشكل فطري بخلاف الديمقراطية، فالإنسان بفطرته يدرك حسن العدالة ويبحث عنها، ولكنه لا يدرك حسن الديمقراطية ولا يبحث عنها إلاّ بعد مرحلة من التثقيف تتيح له أن يدرك أن فيها

قدراً من العدالة، وسرّ تمسك الإنسان الغربي بالديمقراطية يعود إلى افـتقاده إلى عقيدة عدالة، فهو يتشبث بالديمقراطية لأنّ فيها شيئاً من العدالة التي تبحث عنها فطرته وينكرها في أيديولوجيته، ومن هنا ينفتح البحث في الجانب الثاني.

٢ ـ إنّ انحصار العدالة في الإسلام يعني ضرورة أن يقوم المسلمون بوظيفتهم الأخلاقية والوجدانية تجاه سائر البشرية الباحثة عن العدالة، وهذه الوظيفة تمثل جوهر وفلسفة جهاد الدعوة في الإسلام، وبالتالي فالدفاع عن بلاد الإسلام هو الحد الأدنى من الوظيفة الشرعية للمسلمين، والحد الأعلى منها يـتمثل بـالدعوة إلى الإسلام وبسط آفاق العدالة في ربوع الأرض، الأمر الذي يبين مدى قبح التهاون في وظيفة الدفاع، فهو قبح مضاعف، لأنّ الإنسان المكلف ببسط العدالة في الأرض كيف يبيح لنفسه أن يتهاون في الدفاع عن أصل وجـوده؟ والإنسـان المكـلف باجتثاث جذور الفساد والظلم في الأرض كيف يبيح لنفسه التهاون مع من يعتدي عليه؟

ومجموع هذين الجانبين يوضح أنّ العدالة قضية واحدة لا تـقبل التـفكيك والتجزئة بحسب الحدود الجغرافية للبلدان والدول، وأنّ آلة الظلم التـي تـطحن مظلوماً في فلسطين أو العراق ليست شخصاً ولا مجموعة أشخاص، وإنـما هـي أُخطبوط متصل بعضه مع البعض الآخر ومسبب لكل قضايا الظلم فـي السـاحة البشرية، وبالتالي فالثورة على الظلم في العراق أو فلسطين لا يمكن فصلهما عن الثورة على الظلم في باقي نقاط العالم.

٣ ـ إنّ عقيدة التوحيد تفرز ما يسمى بروح التشريع الإسلامي المتكونة من ثلاث مقولات هي: العدالة والعالمية والحاكمية، والفرق بين التشريع الإسـلامي وروحه ان التشريع يثبت بالمصادر الاربعة للتشريع، بينما تثبت روح الشريعة بأصل التوحيد، فإنّ العدالة والعالمية والحاكمية مقولات متجانسة مع بعضها تثبت بثبوت

التوحيد، وليس للمصادر الأربعة من دور فيها إلاّ الكشف عنها والتأكيد لها، فالعدالة أمر ثابت بحكم ثبوت التوحيد، ولا توحيد بلا عدالة، كما لا عدالة بلا توحيد، وما ورد في القرآن الكريم والسنة الشريفة أنما هو كاشف ومؤكد لذلك، وكذا الأمر بالنسبة إلى الحاكمية المتجسدة بقيام الدولة الإسلامية، إذ لا معنى للعدالة والتشريع والنبوة ما لم يكن هناك حاكمية وتطبيق، وهكذا الأمر بالنسبة إلى العالمية، فلا إله إلاّ الإله العادل، ولا رب إلاّ رب العالمين، ولا ربوبية إلاّ بحاكمية، ونفي أي من هذه المقولات الثلاثة أنما هو نفي للتوحيد، ولذا يعبر عن هذه المقولات بأنها روح الدين وروح التشريع الإسلامي.

ومن هنا كان خط الأنبياء خط العدالة والثورة من أجل الحق والمظلومين في التاريخ، يقول السيد الشهيد محمّد باقر الصدر: «... وعلى هذا الأساس نؤمن بأن الثورة الحقيقية لا يمكن أن تنفصل بحال عن النبوة والوحي... كما أنّ النبوة والرسالة الربانية لا تنفصل بحال عن الثورة الاجتماعية على الاستغلال...»[1]، لأنّ: «الوحي وحده هو القادر على أن يؤمّن التربية الثورية والخلفية النفسية الصالحة التي تنشئ ثائرين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً وتجعل من المستضعفين أئمة لكي يتحملوا أعباء الخلافة بحق ويكونوا هم الوارثين»[2].

---

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٦٠. ط: وزارة الارشاد الإسلامي في الجمهورية الإسلامية.

(٢) المصدر نفسه: ١٥٨.

الثورة والمقاومة في محور النبوة

النبوة في مدلولها الإنساني تعني النظام الاجتماعي الإلهي في قيمه وجوهره ومرتكزاته الذي جاء به الوحي لرفع مظاهر الفساد والظلم وإقرار قيم الأُخوّة والعدالة والإنسانية في الحياة. ومن هنا يتجلّىٰ مظهر المقاومة فيها. فالنبوة التي جاءت لاجتثاث قوى الفساد في الأرض لابد أن تكون حالة المقاومة فيها بأعلى حد حينما تتعرض لاعتداء هذه القوى عليها. فالمقاومة خط يبدأ بالدفاع وينتهي بدك صروح الشرك والطغيان في الأرض، والإنسان المقاوم هو الإنسان المؤمن بأنّ الحق والصواب عنده وأنّ ما عند الآخرين خطأ وباطل، وأنّ وظيفته الطبيعية تقتضي منه الدفاع عن حقه كحد أدنى والقضاء على الباطل وإنقاذ المتورطين به كحد أعلى، فإذا فقد الإنسان هذا الإيمان وشك بما عنده وتورط في شبهات وتلبيسات أدت به إلى أن يعتقد بحسن ما عند الآخرين اصبح بالنتيجة فاقداً لحسّ المقاومة، وربما وقف موقف المتفرج في معركة الإسلام مع خصومه، واعتقد أنها معركة لا داعي لها، وربما انطلت عليه تلبيسات الأعداء فتصور المعركة وكأنها ناشئة من إسلاميين متطرفين إرهابيين، وليس من قوى استعمارية ذات أطماع توسعية، كل ذلك لأنّ الإناء الخالي يتقبل كل شيء يسكب فيه، والإناء المملوء هو الذي يقاوم ما يسكب فيه،ولذا سنبدأ في بحث النبوة من جانب الإثبات وننتهي بجانب النفي الذي يلحقها من غيابه عنها، وننتهي ببحث الموقف المطلوب من الحضارة المعاصرة وضرورة التحلي بنظرة نقدية جذرية لها.

الإسلام وخصوصية الإطلاق المكعب

تتميز الرسالة الإسلامية بالإطلاق المكعب الذي يُعبر عنه بالأبعاد الثلاثة

للإسلام، الخلود والشمولية والعالمية، ونحن أنّما نعبّر عنها بالإطلاق المكعب لما نراه من التلازم العضوي بينها، بمعنى أنّ الايمان بأحدها يؤدي إلى الإيمان بالباقي، وأنّها في جوهرها تحكي حقيقة واحدة ظهرت في أُفق الزمان بصورة الخلود، وفي أُفق الحياة بصورة الشمولية، وفي أُفق الإنسانية بمظهر العالمية، وتلك هي حقيقة التوحيد الفعّالة والخلّاقة والمطلقة التي جاء الإسلام شرحاً عقائدياً لها وتعبيراً اجتماعياً عنها، وأخذ كل خصائصه عنها، فكان خلوده تعبيراً عن ابدية التوحيد، وشموليته تعبيراً عن فعالية التوحيد في الساحة الكونية والاجتماعية، وعالميته تعبيراً عن ربوبية لا يمكن إلّا أن تكون عادلة وشاملة لكل أفراد الإنسانية، وهي جميعاً تجسد ان التوحيد بما هو حقيقة مطلقة لا يمكننا ان نحبسه في نطاق محدود في جهة من الجهات، وان هذه الحقيقة وبحكم ما تتمتع به من الإطلاق لابد أن تأخذ مداها في أُفق الزمان كلّه لتنتج الخلود، وفي أُفق الحياة كلها لتنتج شمولية الإسلام لمختلف جوانبها السياسية والروحية والاجتماعية، وفي أُفق الإنسانية كلها لتنتج عالمية الإسلام المتعالية فوق حواجز اللون والجغرافيا والعرق واللغة، ومن خلال امتدادها في هذه الآفاق إلى نهايتها يتجسد معنى الإطلاق في الخالق الحكيم سبحانه وتعالىٰ، ومعنى ربوبيته للإنسان، فإنّ الربوبية تعني أنّ الله سبحانه وتعالى ليس خالقاً وإلهاً معبوداً فحسب، بل هو رب يتولى شؤون الإنسان وسائر المخلوقات بالتدبير والتوجيه والعناية، وما إنزال الشرائع وبعث الرسل والأنبياء إلّا من جملة شؤون هذه الربوبية، ومن الطبيعي أن تنعكس خصائص الرب على هذه الشؤون، وابرزها خصيصة الإطلاق التي ظهرت في الإسلام بمقدار ما يسمح به عالم الإمكان بصورة الخلود والشمولية والعالمية كرشحة من ذلك الإطلاق، بما يعني في النتيجة ان حذف أحد ابعاد هذا الإطلاق المكعب بمثابة نسبة النقص إلى التوحيد، وبالتالي مصادرة أصل التوحيد، إذ لا توحيد إلّا توحيد الكامل المطلق.

ولذا فنحن لا ننظر إلى عالمية الإسلام كما لو كانت حكماً عادياً أوخصيصة عادية من أحكام الإسلام وخصوصياته، وإنّما ننظر إليها في إطار فكرة الإطلاق المكعب على أنّها أحد الأبعاد الثلاثة التي يؤدي حذف أو إهمال أحدها إلى نسبة النقص إلى التوحيد، وبالتالي إلى مصادرته، إذ لا توحيد إلّا توحيد الكامل المطلق الذي لابد أن يتجسد كماله وإطلاقه في دينه المنزل إلى عباده، فكان خلود الإسلام وشموليته وعالميته تجسيداً لهذا الكمال بمقدار ما يسمح به عالم الإمكان المحفوف بالنقص من ظهور الكمال في ساحاته وميادينه، ذلك أنّ المسائل الفكرية لابد أن تعالج في ضوء النظرة والإطار الفكري الخاص بها، وأن يتجرد الإنسان عن خصوصياته وإطاره الفكري الخاص به ويتلبس بتلك النظرة، والإطار الفكري الخاص بها حتى يتوصل إلى النتائج المطلوبة.

إننا حينما ندافع عن التوحيد في الحقل الفلسفي والكلامي لا نتجمد في نطاقه التجريدي، بل نخوضه ونتعداه، ونجعله مقدمة للوصول إلى الميدان الاجتماعي بوصفه المقصود الأساس الذي يتوجه الخطاب التوحيدي نحوه، فإننا لا نؤمن بتوحيد منعزل عن الكون والحياة كما ﴿قالت اليهود يد الله مغلولة﴾(١). بل نؤمن بتوحيد فعّال يمسك بدفّة الكون والحياة الإنسانية، يقودها بقدرته المطلقة ويوجهها بعلمه المطلق لكي يوصلها إلى رشحةٍ مما يتحلى به من الكمال المطلق.

أنّنا نؤمن بتوحيد ﴿فعّال لما يريد﴾(٢)، ﴿إنّه على كل شيءٍ قدير﴾(٣)، ﴿يُبدىء ويعيد﴾(٤) وهو ﴿اقرب اليه من حبل الوريد﴾(٥) ﴿يدبر الأمر﴾(٦) و﴿يكوّر الليل على

(١) المائدة: ٦٤.
(٢) البروج: ١٦.
(٣) فصلت: ٣٩.
(٤) البروج: ١٣.
(٥) ق: ١٦.

النّهار﴾[7]، وما من ذرة في الوجود إلاّ وتخضع في كل آن من عـمرها لقـدرة الله ومشيئته واختياره وقضائه وقدره وربوبيته وتدبيره وبدائه، أي اننا نؤمن بتوحيد ذي فعالية سيّالة متواصلة في ساحة الكون والإنسان، وهي فعّالية خالدة بخلود التوحيد وأبديته، وفعالية شاملة لمختلف جوانب الحياة الإنسانية السياسية مـنها والعبادية ما دام التوحيد لا يدع ذرة في الوجود تتحرك بـلا مشـيئة مـنه، أمـا تكوينية كحركة القلب والشمس والقمر، أو تشريعية، كحركة الإنسان المطلوبة في مختلف مجالات الحياة على أساس أحكام الشريعة الإسلامية، وهي أخيراً فعاليّة عالمية شاملة للجنس البشري بجميع أفراده وقومياته وقبائله ما دامت صادرة عن رب مطلق تنهار أمام فيضه كل الحدود والحواجز القومية والإقليمية. وهذا معنى خلود الإسلام وشموليته وعالميته.

إنّ الإله العاجز عن التأثير في الكون والحياة ليس بإله، وأُلوهـية التـوحيد الحقيقي هي ألوهية الفيض المطلق الذي ليس بوسع حد زماني أو مكاني اوموضوعي أن يوقف زحفه الفعال باتجاه استيعاب الساحة الإنسانية حتى آخر ذرة فيها، وما مقولة عدم صلاحية الإسلام لغير العصور الوسطى إلاّ فرضية تستند على أساس وجود حد زماني تقف عنده ألوهية الفيض المطلق الفعال، كما أنّ المقولة العلمانية القائلة: بأنّ الإسلام جاء لاشباع الحاجات الروحـية ولم يـات لتـوجيه الحـياة الاجتماعية فرضية أُخرى تستند على أساس وجود حد موضوعي اجتماعي تقف عنده هذه الأُلوهية، كما أنّ مقولة اختصاص الإسـلام بـالجزيرة العـربية وعـدم صلاحيته للتطبيق فيما عداها فرضية ثالثة تقوم على أساس أنّ هناك حداً جغرافياً ليس بوسع هذه الأُلوهية أن تتجاوزه.

---

(٦) يونس: ٣.

(٧) الزمر: ٥.

وواضح أنّ هذه الفرضيات لا تتنافى مع الإسلام في حكم من أحكامه أوبعد من أبعاده فحسب، وإنّما تتنافى مع أصل التوحيد الذي نؤمن به، فهل التوحيد الذي يعجز عن استيعاب الزمان فيثبت سلطانه على القرون الوسطى وتعجزه القرون الحديثة بتوحيد قادر مطلق فعال؟ وهل التوحيد الذي يلامس شغاف القلوب والأرواح ولا يتجاوزها إلى معالجة الظلم والتطاحن البشري ويعجز عن قيادة الحياة الاجتماعية يمثل ربوبية قاهرة مطلقة؟ وهل التوحيد الذي تلويه حدود الجزيرة العربية ولا تسمح له بتعديها إلى ما وراءها يمثل أُلوهية حقيقية؟ وهل بوسعنا أن نصفه حينئذ بأنّه «رب العالمين»؟

وهكذا فإنّ كل واحدة من هذه الفرضيات لا تؤدي إلى إسلام ناقص فقط، وإنّما تؤدي إلى نفي أصل التوحيد. وهذا يعني في المقابل أنّنا حينما نؤمن بالتوحيد، فلابد أن نؤمن باطلاقه المكعب على الصعيد الإنساني بالنحو الذي يجسد استيعاب المطلق للمحدود، وعجز الحدود ـ الزمانية والموضوعية والمكانية ـ عن منع المطلق من الوصول إلى مبتغاه الأخير في آفاق الزمان والحياة والمكان.

وهنا يبرز سؤال ملحّ هو: ماهي مقومات الإطلاق المكعب؟

وما هو منشأ اتصاف الإسلام به؟ وهل يتصف به غيره من النظم والأيديولوجيات أم أنه صفة خاصة بالإسلام؟ ولماذا كان صفة خاصة بالإسلام؟

الجواب:

١ ـ إنّ الإطلاق المكعب صفة تستند إلى دعامتين هما:

١ ـ دعامة نظرية وهي تبني القيم الفطرية الأولية للإنسان كالمساواة والكمال والعدالة والخير والحق، ونفي أضدادها من التبعيض والظلم والشر والباطل، فكل مبدأ أو أيديولوجية تتخذ من هذه القيم منطلقاً لها فهي مستعده للاتصاف بالإطلاق المكعب، وذلك ان هذه القيم تحمل في ذاتها صفة الإطلاق المكعب، فإذا وجدت

أيديولوجية تتخذ من هذه القيم منطلقاً لها سرت صفة الإطلاق إليها من تلك القيم، فالعدالة ـ مثلاً ـ قيمة يعشقها الانسان وينزع إليها بغض النظر عن الزمان الذي يعيش فيه، والمكان الذي يستوطنه، وفي مختلف مجالات الحياة وجوانبها، ويعتبرها نقطة الهدف التي يجب أن يسعى نحوها، فهي تحمل في ذاتها صفة الإطلاق المكعب، بمعنى أنها قيمة فوق الزمان والمكان، والأيديولوجية التي تتبناها بصدق وكفاءة تصبح هي الأُخرى واجدة لهذه الصفة.

٢ ـ دعامة تطبيقية، وهي القدرة التنفيذية على تحقيق تلك القيم وتطبيقها في واقع الحياة، فلا يكفي الادعاء بها، بل لابد من ضمانة تطبيقية كافية تحظىٰ بها تلك الأيديولوجية.

والأيديولوجيات في موقفها من تلك القيم تتراوح بين مراتب، أوّلها مرتبة الإنكار لتلك القيم، وهذه المرتبة تتمثل في بعض الفلسفات التي تنكر الخير والحق وتمجّد القوّة والمنفعة، وثانيتها مرتبة الإيمان بتلك القيم ولكن بنحو النسبية، وتتمثل هذه المرتبة بالفلسفة الغربية السائدة التي تؤمن بنسبية الأخلاق، وأنها قيم متغيرة من زمان إلى آخر ومن مكان إلى آخر، وثالثتها مرتبة الإيمان بتلك القيم وأنها مطلقة إيماناً نظرياً خالياً من الالتفات إلى الجانب العملي والتطبيقي، ورابعتها مرتبة الإيمان بتلك القيم وأنها مطلقة مع التفات إلى الجانب العملي، ولكن التفاتاً ناقصاً غير كافٍ، وهذه المرتبة تتمثل بما عدا الإسلام من الأديان السماوية وغير السماوية القائمة على أساس الإيمان بتلك القيم والمشتملة على دعامة تطبيقية ولكن ناقصة، وخامستها مرتبة الإيمان بتلك القيم وأنها مطلقة مع الاشتمال على دعامة تطبيقية تامة، وهي مرتبة الإسلام.

ولذا يتضح أنّ الإطلاق المكعب من خصائص الإسلام وحده دون سائر المراتب، وان المنشأ لذلك هو اشتماله على الدعامتين معاً، النظرية والعملية، والمقصود

بالدعامة العملية التطبيقية هو أنّ الإنسان وإن كان يعشق القيم الفطرية المطلقة وينزع نحوها، إلاّ أنه يجد في داخله قوة منافية لها تعوقه عن العمل بموجبها، ولنوضح ذلك من خلال مثال محسوس، هو أنّ الإنسان يعشق العدل ويتغنى بالعدالة في كل زمان ومكان وفي كل موضوع ومجال من مجالات الحياة وموضوعاتها، ولكنه في الواقع التطبيقي يواجه في داخله قوة تعوقه وتفرض عليه الانحراف عن ذلك، وتصرع عشقه ونزوعه الفطري نحوه، فلو أعطي مالاً وقيل له انفقه على الفقراء، فسنجد هذا الإنسان يتصرف بطريقة غير عادلة، فيعطي البعض دون البعض الآخر، ويعطي لأقاربه أكثر مما يعطي للغرباء عنه، وربما تحايل وجعل نفسه فقيراً من خلال بعض المظاهر المصطنعة ليأخذ لنفسه حصة منه، وربما برّر لنفسه أنّ يأخذ أكبر حصة ممكنة بأي شكل من الأشكال، وهذا الواقع هو الذي جعل البعض ينكرون وجود القيم أصلاً كما وجدنا في المرتبة الأُولى، أو يفسرونها تفسيراً نسبياً، كما في المرتبة الثانية، والحقيقة شيء آخر، وهي أنّ هذا الإنسان يجد في داخله اتجاهين متعاكسين، أحدهما ـ وهو العقل ـ يدفعه نحو العدالة، والآخر ـ وهو الغريزة ـ لا يتحدث له عن عدل وظلم وإنما يطالبه بأعلى درجات الإشباع بغض النظر عن مسألة الحق والباطل والعدل والظلم، الغريزة تقول للإنسان: أنا أريد أفضل مسكن وأفضل طعام وأفضل إشباع جنسي، وأُطالب بتحقيق ذلك بالاستفادة من كل الفرص الممكنة بغض النظر عن مسألة القيم، وهذه فرصة جيدة للإشباع قد تحققت وعليك أن تستثمرها باكتساب أكبر حصة ممكنة من المال الذي أصبحت مسلطاً عليه، ويجد هذا الإنسان أيضاً أنّ الاتجاه الغريزي اتجاه ملحّ يفرض نفسه عليه أكثر من الاتجاه العقلي الذي يتحول إلى اتجاه نظري له أثر في الأقوال أكثر مما في الأفعال، فالمنشأ للمشكلة هو ضعف العقل أمام الغريزة، وحل المشكلة يتم بدعم العقل وتعزيز موقعه في الشخصية الإنسانية حتى يتمكن من فرض مقولاته من جهة،

وتهذيب الغريزة بحيث تكون غريزة موجهة غير طاغية من جهة ثانية، وهذا الحل لا يتوفر إلا في الإسلام، فقد وجدنا ان أهل المراتب السابقة عليه إمّا أنهم قد أنكروا الدعامة النظرية، أو فسروها تفسيراً نسبياً، أو آمنوا بها إيماناً مطلقاً ولكن بنحو تجريدي خال من الجانب العملي، أو أنّ الدعامة العملية كانت عندهم ناقصة غير تامة، ومعنى نقصان الدعامة العملية وتمامها هو أنّ هذه الدعامة يجب أن تكون من حيث النوع والحجم بنحو مكافئ للمشكلة بحيث تتمكن من التغلّب عليها، فما لم تكن هذه الدعامة تامة كاملة يكون الحل ناقصاً.

وكمال الإسلام يتمثل في حضوره الروحي والفكري والاجتماعي والسياسي والاقتصادي في حياة الإنسان حضوراً شاملاً وتفصيلياً ومكثفاً ومؤثراً يدعم حركة العقل ويعزز مقولاته ويساعده على تهذيب الغريزة وتحويلها من غريزة طاغية إلى غريزة موجهة، بحيث يستشعر الإنسان في كل لحظة من اللحظات وموضوع من الموضوعات وجود الله سبحانه وتعالى وهيمنته وعقابه وثوابه، وحسن طاعته وقبح معصيته، وهذه هي الدعامة التطبيقية التامة التي يحظىٰ بها العقل والقيم الفطرية الكامنة فيه في ظل الإسلام، بخلاف سائر الأديان التي لا تحضر في حياة الإنسان إلاّ حضوراً رمزياً عاجزاً عن حل المشكلة، ومن هنا ينشأ امتياز الإسلام على سائر النظم والأديان والفلسفات الاجتماعية بصفة الإطلاق المكعب، الخلود والشمولية والعالمية، فهو دين خالد؛ لأنه بتوفره على هاتين الدعامتين يحل المشكلة الأساسية للإنسان في الماضي والحاضر والمستقبل، وهو دين شامل؛ لأنه بتوفره عليهما يحل المشكلة الأساسية للإنسان في مختلف مجالات حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمعنوية، وهو دين عالمي؛ لأنه بتوفره عليهما يحل مشكلة الإنسان في كل نقاط الأرض، ولأنّ التوحيد هو الأساس الوحيد لوحدة البشرية.

خصائص الأمة الإسلامية في القرآن الكريم

إنّ اقتدار الأُمة لا يتأتى من عقيدة صحيحة فقط، بل من مجموع الظرف والمظروف، العقيدة الصحيحة وهي المظروف، والأُمة المستعدة التي بُنيت بناءً صحيحاً، وهي الظرف، وفي كثير من الأحيان نجد عقيدة هزيلة ترتفع ونجد لها مكانة أعلى مما تستحق نتيجة حلولها في أُمة مستعدة ذات بناء صحيح، وربما خُذلت العقيدة الصحيحة ووضعت في محل دون شأنها الذي تستحقه نتيجة حلولها في أُمة هزيلة غير مستعدة ودون المستوى اللائق.

إنّ الإناء الذي لا حافة له لا يحتفظ حتى بالذهب والمجوهرات، والإناء الذي له حافة يحتفظ حتى بالتراب والرماد، وعقيدتنا الذهبية تريد منا أن نكون اناءً ذهبياً يحفظها ويحتفظ بها ويعرف قدرها، ومن هنا عنى القرآن الكريم والرسول الأعظم(ص) وأهل بيته الأطهار ببناء الأُمة الإسلامية بناءً صحيحاً يتناسب مع حقانية الإسلام، وإذا أردنا أن نخوض في المنهج الإسلامي في الارتقاء بالأُمة الإسلامية إلى هذا المستوى المطلوب فسنجد أنفسنا أمام بحث واسع يستحق فرصة خاصة به، ولكننا نكتفي بجانب بارز منه هو خصائص الأُمة الإسلامية في القرآن الكريم.

فقد منح القرآن الكريم الأُمة الإسلامية عدّة خصائص بلحاظ موقفها الرسالي في الواقع البشري بوصفها الحلقة الأخيرة والمرحلة المتكاملة من المسيرة الربانية على الأرض. وهي:

١ ـ الأُمة العزيزة

قال تعالى: ﴿لله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[1].

٢ ـ خير أُمة ﴿كنتم خير أُمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[2].

٣ ـ أُمة يصلي ربها عليها ونبيها ﴿هو الذي يصلّي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما﴾[3]. وقال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إنّ صلاتك سكن لهم﴾[4].

٤ ـ الأُمة الشاهدة على البشرية قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أُمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾[6]. وقال تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾[7].

٥ ـ الأُمة التي لا تطلب العلو ويمنحها الله ذلك

قال تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾[8].

وقال تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾[9].

---

(١) المنافقون: ٨.
(٢) آل عمران: ١١٠.
(٣) الأحزاب: ٤٣.
(٤) التوبة: ١٠٣.
(٥) البقرة: ١٤٣.
(٦) آل عمران: ١٤٠.
(٧) الحج: ٧٨.
(٨) القصص: ٨٣.
(٩) آل عمران: ١٣٩.

٦ ـ الأُمة الوسط

قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أُمة وسطا﴾[١].

وهي وسطية شاملة، وسطية في الموقع الجغرافي ووسطية في طبيعة الشريعة الإسلامية المعتدلة بلا إفراط ولا تفريط. ويجب أن نحسن فهم هذه الخصائص، فليس المقصود بها معنىً عنصرياً؛ لأنها لم تُعط لأُمة ذات مفهوم قومي ولم تمنح للعرب أوللفرس أوللترك، وإنما منحت للأُمة بمفهوم عقائدي يتساوى فيه العربي مع التركي مع الفارسي مع الأوربي مع الأمريكي. وهي من حيث الأصل خصائص العقيدة الإسلامية التي تنعكس على من يؤمن بها ويرفع رايتها في الأرض، خلافاً للتحريف الذي أحدثه اليهود حينما ادعوا أنهم شعب الله المختار، والحق أنه ليس لله شعب مختار، وإنما هناك عقيدة مختارة من يتبعها ويرفع رايتها يصبح أُمة عقائدية تستحق الدعم والتأييد والنصر الإلهي سواء كان غربياً أم شرقياً، عربياً أم تركياً. ونحن إذا تأملنا هذه الخصائص وجدناها في جانب من جوانبها تمثل جزءاً من برنامج رباني لإعداد الأُمة الإسلامية لأن تكون بمستوى المهمة الرسالية المناطة بها.

وفي مقابل هذه العناية الربانية بالمسلمين عليهم أن يتحلوا بصفة العشق لله سبحانه والامتنان للإسلام العزيز، وهذه هي الصفة التي تنجيهم من التردي في مهاوي الضعف والسقوط أمام التحديات الأمريكية.

---

(١) البقرة: ١٤٣.

الموقف من الحضارة الغربية المعاصرة

ما هو الموقف الذي يجب على المسلمين اتخاذه تجاه الحضارة الغربية؟

هذا السؤال يمثل جدلية شائكة عاشها المسلمون طيلة قرن وأكثر من الزمان على صعيد الفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع والحياة الدولية، فهناك من اختار الانفتاح المطلق والأخذ بالمناهج الغربية كطريق وحيد للتطور والرقي، وهناك من اختار التقاطع مع الغرب، فأي الموقفين صحيح؟

وهذه الجدلية تدخل في بحث المقاومة من جهة المفهوم الحضاري لها، باعتبار أنّ الذي يقاوم الاستعمار لابد أن يفكر في الأسباب والعوامل التي صنعته وكونته، ولابد أن يقاوم تلك العوامل أيضاً، بمعنى أن يقاوم البنية التحتية له، وهي بلاشك بنية الحضارة الغربية، ثم يتقدم خطوة إلى الإمام فيفكر في الأسباب والعوامل التي جعلت الحضارة الغربية حضارة استعمارية لا تنفك على الدوام عن عمليات السطو والغزووالتدمير للآخرين، فيجد أنّ هذه الأسباب ناشئة عن الذهنية المادية الرأسمالية لهذه الحضارة، ثم يتقدم خطوة إلى الأمام فيفكر في أُسلوب إنقاذ البشرية من الظاهرة الاستعمارية، فيجد أنّ الطريق الوحيد لذلك منحصر بالدعوة إلى قيم معنوية سماوية ربانية تنقذ البشر من الوقوع في ذهنية مادية تؤدي إلى حتمية الاستعمار والعدوان، ثم يتقدم خطوة إلى الأمام فيجد أنّ الإسلام هو المنقذ المطلوب الذي يجب التمسك به.

وهكذا يصبح الموقف الصحيح من الحضارة الغربية واضحاً، وتتضح خطورة اللا أُبالية واللاموقف تجاه الغرب، وضرورة النظرة النقدية الجذرية العميقة

والإيجابية تجاهه، وعدم الانطلاق من مشاعر الانفعال والانتقام وإن كانت صحيحة ومشروعة في حد نفسها.

إنّ الموقف من الحضارة الغربية يتحدد بدقة ووضوح من خلال فكرة الإسلام عن الحق والباطل والخير والشر، فالإسلام يؤمن بوجود صراع مستمر بين قوى الحق والخير من جهة وقوى الباطل والشر من جهة أُخرى، ومما لاشك فيه أنّ الإسلام نفسه يمثل الرمز التاريخي الخالد لقوى الحق والخير في الأرض، وبالتالي فكل جهة معادية ومخالفة للإسلام تمثل الرمز لقوى الشر والباطل.

وفي زماننا هذا تمثل الحضارة الغربية بما هي قيم أرضية وأيديولوجية وضعية وفلسفة اجتماعية وقوى رأسمالية حاكمة النقيض العصري للإسلام والرمز العصري لقوى الشر والباطل، والفتنة التي تحول بين الناس وبين شعاع الهداية، بل الظلمة التي تحارب هذا الشعاع وتريد إخماده لتبقى الأرض تحت سيطرة القوى الرأسمالية التي تدير دفة الحضارة الغربية وتريد من خلال ذلك السيطرة على مجمل المسيرة البشرية، وبالتالي فالتناقض بين الإسلام والغرب ليس تناقض مصالح وليس صراعاً على الحكم والسيطرة، وليس صراعاً بين الشرق والغرب، وليس نزاعاً بين أُمة وأُخرى، وإنما هو تناقض منهجي وقيمي في كيفية قيادة المسيرة وتوجيه المسيرة البشرية، فالإسلام يريد أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، والطاغوت يريد أن يخرجهم من النور إلى الظلمات. وبالتالي التفكير الجوهري نحو الإمساك بزمام المسيرة البشرية وإزالة القوى الرأسمالية، ويرى ذلك هدفاً مقدساً لصالح المجتمع البشري كله، وفي المقابل ترى هذه القوى أنّ مصالحها المادية تقتضي الإمساك بزمام المسيرة البشرية مهما كلف الأمر حتى وإن أدّى إلى إشعال فتيل الحروب العالمية وتفجير صراع الحضارات واستعمال القنابل الذرية والهيدروجينية والأسلحة الكيمياوية وفي هذا الإطار نستطيع أن نعالج ثلاث جدليات شائكة طالما احتدم

النقاش حولها، وهي:

١ ـ نظرية المؤامرة

احتدم النقاش بين التيارات المختلفة حول وجود مؤامرات يتبعها الغربيون ضد العالم الإسلامي، فهناك من آمن بوجود مثل هذه المؤامرة وأنها حالة مستمرة، وهناك من نفى ذلك، ونحن نرى ضرورة تحليل هذه الدعوى إلى عنصرين:

أ ـ الحالة العدوانية ضد العالم الإسلامي

ب ـ تنسيق هذه الحالة في إطار خطة مدونة.

فنظرية المؤامرة عبارة عن مجموع هذين العنصرين. وعندما نلقي نظرة فاحصة نجد أنّ العنصر الأوّل يمثل جوهرها، أمّا العنصر الثاني فالمقصود به أنّ الذهنية المادية الرأسمالية التي تحكم الحياة الغربية بطبيعتها ذهنية مصالح وهيمنة واستعلاء، وهذا ما ينعكس بشكل حتمي على خططها وبرامجها المستقبلية والستراتيجية، ويجعلها خططاً تدميرية بالنسبة للآخرين، فما يسميه الغرب خططاً وبرامج هو بالنسبة لنا مؤامرات تدميرية يحتاجها الغرب كي يبقى قوة مسيطرة في العالم، ومشكلة المسلمين في هذا الجانب أنهم يعاشرون الغربيين فلا يلمسون منهم حالة عدوانية فيتخذون ذلك دليلاً على بطلان نظرية المؤامرة، مع أنّ المقصود بهذه النظرية هو الحاكم الغربي، أمّا المواطن الغربي العادي فهو كأي إنسان آخر مهيأ للخير والشر معاً، والمعاشرة وحدها لا تثبت ولا تنفي، إنما النفي والإثبات يأتي حينما تتطلب المصلحة الغربية دعم حروب صدام وقمعه لشعبه ونجد المواطن الغربي يقف إلى جانب الحكومات الغربية ضد الشعب العراقي.

أنّ الحديث عن الحالة العدوانية في الغرب تجاه المسلمين حديث عن ظاهرة نوازع الدمار في الفكر الغربي، ذلك أنّ الحالة العدوانية حالة متأصلة في كل حضارة

مادية، والسعي لإثبات ذلك نوع من تحصيل الحاصل، فالحضارة التي تتخذ وبشكل رسمي من فلسفة اللذة والمنفعة والقوة أساساً لها، وتعتبر الأخلاق حاجة تكميلية وحالة نسبية، ولا تؤمن بحقائق اسمها الحق والخير والعدل، وترى أنّ القوة إذا ذهبت إلى مكان قالت للحق: تعال معي، وتعتمد على المصالح المادية كفلسفة سياسية لها، مثل هذه الحضارة لا يمكن إلاّ أن تكون عدوانية، والذي يتأمل في أفكار ومفاهيم الحضارة الغربية المعاصرة يجدها ذات نوازع تدميرية عميقة، فهناك نظرية صراع الأضداد والجدل الدائر بينها، ونظرية الصراع من أجل البقاء، والغاية تبرر الوسيلة، وصراع الطبقات، وصراع الحضارات، وصراع العروق الراقية مع العروق الرديئة، وفلسفة القوة، ونظرية الضربة الاستباقية، وظاهرة الاستعمار، وظاهرة شيوع الجرائم واندحار الأُسرة وتفشي الانتحار، وهناك الحروب العالمية الساخنة والباردة، والأسلحة النووية المدمرة، وهناك عالم الشمال الغني الذي يتحلب من دماء الفقراء ويتغذى من لحوم المساكين ولا يرى لنفسه سعادة إلاّ حينما يتحول العراق إلى مقابر جماعية وأفغانستان إلى مزارع خشخاش وفلسطين إلى أرامل وأيتام والسعودية إلى قبائل رحّل والجزائر إلى فتنة مستمرة ونزيف دائم.

والذين يستكثرون نظرية المؤامرة يقصدون أنّ العامل الخارجي مهما كان فعالاً لا يمكن أن يؤثر أثره ما لم يكن هناك عامل داخلي موافق له، وأنّ معالجة العامل الداخلي أولى من معالجة العامل الخارجي، وهذا الكلام صحيح، ولكنه لا ينفي نظرية المؤامرة؛ لأنّ الغرب لم يعد عاملاً خارجياً بالنسبة للمسلمين؛ لأنّ النظم السياسية والتعليمية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية والحقوقية القائمة في العالم الإسلامي كلها غربية، وهذا هو الذي أوجد العامل الداخلي الموافق للعامل الخارجي، لأنّ ذلك جعل كل مسلم يعيش في داخله صراعاً بين حضارتين متناقضتين، وحالة الصراع المستمرة منذ قرن من الزمان تعني انعدام الشخصية

الحقيقية المطلوبة بالنسبة له؛ لأنّ الشخصية تظهر في حالة استقرار ولا تظهر في حالة صراع، وانعدام الشخصية يعني أنّ العالم الإسلامي يعيش حالة فراغ أمام الغرب، وهي العامل الداخلي الموافق للعامل الخارجي، وكلا العاملين غربيان، وبمجموعهما تتم نظرية المؤامرة.

يقول روجيه غارودي: «إنّ هيمنة الغرب منذ خمسة قرون تكللت بإرادة مدمرة للكرة الأرضية»، ويضيف: «إنّ نتائج هذه الهيمنة تمثلت بوفاة ٥٠ مليون إنسان جوعاً ـ أي هيروشيما ـ من العالم الثالث»[١].

ويقول الشهيد الصدر: «عبّرت هذه الفكرة ـ فكرة الصراع ـ عن نفسها في الأفكار العلمية والفلسفية عن تنازع البقاء كقانون طبيعي بين الأحياء أوعن حتمية الصراع الطبقي داخل المجتمع أوعن الديالكتيك وتفسير الكون على أساس الأُطروحة ونقيضها والمركب الناجم عن الصراع بين النقيضين، إنّ كل هذه الاتجاهات ذات الطابع العلمي أوالفلسفي هي قبل كل شيء تعبير عن واقع نفسي عام وشعور حاد لدى إنسان الحضارة الحديثة بالصراع»[٢].

بينما الفكرة التي يحملها الإسلام إلى البشرية هي فكرة الأُخوّة البشرية.. والمسألة ليست مسألة شعارات وإنما هي مسألة واقع، فالأُخوة لا تتم بلا أُبوة، فإذا كنا ننتمي إلى السماء فهي عنصر الأُبوّة الذي يولد أُخوّة بشرية، وإذا كنا نرفض هذا الانتماء فهذا يعني أننا نرفض الأُبوّة، وبالتالي نرفض الأُخوّة البشرية بما يؤدي في النتيجة إلى الوقوع في فخ الصراع الذي أشرنا إلى نوازعه ومظاهره الملموسة في الحضارة الغربية الراهنة.

---

(١) الاصوليات المعاصرة: ٦٤.

(٢) اقتصادنا: ٢٠.

قد يقال: أنّ الإسلام هو الآخر يؤمن بصراع الحق والباطل ويأمر باعداد القوّة للحروب، فما الفرق بين الإسلام والغرب في ذلك؟

الفرق هو: أنّ الإسلام لا يرى الحروب ظاهرة طبيعية ضمن حركة الإنسان على مسرح الأرض، وإنما يعتبرها ظاهرة شاذة تعود في منشائها إلى وجود قوى تقاوم الحق وترفض الانصياع له، وترى أنّ وجودها ومصالحها وسلطانها يتطلب ذلك، وبالتالي فهو يدعو إلى حرب مقدسة ذات أهداف أخلاقية إنسانية، بخلاف الحضارة الغربية التي تفلسف الصراع كظاهرة طبيعية في حركة الناس بغض النظر عن مسألة الحق والباطل، وترى الحرب غريزة طبيعية في سلوك الإنسان على غرار قول الشاعر:

والظلم من شيم النفوس فأن   تجد ذاعفة فلعلة لا يظلم

فالحرب من وجهة نظر الإسلام لا تكون مشروعة إلاّ حينما تكون من أجل أهداف إنسانية وربانية مقدسة، بينما هي من وجهة النظر الغربية ضرورة دائمة ومستمرة من ضرورات الحياة، بمعنى أنّ الصراع مظهر التطور في الحياة من وجهة النظر الغربية، بينما يعتبر الإسلام الأخلاق والأمن والسلام والوحدة البشرية مظهر التطور فيها.

٢ ـ ضرورة نقد الفكر الغربي

إنّ عملية نقد الفكر الغربي تمثل ضرورة عقائدية لتحقيق الأهداف التالية:

أ ـ تحصين الأُمة من التأثيرات الغربية، باعتبار أنّ الهدى ينتشر من حيث ينتشر الضلال. بداية الضلال أفكار تُنشر وتنسب لها محاسن، وبداية الهدى بيان بطلان هذه الأفكار وتفنيد أدلتها وذكر مساوئها، وكل أثر فكري سئ انما يتسلل إلى الأُمة الإسلامية نتيجة لعدم وجود حماية فكرية تحمي الثغور العقائدية للأُمة وتحول

دون تسلل العناصر الغربية اليها من خلال القيام بعملية النقد الموضوعي الشامل والدقيق لها بما يؤدي إلى تصفيتها وحماية الأُمة من تأثيراتها السلبية عليها، والتصدي الفاعل للغزوالفكري الغربي عليها.

ب ـ تعزيز علاقة الأُمة بعقيدتها

فما لم تتم عملية نقد الفكر الغربي وبيان سلبياته ومساوئه على حياة الإنسان لا نستطيع أن نثبت مصداقية الإسلام كحل سماوي حاسم للمسألة الإنسانية، وسيبدو الغرب كحل مقبول آخر ربما يترجح على الحل الإسلامي من بعض الجهات عند الكثيرين، بما يؤدي إلى تضعيف علاقة الإنسان بعقيدته وإلغاء مشروع الصحوة الإسلامية القائم على أساس المناداة بالحل الإسلامي للمسألة الإنسانية.

إنّ الذي يعجز عن نفي الإله الفاسد يعجز بالنتيجة عن نفي الإله الحق، والذي لا يستطيع أن يقول: «لا إله» لا يستطيع أن يقول: «الا الله» وبالتالي فاستقامة الأُمة على الخط الإسلامي الأصيل والنقي مرهونة بممارسة عملية نقد عميقة وناجحة للخط المخالف، ومن المؤكد أنّ تقصير المسلمين في هذا العصر تجاه وظيفة الدعوة إلى الإسلام يعود بالدرجة الأساس إلى عدم تشبعهم بنظرة نقدية ناجحة للشعارات والمفاهيم الغربية، وعدم توفر القدرة الفكرية الكافية عندهم للدفاع عن الشعارات والمفاهيم الإسلامية المقابلة لها.

ج ـ معالجة ظاهرة الازدواج الحضاري

الإزدواج الحضاري ظاهرة اجتماعية تعني قيام مجتمع معين بممارسات متناقضة نتيجة لاعتناقه لأفكار تنتمي لحضارتين وعقيدتين متناقضتين، وقد أشار القرآن الكريم إلى ابتلاء المجتمعات البشرية بهذا النوع من التناقض. قال تعالى: ﴿وما

يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون﴾[1]، وهذه الظاهرة سلبية لا لأنها تجمع الشرك إلى الإيمان فقط، بل لأنها تجمع بين أمرين متناقضين أيضاً، فهي سلبية حتى بالنسبة لمجتمع يجمع بين نوعين من الكفر والشرك، وهذه الظاهرة تعود في منشئها إلى تسلل حضارة أجنبية إلى مجتمع معين له حضارة أُخرى في ظل ظرف تاريخي وثقافي وسياسي استثنائي لا يساعده على مقاومة الحضارة المتسللة، أويزين له وجهها، وسلبية هذه الظاهرة تتجلى في أنّ حصيلة الجمع بين أمرين متضادين عبارة عن مجتمع هجين يجمع خصائص الضعف من الحضارتين ويفتقد إلى عناصر القوة فيهما، كما هي عملية المزج بين السكر والملح في محلول واحد تؤدي إلى حصيلة مجّة تعافها النفوس والأذواق السليمة، والشاهد التاريخي على ذلك عملية التغريب التي جرت في القرن الماضي في المجتمعات الإسلامية، والتي كانت بمثابة التجسيد لمقولة: وما يؤمن أكثرهم إلاّ وهم غربيون، لأنها أدت إلى انتشار الأزياء الغربية والتحلل الخلقي وانتشار الخمور والمخدرات، ولم يكسب منها المجتمع الإسلامي العلم والتقدم والتكنولوجيا، وفي المقابل خسر الشخصية الإسلامية الأصيلة والمتوازنة.

وهنا تأتي عملية نقد الفكر الغربي كحل لهذه المعضلة وطريق لفصل وطرد الحضارة المتسللة إلى المجتمع الإسلامي، وإعادة هذا المجتمع إلى أصالته السابقة في إطار جديد منظور.

د ـ الحيلولة دون انحلال الأُمة

قال الرسول الأعظم(ص): «لتنتقض عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة

(١) يوسف: ١٠٦.

تشبثت بالتي تليها، وأول نقضها الحكم وآخرها الصلاة»[1].

يبين هذا الحديث صورتين لانحلال الأُمم هما:

١ ـ الانحلال الدفعي

٢ ـ الانحلال التدريجي

وينفي الصورة الأُولى عن الأُمة الإسلامية، ويحتمل تحقق الثانية بحقها، فالأُمة الإسلامية لا تنحل بغزو خارجي ولا بخطر حادّ واضح كالخطر الشيوعي، وإنما تنحل ـ لا سامح الله ـ بخطر تدريجي خفي عروة بعد عروة، الانحلال التدريجي يمتاز بكونه خطراً غير محسوس من جهة، وقابلاً للتوجيه والتبرير في كل حلقة من حلقاته من جهة ثانية، ولذا حذّر القرآن الكريم من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، ومن اتباع خطوات الشيطان، لأنّ هاتين الحالتين تمثلان عملية انحلال تدريجي، والحضارة الغربية تمثل اليوم الخطر التدريجي والمصداق العصري لخطوات الشيطان وحالة الوسواس الخناس؛ لأنها تمثل حالة إلحادية غير محسوسة، فهي تعلن أنها ليست ضد الدين، وأنها تؤيد الأنشطة الدينية شريطة أن لا يتدخل الدين في السياسة، وهذا الكلام قد يجد ترحيباً عند البعض ممن يعجزون عن اكتشاف المغالطة الفاحشة فيه، وهي أنّ الواقع الإنساني يمثل وحدة واحدة لا تقبل التفكيك بين الفرد والمجتمع، فالإنسان بما هو إنسان إمّا أن يكون مؤمناً أو يكون ملحداً، والمسألة الكونية لا تتقبل وجود خيار ثالث متوسط بينهما، وبالتالي فوقوف الدولة الغربية على أساس مادي يعني أنها دولة إلحادية تقف إلى جانب الالحاد ضد الإيمان، والواقع القائم على الأرض هو هذا، ولكن الغرب يتكتم على إلحاديته؛ لكي يثبت أنه حالة متوسطة ومعتدلة بين حالتين مرفوضتين في الذهنية الغربية هما: حالة

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٤: ٩٢، ط: دار المعرفة.

الكنيسة وحالة الماركسية.

ولذا فالنموذج الغربي القائم لا يملك رصيداً فلسفياً يؤيده وإنما هو قائم بفضل حالة الرفض التاريخي للكنيسة والماركسية في الذهنية الغربية. وإذا كان الغرب يعاني من مشكلة تاريخية تجعله يلجأ إلى العلمانية فالعالم الإسلامي لا يعاني من مثل هذه المشكلة، فليست فيه كنيسة ولا ماركسية، وإنما فيه الرسالة الإلهية الخالدة والمنقذة للبشرية في كل أدوارها .

إنّ العلمانية تمثل البداية الأُولى والأخطر لعملية الانحلال التدريجي في العالم الإسلامي، وأن تكثيف الجهود ضدها من شأنه ان يغلق سائر المنافذ لهذه العملية، وبالتالي فعملية النقد العميقة والناجحة والمتواصلة لأساسيات الفكر الغربي تمثل ضرورة تاريخية لحفظ وجود الأُمة وتماسكها والحيلولة دون وقوعها في خطر الانحلال التدريجي.

٣ ـ منهجية نقد الحضارة الغربية

إنّ أول ما يواجهنا في عملية نقد الفكر الغربي والحضارة الغربية عقبة الاستلاب الفكري التي تعيق الكثيرين عن التصديق بأنّ الفكر الغربي فكر خاطئ وسيىء بالنسبة لحياة الإنسان ومصيره، ويتصور هؤلاء ان هذه دعوى متطرفة ومبالغ فيها ولا تقبل الإثبات، والسبب في هذه التصورات يعود إلى مقولة: وما يؤمن أكثرهم إلاّ وهم غربيون، فهؤلاء يعيشون المفاهيم والأفكار الغربية حالة قائمة في نفوسهم وعقولهم ويتصورون أنّ هذه الحالة هي أعلى ما يمكن أن يتوصل إليه الإنسان، رغم ما فيها من سلبيات؛ لأنّ السلبيات أمر قائم لا يمكن اجتنابه، ففي كل حضارة توجد سلبيات، والحضارة الغربية تمثل أعلى حد من الإيجابيات وأقلّ حد ممكن من السلبيات. والصحيح من وجهة نظرهم أن نساير هذه ونستفيد منها ونضيف إليها ما

نراه ضرورياً، وبالتالي فهم ينطلقون في تقييمهم للحضارة الغربية من حالة انتماء إليها ولا ينطلقون من حالة محايدة، وهنا ثلاث حالات:

أ ـ حالة النظر إلى الحضارة الغربية من موقع الانتماء الجزئي أوالكلي لها.

ب ـ حالة النظر إليها من موقع محايد.

ج ـ حالة النظر إليها من موقع الانتماء إلى الإسلام.

الحالة الأُولى لا تنتج رؤية واقعية، والثانية حالة فرضية لا وجود لها، فـإنّ الحياد حالة واقعية في أمر يقبل الانقسام إلى أكثر من حالتين ولا معنى له في أمر لا يقبل إلاّ القسمة الثنائية، والحضارة من وجهة نظر الإسلام مقولة لا تحتمل غـير التقسيم الثنائي، فإمّا حضارة الحق وأما حضارة الباطل، إمّا حضارة سماوية وإمّا حضارة أرضية، ولا معنى للحياد بينهما؛ لأنّ كل من لا ينطلق من نظرة سـماوية ينطلق بالنتيجة من نظرة ارضية، ولا معنى للحياد بين الأرض والسماء، والذيـن يصرون على النظرة المحايدة يقصدون التمسك بنظرة تكشف لهم الحقيقة ويتوصلون بها إلى الواقع، وهذا يعني أنّ النظرة السماوية والنظرة الأرضية كلتاهما خـارجّ الحقيقة، والالتزام بذلك يعني إبطال النظرتين معاً، فتصبح القضية سـالبة بـانتفاء الموضوع، وفاقدة للنتيجة، فيلزم من الأخذ بالنظرة الثانية إلغاء القضية من الأصل.

إذن فلابد من التسليم أوّلاً بأنّ أحدى النظرتين تـتضمن الواقـع والحـقيقة، والتوصل إلى هذه الحقيقة لا يتم باختراع نظرة ثالثة مفترضة، وإنما بالاحتكام إلى القيم الفطرية الأوّلية المودعة لدى الإنسان كالحق والعدل والخير، وملاحظة أنّ هذه القيم تتجسد في أي من الحضارتين أكثر من تجسدها في الأُخرى، وبالتالي فالأمر يتطلب إجراء نظرة مقارنة بين الحضارتين على أساس الاحتكام لتلك القيم.

إنّ النظرة الغربية للحياة والإنسان والحضارة لا تمثل من ناحية جوهرية نظرة جديدة ابتكرها إنسان مترقّ كما يُصُّر الغربيون على تـصوير أنـفسهم للآخـرين

لتبرير ما يرمون إليه من السيطرة على البشرية. وإنما هي تمثل النظرة الأرضية التي تفرض نفسها بشكل تلقائي على الإنسان كلما انفصل عن النظرة السماوية والمحور الرباني للحياة، والحضارة الغربية استمرار وامتداد لحالات الشرك والعصيان التي كان المعارضون للأنبياء(ع) يواجهون بها الرسالات السماوية، والحالة الراهنة في الأرض استمرار لحالة المواجهة بين تلك الرسالات ممثلة بالإسلام وما يمثله من نظرة سماوية وحضارة ربانية، وبين الشرك والعصيان ممثلاً بالقوى الرأسمالية وما تمثله من نظرة أرضية وحضارة مادية، ووصف القرآن حالة العرب قبل الإسلام بالجاهلية لا يختص بتلك الحالة لا زمانياً ولا مكانياً، بل هو وصف ممتد وشامل لكل من يقع ضحية النظرة الأرضية.

الجاهلية المعاصرة

لقد ورد مصطلح الجاهلية في القرآن الكريم أربع مرات، منها قوله تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾[(١)].

والمعنى المتداول والمشهور لهذا المصطلح هو أنّ القرآن الكريم قد أطلقه كوصف لحالة العرب قبل الإسلام، باعتبار ماكانوا عليه من جهل وانحطاط علمي واجتماعي، وحاول البعض أن ينفي هذا المعنى ويستدل على وجود حالة علمية لا بأس بها آنذاك، وأنّ المقصود بالجاهلية هو معنى خاص من الجهل، كالجهل بالدين وأحكامه، أو الجهل بمعناه الأخلاقي، فالغضب والثأر والقبلية ووأد البنات وعبادة الأصنام مظاهر تحكي جهلاً على الصعيد الأخلاقي والاجتماعي، وهذا ما يحفّزنا للبحث عن حقيقة هذا المصطلح من خلال البحث عن معنى الجهل في القرآن الكريم باعتباره الجذر اللغوي لمصطلح الجاهلية.

---

(١) المائدة: ٥٠.

لقد تكررت مادة «جهل» في القرآن الكريم ٢٤ مرة، أربعة منها ورد فيها التعبير بـ«الجاهلية» التي هي محل البحث، وأربعة منها ورد فيها التعبير بـ«جهالة» وقد جاءت بمعنى ما يقابل العلم، وواحد منها ورد فيه التعبير بـ«الجاهل»، وقد أُريد به أيضاً ما يقابل العالم، وفي الباقي ورد التعبير بـ«جاهلون»، «جاهلين»، «جهولا»، «يجهلون»، «تجهلون»، وقد جاء المراد بهذه التعابير في هذه الموارد أمراً لا يقابل العلم، بل أُريد به معنىً إمّا يقابل التوحيد أو يقابل حكماً من أحكام الله سبحانه وتعالى، والمعنى الجامع لها هو ما يقابل الحق، ففي ما يقابل التوحيد ورد قوله تعالى: ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا الهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون﴾[1]، فوصف الشرك بالجهل، وفي مايقابل حكماً من أحكام الله سبحانه وتعالى ورد قوله تعالى: ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون﴾[2].

وعلى هذا يكون المراد بالجهل في هذه الموارد هو الباطل، العقيدة الباطلة والسلوك الباطل، وحينئذ فالمراد بالجاهلية إمّا أن يكون معنى يقابل العلم، أو معنى يقابل الحق، وحيث إنّ المعنى الأوّل قليل الورود في القرآن الكريم، وقد ورد مقروناً بالتسامح، مثل قوله تعالى: ﴿انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة..﴾[3]، فلا يمكن أن يكون هو المعنى المقصود من الجاهلية، لأنها أمر لا يقبل التسامح والتساهل. فلابد من الأخذ بالمعنى الثاني، وهو ما يقابل الحق، أي الباطل، لكثرة وروده في القرآن الكريم من جهة، ولكونه أمراً لا يقبل التسامح والتساهل من جهة ثانية، وحينئذ فالجاهلية هي بناء الحياة الاجتماعية على أساس باطل، وهي أمر يقابل الإسلام باعتباره يعني إقامة الحياة الاجتماعية على أساس حق.

---

(١) الاعراف: ١٣٨.

(٢) النمل: ٥٥.

(٣) النساء: ١٧.

اذن فليست الجاهلية فترة زمنية منصرمة من حياة مجتمع معين، وإنما هي وصف لنمط خاطئ من الحياة الاجتماعية، كما هو الإسلام وصف للنمط الصحيح منها، والمقابلة بين الإسلام والجاهلية مقابلة بين الصواب والخطأ، بين الحق والباطل، وهي مقابلة قابلة للوقوع في كل زمان ومكان وليست خاصة بزمان معين ولا بمكان خاص، وما الجاهلية العربية إلاّ مثالاً من أمثلتها ومصداقاً من مصاديقها، وقد ذاع أمره واشتهر حتى ظن أنها المصداق الوحيد لمفهوم الجاهلية، بسبب كونها المصداق الذي اصطدم مع الإسلام في أول انطلاقته. ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأُولى﴾[1] فالجاهلية حالة تقبل التكرار والتعدد والوقوع في أزمان مختلفة وأماكن متعددة. وهذا المعنى المستخلص والمختار للجاهلية فيه احتمالان:

١ - أن تكون الجاهلية وصفاً للحياة الاجتماعية الباطلة وغير الإسلامية بغض النظر عن الماضي والحاضر والمستقبل، فكل نهج اجتماعي غير إسلامي هو نهج جاهلي بغض النظر عن الزمان والمكان.

٢ - أن تكون الجاهلية وصفاً للحياة الاجتماعية الباطلة التي كانت سائدة في دنيا الإنسان قبل الإسلام خاصة، وأنّ ظهورها من جديد في مرحلة ما بعد الإسلام لا يعني ظهور جاهلية جديدة، وإنما يعني عودة الإنسان إلى جاهلية ما قبل الإسلام. فظهور الإسلام كان بمثابة الإعلان عن انقضاء الجاهلية وبلوغ الإنسان مرحلة الرشد والنضج والكمال على يديه، وأنّ أي خطوة تستهدف تجاوز الإسلام وبناء الحياة على أساس غيره أنما تعني إعادة الإنسان، إلى مرحلة سابقة هي مرحلة الجاهلية، أو بتعبير آخر إنّ الجاهلية في حسابات الإسلام مرحلة منصرمة من حياة

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

الإنسان، إلاّ أنّ الإنسان قد يتقهقر ويتراجع إلى الوراء ليمارس الجاهلية من جديد، فالجاهلية لاتعود إنما الإنسان هو الذي يعود إليها، وتعدد الجاهلية لا يصح بلحاظ مابعد الإسلام، إنما هو صحيح بلحاظ ما قبل الإسلام فقط، فقبل الإسلام كـانت هناك جاهليات متعددة فجاء الإسلام ليعلن عن انقضاء عـهد الجـاهلية وبـلوغ الإنسان رشده ونضجه في ظل النبوة الخاتمة، وبالتالي فكل خروج عن تعاليم هذه النبوّة أنما هو عودة إلى الجاهلية.

وهذا الاحتمال أكمل من الأوّل وأكثر صحة ودقة، وما هو مذكور في تراث سيد قطب[١] ومحمّد قطب[٢] والشيخ محمّد مهدي شمس الدين[٣] وآخرين وإن كان مطابقاً للاحتمال الأوّل، بحسب ما يظهر من عباراتهم، ولكن الاحتمال الثاني يبدو أقرب إلى الصواب، ذلك أنّ خاتمية الإسلام لما قبله من النبوات والرسالات الإلهية هي بلحاظ جوانب متعددة، ولابد أن يكون أحدها أنّ رشد الإنسان ونضجه في فترة الإسلام قد بلغ حداً كافياً لفهم التوحيد بنحو أدّىٰ إلى الإعلان عن خـاتمية الإسلام وانتفاء الحاجة إلى ظهور رسالة إلهية جديدة، فالنبوات السابقة استطاعت أن تقتاد الإنسان وتعبر به مرحلة الصبا والمراهقة وأن توصله إلى مرحلة النضج والرشد الكافيين لتفهم حقيقة التوحيد بتمام أبعادها وجوانبها، وهذا يعني بالنتيجة أن كل سلوك مخالف للإسلام ينتمي من حيث الهوية والنمط والجوهر إلى فترة ماكان عليه الإنسان في أيام طفولته وصباه، ويجسد جاهليته ويعبّر عن حركة رجـعية قهقرائية.

وكمثال تطبيقي حيّ على ذلك نلاحظ أنّ الحضارة المعاصرة التي يُنظر إليها

---

(١) في ظلال القرآن ٦: ٥٦٤ و ٢: ١٣٤.

(٢) جاهلية القرن العشرين: ١١.

(٣) بين الجاهلية والإسلام: ٢٥٦.

بكثير من الانبهار والإعجاب إذا فصلنا عنها الجانب التقني والعلمي الذي هو تراث إنساني مشترك واقتصرنا على الجانب الأيديولوجي منها وجدنا هذا الجانب يعود من حيث الأصالة والهوية والجوهر الحقيقي إلى سلوك جاهلي عاشه الإنسان منذ أقدم الأزمان، وبالتالي فهو يمثل حالة رجعية خلافاً لما هو العالق في الأذهان من اعتباره مظهراً لتقدم الإنسان ورقيه.

الإنسان الحديث يمتلئ استغراباً وتعجباً من سلفه الإنسان القديم يوم كان يصنع الأصنام بيده ثم يجعلها ألهاً له، ويزداد استغراباً وهو يقرأ في التاريخ كيف أنّ عبادة الأصنام كانت تغطي وجه الأرض حتى عند اليونان والرومان الذين عرفوا الفلسفة قبل غيرهم، ولكننا نسأل الإنسان الحديث كيف استساغ فكرة كفكرة العلمانية واستأنس بها وأقام حياته الاجتماعية عليها واعتبرها حلاً حاسماً لجدلية الإيمان والكفر، وهي لا تحظى بدليل واقعي؟ لأنّ الواقع من الناحية العقلية لا يقبل إلاّ أن يكون إيمانياً أو إلحادياً، فإن كان إيمانيا فهو إيماني للإنسان بما هو إنسان سواء كان فرداًأو مجتمعاً، وإن كان إلحادياً فهو إلحادي للإنسان بما هو إنسان سواء كان فرداًأو مجتمعاً، وقيام العلمانية على أساس التفريق بين فرد لا مانع من أن يكون مؤمناً ومجتمع يجب أن يكون مادياً ملحداًأمر لا يمكن أن يحظى بدعم فلسفي أو عقلي، وهو خديعة وسذاجة لا تقل عن سذاجة وانخداع الإنسان القديم بعبادة الاصنام.

إنّ الحياة الاجتماعية كائن حساس تؤثر فيه أبسط المؤثرات، ولذا نجد التجارب الديمقراطية تتفاوت في الخصوصيات من بلد ديمقراطي إلى بلد ديمقراطي آخر، وكذا الأمر في التجارب الاشتراكية، ومع حقيقة كهذه كيف يتاح لنا تصور أنّ الحياة الاجتماعية تأخذ نمطاً واحداً سواء كان الفرد مؤمناً أم ملحداً؟.

ويستغرب الإنسان الحديث من سلفه كيف كان يتعصب لقبيلته إلى حد بحيث يحولها إلى طوطم يقدم له النذور والقرابين وفروض الطاعة والولاء والعبادة، ولكن

هل هناك فرق جوهري بين الطوطمية القديمة والقومية الحديثة؟ أليست القومية الحديثة إلهاً يقدم له الفرد فروض الطاعة والولاء إلى حد التضحية بالنفس؟، وهل القومية إلاّ دائرة تتحد مع القبلية في مركز تعصبي واحد ولا تختلف معها إلاّ في السعة والحجم؟

ويفتخر الإنسان الحديث على أسلافه بأنّه اكتشف الوطنية كمبدأ حقوقي في الحياة الدولية، ولكننا نقرأ في التاريخ أنّ الوطنية شعور لازم الإنسان منذ أقدم الأزمان، وأنّ هذا الشعور كان يتحول بشكل تلقائي إلى مبدأ حقوقي، فنقرأ في قصة فرعون إنه كان ينظر إلى موسى(ع) من زاوية وطنية ويعتبر موسى(ع) غريباً لا ينتمي إلى مصر انتماءً أصيلاً، قال تعالى على لسان فرعون: **﴿قال اجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك يا موسى﴾**[1]، وتحدث السحرة فيما بينهم قائلين: **﴿ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من ارضكم﴾**[2]، ثم خاطب فرعون الناس قائلاً: **﴿يريد ان يخرجكم من ارضكم فماذا تأمرون﴾**[3]، فالأرض لهم وليس لموسى أي حق فيها، وإذا كان له من حق فعليه أن يخضع للإرادة الوطنية العامة، ولا يفرض رأيه عليها، ولم يكن موسى(ع) بدعاً من الرسل، فقد عانى كل الرسل والأنبياء من هذه القضية، قال تعالى: **﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن في ملتنا﴾**[4].

ويفتخر الإنسان الحديث بالحرية والديمقراطية والليبرالية ويعتبرها المرفأ الأخير للتأريخ بينما يحدثنا القرآن الكريم أنّ هذه الأفكار من حيث الجوهر عرفها

---

(١) طه: ٥٧.

(٢) طه: ٦٣.

(٣) الاعراف: ١١٠.

(٤) ابراهيم: ١٣.

الإنسان ومارسها منذ أقدم الأزمان، وإن لم يطلق عليها هذه الأسماء ولم يطرحها بصياغات نظرية معينة، وإنما طرحها بإسلوب ساذج بسيط. فحينما كان الأنبياء يدعون أقوامهم إلى التوحيد كان المخالفون يقولون: **﴿إنا وجدنا آباءنا على أُمة وانا على آثارهم مقتدون، قال أولو جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما أُرسلتم به كافرون﴾**[1].

وجوابهم هذا يتضمن فكرة الحرية، فهم يريدون أن يقولوا للأنبياء: نحن أحرار فيما نختار، ولا نريد اختياركم حتى لو كان اختياركم أفضل من اختيارنا لأنفسنا، كما يتضمن فكرة الليبرالية القائمة على أساس تبعية الإنسان لنفسه، لأنهم يـقاومون التبعية لله ويصرون على التبعية للآباء والأجداد كتعبير عن تبعيتهم لأنفسهم.

وإذا كان الإنسان الغربي الحديث قد أطلق الحرية الجنسية بلا حدود، فالقرآن الكريم يحدثنا أنّ ذلك كان شأن الجاهلية الأُولى، وشأن قوم لوط، فما هي ميزة الحداثة إذن؟

وهذا كله يشهد بأنّ طبيعة العلاقات الإنسانية ونمط إدارتها تخضع لأُصـول ثابتة لا تقبل التغيير، وأنّ الزمان مهما امتد لا يؤثر فيها وإنما يؤثر في شكلها وطريقة التعبير عنها وفي علاقة الإنسان مع المادة والكون. وأنّ علاقة الإنسان مع الإنسان الآخر السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية إمّا أن تقوم على أسس مادية أو إلهية، وإنها في الحالتين تستند إلى أسس وتفرز خصائص ثابتة لا تتغير. وليس للزمان أن يؤثر فيها، ولذا نجد الله سبحانه وتعالى يخاطب نبيه قائلاً: **﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون﴾**[2]، فالحياة الاجتماعية تنتظم وتقوم

(١) الزخرف: ٢٣ - ٢٤.

(٢) الجاثية: ١٨.

على أحد أساسين، فإمّا شريعة الله وإمّا أهواء الذين لا يعلمون. شريعة الله هي الأساس العلمي الوحيد للحياة الاجتماعية، وما عداها أُسس جاهلية يعبّر عنها القرآن الكريم بأنها «أهواء»، ثم ينسبها إلى «الذين لا يعلمون»، وتبقى هذه المعادلة ثابتة مهما امتد الزمان، ويشهد لصحة الاحتمال الثاني أيضاً أنّ معجزة نبي الإسلام اختلفت عن معجزة سائر الأنبياء بأنها معجزة أدبية فكرية، بينما كانت معجزات الأنبياء السابقين حسية، كإحياء الموتى وتحول النار إلى برد وسلام على إبراهيم(ع) وعصا موسى(ع)، المعجزات الحسية تدل على أنّ المخاطب لا يميز الأُمور إلاّ بحواسه وجهازه الحسّي، والمعجزة الأدبية، وهي القرآن الكريم تدل على أنّ المخاطب قد ترقى بحيث أصبح بوسعه تمييز الأُمور تمييزاً فكرياً وأدبياً وعقلياً، ولأجل وصوله إلى هذه المرتبة من الرشد والبلوغ فليس هناك ضرورة لظهور نبوة جديدة، فكانت نبوة النبي(ص) هي النبوة الخاتمة لعصر الوحي، بمعنى أنّ الجاهلية هي عصر سيادة الحس والنوازع الحسّية على الإنسان، وأنّ عصر الإسلام هو عصر بلوغ الإنسان رشده وتكامله الفكري بحيث يستطيع أن يدرك حقيقة التوحيد وقبح الشرك استناداً إلى دلائل عقلية وبدون الحاجة إلى معجزة حسية، وبالتالي فكل سلوك يخالف الإسلام هو في الحقيقة نكوص عن العصر العقلي وعودة إلى العصر الحسّي، أي إلى العصر الجاهلي.

إنّ الركيزة الأساسية للجاهلية تتمثل في كل زمان ومكان في أن يفعل الإنسان ما يحلو له ويرى سعادته وكماله في ذلك، مهما كان فيه من ظلم بحق الآخرين، وهذا المعنى الذي عبّر عنه حديثاً بالليبرالية حكاه القرآن الكريم عن الإنسان القديم بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا

بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[1].

فكل أركان الليبرالية ومعالمها مذكورة في هاتين الآيتين وهي:

أ ـ الرأسمالية، وذلك في قوله تعالى: ﴿قال مترفوها﴾، فالرأسماليون هم الطبقة المنتفعة بالجاهلية، والرمز القائد الذي يدعو المجتمع إلى رفض التغيير ومقاومة خط الأنبياء، وهم الذين استضعفوا الناس وجعلوهم يعتقدون أنّ علامة صدق النبوة تحققها في أكثر الناس ثراءً كما في حكاية القرآن الكريم عنهم: ﴿وقالوا لو لا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾[2].

وهم الذين فككوا الأسرة في هذا الزمان من أجل مصالحهم ورفعوا شعار حقوق المرأة من أجل الحصول على يد عاملة رخيصة تنافس الرجال وتستهويهم للحضور في المعامل والإدارات مهما كانت الأُجور زهيدة، وهم الذين يسيطرون على مواقع الحكم والمعارضة في البلدان الغربية ويسيرون دفة الحكم من خلال حزبين لا ثالث لهما طيلة التاريخ السياسي المعاصر هناك من وراء لافتة الديمقراطية، وهم الذين يملكون وسائل صناعة الرأي العام المؤيد لمصالحهم، وهم الذين يقودون عمليات الاستعمار والاحتلال والهيمنة على البلدان الأُخرى طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين.

وهم الذين يقودون حملة العولمة ويسمّون كل مخالف لهم إرهابياً، وهم الحليف الطبيعي للصهيونية بما تمثله من قوى رأسمالية يهودية مماثلة تفكر بالسيطرة العالمية وإغراق العالم بالفتن والاضطرابات، وهم الذين يرفعون الآن شعار صراع الحضارات ضد الإسلام؛ لأنهم يعتبرونه الخطر الكبير على مصالحهم بما يمثله من قوة

---

(١) الزخرف: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) الزخرف: ٣١.

معنوية قادرة على تعبئة المسلمين والمستضعفين وحتى الشعوب الغربية ضدهم وكشف جناياتهم ومؤامراتهم على البشرية.

ب ـ القومية: وذلك في قوله تعالى: **﴿انا وجدنا آباءنا على أُمة وأنا على آثارهم مقتدون﴾** فالقوى الرأسمالية لا تجد وسيلة تتمكن من خلالها من تعبئة الرأى العام المحلي ضد قوى الحق والخير أفضل من القومية، وقد ظهرت في العصر الحديث بشكل مقارن وملازم لظهور الرأسمالية، واختفت في الفكر الماركسي وكذا في الفكر الإسلامي المنافي لها.

ج ـ البراغماتية: فالمترفون قاوموا الأنبياء انطلاقاً من مصالحهم، وفي الظروف العصرية يجد الرأسماليون فلسفة اللذة والمنفعة والقوة فلسفتهم الطبيعية في الحياة والسند الطبيعي في معركتهم غير المقدسة ضد المستضعفين.

د ـ العلمانية: فالمترفون لم يدخلوا في نقاش فلسفي مع الأنبياء، بل هربوا من هذا الميدان، وقالوا في البدء: إنّنا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فلما قال لهم النبي (ص) أولوا جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا: إنّا بما ارسلتم به كافرون، فهربوا من المواجهة العلمية المنطقية وتمسكوا بالعصبية دفاعاً عن مصالحهم الرأسمالية.

والرأسماليون في عصرنا تمسكوا بالمبدأ العلماني في مواجهة الدين دون دليل منطقي يساعدهم على ما يذهبون إليه من عزل الدين عن شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية وتفكيك الشؤون الإنسانية إلى فردية واجتماعية وقد كتب السيد الشهيد الصدر يقول في ذلك:

«إنّ المسألة الاجتماعية للحياة تتصل بواقع الحياة ولا تبلور في شكل صحيح إلاّ إذا أُقيمت على قاعدة مركزية تشرح الحياة وواقعها وحدودها، والنظام الرأسمالي يفقد هذه القاعدة، فهو ينطوي على خداع وتضليل أو على عجلة وقلة أناة، حيث تجمد المسألة الواقعية للحياة وتدرس المسألة الاجتماعية منفصلة عنها، مع أنّ قوام

الميزان الفكري للنظام بتحديد نظرته منذ البداية إلى واقع الحياة التي تمون المجتمع بالمادة الاجتماعية... إذن فمسألة الإيمان بالله وانبثاق الحياة عنه ليست مسألة فكرية خالصة لا علاقة لها بالحياة لتفصل عن مجالات الحياة ويشرع لها طرائقها ودساتيرها مع إغفال تلك المسألة وفصلها، بل هي مسألة تتصل بالعقل والقلب والحياة جميعاً...»[١].

هـ ـ الديمقراطية: فقد صور المترفون موقفهم من الأنبياء على أنه دعوة إلى الحرية حينما قالوا: (إنا وجدنا آباءنا على أُمة...) الخ

واعتبروا دعوة الأنبياء نوعاً من القيود على الحريات، وتصر القوى الرأسمالية المعاصرة على رفع لافتة الحرية والديمقراطية كطريق لإقصاء الدين عن الساحة الاجتماعية وفرض السيطرة الرأسمالية عليها ومن ثم التعدي منها إلى سائر البلدان في العالم عبر عمليات الاحتلال والاستعمار والعولمة. ولن تذوق الأُمم والشعوب بما في ذلك الشعب الأمريكي الطعم الحقيقي للحرية إلاّ بإسقاط القوى الرأسمالية التي تتحكم بمصير البشرية انطلاقاً من القاعدة الاقتصادية التي تملكها، ولن تذوق المعنى الحقيقي المقصود من الديمقراطية إلاّ بإسقاط هذه القوى التي تدير الحياة السياسية في كل البلدان الرأسمالية من خلال انقسامها إلى حزبين يحتكران مقاعد الحكم ومقاعد المعارضة ويتناوبان الأدوار بينهما طيلة التاريخ السياسي الحديث، ونحن لا ننكر الديمقراطية بما هي مشاركة شعبية في الحكم وإدارة شؤون الأُمة، وإنما نرى أنّ المشاركة الشعبية إذا أُقيمت في مجتمع مادي كانت النتيجة استحواذ القوى الرأسمالية على الحكم وتوليها إدارة دفة الحياة السياسية من وراء ستار برّاق اسمه الديمقراطية، وإذا أُقيمت في مجتمع إيماني كانت النتيجة هي نظرية الشورى في الإسلام، وبالتالي

---

(١) فلسفتنا: ١٩، دار الكتاب الإسلامي قم.

فالديمقراطية اسم يطلق على مجتمع مادي تقوده الرأسمالية إلى مشاركة ظاهرية في الحكم والشورى اسم يطلق على مجتمع إيماني تقوده العقيدة إلى مشاركة حقيقية في الحكم.

و ـ إنكار قيم الحق والخير في الحياة، فالمترفون لم يناقشوا الأنبياء ولم يتباحثوا معهم حول الحق والحقيقة والخير والعدل وإنما تمسكوا بالتبعية للآباء والأجداد، ولما قال لهم النبي(ص): (أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباؤكم) قالوا: (انا بما ارسلتم به كافرون) فهم ليسوا بصدد قيم الحق والحقيقة والخير والعدل، بل بصدد إبقاء ماهم عليه من امتيازات ومصالح ومواقع بغض النظر عن مسألة الحق والباطل ومسألة الخير والشر ومسألة العدل والظلم ومسألة الحقيقة والخيال. على غرار ما تتمسك به النظم الرأسمالية الحديثة، من مقولة نسبية الحقيقة ونسبية الأخلاق وقيم الحق والعدل والخير، وتبني هذه المقولة من جانبهم أمر طبيعي وحتمي؛ لأنّ من يؤمن بفلسفة القوة واللذة والمنفعة لا يمكنه أن يؤمن بشيء اسمه حق وحقيقة وخير وعدل ولابد له من أن يؤمن بأنّ القوة إذا ذهبت إلى مكان قالت للحق والخير والعدل: خذني معك.

هذه هي الأركان الستّة لليبرالية قديماً وحديثاً، فالإنسان القديم الذي واجه خط الأنبياء كان ليبرالياً من حيث لا يدري، والرأسمالي الذي يعلن الحرب على الإسلام في هذا الزمان هو امتداد لذلك السلف، وبالتالي الليبرالية المادية هي طبعة جديدة من الجاهلية التي جاء الإسلام ليعلن القضاء عليها ويعتبرها نقيضاً دائمياً له، لأنّ الإسلام هو الإذعان للحق، والجاهلية هي إنكار الحق، وظهور الليبرالية في هذا الزمان أنما هو عودة إلى الجاهلية وحركة رجعية تريد بالإنسان أن يتقهقر إلى الوراء؛ لأنّ التقدم الحقيقي لا يقاس بالطائرة والسيارة وسائر وسائل العيش التي سخرها الله للإنسان وأمكنه منها وإنما يقاس بمقدار ما يحققه الإنسان

من خطوات باتجاه العدل والكرامة والسعادة والحق والخير والحـرية الحـقيقية والإصلاح.

خصائص الجاهلية المعاصرة

وكما تشترك الليبرالية مع الجاهلية في أركان واحدة تشترك معها كذلك في خصـائص واحدة هي:

أ ـ النظرة الغريزية

إنّ النظرة الأرضية بطبيعتها نظرة غريزية تنظر إلى الإنسان من الجهة السفلى المتمثلة بالغرائز والنزوات وتعتمدها كمحور للشخصية الإنسانية بحيث تكون سائر القوى كالعقل والعاطفة في خدمتها وركابها، بحكم أنّ شبيه الشيء منجذب إليه، فالمادة تسعى لاجتذاب الجانب المادي في الإنسان المتمثل بالغرائز، والعـقيدة السماوية تسعى لاجتذاب الجانب المعنوي المتمثل بالعقل والروح والفطرة واعتماده كمحور في الشخصية الإنسانية، ولذا نجد الحضارة الغربية حضارة ذات مـظاهر غريزية بارزة، فهي حضارة المال والجنس والقومية. وهذه خصيصة جاهلية ثابتة في كل مرحلة من مراحل الجاهلية قديماً وحديثاً.

ب ـ نظرة صراع ودمار

بالنحو الذي مرّ بيانه في بحث نظرية المؤامرة، والنظرة التي تعتمد على فلسفة القوة واللذة والمنفعة والغريزة لا يمكنها إلاّ أن تكون نظرة صراع ودمار واستعمار وحروب وقهر وغلبة.

ج ـ نظرة تفكيكية

إنّ النظرة الأرضية نظرة تفكيكية، بمعنى أنها تؤكد عـلى تـفكيك الإنسـان

وتجزئته إلى أبعد حد ممكن، فهي تؤدي إلى التفكيك بين الرجل والمرأة عبر تدهور الأُسرة وانهيارها، وإلى التفكيك بين الفرد والمجتمع عبر التأكيد على المفهوم العلماني القائل بأنّ الدين والأخلاق قيم فردية لا شأن لها بالمجتمع الذي يجب أن تسوده قيم القوة واللذة والمنفعة، وإلى تفكيك المجتمع البشري بحسب قبائله وقومياته وأوطانه. وإلى تفكيك الإنسان إلى غريزة يتم تبنيها كمحور في الشخصية الإنسانية وعقل تتجاهل أحكامه الداعية إلى الحق والخير والعدل والكمال.

بينما النظرة السماوية نظرة تجميعية تنظر للإنسان وتخاطبه دائماً بما هو وحدة نوعية واحدة، لا بما هو رجل وامرأة، ولا بما هو فرد ومجتمع، ولا بما هو عربي وغير عربي، لأنها معنية بإنسانية الإنسان قبل ذكورته وأُنوثته وفرديته واجتماعيته وعربيته وغير عربيته، ولذا فالقرآن حينما يذكر الإنسان ويخاطبه أنما يخاطب انسانيته التي هي عنوان شامل للفرد والمجتمع، للرجل والمرأة، للعرب وغيرهم والمجتمع الإسلامي لم يعرف هذه التشقيقات في تاريخه وإنما تلقاها من الغربيين الذين فرقوا بين الفرد والمجتمع لكي يسقطوا الدين، وفرقوا بين المرأة والرجل من أجل إسقاط الأُسرة، وفرقوا بين العروق والقوميات من أجل القضاء على الوحدة النوعية للبشر. وفرقوا بين الغريزة والعقل لكي يسقطوا القيم الأخلاقية للحياة.

وأسوأ حلقة في الاتجاه التفكيكي للنظرة الأرضية تتمثل في الفكرة العنصرية التي تمثل الجذر الطبيعي للشعور القومي والتي تقسم الناس إلى عروق راقية تستحق السيطرة والحكم وأُخرى منحطة تستحق الذل والهوان، وترى التقدم البشري رهيناً بالإذعان لسيطرة العرق الراقي، وأنّ كل تخلف تصاب به البشرية أنما يعود إلى خروج العروق المنحطة عن تلك السيطرة.

د ـ نظرة تجميدية للواقع

إذا ألقيت نظرة على الأركان الستة للجاهلية وجدناها تشترك في عنصر واحد هو تجميد الواقع على ما هو عليه، ومقاومة تطويره باتجاه الكمال، وتسمية هذه العملية بأنها نظرة واقعية للحياة، والحقيقة أنّ النظرة الواقعية ليست تلك التي تجمد الإنسان عند نقطة منحلة وإنما هي تلك التي تدفعه باتجاه ما يستطيع تحقيقه من الكمال، النظرة الواقعية ليست تلك التي تقول للإنسان: فكّر بمصالحك وغرائزك وكن قوياً حتى تغلب الآخرين، وإنما هي تلك التي تقول للإنسان: ابحث عن الحق والحقيقة والعدل والخير ستجد مصالحك وموقعك الحقيقي هناك.

إنّ الرأسمالية والقومية والبراغماتية والعلمانية والديمقراطية وإنكار القيم الخلقية مفاهيم متجانسة مع بعضها، وتتحرك جميعها باتجاه واحد هو تجميد الإنسان عند النقطة المادية الغريزية المنحطة وحجب نقطة الهدف المتمثلة بالكمال والأخلاق والعدل والخير والحق عنه؛ لأنها النقطة التي تعجز المفاهيم المادية القاهرة عن إدراكها فضلاً عن التحرك باتجاهها والوصول إليها، فترى سلوكها الطبيعي في أن تتحرك في النقطة المادية المنحطة وتنكر نقطة الكمال، وتنكر بالتالي الدين وتحارب الإسلام الذي يتمتع بقدرة خلاقة على إدارك نقطة الهدف وتحريك الإنسان باتجاهها وإيصاله إليها.

هذه رؤية نقدية مختصرة وكلية عن الحضارة الغربية ومقولاتها الاساسية، وقد اتضح أنّ هذه الحضارة تمثل المرحلة الراهنة من الحضارة الأرضية التي لا يمكن إلاّ أن تكون حضارة جاهلية سيئة الأثر على حياة الإنسان ومصيره وحياته، ولا تنطوي بحد ذاتها على شيء إيجابي، وما يقال عن وجود محاسن ومساوئ فيها كلام غير دقيق؛ لأنّ الحضارة بالمعنى الذي نريده ونتكلم عنه هو ما يعود إلى علاقة الإنسان بالإنسان لا إلى علاقة الإنسان بالمادة، نريد أن ننظر كيف كان تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان؟ كيف كانت علاقة الرجل بالمرأة؟ كيف

كانت علاقة الصغير بالكبير؟ كيف كانت علاقة القوي بالضعيف؟ كيف كانت علاقة الحاكم بالمحكوم؟ كيف كانت علاقة الغني بالفقير؟ كيف كانت علاقة الأُمم والشعوب والأُسر والقبائل مع بعضها؟

لأنّ سعادة الإنسان وكماله مرتبطان بهذا الجانب بالدرجة الأساس، فالإنسان الذي يعيش مع الرسول(ص) ويتربى على يديه هو إنسان سعيد وكامل وإن عاش معه في خيمة في الصحراء، والإنسان الذي يعيش مع شارون وبوش وهتلر ويكون على غرارهم هو إنسان شقي وإن عاش في البيت الأبيض، وهذا لا يلغي الحاجة إلى التطور المادي والتكنولوجي الذي بوسعه أن يجعل الإنسان أكثر سعادة ورفاهية، وإنما المقصود أنّ مقولة السعادة والكمال ترتبط بالجانب الإنساني الأخلاقي ارتباطاً جوهرياً بحيث لا سعادة ولا كمال بدونه، ويستطيع الإنسان أن يكون كاملاً وسعيداً سواء عاش في القرن الميلادي الأوّل أو الأخير.

والحضارة الغربية شأنها شأن كل حضارة أرضية أُخرى عاجزة عن تحقيق تقدم في هذا المجال، لا تستطيع أن ترقي علاقة الرجل بالمرأة وتجعلها علاقة منضبطة في إطار أخلاقي إنساني ينقذها من الوقوع في الصورة البهيمية، ولا تستطيع أن ترقي علاقة القوى بالضعيف وتنقذها من الوقوع في صورة التكالب وشريعة الغاب، ولا تستطيع أن ترقّي علاقة الحاكم بالمحكوم وتنقذها من صورة التحايل على المحكوم واستحقاره واضطهاده والتلاعب بالرأي العام، ولا تستطيع أن ترقي علاقة الغني بالفقير وتنقذها من الوقوع في صورة الاستغلال الرأسمالي الجشع، ولا تستطيع أن ترقي صورة العلاقات بين الأُمم والشعوب والدول وتنقذها من الوقوع في صورة الاستعمار والعنصرية وحق الفيتو والعولمة والنظم الامبراطورية، ولا تستطيع أن ترسم لها صورة راقية كالتي يرسمها القرآن الكريم

أمة واحدة وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[1].

أما مسألة العلم والتكنولوجيا فهي ليست نتاجاً للحضارة الغربية، وإنما هي نتاج للمسيرة البشرية من كل الشعوب والأُمم ومن كل الأزمان والأدوار التاريخية، بل إنّ الحضارة الغربية ـ ككل حضارة أرضية أُخرى ـ كانت وبالاً على التكنولوجيا والتطور العلمي، فالبشرية تنتج تكنولوجيا وعلوماً وصناعات، والحضارة الغربية تأتي وتسخّر هذه الإنجازات في الحروب والدمار والصراع.

أما مسألة الديمقراطية فهي وإن كانت تتسم بظاهر جذاب لكنها في الحقيقة لا تمثل الحل الذي يسعد الإنسان، وقد تمسك الغربيون بهذا الحل؛ لأنه الحل الوحيد أمام إنسان يعيش في إطار حضارة مادية أرضية ولأنهم لا يملكون نظرة معنوية للحياة، ولا يملكون قدرة على التوصل إلى الحل الصحيح والمطلوب، وكيف تكون الديمقراطية حلاً صحيحاً للمسألة السياسية في حياة الإنسان وقد تحولت إلى ستار تختفي وراءه الطبقة الرأسمالية التي تسلطت على كل شيء في البلدان الغربية وقادت هذه البلدان باتجاه استعمار الشعوب الأُخرى من أجل أطماعها وبحجة نشر الديمقراطية في العالم؟

لأنّ الديمقراطية بالمفهوم الغربي تعني حكومة الواقع القائم الفعلي بغض النظر عن مسألة الحق والباطل والشر والخير والعدل والظلم، وحيث إنّ الواقع القائم هو واقع رأسمالي يتغلب فيه القوي على الضعيف والغني على الفقير أصبحت النتيجة العملية هي أنّ الديمقراطية تعني حكومة الرأسمالي القوي على سائر الشعب، وحكومة الأقلية الرأسمالية للأكثرية المسحوقة، وبالتدريج تطورت هذه الصورة إلى حكومة الرأسمالي على العالم من خلال الصيغة الاستعمارية، وأصبح الرأسمالي يمثل

---

(١) المؤمنون: ٥٢.

نقطة الشر التي تواجه البشرية بأسرها وتقودها نحو الدمار والأسلحة النووية وحرب النجوم. وقد أدركت البشرية الآن خطر هذا الرأسمالي الشرير عليها، وهاهي تبحث عن الخلاص من خلال النزوع نحو القيم المعنوية والاتجاه نحو الإسلام، ولما أدرك الرأسمالي الشرير ذلك أنتج نظرية تقول بصراع الحضارات من أجل أن يقضي على الحضارة الإسلامية التي يراها حالة جنينية متوثبة ذات مستقبل خطير عليه، ولكي لا يسمح للبشرية أن ترى غيره كما كان فرعون يقول لأهل زمانه: ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾[1].

والرفاهية التي يعيشها الإنسان الغربي لم يأتِ بها الرأسمالي من جيبه ولا من عرق جبينه وإنما هي ثروات وخيرات العالم الإسلامي نهبها منه وأعطاها للإنسان الغربي حتى يقنع هذا الإنسان بأنّ النظام الرأسمالي يجلب له الخير والرفاهية، وأنّ مصيره ومستقبله يتمثلان باستمراره، وحتى يتاح له تعبئة الرأي العام الغربي ضد العالم الإسلامي.

وكذا مقولة حقوق الإنسان التي يتنعم بها الإنسان الغربي في ظل النظام الرأسمالي لم تتولد من خصوصية أيديولوجية ايجابية فيه، وإنما جاءت من عامل الاستقرار السياسي التي ينعم بها الغربيون منذ أكثر من قرن من الزمان وحتى الآن، فإنّ استقرار حكومة الرأسمالي على الشعب هناك المتأتية من رفاهية مسروقة من العالم الإسلامي، والناشئة من شعور الإنسان الغربي بالرضا تجاه حياة يراها أفضل من حياة الأُمم الأُخرى، بما يشبع لديه مشاعر الاستعلاء العنصري والهيمنة السياسية على الآخرين، هذا الاستقرار الراسخ عبر فترة زمنية طويلة أدّىٰ إلى سيادة القانون وحياة قانونية راسخة يفتح الإنسان الغربي عينيه عليها منذ نعومة

---

(١) غافر: ٢٩.

أظفاره وحتى وصوله إلى قبره مما أدى إلى شخصية منضبطة.

وهذا هو الجواب الذي نقدمه عن السؤال المحيّر الذي يجعل الكثير من المسلمين يتساءلون: لماذا يتمتع الإنسان الغربي بالانضباط أكثر مما يتمتع به الإنسان المسلم رغم اعتقادنا بكفر الغربي وماديته وعدم وجود نظرة أخلاقية لديه ورغم أنّ المسلم إنسان متدين وله عقيدة رائعة وشريعة مقدسة؟

وربما أدى هذا السؤال إلى انحراف الكثير من المسلمين واعتقادهم خطأً بأنّ الإسلام شيء لا أهمية له في حياة الإنسان، وأنّ السعي لجعله مشروعاً لنظام اجتماعي شامل هو أمر مبالغ فيه.

فإنّ الفرق بين الإنسان الغربي والإنسان المسلم في هذا الجانب يعود إلى عامل الاستقرار السياسي من جهة وثبات النظرة الأيديولوجية والقيمية من جهة ثانية. وقد اتضح أنه لا يعود إلى جهة إيجابية في النظرة الليبرالية والأيديولوجية الغربية ولا إلى امتياز عنصري في الإنسان الأوروبي. وإنما يعود إلى أن الإنسان إذا كان مادياً في حياته ونظرته للحياة لا يستطيع أن يجد حلاً للمسألة السياسية أفضل من الديمقراطية التي يجدها الغربي الخيار الوحيد في حياته، والعامل الأساس في الاستقرار يعود إلى عدم وجود منافس داخلي ولا خارجي للديمقراطية، هذا هو العامل الأوّل للاستقرار، والعامل الثاني هو ما يجده الغربي من رفاهية مسروقة جلبها له الرأسمالي من خارج الحدود بنحو أشبع عند الإنسان الغربي مشاعر الاستعلاء والهيمنة على الآخرين، وجعله يحس بأنّ مصيره ومستقبله يتمثل باستمرار النظام الرأسمالي وبالصيغة الديمقراطية. فحصل بذلك على استقرار سياسي، واستقرار أيديولوجي وقيمي مما جعل حياته تسير على منهج اجتماعي وسياسي ثابت عبر أجيال متعددة، وحتى الحربان العالميتان لم تتمكنا من زلزلة هذا الاستقرار، فواصل الغربي حياته بعد الحربين بالنمط الذي

بخلاف الإنسان المسلم الذي سلب الرأسمالي الشرير منه كلا النوعين من الاستقرار، فالاستقرار السياسي مفقود؛ لأنه ومن وراء البحار والمحيطات قد تلاعب بحياته السياسية، وجعلها مضطربة متقلبة لا تستقر على صورة معينة، وكمثال على ذلك نجد العراق قد تقلب في فترة ١٠ سنوات ما بين عامي ١٩٥٨ - ١٩٦٨ بين أربعة انقلابات عسكرية ناجحة تخللتها ثلاثة انقلابات عسكرية فاشلة، وبين عام ١٩٧٩ و ٢٠٠٣ عاش تقلبات حادة تمثلت بثلاث حروب وديكتاتورية مقيتة قتلت من الشعب العراقي عدّة ملايين، وهذه الاضطرابات الحادة والمتلاحقة ما كانت تحصل لولا تدخل الرأسمالي الغربي الشرير بحياة العراقيين، الأمر الذي يترك أثره وبلاشك على مجمل الشخصية العراقية ويجعلها موسومة بالحدّة وعدم الاستقرار.

وكذا الاستقرار القيمي والأيديولوجي مفقود؛ لأنّ الإنسان المسلم عاش في محيطه طيلة القرن الماضي حضارتين متصارعتين، حضارة إسلامية يجدها في بيئته ومسجده وقرآنه وتاريخه، وحضارة غربية معاكسة تماماً في القيم والمفاهيم يجدها مفروضة عليه في المدرسة وأروقة الدولة المختلفة، ومن الطبيعي أن لا تكون له شخصية متكاملة وهو يعيش في داخله منظومتين متضادتين من القيم والمفاهيم.

وفقدان عامل الاستقرار السياسي والأيديولوجي هو السبب في ظهور شخصية لا تحمل ملامح الغرب ولا ملامح الإسلام، وستبقى كذلك ما دام الاستقرار مفقوداً. ومادام الرأسمالي الغربي يصر على أن يدير معركته معنا من داخل البلاد الإسلامية ومن خلال عامل اللااستقرار في كل شيء. وبواسطة سياسات ومناهج وتدخلات يفرضها علينا فرضاً.

ومن الغريب أن نجد بعض المسلمين المتغربين مخدوعين بحقوق اللجوء التي تعطى لهم في الغرب، متصورين أنّ ذلك مظهر لعدالة الحياة في الغرب، وأنصاف

الغربيين للأجانب، بينما هو في الحقيقة مظهر من مظاهر الظلم الرأسمالي لهم، فعلى المتغربين أن يتساءلوا: لماذا هذا التغرّب؟ وماهي أسبابه؟ ولماذا يشتاق المسلم إلى ترك بلاده والعيش في دار الغربة؟ ولماذا يتدخل الرأسمالي الغربي في حياتنا ويفرض علينا حكّاماً يحكموننا بالحديد والنار، ولا يحترم إرادتنا داخل بلداننا ثم يعطينا حقوق اللجوء في الغرب؟

فإنّ هذا اللون من المعاملة يعني أنّ الغرب لا يريد إنّ يعترف بحقوقنا السياسية في بلادنا وهو يصادر إرادتنا السياسية ويحبذ لنا الهجرة إلى الغرب كتكريس لهذا الموقف، ولو كان هناك إنصاف وعدالة لتركنا وشأننا واحترم إرادتنا السياسية في بلداننا وسوف لا نحتاج إلى حقوق اللجوء ولا إلى وكالة غوث اللاجئين، لماذا يوجدون الحريق في دارنا ولماذا يؤسسون في دارهم دائرة لإطفاء هذا الحريق؟ ماهذه الجريمة المقرونة بالرياء والإحسان الكاذب؟

وكتأكيد على دور الاستقرار في إنجاز شخصية إنسانية مستقرة ومنضبطة نجد إنّ مدرسة أهل البيت(ع) قد آمنت بأنّ مرحلة ما بعد النبي(ص) هي مرحلة الإمامة الاثني عشرية المعصومة التي تمتد إلى قرنين ونصف من الزمان، والتي تعني إدارة الدورة الحضارية الأُولى للإسلام تحت إشراف قيادة ربانية منتخبة سماوياً ليتسنى للبشرية أن تمارس الدورات اللاحقة في ضوء المران العلمي والعملي الذي تلقته على أيدي أئمة أهل البيت الاثني عشر(ع) في الدورة السابقة.

الثورة والمقاومة في محور الإمامة

الحديث عن الإمامة حديث عن القيادة السياسية والعقائدية في الإسلام، وعن رمز الصمود والمواجهة مع الباطل، وجوهر الاختلاف بين السنة والشيعة في مسألة الإمامة يعود إلى أنها هل تتم بنصب إلهي أم بانتخاب الأُمة؟ وقد استدل علماء الإمامية على نظرية النصب الإلهي بأنّ الإمامة لطف، وهو واجب في عدل الله سبحانه وتعالى، ومعنى اللطف عندهم ما يقرب العبد من الطاعة ويبعده من المعصية، فلا يناسب عدل الله سبحانه ورحمته أن يترك العبد يقف في منتصف الطريق بين الحق والباطل، ومن لوازم عدله ورحمته أن يقرّب عباده من الحق ويبعّدهم من الباطل من خلال تنصيب رموز للهداية، شأنهم تقريب الناس من طاعته وإبعادهم عن معصيته من خلال ما يقومون به من عملية تطبيق الإسلام تطبيقاً صحيحاً كاملاً ومستقيماً، وهذا المعنى مماثل لما يجري الحديث عنه في الثقافة الحديثة عن دور البيئة في تقريب الناس من الولاء لدولة وحضارة معينة وإبعادهم عنهما، ومماثل أيضاً لما يذكر في الفقه من حرمة التعرب بعد الهجرة، باعتبار أنّ التعرب خروج من بيئة إسلامية تقرب الناس من الطاعة وتبعدهم من المعصية إلى بيئة غير إسلامية تبعدهم من الطاعة وتقربهم من المعصية.

فالإمامة هي قيادة الواقع الإسلامي باتجاه الحق والعدل والخير ومقاومة الشر والباطل والظلم في الداخل والخارج، ومن هنا تنبع روح المقاومة في خط الإمامة، وتتجلّى هذه الروح من خلال المعالم التالية:

١ ـ الوحدة الإسلامية عند أهل البيت(ع)

لقد وقف أهل البيت موقفاً رائعاً في محنة شديدة التعقيد بين حاكم فاسد جائر

من جهة، ومذاهب فقهية وكلامية لا تحسن التعبير عن وجـهة النـظر الإسـلامية الصحيحة في الأُمور؛ لأنها كانت عاجزة عن أداء وظيفة رسالية كالتي حملتها على عاتقها من جهة ثانية، وبين أُمة اختلط عليها الحابل بـالنابل ولم تـميز صـحيح الأُمور والمذاهب والقيادات من الخاطئ فيها من جهة ثالثة، ورسالة إلهية خاتمة لا رسالة للبشرية بعدها، ولابدّ من حفظها من الانحراف وأداء حقها مـن الدعـم والتوضيح ودفع الشبهات والملابسات من جهة رابعة، وتجربة نـبوية لابـد مـن تواصـلها واسـتمرارهـا وحـمايتها مـن الأخـطار والمـنزلقات والانشـقاقات والانحرافات من جهة خامسة. وكان عليهم أن يعطوا كل شق من هـذه الشـقوق الخمسة ما يستحقه ضمن موازنة رسالية دقيقة تضع كل شيء في موضعه وبالمقدار الذي يناسبه، فوقفوا من الحاكم الجائر الموقف الذي يستحقه، وبـيّنوا المـذهب الصحيح في الفقه والكلام ليردعوا عن المذاهب الخاطئة، وعملوا عـلى حـماية الأُمة والرسالة الإلهية والتجربة النبوية، وقاموا بذلك كله في إطار ستراتيجي ثابت يتمثل بالوحدة الإسلامية التي كانوا يحرصون عليها أشد الحـرص مـن مـنطلق المسؤولية التي يتحملونها تجاه الإسلام والمسلمين، المخطئ مـنهم والمـصيب، والحاكم منهم والمحكوم، الظالم منهم والمظلوم المستقيم منهم والمنحرف، فـهم أئمة الأُمة كلها، وليسوا أئمة اتباعهم فقط، وكان منهج الوحدة الإسلامية شـاملاً يلتزمون به ويدعون اليه في حقول السياسة والعبادة والفـقه والكـلام، فـالإمام علي(ع) كان يرى نفسه الخليفة الشرعي، ولكنه في نفس الوقت وقف من خلفاء زمانه موقفاً نابعاً من رعاية الوحدة الإسلامية، الأمر الذي جعل أتـباع مـدرسة الخلفاء يتصورون خطأً أنّ الإمام علي(ع) لم يكن معارضاً للخلفاء، والصـواب المؤكد أنه(ع) قد اقام الحجة التاريخية الشرعية على خلفاء زمانه وبيّن خطأهم وأثبت بما لا يدع مجالاً للشك فيه أنَّهُ الخليفة الشرعي بعد رسول الله(ص) كما هو

واضح من الخطبة الشقشقية وغيرها من خطب نهج البلاغة، وبعدما أتـم الحـجة القاطعة انصرف إلى حماية الوحدة الإسلامية، وهذا هو الموقف الرسالي المتوازن والرائع الذي يجب أن يحتذى من كل مسلم في كل زمان ومكان، وخاصة مسلمي هذا الزمان، والإمام السجاد(ع) الذي عاش أحداث كربلاء وشـاهد مـقتل ابـيه واخوانه وابناء عمومته وسبي نسائهم كان يقرأ دعاء الثغور للجيوش التي كـانت تقاتل الكفار في الفتوحات رغم أنّ قيادة هذا الجيش هي المتورطة بدماء أهـل بيته قبل سنوات.

وسار أئمة أهل البيت(ع) على نهج التقية في علاقتهم مع المذاهب الإسلامية الأُخرى من أجل حفظ الوحدة الإسلامية، فنشروا المذهب الصحيح فـي الفـقه والعقيدة من جهة وجعلوا مبدأ التقية طريقهم لحفظ الوحدة الإسلامية مـن جـهة ثانية، فكانوا لا يظهرون رأيهم أمام أفراد يخالفونهم في الرأي والاتجاه؛ لئلا يسيء هؤلاء فهم رأي الأئمة ويتخذونه سبيلاً للشقاق بين الأُمة، وهذا هو مبدأ التقية في الفتوى عندهم(ع)، كما كانوا يحثون المؤمنين على حضور الجماعات والمساجد مع إخوانهم الذين يخالفونهم في الرأي الفقهي والكلامي، ويدعونهم إلى المشاركة في أفراحهم وأتراحهم، وهذا هو مبدأ التقية في العبادات في مدرسة أهل البيت(ع)، وقد أساء المتشنجون فهم هذا المبدأ الايجابي الرائع وراحوا يشنعون على مدرسة أهل البيت(ع) بأنها مدرسة النفاق وإظهار شيء واستبطان شيء آخر، فوقعوا في شناعة الجهل والتعصب الذميم وقد رفض الأئمة(ع) مسلك الزيدية والخوارج في تأسيس دويلات مستقلة هنا وهناك، وكان منهجهم السياسي يقوم على اعتبار أنّ الأُمة كلها أُمتهم، وأن لا ينحصروا في محيط جغرافي محدود ومنعزل، وأنّ تسلط الجائرين على الدولة لا يعني أنّ الدولة قد أصبحت دولة الجائرين، بل هي تبقى دولة الإسلام ورمز المسلمين، وما فيها من السلبيات يعود إلى أعمال الجائرين، ووظيفة المسلمين تتمثل

دائماً في إصلاح ما يفسده الجائرون والدفاع عن الكيان الإسلامي ضد الأخطار الداخلية والخارجية، وان يقفوا صفاً واحداً كالبنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضاً.

وكان المبدأ السياسي للأئمة(ع) يتمثل في تنصيب الفقهاء للولاية والقضاء والإفتاء داخل المحيط الإسلامي العام، وعلى الفقهاء أن يمارسوا هذا المنصب بالمقدار المتاح لهم ضمن وحدة الكيان السياسي الإسلامي، ولا يتحولوا إلى حالة انفصالية داخله. وهذا ما تدل عليه مقبولة عمر بن حنظلة الذي سأل الإمام الصادق(ع) عن حكم الرجوع إلى قضاة الجور، فقال له الإمام(ع): **«من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذ سحتاً، وإن كان حقاً ثابتاً له؛ لأنه أخذه بحكم الطاغوت وما أمر الله أن يكفر به، قال تعالى: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا ان يكفروا به﴾** قلت: فكيف يصنعان؟ قال: **ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً، فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه، فإنما استخف بحكم الله وعلينا رد، والراد علينا الراد على الله وهو على حدّ الشرك بالله»**[(١)].

فهذا الحديث يدل على أنّ الأئمة(ع) كانوا يعملون على انشاء دولة داخل دولة وما كانوا في الوقت نفسه يمثلون حالة انفصالية، وهذه أرقىٰ صورة للجمع بين التزام موقف الحق ورفض الجور من جهة وحماية الكيان السياسي الواحد للمسلمين من جهة ثانية، وحفظ موقع الأئمة كقيادة شرعية لكل الأُمة الموافق منها والمخالف من جهة ثالثة.

والوحدة الإسلامية مشروع أصيل يبدأ من حد أدنى وينتهي بحد أعلى، الحد

---

(١) وسائل الشيعة ٢٧: ١٣٦ ـ ١٣٧، ط: آل البيت.

الأدنى هو عدم جواز التكفير بين المسلمين، فكل من نطق بالشهادتين مسلم، له حقوق الإسلام وإن كان متظاهراً بهما، ولا يخرج من الملة ولا يحكم بارتداده عن الإسلام؛ لأنّ المسلم لا يكفّر وإن ارتكب ما يوجب الكفر، والحدود تدرأ بالشبهات، ولعل الشخص قد ارتكب ذلك لأجل شبهة أو تقليد أو اجتهاد، أو لم يكن ملتفتاً إلى أنّ ما قام به يؤدي إلى الكفر، وما لم يتم التحقيق قضائياً ويثبت عدم وجود سبب من هذه الأسباب لا يجوز اتهام الشخص بالكفر، فالاتهام يتم بعد التحقق والإثبات قضائياً عن هذه الحالات، وهذا ما يجعل الارتداد حالة فرضية قد لا تتحقق في تاريخ الإسلام كله إلاّ بعدد الاصابع، منها ما حصل في زماننا عندما حكم علماء الإسلام وفي مقدمتهم الإمام الخميني(رض) بارتداد سلمان رشدي عندما ثبت لهم ذلك بأدلة كافية.

وما ذكرناه يمثل وجهة نظر المذاهب الإسلامية كافة حتى تلك الموغلة في التكفير إلىٰ أقصىٰ حدٍّ، حيث يفرقون بين حكم النوع والعمل الذي يوصف بالكفر والشرك وبين حكم الشخص الذي لا يصح وصفه بذلك بمجرد ارتكابه ذلك العمل.

والحد الأوسط من الوحدة الإسلامية وجوب التناصر بين المسلمين، وتطبيق مبدأ ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان﴾[1].

والاشتراك في جبهة واحدة لأداء الوظائف الإسلامية المشتركة في نشر الإسلام والدفاع عنه ودفع العدو المشترك، والتقريب بين المذاهب الإسلامية والحد الأعلى هو الانخراط في كيان سياسي واحد وقيادة سياسية واحدة تحصل بصفة الإلزام والاحترام من قبل المسلمين كافة بغض النظر عن الفوارق الإقليمية والقومية والمذهبية؛ لأنّ الحديث عن كيان اسلامي واحد هو حديث عن كيان

(١) المائدة: ٢.

عقائدي وحقوقي واحد، ومقولة الحقوق في الإسلام تدور حول محور عقائدي يتمثل بالشهادتين والتقوى ولا تدور حول عنوان إقليمي ولا قومي مذهبي، فالمسلم له حقوق بملاك كونه مسلماً وليس بملاك كونه عراقياً أو عربياً او شيعياً أو سعودياً أو باكستانياً أو سنياً.

والشيعي لا يريد إقامة دولة شيعية، كما أنّ السني لا يريد إقامة دولة سنية، والمطلوب المشترك لدى الطرفين هو إقامة دولة تجمع المسلمين في إطار واحد وتطبق الشريعة الإسلامية بعنوانها العام المشترك بين المسلمين، ولا مانع من ان يلتزم كل مسلم بمذهبه الفقهي والكلامي، ولا مانع من أن يؤلف ويكتب ويخطب ويدعو لما يعتقده صحيحاً في الفقه والكلام في إطار الاحترام والآداب الإسلامية وحفظ وحدة المسلمين السياسية مادامت الدولة القائمة ليست طائفية، ورئيسها ينتخب بصفته فرداً مسلماً في هذه الأُمة وقد حظي بأكثرية الناخبين بغض النظر عن كونه سنياً ام شيعياً وهو ملتزم بتطبيق الشريعة الإسلامية والدستور ومجلس النواب.

وهذا الذي يقال عن الأُمة ككل يمكن تطبيقه في بلد يعيش ثنائية مذهبية متقاربة بحيث لا يحظىٰ أحد الطرفين بأغلبية مطلقة مما يعرض وحدة البلد إلى خطر التجزئة، فنعمل بهذه الصيغة من أجل التغلب على التجزئة وتحويل الضعف إلى قوة، والمحنة إلى انتصار.

٢ ـ الرابطة الكاملة بين القائد والأمة

إنّ الرابطة التامة بين الأُمة والقائد هي الرابطة الشاملة لجوانب الحس والعقل والعاطفة، فإذا اختل جانب من هذه الجوانت اختلت الرابطة بين الطرفين، الزهد هو الرابطة الحسية بين القائد والأُمة، وإدخال الإمامة في حيز العقيدة وأنها لطف من الله

سبحانه ليقرب العبد إلى طاعته يمثل الرابطة العقائدية بينهما، وضرورة أن تقابل الأُمة قائدها وأئمتها بالمحبة طبقاً لقوله تعالى: ﴿قل لا اسألكم عليه اجراً إلا المودة في القربى﴾[1] تمثل الرابطة العاطفية بينهما، الله يبادر الأُمة بالإمامة فتتكون الرابطة العقائدية، والقائد يبادرها بالزهد فتتكون الرابطة الحسية، والأُمة تبادر القائد بالمحبة فتتكون الرابطة العاطفية، وبذلك تتكون الرابطة المتكاملة التي تنصاع أمام إرادتها الصخور وتتحطم على صخرتها كل التحديات، والقيادة التي لا تكون جزءاً من عقيدة الأُمة، أو لا تكون بينها وبين الأُمة رابطة حسية أو عاطفية قيادة عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئاً لنفسها فضلاً عن أن تفعل شيئاً للأُمة أو للإسلام.

وهذه العلاقة الثلاثية بين الله والقائد والأُمة تصل إلى ذروتها حينما تتحول إلى حالة صلاة متبادلة بهذه الأركان الثلاثة، الله سبحانه يصلّي على هذه الأُمة ليخرجها من النور إلى الظلمات، والأُمة تصلي على الله لتعبده وتستلهم منه القوة والعزة، والله يصلّي على النبي(ص)، والنبي يصلّي لله، والأُمة تصلي على نبيها، والنبي(ص) يصلي على أُمته ليمنحها السكينة والاطمئنان ﴿وصلِّ عليهم ان صلاتك سكن لهم﴾[2]، وكل طرف يصلي على سائر الأطراف، وهذا أرقىٰ تطور تصل إليه الأُمة الإسلامية حينما تكون طرفاً ثالثاً في معادلة مع الله سبحانه والنبي(ص)، فتصبح أُمة مقدسة.

ويحدثنا التاريخ أنّ أهل البيت(ع) قد أحسنوا العلاقة حتى مع المارقين عليهم. فكان الإمام الحسين(ع) يبكي على الجيش العازم على قتله؛ لأنه سيدخل النار بسببه.

وما ورد من اللعن لقتلة الحسين (ع) مسألة عقائدية تحصن بها الأُمة نفسها من

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) التوبة: ١٠٣.

الوقوع في مثل هذا المصير السيّئ، وهي استمرار للبراءة من أعـداء الله واعـداء رسوله، لأن الولاية لله ورسوله لا تتم إلا بالبراءة من أعدائهما، ومـن لا يـحسن البراءة لا يستطيع أن يحسن الولاية، وما رود من اللعن على أُمة قتلت الحسين(ع) وأُمة سمعت بذلك وأُمة رضيت به يراد به الأُمة بالمصطلح القرآنـي، فـإنّ الأُمـة بالمصطلح القرآني هي: «كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد او زمان واحد او مكان واحد...»[1]، وبالتالي فاللعن خاص بمن قتل الحسين(ع) ومن رضي بقتله وهو لا يشمل الأُمة الإسلامية.

٣ ـ القيادة العاشورائية

من الأخطاء الشائعة أنّ ثورة الإمام الحسين(ع) كانت منهجاً من مناهج أهل البيت(ع) في إصلاح الأُمة، فللائمة عدة مناهج أحدها المنهج الثوري الحسيني، ونحن في هذا الزمان وفي أي زمان آخر مخيّرون بين هذه المناهج.

والصحيح أنّ الأئمة (ع) لهم مناهج متعددة، ولكن الحسين(ع) لا يمثل واحداً من هذه المناهج، وإنما هو القاعدة والأساس لما عداه، ولولا الحسين(ع) لما كانت هناك مناهج، وما ورد في الأخبار والأحاديث والتواريخ عن بكاء الأنبياء(ع) وذكرهم للحسين(ع) وبكاء النبي(ص) عليه، وبكاء أهل البيت عليه، من جاء منهم قـبله ومن جاء بعده، وتأكيد الجميع على إحياء الشعائر الحسينية، ومعنى وراثته للأنبياء وللرسول(ص) وللزهراء ولعلي(ع) هو أنّ الحسين(ع) المنهج الأساس للأنبياء(ع) والأئمة(ع)، لأنّ المفكر لا يبدع والعامل لا ينتج والفلاح لا يزرع والحياة لا تقوم لها قائمة ما لم يكن في الثغور حارس يحرس الأُمة ويوفر لها الأمن والأمان، والإمام الحسين(ع) كان الحارس الذي ضمن للأُمة أهدافها واستقامتها، ولولاه لانحرفت

---

(١) مفردات الفاظ القرآن، الراغب الاصفهاني: ٨٦، ط: ذوي القربى.

الأُمة كما انحرف اليهود والنصارى، ولذهبت الرسالة الخاتمة وجهود النبي(ص) وأهل البيت وسائر الصحابة أدراج الرياح.

وإحياء الشعائر الحسينية، واستحضار القضية الحسينية في كل عام وشهر ويوم، هو استحضار للمنهج الذي تضمن به الأُمة أهدافها واستقامتها على طول الخط، والمنهج الذي تصبح به الأُمة أكبر من الأزمات والتحديات مهما اشتدت، والمنهج الذي يصنع من كل فرد حسينياً صغيراً ويكون المجموع حالة عاشورائية تنتصر بالدم على السيف لو لم يكن لديها إلاّ الدم. وقد مضى في الفصل الثاني أنّ المنهج الثوري الحسيني هو المنهج المعتمد في الإسلام والمطبق من قبل الأئمة(ع).

ونحن الآن وطبقاً للعقيدة المهدوية نعيش العصر العاشورائي الذي يسبق العصر المهدوي، بحكم أنّ الإمام المهدي(ع) يخرج بشعار: يا لثارات الحسين، وهو شعار يدل على أمرين متلازمين:

أ ـ إنّ الحسين(ع) ليس أمراً من مخلفات الماضي، وإنما هو أعلى رمز ثوري في التاريخ بحيث إنّ الإمام المهدي سيعتصم به وسيتخذه شعاراً له، وإنّ الإمام الحسين(ع) يمثل الرمز التاريخي الخالد لصراع الخير والحق مع الشر والباطل على مر الدهور وكرّ العصور، وإنّ الإمام المهدي يرفع شعار الحسين كتعبير تاريخي عن انعقاد محكمة العدل وظهور الحق، وإرجاعه إلى أهله المظلومين المضطهدين الذين سيكون الحسين(ع) الشعار والرمز التاريخي المعبر عن حقانيتهم ومظلوميتهم عبر التاريخ.

ب ـ إنّ قضية الحسين (ع) قد انتشرت في آفاق الأرض شرقاً وغرباً بحيث إنّ البشرية كلها قد عرفت هذه القضية وتجاوبت معها وانطوت تحتها، بما يعني أنّ عصراً عاشورائياً سيسبق العصر المهدوي، ونحن في هذا الزمان بدأنا نعيش إرهاصات العصر العاشورائي، حيث نجد أنّ اسم الحسين(ع) قد انتشر، وأنّ الناس ينادون

باسمه الشريف في أمريكا وأوروبا وأفريقيا وآسيا وأُستراليا والأمريكيتين، وإنّ هذا الإرهاص قد اقترن بظهور العراق كقضية دولية أساسية، وربما ستشهد الأيام القادمة تصعيداً أكبر لها، وهذا الاقتران يعني أنّ العراق هو مركز العصر العاشورائي، وهذه المركزية ضرورية لتهيئة العراق ليكون مركزاً للدولة المهدوية.

وحينئذٍ فعلينا أن ندخل في العصر العاشورائي بكافة أبعاده، فتكون لدينا قيادة عاشورائية ونخبة عاشورائية ونساء عاشورائيات وجمهور عاشورائي وتسود الصبغة العاشورائية حياتنا كلها؛ لأنها صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة.

٤ ـ العقيدة المهدوية

تمثل العقيدة المهدوية التي يجمع المسلمون على الاعتقاد بها باستثناء الشاذ النادر الذي لا يُعبأ به أعلى مظهر عقائدي للمقاومة في الإسلام، وحينما تكون علاقتنا بالإمام المهدي(ع) علاقة انتظار، فهذه العلاقة بمثابة المصنع الذي يحول كل فرد في الأُمة إلى مهدي صغير يسير على نهج المهدي الكبير المنتظر، كما كانت الشعائر الحسينية مصنعاً يحوّل كل فرد في الأُمة إلى حسين صغير يسير على نهج الحسين الكبير، وفي عصور ما بين الحسين والمهدي أُمة ثورية بمنهج حسيني وقائد مهدوي، أقدامها ثابتة في كربلاء وعيناها تجولان في آفاق الأرض بحثاً عن المهدي المنتظر، وحالتها هذه تعني:

أ ـ التمسك بالأمل ومكافحة اليأس؛ لأنّ الأمل بداية الانتصار واليأس بداية الهزيمة.

ب ـ التمسك بالعدل كشعار وسلوك في الحياة؛ لأنّ الذي يبحث عن العادل الكبير يجب أن يلتزم بالعدل ويعدّ نفسه لأن يكون عادلاً صغيراً يرفض كل صور الظلم والعدوان التي تفرض عليه وعلى غيره كما يفعل العادل الكبير على مستوى البشرية.

ج ـ التمسك بنظرة مستقبلية كبيرة تصل إلى نهاية التاريخ وعدم الضياع في نظرة ضيقة وأُفق قريب يخدع الإنسان عن رؤية الحقيقة الكاملة والأهداف التامة.

د ـ التحلي بالشجاعة وعدم الخوف من القوة الظالمة مهما كانت كبيرة فالذي ينتظر إماماً يقول: **أخرج حين أخرج ولا بيعة لأحد من الطواغيت في عنقي**(١)، لا يمكن ان يكون صادقاً في انتظاره إذا كان خائفاً جباناً مذعوراً لا يعرف كيف يفكر.

هـ ـ مغالبة الواقع القائم إن كان فاسداً ورفض الاعتراف به مهما طال أمده، فالباطل إذا طال عمره لا يصبح حقاً، والحق لا يبطله الزمان، فمن يأتم بإمام يرفض الواقع القائم الممتد في حضارات متواصلة، لابد أن يتعلم درس الرفض للواقع الفاسد الذي يعيشه، ولا ينهزم أمامه بحجة النظرة الواقعية للأمور.

و ـ رفض كل نظرية تصور نهاية غير مهدوية للتاريخ، كالنظرية الأمريكية التي تصور للبشرية نهاية امريكية، والنظرية الماركسية التي تصور نهاية ماركسية.

ز ـ إنّ الذين يؤمنون بالمهدي(ع) وبصلاة نبي من أولى العزم خلفه يجب أن يدركوا دلالة ذلك بالنسبة لهم، فالزعامة في المنطق الإيماني مسؤولية وليست غنيمة ولا طعمة، وعلى الجميع أن يتعلموا درس التواضع والشعور بالمسؤولية من المسيح(ع) الذي سيذعن للقيادة المهدوية ولا يتشبث بكونه أسبق من الإمام المهدي(ع)، وأنه نبي من أُولى العزم و... الخ كما يتشبث الكثير من الناس في زماننا هذا بأن لهم ماضياً أكبر وأسبق، وأن على الآخرين أن يذعنوا لهم، هذا منطق الغنائم الشخصية وليس منطق المسؤولية الإلهية التاريخية، فالقيادة مسؤولية من يؤدي حقها، وليست غنيمة للفاشلين في أدائها، ومن يتعامل معها بروح الغنيمة أنما هو إنسان فاشل.

---

(١) الاحتجاج ٢: ٤٧١، ط: الاعلمي.

٥ ـ مرجعية الفقهاء في زمن الغيبة

عيّن الأئمة(ع) من بعدهم مرجعية للأُمة تحمل روح الإمامة ومزاجها العام لتكون حصناً يحمي الأُمة من التصدع ويدفع عنها التحديات والأخطار وينقذها من الوقوع في المزالق والمهالك.

وقد أمرنا الإسلام باتباع المرجعية الرشيدة الحائزة على الشرائط المطلوبة ودعانا إلى الارتباط الوثيق بها، باعتبارها الامتداد الطبيعي لمرجعية الرسول(ص) والقرآن الكريم، والأوامر التي تأمرنا باتباع الرسول(ص) أنما هي أوامر باتباع المرجعية التي عينها الله سبحانه وتعالى للبشر، والأوامر التي تأمرنا باتباع القرآن وتلاوته وحفظه والعمل بما فيه أنما هي أوامر باتباع المرجعية الإلهية والتثقيف بثقافتها وحفظ نصوصها والعمل بها والتشبع بمفاهيمها وأحكامها، وحينما يقول الرسول(ص): «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»، لا يريد بذلك الإشارة إلى ما عندهما من فضيلة العلم العزيز، وإنما يريد أن يبيّن للأُمة مرجعيتها التي عليها اتباعها، والانتهاء عما سواها، وكذلك حينما يقول الإمام علي للناس مرات عديدة: «**إسألوني قبل ان تفقدوني**» لا يقصد بهذا الكلام أن يباهي الناس بنفسه وإنما يريد أن يبين لهم أنه المرجعية الحقيقية الرشيدة لهم.

وفي زمان كزماننا هذا يحق للمسلمين أن يفتخروا أشد الافتخار بدين عَيَّنَ لهم المجتهد الفقيه الكفوء قيادة شرعية شاملة، في مقابل القيادات الثلاث التي عرفها هذا الزمان، وهي قيادة الرأسمالي الجشع الشرير، وقيادة العامل الشيوعي، وقيادة العسكري الذي يتحرك كأداة طيعة لإرادة الرأسمالي الشرير، فهذه قيادات لا تعبر عن محتوى إنساني رفيع وتنطوي على كل معاني الديكتاتورية، فالرأسمالي ديكتاتور يفرض إرادته على الناس من خلال ما يملكه من نفوذ اقتصادي، والعامل الشيوعي ديكتاتور بطبعه الأيديولوجي الصريح، والعسكري الذي يقود

الانقلابات العسكرية في العالم الثالث ديكتاتور صغير يتحرك بإشارة الديكتاتور الرأسمالي الكبير، بينما المجتهد الفقيه هو القيادة التقدمية الإنسانية الأخلاقية الكريمة الوحيدة في دنيا الإنسان، وهذا مَعْلَم من معالم الأطروحة الإنسانية التي يحملها الإسلام في الحياة والتي يريد بها أن ينقذ الإنسان من حضارة أرضية لا يمكنها إلاّ أن تحمل خيارات فاسدة.

وقد كان العلماء دوماً رمز المقاومة والخلاص والإنقاذ طيلة التاريخ الحديث، بدءاً من الشيخ موسى كاشف الغطاء والسيد محمّد المجاهد والسيد محمّد حسن الشيرازي، ومروراً بالشيخ كاظم الخراساني والشيخ محمّد حسين النائيني والشيخ فضل الله النوري والسيد حسن المدرس والشيخ مهدي الخالصي والسيد محمّد سعيد الحبوبي والسيد هبة الدين الشهرستاني والشيخ محمّد تقي الشيرازي والسيد أبي الحسن الاصفهاني، وشيخ الشريعة الاصفهاني، وانتهاءاً بالسيد محسن الحكيم والسيد حسين البروجردي والشيخ محمّد رضا المظفر، والسيد أبي القاسم الكاشاني والسيد موسى الصدر والشهيد الصدر الأوّل والشهيد الصدر الثاني والسيد محمّد حسين بهشتي والشيخ مرتضى المطهري والعلامة الطباطبائي، وعلى رأسهم جميعاً الإمام الخميني (رض)[١].

والمرجعية إطار شامل للمجالات العبادية والفكرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، فالفقيه مفتي يبين الأحكام الشرعية للأُمة، والفقيه مفكر يحصن عقيدة الأُمة من الانحراف، والفقيه قائد سياسي يرأس الدولة ويقود الحركات التحررية والثورية، والفقيه الامين الاقتصادي الذي تودع الأُمة قدرتها الاقتصادية عنده؛

---

(١) لمزيد من التفصل في أدوار هؤلاء الاعلام وتطور الحركة السياسية للمرجعية الإسلامية راجع كتاب اعلام القيادة والمرجعية لصاحب هذه السطور.

لكي تحافظ على استقلالها السياسي، والفقيه قائد عام للقوات المسلحة يعلن الجهاد عندما يلزم الأمر.

وليس المقصود بذلك أن يستولي رجل واحد على السلطات كلها، بل المقصود أن تجعل السلطات بأيدي أمينة قادرة على حفظها وأداء حقها، وإشاعة قيم الفضيلة التي من شأنها التشجيع على أن تتحول المرجعية من إنسان فاضل واحد إلى أُمة فاضلة مؤهّلة لإدارة نفسها بنفسها وادارة الأُمم الأُخرى من حولها، فحينما توضع الأمانة بيد فرد امين فهذا لا يعني أنّ هناك طعمة قد استأثر بها دون غيره، وإنما يعني حفظ الأمانة وإشاعة هذه الفضيلة في المجتمع وجعلها قيمة حاكمة تسعى إلى صنع مجتمع أمين.

المرجعية في ثلاثة مجالات

والمرجعية في زماننا تشمل ثلاثة مجالات:

أ ـ مرجعية التقليد والفتوى، ويشترط فيها أن يكون المرجع أعلم الأحياء في الفقه والاستنباط.

ب ـ المرجعية العقائدية الفكرية، ولا يشترط فيها الاجتهاد لكن المرجع الفكري بحسب العادة يكون مجتهداً؛ لأنه لا يمكنه أن ينتج نظرية فكرية ما لم يستوعب الإسلام استيعاباً كاملاً، ولا يشترط أن يكون المرجع الفكري حيّاً، نعم يشترط ان يكون من أهل العصر الذي نحياه، لأننا لا نريد ان نقلده في أُمور عبادية وإنما نريد منه أن يحلّ لنا المعضلات الفكرية للعصر الذي نحياه، ويدفع عنا الأخطار والتحدّيات التي تواجهنا في حياتنا، ويحصن الأُمة من الغزو الثقافي والتحدّيات العقائدية.

ومرجعيتنا الفكرية في هذا الزمان تتمثل بالمدرسة الفكرية للشهيد السيد محمّد

باقر الصدر والإمام الخميني والشهيد مرتضى المطهري والعلامة الطباطبائي، ومعنى المرجعية الفكرية هو الالتزام بإطار عام معين يعد مقياساً عاماً لما ينبغي الالتزام به من نظريات وأفكار، وما لا ينبغي الالتزام به، وما ينبغي نبذه ومكافحته منها، ويكون حدّاً فاصلاً بين الاستقامة والانحراف في هذا الزمان؛ لأنّ الأُمة بأمسّ الحاجة إلى مثل هذا الخط الفاصل، وأخطر شيء عليها أن يتداخل الكفر مع الإيمان وتتميع الحدود الفاصلة بينهما، و لا تملك مقياساً يبين لها الخيط الأبيض من الخيط الأسود والالتزام بهذه المرجعية يكون على نوعين:

١ ـ التزام بالمواقف والرؤى والنظريات التي تطرحها المرجعية الفكرية.

٢ ـ التزام بالمنهج العام، وذلك بالنسبة للمفكرين المبدعين الجدد الذين يريدون إعطاء معالجات ومواقف لمقولات جديرة لم يتعرض لها هؤلاء الاعلام الاربعة، فينبغي للمفكر الجديد الالتزام بالمنهج العام للمرجعية الفكرية، باعتبار ان نجاح هذه المرجعية كان وليداً لمنهج معين، والالتزام بهذا المنهج سيؤدي إلى معالجات ناجحة في المطالب الجديدة أيضاً.

واخطر ما تواجهه المرجعية الفكرية في زماننا فتنة القراءات المتعددة التي تسحر الكثير من النابهين الطيبين وتحرفهم عن الصواب، لأنها تصور لهم ان فكر الشهيد الصدر والاقطاب الثلاثة الآخرين يمثل قراءة معينة للاسلام، وان بوسع إنسان آخر ان يختار قراءة أُخرى له تكون شرعية أيضاً. ومن هذا الباب الواسع يأتي شرّ مستطير، فيأتي الإسلام الليبرإلى الأمريكي ويطرح نفسه كقراءة ثانية للاسلام يمكن أن تحظى بالشرعية أيضاً، وفي زمان سابق طرح بعض الناس قراءة ماركسية للإسلام أطلق عليها الشهيد المطهري اسم الالتقاط، وربما يتذرع إبليس بتعدد القراءات حينما سيصور موقفه من آدم ومسألة السجود له بأنها جاءت بدافع توحيدي هو عدم السجود لغير الله سبحانه وتعالى، وتبدو القراءة الإبليسية وكأنها

قراءة توحيدية أرقىٰ من قراءه سائر الملائكة الذين سجدوا لآدم.

ولذا ينبغي التمسك التام بالمرجعية الفكرية الأصيلة، والحذر التام من مرجعيات مصطنعة زائفة تدعو إلى الإسلام الأمريكي عبر فتنة القراءات المتعددة.

ج ـ المرجعية السياسية

يحتاج المجتمع إلى قيادة سياسية ميدانية، وإلى مرجعية سياسية تمثل الإطار العام لحركة الأُمة، وعلى القيادة السياسية أن تلتزم بهذا الإطار العام وبالمرجعية المتمثلة فيه، والمرجعية السياسية تتمثل في زماننا هذا بالإمام الخميني (رض) كخط ومنهج وإطار عام لابد لكل قيادة سياسية إسلامية أن تلتزم به ولا تتخطاه، فهو مرجعية سياسية بما يمثله من منهج رائد وتجربة منتصرة أعادت الأُمور إلى أصولها التي يجب أن تكون عليها، وخطة حكيمة حققت أهدافاً قياسية مضمونة بخسائر محدودة، وزمن قصير، بالنحو الذي يجعلنا نشك بمصير كل تجربة لا تحذو حذو الإمام الخميني، وبمستقبل كل جماعة لا تتخذ منه منهجاً لها.

وليس لأحد أن يدعي بالقراءات المتعددة ويعتبر نفسه تجربة أُخرى في مقابل تجربة الإمام الخميني (رض)، فإنّ هذا في حسابات الأصالة والحكمة نظير الاجتهاد في مقابل النص؛ لأنّ استرداد حقوق المسلمين واستنهاضهم ضد الكفر والاستكبار العالمي، وإقامة حكم الله في الأرض، ومكافحة الاستعمار والصهيونية أُمور ليست اجتهادية، بل هي من صميم الدين، ومرجعية الإمام الخميني (رض) تعني:

١ ـ المناداة بالأهداف الإسلامية الأصيلة والنبيلة.

٢ ـ المناداة بالمنهج الثوري الجماهيري الجذري كطريق لتحقيق هذه الأهداف.

ومن يريد أن يعتبر نفسه تجربة جديدة إن كان يناقش في الأمر الأوّل فهو منحرف، وإن كان يناقش في الأمر الثاني فهو ضعيف مستضعف سرعان ما يتحول إلى دمية استعمارية يدير الأُمور نيابة عن الاستعمار الكافر.

ان التمسك بالمرجعية السياسية للإمام الخميني (رض) في كل الساحات والمواقع ضرورة تاريخية تحصن الأُمة من الانحراف وتجعلها قادرة على الانتصار، وتحل لها مشكلة كبيرة تتمثل بمشكلة تعدد القيادة السياسية، لأننا إذا تمسكنا بمرجعية الإمام الخميني كإطار عام وكرمز للأهداف الإسلامية المقدسة وكمقياس لما ينبغي ومالا ينبغي فعله سيكون ذلك أساساً صالحاً لوحدة القيادة السياسية في البرامج والخطط، وحل الخلافات القائمة بين القيادات المتعددة.

إنّ الإمام الخميني (رض) يمثل قيادة رائدة وتجربة قياسية في مقياس الأصالة والانتصار والرؤية الستراتيجية، واتباع منهجه السياسي يعد ضمانة للانتصار والسلامة من الانحراف، وليس المقصود من الاتباع التقليد الأعمى، بل المقصود الاتباع الواعي الذي يحرص على المضمون أشد الحرص ويترك الشكل قابلاً للتغيير من مكان إلى آخر.

أنّ مرجعية الإمام الخميني (رض) تعني مرجعية الإسلام المقتدر المنتصر الذي يوحد الأُمة ويلم الشمل وينتصر للمظلوم ويدفع الظلم ويقضي على الاستعمار ويقيم العدل ويرفع شعار العدالة في الأرض ويعبّئ المستضعفين في جبهة واحدة، وهذه جميعاً مقولات عقائدية فوق الفقه والاجتهاد، ولا تقبل التغيير من مكان إلى آخر، ولا من فقيه إلى آخر، ولا معنى للإسلام والفقه والحركات الإسلامية إلا بها، ومن يخلّفها وراء ظهره لا يبقى لديه إلاّ القشور، إذ لا وجود لإسلام عاجز ساكت، والإسلام العاجز الساكت أنما يحفر قبره بيده ويقضي على نفسه بنفسه، وهو الوجه المحلي للإسلام العلماني الليبرإلى المصنّع في الدوائر الاستعمارية.

إنّ علماء الإسلام لا يكتمون ما أنزل الله، ولا يسكتون أمام البدع والظلم، وهذا معنى وصفهم على لسان الرسول(ص) بأنهم حصون الإسلام، وأنّ موت أحدهم يؤدي إلى ثلمة في الإسلام لا يسدّها شيء.

وفيما يلي أنقل نصوصاً وفقرات من كلام الإمام الخميني في هذا المضمار:

«مسألة ٧ ـ لو وقعت بدعة في الإسلام، وكان سكوت علماء الدين ورؤساء المذهب أعلى الله كلمتهم موجباً لهتك الإسلام وضعف عقائد المسلمين يجب عليهم الإنكار بأية وسيلة ممكنة، سواء كان الإنكار مؤثراً في قلع الفساد أم لا، وكذا لو كان سكوتهم عن إنكار المنكرات موجباً ذلك، ولا يلاحظ الضرر والحرج بل تلاحظ الأهمية.

مسألة ٨ ـ لو كان في سكوت علماء الدين ورؤساء المذهب أعلى الله كلمتهم خوف أن يصير المنكر معروفاً أو المعروف منكراً يجب عليهم إظهار علمهم، ولا يجوز السكوت، ولو علموا عدم تأثير إنكارهم في ترك الفاعل، ولا يلاحظ الضرر والحرج مع كون الحكم مما يهتم به الشارع الأقدس جداً.

مسألة ٩ ـ لو كان في سكوت علماء الدين ورؤساء المذهب أعلى الله كلمتهم تقوية للظالم وتأييد له ـ والعياذ بالله ـ يحرم عليهم السكوت، ويجب عليهم الإظهار ولو لم يكن مؤثراً في رفع ظلمه.

مسألة ١٠ ـ لو كان سكوت علماء الدين ورؤساء المذهب أعلى الله كلمتهم موجباً لجرأة الظلمة على ارتكاب سائر المحرمات وإبداع البدع يحرم عليهم السكوت، ويجب عليهم الإنكار وإن لم يكن مؤثراً في رفع الحرام الذي يرتكب.

مسألة ١١ ـ لو كان سكوت علماء الدين ورؤساء المذهب أعلى الله كلمتهم موجباً لإساءة الظن بهم وهتكهم وانتسابهم إلى ما لا يصح ولا يجوز الانتساب اليهم ككونهم ـ نعوذ بالله ـ أعوان الظلمة يجب عليهم الإنكار لدفع العار عن

ساحتهم ولو لم يكن مؤثراً في رفع الظلم»[١].

«فكّروا بطريقة تنجيكم قبل فوات الفرصة، اقلعوا عـن هـذه الاخـتلافات الرخيصة والمبتذلة، هذه التحزبات والمحوريات غلط فاحش، وخطأ مدمّر، هل أنتم أهل ملّتين؟ هل في ملّتكم ومذهبكم شُعب وطرق متعددة؟ لماذا لا تتيقظون؟ لماذا لا تتنبهون؟ لماذا لا يوجد بينكم صفاء ومحبة وأُخوّة؟ لماذا ثم لماذا؟؟

هذه الاختلافات خطيرة، وتترتب عليها مفاسد لا يمكن أن تجبر؛ إنها تهوي بالحوزات العلمية إلى مكان سحيق، إنها تفقدكم مكانتكم الاجتماعية وتحقّركم في أعين الأُمة، ولا تجنون من المحوريات إلاّ ما يضركم وليست تضركم أنتم وحدكم، إنها مضرة بالأُمة.. مضرة بالإسلام. وعندما تكون اختلافاتكم بهذه المـثابة مـن الخطورة فإنها ذنوب لا تقبل العفو والغفران، وهي أعظم من كثير من المـعاصي؛ لأنها تفسد المجتمعات وتفتح الباب واسعاً أمام تسلط الأعداء وبسط نفوذهم...

إنّ عليكم أن تكونوا يقظين فطنين، لا تجعلوا أنفسكم اُلعوبة في يد الشيطان فيقول قائلكم: إنّ تكليفي الشرعي يقتضي هذا الشيء.. ويقول الآخر إنّ تكليفي الشرعي يقتضي العكس، ويشتد الصراع بينكم ويتعمّق النزاع.. في بعض الأحيان يتولّىٰ الشيطان صنع التكاليف الشرعية للإنسان، ويملي عليه واجبات معيّنة»[٢].

«إنّ عملاء الاستعمار يريدون أن يقضوا على كل وجود للإسلام وعلى كـل مظهر له، وعليكم أن تقفوا وقفة شجاعة ولن يمكنكم ذلك مع وجود حب النفس وحب الجاه والتكبر والغرور.. إن عالم السوء، العالم الذي يهتم بالدنيا، العالم الذي يفكر في حفظ مركزه وزعامته لا يستطيع أن يجاهد أعداء الإسلام، وضرره أكثر

---

(١) تحرير الوسيلة ١:٤٧٣ ط اسماعيليان.

(٢) الجهاد الأكبر: ٣٤ ـ ٣٥ ترجمة حسين كوراني ط الدار الإسلامية.

من ضرر غيره... اخرجوا حب الدنيا من قلوبكم، انذاك يمكنكم أن تجاهدوا.. من الآن.. ازرعوا هذه النقطة في قلوبكم وربّوها، فليقل كل منكم: أريد أن أكون جندياً مضحياً مسلماً، وأريد أن أُضحي للإسلام، يجب أن أعمل للإسلام حتى الشهادة...، لا تخلقوا لأنفسكم المعاذير فتقولوا: إنّ المقتضي اليوم غير موجود، يجب أن تتعبوا وتبذلوا الجهد، حتى تكونوا في المستقبل نافعين للإسلام»[١].

«قوله(ع): **«لأنّ المؤمنين الفقهاء حصون الإسلام...»** تكليف للفقهاء أن يحفظوا الإسلام بعقائده وأحكامه وأنظمته، وليس هذا التعبير صادراً من الإمام ثناءً أو إطراءً أو على سبيل المجاملة المتعارفة فيما بيننا حينما أقول لك حجة الإسلام، وتقول لي مثل ذلك، وإذا اعتزل الفقيه الناس وأُمورهم، وقبع في زاوية من داره، ولم يحافظ على قوانين الإسلام، ولم ينشرها، ولم يعمل في إصلاح شؤون المجتمع، ولم يهتم بالمسلمين، فهل يمكن اعتباره حصناً للإسلام أو سوراً له؟

إذا أرسل رئيس الحكومة شخصاً إلى ناحية صغيرة وأمره أن يحفظها ويرعاها، فهل يسمح له واجبه أن يغلق عليه أبواب داره ليرتع العدو، ويعيث في تلك الناحية فساداً، أم أنّ وظيفته تحمله على أن يبذل كل ما بوسعه في سبيل حفظ ورعاية ما ولي عليه؟

...أي حصن للإسلام أنتم؟ ما يكاد يعهد إلى أحدكم بحفظ جانب إلاّ اعتذر منه! هل المراد من حصن الإسلام هو هذا الذي أنتم عليه؟! فقوله(ع): **«الفقهاء حصون الإسلام»** يعني أنهم مكلفون بحفظ الإسلام بكل ما يستطيعون. وحفظ الإسلام من أهم الواجبات المطلقة بلا قيد ولا شرط، وهذا مما يجب على المجامع والهيئات العلمية الدينية أن تفكر في شأنه طويلاً لتجهز نفسها بأجهزة وإمكانات وظروف يحرس

---

(١) المصدر نفسه: ٨٠.

فيها الإسلام ويصان ويحفظ: أحكاماً وعقائد وأنظمة، كما حافظ عليه الرسول الأعظم(ص) والأئمة الهداة(ع).

... نحن مكلفون بحفظ الإسلام، وهذا من أهمّ الواجبات، ولعله لا يقل أهمية عن الصلاة والصوم، وهذا هو الواجب الذي أُريقت في سبيل ادائه دماء زكية. فليس ازكى من دم الحسين(ع) وقد اريق في سبيل الإسلام. علينا ان نفهم هذا ونفهمه الناس. أنتم تكونون خلفاء الرسول(ص) إذا علمتم الناس وعرفتموهم بالإسلام على واقعه. لا تقولوا: ندع ذلك حتى ظهور الحجة عليه السلام! فهلا تركتم الصلاة بانتظار الحجة؟!

... قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«الفقهاء امناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا»** قيل: يا رسول الله، وما دخولهم في الدنيا؟ قال: **«اتباع السلطان، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم»**.

...ولا تعني جملة **الفقهاء أمناء الرسل** أنهم مؤتمنون على النقل عنهم، فقد كان أهم ما كلف به الأنبياء هو إقرار النظام العادل في المجتمع وتنفيذ الأحكام، وقد يستفاد ذلك كله من قوله تعالى: **﴿لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط...﴾**[١]. فقد كان الهدف الحقيقي من بعثة الأنبياء هو اقامة العدل والقسط في الناس، وتنظيم حياتهم بموجب الموازين الشرعية، ولا يتم ذلك إلا بالحكومة التي تنفذ الأحكام، وهذه الحكومة كما تتمثل في شخص النبي أو الرسول، تتمثل كذلك في الأئمة(ع) وفي الفقهاء العلماء المؤمنين العدول من بعدهم، لأنّ القيام على الناس وإقرار الحق والنظام العادل فيهم مطلوب على كل

---

(١) الحديد: ٣٥.

حال»[١].

«على الفقهاء (حصون الإسلام) أن يبينوا للناس العقائد الحقة والأنظمة الإسلامية وطرق الجهاد والنضال، ويقودوا الناس، فإنّ الناس تنقاد لهم تلقائياً إذا لمسوا فيهم الأهلية والإخلاص ونكران الذات، وعندها سيكون في فقد امثال هؤلاء العلماء القادة مصيبة عظمى على الناس تترك في حياتهم فراغاً مروّعاً، وتحدث في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء، ومثل هذا الفراغ والثلم لا يحدث بفقدي أنا أو مثلي ممن يقبع في زاوية بيته، وإنما يحدث بفقد الإمام الحسين عليه السلام والأئمة من بعده... أما أنا وأنت فماذا قدمنا للإسلام حتى ينطبق علينا مصداق الحديث؟ لا فراغ يحدث عند موت ألف ممن يعمل على شاكلتنا؛ لأنّ حياتنا هي فراغ، ولا ثلم يحدث في الإسلام عند موت ألف منا؛ لأن حياتنا على ذلك النحو قد تكون هي ثلماً في الإسلام ينبغي سدّه بغيرنا.

ونحن لا نتوقع أن تؤتي تعليماتنا وجهودنا أكلها في زمن قصير، لأنّ ترسيخ دعائم الحكومة الإسلامية يحتاج إلى وقت طويل وجهود مضنية، ونحن نرى كثيراً من العقلاء يضعون حجراً ليبني عليه الآخرون بناءً ولو بعد مئتي عام»[٢].

«المؤسسات الاستعمارية كلها وسوست في صدور الناس أنّ الدين لا يلتقي مع السياسة. الروحانية ليس عليها او ليس لها أن تتدخل في الشؤون الاجتماعية. ليس من حق الفقهاء أن يعملوا لتقرير مصير الأُمة، ومن المؤسف جداً أنّ البعض منا صدق بتلك الأباطيل. وقد تحقق بهذا التصديق أكبر أمل كانت تحلم به نفوس المستعمرين. انظروا الهيئات الدينية، فستجدون آثاراً ونتائج تلك الدعايات

(١) الحكومة الإسلامية: ٦٢ ـ ٦٩، ط: المكتبة الإسلامية الكبرى.
(٢) المصدر نفسه: ١٢٨.

واضحة، فهنالك البطالون من عديمي الهمم، وهنالك الكسالى الذين يكتفون بالدعاء، والثناء، والتحدث في بعض المسائل الشرعية، وكأنهم لم يخلقوا لغير ذلك، ومما يمكن رؤيته في هذا الجو من تلك الآثار والنتائج هو النغم التالي: الكلام يتنافى ومقام العالم. المجتهد لا يليق به أن يتكلم، ويحسن به أن يكثر الصمت ويكتفي بقول: لا إله إلا الله، او يكتفي باليسير جداً من الكلام! وفيه مخالفة للسنة الشريفة. فالله يثني على البيان في سورة الرحمن بقوله تعالى: ﴿علمه البيان﴾ وهو بهذا يمن على عباده أن علمهم البيان، ويذكرهم بفضله ونعمته المسبغة عليهم في هذا التعليم. فالبيان أنما حَسُنَ لأجل تعليم الناس عقائدهم السليمة، وأحكام دينهم، وقيادتهم إلى شاطئ الإسلام. وكان الرسول(ص) وأميرالمؤمنين(ع) أكبر امراء البيان.

الأفكار البلهاء التي يبثها الأعداء مما ذكرنا بعضها قبل قليل، يوجد فينا من يؤمن بها، وفي هذا ادامة للاستعمار والنفوذ الأجنبي. هؤلاء جماعة من البلهاء يدعون بالمقدسين، وهم ليسوا بمقدسين، بل متقدسين يتكلفون التقدس. علينا أن نصلحهم وأن نحدد موقفنا منهم، لأنّ هؤلاء يمنعوننا من الإصلاح والتقدم والنهوض.

وذات يوم اجتمع في منزلي: المرحوم آية الله البروجردي والمرحوم آية الله الحجة، والمرحوم آية الله الصدر، والمرحوم آية الله الخونساري للتداول في أمر سياسي مهم. فتقدمت إليهم أن يحددوا موقفهم من هؤلاء المتظاهرين بالقداسة البلهاء، وأن يعتبروهم أعداء من الداخل؛ لأنّ هؤلاء لا يهتمون بما يجري، ويحولون بين العلماء الحقيقيين وبين تسلم السلطة والأخذ بزمام الأُمور، فهؤلاء يوجهون أكبر لطمة للإسلام، ويشكلون أكبر خطر عليه، ويبرزون الإسلام بصورة مشوهة كأقصى ما يكون التشوه، ويوجد من هؤلاء كثير في النجف وقم وخراسان، ولهم تأثير على البسطاء والبلهاء من أمثالهم من الناس، هؤلاء يعارضون من يصرخ في الناس لإيقاظهم مما غطوا فيه من السبات، هؤلاء يدعون الناس إلى الكسل والتخاذل.

هؤلاء يعارضون من يعارض ويقاوم نفوذ الانجليز والأمريكان.

علينا أوّلاً أن ننصح أمثال هؤلاء ان يرجعوا عن غيهم، وننبهم على الخطر المحدق بالإسلام والمسلمين وان نفتح أبصارهم تحت ضوء الشمس على الخطر الصهيوني والانجلوأميركي الذي يمد الكيان الإسرائيلي بمقومات الحياة. لا تطفئوا النور تنغمروا فى أمواج الظلام كما فعل النصارى قبلكم، فقد ألهاهم البحث في التثليث والأقانيم وروح القدس والأب والابن، ولم يبق لهم شيء آخر. تيقظوا وانظروا الحقائق كما هي، تداولوا مسائل حياة اليوم والغد.

أتتوقعون أنتم بوضعكم هذا أن تضع الملائكة أجنحتها تحت أقدامكم إكراماً لكم؟! ألم تكن الملائكة في شغل شاغل عنكم؟! الملائكة تضع أجنحتها تحت أقدام أميرالمؤمنين(ع) لسابقته وخدمته، ونشره للإسلام في الدنيا كلها. فالملائكة تخضع له، ويخضع له الناس حتى الأعداء منهم؛ لأنهم يخضعون للحق في قيامه وقعوده وفي كلامه وصمته، وفي خطبه وصلواته وحروبه. ماذا تستحقون أنتم من ذلك التعظيم؟ لا شيء!! نحن نكلم هؤلاء المقدسين بمثل هذا الكلام. فإن نفعت الذكرى فذاك ما نريد، وإلا كان لنا معهم حساب آخر وموقف آخر...

وأنتم تعلمون ما جناه على الإسلام فقهاء السلاطين وتعلمون ما لتعامل الفقيه مع الجائرين من تأثير في الناس. فانضواء الفقيه تحت لوائهم يكون أشد ضرراً على الإسلام من انضواء اي فرد عادي آخر. ومن هنا فقد شدد أئمتنا المعصومون عليهم في هذا الأمر، ونهوا عن اتباعهم، وعن أي نوع من التعاون والتعامل مع الحاكمين الجائرين مهما كان ذلك هيّناً، حذراً من أن ينتهي الأمر بالإسلام والمسلمين إلى مثل هذه النهاية التي نراها. فرض الأئمة عليهم السلام على الفقهاء فرائض مهمة جداً، وألزموهم اداء الأمانة وحفظها، فلا ينبغي التمسك بالتقية في كل صغيرة وكبيرة. فقد شرعت التقية للحفاظ على النفس أو الغير من الضرر في مجال فروع الأحكام. أما

إذا كان الإسلام كله في خطر، فليس في ذلك متسع للتقية والسكوت. ماذا ترون لو اجبروا فقيهاً على ان يشرع او يبتدع! فهل ترون انه يجوز له ذلك تمسكاً بقوله(ع): «التقية ديني ودين آبائي» ليس هذا من موارد التقية او من مواضعها. وإذا كانت ظروف التقية تلزم أحداً منا بالدخول في ركب السلاطين، فهنا يجب الامتناع عن ذلك حتى لو ادى الامتناع إلى قتله...

...وطبيعي أن يسمح الإسلام بالدخول في أجهزة الجائرين إذا كان الهدف الحقيقي من وراء ذلك هو الحد من المظالم،أو أحداث انقلاب على القائمين بالامر، بل ان ذك الدخول قد يكون واجباً. وليس عندنا في ذلك خلاف، انما الكلام فيمن دعته بطنته واستهوته الحياة الدنيا، وباع آخرته بدنيا غيره وزين له الشيطان سوء عمله، فعمل في صفوف الخونة من الحاكمين وايدهم وآزرهم وسار من ورائهم، والله على ما يعمل ويقول شهيد. هؤلاء يجب فضحهم؛ لانهم اعداء الإسلام. يجب على المجتمع ان ينبذهم، ففي نبذهم واحتقارهم نصر للإسلام ولقضية المسلمين. يجب على شبابنا وأبنائنا انتزاع عمائم هؤلاء من فوق رؤوسهم. اين شبابنا في إيران؟ هل ماتوا ام غفلوا!!! لا أقول: اقتلوا هؤلاء، فلتنزع عنهم عمائمهم على الأقل. على الناس جميعاً أن يمنعوا هؤلاء من الظهور في المجتمع بملابس رجال الدين»[(١)].

ونعود ونؤكد مرّة أُخرى، هذه ليست رؤية اجتهادية خاصة بفقيه دون آخر، ولا موقفاً يختص بمذهب دون آخر، هذه روح الإسلام وجوهره، وهي رؤية عقائدية فوق الفقه والمذهب وظهورها في هذا الزمان وعدم وجودها في زمان سابق لا يدل على أنها أمر جديد واجتهاد، كيف وقد ظهرت المذاهب بعد انقراض صدر الإسلام؟ فلو كان الظهور المتأخر دليلاً على أنّ ما ظهر أمر اجتهادي دائماً

---

(١) المصدر نفسه: ١٣٨ ـ ١٤٣.

لكان ظهور الفقه والمذاهب وعلم الكلام في مرحلة متأخرة عن صدر الإسلام دليلاً على أمر اجتهادي، فالحقيقة الإلهية شيء وانكشافها والتعبير عنها على لسان الفقهاء شيء آخر، الحقيقة الإلهية موجودة منذ الأزل والشيء الذي قد يتقدم ويتأخر دفعياً أو تدريجياً هو انكشافها الذي يتأثر بظروف تاريخية معينة، ونحن لا نسلم بأن الإمام الخميني هو أوّل من طرح الحقائق الإلهية، فهناك سير تدريجي وصل ذروته وتكامله عند الإمام الخميني، والتمسك بالإمام الخميني كمرجعية في المنهج السياسي، واحد أركان المرجعية العقائدية الفكرية تمسك بالحقائق الإلهية الكاملة في الحياة المعاصرة.

وموقع الإمام الخميني من سائر الفقهاء في ذلك كموقع الإمام الحسين(ع) من سائر الأئمة الذين حافظوا على الخط الحسيني وعملوا على نشر الشعائر الحسينية وتعميق الرابطة بين الأُمة والإمام الحسين، وكما كان الإمام الحسين(ع) أساس الإمامة وخيمة الأُمة، كذلك الإمام الخميني في عصرنا أساس المرجعية وخيمة الأُمة.

الثورة والمقاومة في محور المعاد

يمثل الإيمان بالمعاد واليوم الآخر مظهراً من مظاهر انتصار المقاومة واندحار الشر وقوى الباطل، فالآخرة هي يوم التغابن الذي يظهر فيه المغبون على الغابن والمظلوم على الظالم، وهو يوم الحساب الذي يحاسب فيه الطواغيت والظالمين ومصاصي الدماء على الاعمال الاجرامية التي ارتكبوها بحق البشرية.

ومثل هذا الإيمان يمدّ المضطهدين بصلابة وثبات لا حدود لهما، ويجعل حياتهم ذات ثمن ومغزى ويجعلهم يعيشون الانتصار حقيقة متجسدة أمامهم؛ لأن الانتصار بالمفهوم الإيماني هو ان يؤدي الإنسان ما عليه من التكليف الإلهي، وظهور الثمرة الدنيوية امر موكول إلى الله سبحانه وتعالى، وليس للإنسان ان يحتم على نفسه ان يقطف الثمرة بيده، ولا ان يربط قيامه بالتكليف بحصوله على الثمرة المرجوّة.

والإيمان بالشهادة في سبيل الله هو أرقىٰ مرحلة في تطور النفس الإنسانية، وذلك للأسباب التالية:

١ ـ إنّ الإيمان بالشهادة يجعل الإنسان بين خيارين جميلين الشهادة والانتصار، فلا قلق ولا اضطراب، ولولا ذلك لكان مخيراً بين الهزيمة والانتصار، الأمر الذي يجعله في قلق واضطراب.

٢ ـ إنّ الإيمان بالشهادة يعني نفي التسليم والمساومة، لان الاستسلام والمساومة خُلق أهل الدنيا والمغانم الدنيوية.

٣ ـ إنّ الإيمان بالشهادة يؤدي إلى تنقية الأهداف واستخلاص الشوائب منها ودفع الروح الانتهازية عنها.

٤ـ الإيمان بالشهادة يجعل الإنسان في الجانب الشخصي متعلقاً بالتكليف وغير ناظر إلى النتيجة.

٥ـ الإيمان بالشهادة يعطي الإنسان طاقة روحية بمستوى إنجاز مهمات قياسية وتحقيق أهداف استثنائية في الحجم والنوع.

الفصل الرابع

أخلاق الثورة والمقاومة

الأخلاق جمع خلق، والخلق عبارة عن: هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كان الصادر عن تلك الهيئة افعالاً جميلة محمودة عقلاً وممدوحة شرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها أفعالاً قبيحة سميت خلقاً سيئاً[١].

فالأخلاق مقولة تتصل بالنفس، ولما كانت المقاومة عملية دفاع عن النفس ضد الأخطار المحدقة بها فأخلاق المقاومة هي الملكات النفسانية الممدوحة التي تعين الإنسان على الدفاع عن نفسه وتجعله ينطلق من قاعدة نفسية رصينة لا تتزلزل، بحيث لو فقدها لتمكنت الأخطار منه.

ولأخلاق الثورة والمقاومة معنيان. معنى عام يشمل كافة الفضائل والمفردات الأخلاقية، ومعنى اخر يختص بالمفردات ذات العلاقة المباشرة بعملية الدفاع عن النفس، والمعنيان متكاملان يؤدي أحدهما إلى الآخر ولا ينهض أحدهما بدون الآخر.

المعنى العام لأخلاق الثورة والمقاومة

أما المعنى العام لأخلاق الثورة فهو ما أشار اليه الشاعر بقوله:

وإنما الأُمم الأخلاق ما بقيت　　　فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ذلك أن الفضيلة في مدلولها الاجتماعي هي عملية إصلاح الذات من أجل الآخر بخلاف الرذيلة التي هي عبارة عن تضخم الذات على حساب الآخر، وبالتالي فالفضيلة تمثل الأساس الصالح لبناء المجتمع والأُمة بما تقوم به من دور في تنظيم

---

(١) الأخلاق، عبد الله شبر: ١٠، منشورات بصيرتي قم.

العلاقة بين أفراد المجتمع وابناء الأُمة، بينما تؤدي الرذيلة في المحصلة النهائية إلى تهيئة الأرضية المناسبة لانهيار المجتمع والأُمة بما تقوم به من دور في تأزيم العلاقة بين أفراد المجتمع وابناء الأُمة.

والحضارات تبدأ انطلاقة أخلاقية في سياق ظروف موضوعية وحسابات تأريخية معينة ثم تتصاعد بتصاعد هذه الانطلاقة وتخفت بخفوتها، وحينما تنهار الأخلاق العامة في مجتمع من المجتمعات يصبح مستعداً ومهيّأً للوقوع تحت احتلال الآخرين الذين يتميزون عليه بقوة عسكرية او اقتصادية أو سياسية أكبر.

ذلك أنّ المجتمع المتماسك من الداخل من خلال ما يطبقه من قيم أخلاقية مجتمع مقاوم يرفض الانهيار ويغالب الاحتلال. بينما المجتمع الذي يسخر بعضه من بعض وتنتشر فيه امراض الغيبة والنفاق والتملق والرياء والالقاب الرفيعة والحسد والغدر والخيانة والتلاعب بالالفاظ والكذب والغش وسوء الظن والخداع والانانية والحيلة والمكر والشقاق والفاحشة والفساد مجتمع منهار من الداخل؛ لان كل فرد فيه يعيش فرديته وهمومه الخاصة به ولا يهمه ما يحصل لاخيه من مساوئ، وما تتعرض له المصلحة العامة من أخطار، بل ولا يهمه أن يكون العلة او جزء العلة في ذلك، والفرد الذي يعيش فرديته وهمومه الشخصية فقط ولا يهمه ما يحصل للمصلحة العامة وللمجتمع لا يرى فرقاً بين الاحتلال والاستقلال، ولا مائزاً بين عزة البلد والشعب وذلته، ولا بين الانهيار والتماسك. ولا يتفهم بالتالي معنى للمقاومة، بل يعتبر المقاومة خسارة، لأنّ الاحتلال قد لا يؤثر على الوضع الشخصي لذلك الفرد، بينما تتطلب المقاومة أن يضحي بشيء ما، ولذا تراه يرفض المقاومة ولا يستوحش من الاحتلال، بل يبرره ويسوغ التخاذل له والتملق لكل قوي غالب مهما كان مبطلاً، ولا يعتني بكل ضعيف مظلوم مهما كان محقاً.

ولذا ترى القرآن الكريم يقول: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا

شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1].

فهذه الآية تريد أن تخرجنا من حالة الاستغراق في الشعور الفردي وتنبهنا على أنّ هذا الشعور خادع ولا يمثل الحقيقة، فالذي يكره الجهاد إنسان مستغرق في امر شخصي وهموم خاصة، فيتصور نتيجة لذلك أنّ الجهاد حالة مضرة، فهو كره بالنسبة لمن يفكر بطريقة شخصية وهموم فردية، لكنه خير عند من يفكر بالمصلحة العامة وينظر بالمنظار الاجتماعي العام.

ومع ان الغرب يعيش ازمة أخلاقية في حضارته وأيديولوجية، لكنه يمتاز على المسلمين بعنصرين من شأنهما فرض الهيمنة الغربية على البلاد الإسلامية وهما:

١ ـ الاستقرار السياسي والقوة الاقتصادية والتكنولوجية والتسليحية.

٢ – استقرار القيم الاجتماعية على نمط واحد.

والعنصر الأوّل لا يهمنا فيما نحن فيه من بحث أخلاقي، وهو لوحده كافٍ لإنجاح الهيمنة الغربية على البلاد الإسلامية لو كان الغرب والعالم الإسلامي يعيشان معاً ازمة أخلاقية واحدة، ولكن الأمر ليس كذلك، فإنّ الأزمة الأخلاقية التي يعيشها العالم الإسلامي أكثر حدّة مما يعيشه العالم الغربي، وهي العلّة الحقيقية في هيمنة الغرب على المسلمين، الأمر الذي يجعل الغرب يعيش امتيازاً آخر يساعده على فرض هيمنته على العالم الإسلامي، صحيح ان الأصل يقتضي أن يكون العالم الإسلامي خالياً من ازمة أخلاقية بحكم الحضارة الإسلامية التي لا زال ينتمي اليها، وأن يعيش العالم الغربي ازمة أخلاقية حادة نتيجة للحضارة الأرضية المادية التي تكتنفه. إلّا أنّ هناك عاملاً طارئاً جعل العالم الإسلامي يعيش ازمة أخلاقية حادة من جهة، وقلل من حدة الأزمة الأخلاقية التي يعيشها العالم الغربي من جهة ثانية،

---

(١) البقرة: ٢١٦.

وهو عامل استقرار القيم الاجتماعية على نمط واحد فترة تاريخية طويلة، وتعاقب عدة أجيال عليها بلا تغيير ولا منافس داخلي لها في الغرب، وعدم استقرارها في العالم الإسلامي.

فقد عاش الغربيون منذ عدة قرون قيم العلمانية والليبرالية والديمقراطية والرأسمالية والقيم المتفرعة عنها كقيم حاكمة في المجتمع والدولة والتربية الفردية والسياسية بلا منافس، واستقر في نفوسهم نتيجة لهذا العامل التاريخي أنها القيم الصحيحة الوحيدة التي يجب اتباعها وتجسيدها فترسخت في أذهانهم، وتكوّن أثر ذلك مجتمع سياسي مستقر على قيم باطلة، لكنها ثابتة عبر أجيال متعددة. فتجسد بطلان هذه القيم في صورة ازمة أخلاقية ذات مظاهر متعددة، مثل النزوع نحو الصراع والحروب وتدهور الأُسرة وتفشي الجريمة والانتحار وغلبة القوي على الضعيف وانعدام القيم المعنوية، لكن ثبات هذه الصورة في الذهنية الغربية عبر أجيال متعددة وعدم وجود منافس لها في الداخل ساعد على تكوين شخصية مستقرة منسجمة مع نفسها لا تعيش تناقضات داخلية، بل تعيش تعزيزات متتالية نتيجة ما تراه من حولها من مجتمعات خاوية تتهاوى أمام زحفها الاستعماري المستمر طيلة القرون الأخيرة، بمعنى أن عامل الاستقرار والغلبة وانعدام المنافس نجح في إنقاذ الغرب من مخاطر الأزمة الأخلاقية التي يعيشها.

بينما عاش العالم الإسلامي منذ جثم الاستعمار على صدره اضطراباً في القيم بين نمط غربي يفرض نفسه بالقوة من خلال اروقة الدولة العلمانية العميلة والتابعة للغرب، وبين نمط أصيل عاشه في حضارته الإسلامية، لكنه نمط مغلوب يواجه حملات تشكيكية واسعة النطاق ويوصم بالرجعية والتخلف، ويعتبر العلة في تأخر المجتمع عن ركب الحضارة والتقدم، وبين هذين النمطين عاش الفرد المسلم حيرة وتردداً لا حد له، فهل يأخذ بالنمط الغربي وهو نمط غريب ينتسب إلى امم معادية

وبلدان استعمارية وإلى فلسفات إلحادية كافرة؟ أم يأخذ بالنمط الإسلامي المغلوب المحفوف بالتشكيك والمتهم بالرجعية؟ فمن أخذ بالخيار الأوّل اصبح عميلاً للغرب خائناً للمسلمين، ومن أخذ بالثاني عجز عن مواجهة حملات التشكيك وعاش عزلة عن اروقة الحياة الجديدة، ومن جمع بينهما عاش هزيلاً وضحية الانفصام والازدواجية القاتلة في داخله.

من هنا نبعت الأزمة الأخلاقية المريرة للعالم الإسلامي، ومما لا شك فيه ان مجتمعاً يستقر على صورة معينة ـ مهما كانت باطلة ـ تتعاقب عليها الاجيال جيلاً بعد جيل أفضل من المجتمع الآخر الذي لا يستقر على شيء. وتتجلى ذروة هذه الأزمة في المناهج الدراسية التي لا تجرؤ على مخالفة القيم والفلسفات الغربية، فيما يتصل بالأخلاق والنظرة الكونية للإنسان والحياة والوجود والمجتمع والاقتصاد والتربية والسياسة وفلسفة العلوم المختلفة بما يؤدي في النتيجة إلى تعزيز حالة الانفصام الداخلي في المجتمع الإسلامي.

وتتعزز هذه الأزمة أكثر من خلال الواقع السياسي الهش المضطرب نتيجة للتدخلات والتنافسات الغربية المستمرة والمصالح الاستعمارية التي تجد مصلحتها العليا في ان تعيش المستعمرات اضطراباً مستمراً وقلقاً متزايداً. وعلى سبيل المثال ظهرت في العراق في الفترة ما بين عامي ١٩٥٨ ـ ١٩٦٨ اربعة انقلابات عسكرية ناجحة وثلاثة انقلابات عسكرية فاشلة. وكل انقلاب عسكري ناجح يظهر نفسه كثورة شعبية ذات برنامج تغييري قيمي واجتماعي وثقافي وسياسي شامل، وفي حالة مضطربة إلى هذا الحد يجد الفرد المغيب عن الساحة نفسه بحاجة إلى نمط من السلوك يتيح له التعايش وحفظ المصالح، وسيجد معالم هذا النمط تتحدد امامه في صورة تزلزل الثقة بالقانون والدولة والقيم المطروحة في الساحة وضرورة التحايل على هذه المعاني، وإتقان صناعة التلاعب بالمفاهيم والقيم والألفاظ من أجل ضمان

مصالحه.

وهكذا يتضح أنّ الاستعمار الغربي هو العلة في الأزمة الأخلاقية التي يعيشها العالم الإسلامي، والتي غالباً ما تثير التساؤل لدى المسلمين! لماذا يتجلّىٰ الصدق والقانون والانضباط في حياة الغربيين رغم ماديتهم ولا تتجلى هذه المظاهر في حياتنا رغم أنّنا أحرىٰ بها منهم؟

كما يتضح أن من جملة أهداف ومكاسب مشروع الثورة والمقاومة إنقاذ حياة المسلمين من هذه الأزمة القاتلة؛ لأنّ المقاومة تعني رفض التغريب والتبعية والاحتلال والاستعمار وكل عوامل الاضطراب الغربية في محيط المسلمين.

ويتجلّىٰ لنا اخيراً حكمة ومصداقية مذهب أهل البيت(ع) حينما آمن بالإمامة المعصومة الاثني عشرية التي تلي أُمور المسلمين بعد وفاة النبي(ص)، فهذه العقيدة تعني اعتناء الإسلام واهتمامه بعامل الاستقرار ودوره الخلاق في انتاج الشخصية الإسلامية المستقيمة والمجتمع الإسلامي السليم، وانه قد خطط لدورة حضارية كاملة تمتد قرنين ونصف تدار تحت إشراف سماوي مباشر، لكي يتهيأ المجتمع الإسلامي للدورات التاريخية التالية ويأخذ المران العلمي والعملي الكافي بشأنها من الدورة الأُولى.

إنّ برامج الإسلام وخططه على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي قائمة على أساس مكافحة النزعة الفردية وتزريق النزعة الاجتماعية وروح المسؤولية العامة في المجتمع، فالنزعة الفردية التي تعبر عن نفسها من خلال مظاهر ضعف الثقة بالنفس، الروح الانهزامية، فقدان الوعي الصحيح، النزعة السكونية تجاه الاحداث، الانانية والانتهازية، والميل إلى الاختلاف والتشتت، مخالفة المدافعين عن الأُمة في وجه الاجنبي، عدم الاعتناء بقيم الكرامة والعزة والاستقلال، يقابلها الإسلام بالدعوة الشديدة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحلي بروح المسؤولية تجاه

المجتمع، والدعوة إلى أن يكون المجتمع كالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الاعضاء بالسهر والحمى، والروح التغييرية على أساس لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وعدم جواز الارجاف بالأُمة، ولزوم التحلي بالصبر والاعتقاد بأن النصر من الله، واثارة روح الحماس والكرامة والقوة والعزّة في الأُمة! والتركيز على أنّ المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وأن البدن لا يضعف عما قويت عليه النية، وأن لا يخش المؤمن غير الله سبحانه وتعالى، وعليه التمسك بمبدأ الأُخوّة والوحدة الإسلامية، وأن يقلع عن حب النفس وحب الدنيا وحب الرئاسة والجاه، ويتمسك بحب الله وحب أوليائه وحزبه وأنصاره، وأن يقضي عمره بين جهاد النفس وجهاد العدو الخارجي، فهذه مفردات أخلاقية متكاملة تمثل مشروعاً اجتماعياً لإنقاذ المجتمع من النزعة الفردية ومن السقوط والانحلال، وهذا مغزى تحذير النبي الاعظم(ص) لامته حين قال: «**يوشك أن تداعى عليكم الأُمم كما تداعى الآكلة إلى قصعتها، قيل**: يا رسول (ص) فمن قلة بنا يومئذ؟ قال: **لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرهب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهتكم الموت**».[1]

وفي ذلك كتب السيد الشهيد محمّد باقر الصدر يقول: إنّ «المثل بعد أن يفقد فاعليته وقدرته على العطاء، بعد ان يصبح نسخة من الواقع، بعد أن يصبح أمراً مفروضاً ومحسوساً وملموساً، بعد أن يصبح غير قادر على تطوير البشرية وتصعيدها في مسارها الطويل، تفقد هذه البشرية، هذه الجماعة تفقد بالتدريج ولاءها لهذا المثل، ومعنى أنها تفقد ولاءها لهذا المثل يعني ان القاعدة الجماهيرية الواسعة في هذه الأُمة سوف تتمزق وحدتها؛ لأنّ وحدة هذه القاعدة أنما هي بالمثل

---

(١) كنز العمال ١١ : ١٣٢.

الواحد، فإذا ضاع المثل ضاعت هذه القاعدة. هذه الأُمة بعد أن تفقد ولاءها لهذا المثل تصاب بالتشتت، بالتمزق، بالتبعثر، تكون كما وصف القرآن الكريم ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُم شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهم شَتىَّ ذلِك بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلونَ﴾[1] بأسهم بينهم شديد باعتبار أنّ التناقضات تبدأ في داخل هذه الأُمة التي لا يـجمعها مـثل أعـلى لا تجمعها طريقة مثلى، لا يجمعها سبيل واحد قلوب متفرقة أهواء مـتشتتة، ارواح متبعثرة، عقول مجمدة، في حالة من هذا القبيل لا تبقى أُمة وانما يبقى شبح أُمـة فقط. وفي ظل هذا الشبح سوف ينصرف كل فرد في هذه الأُمة ينصرف إلى همومه الصغيرة، إلى قضاياه المحدودة؛ لأنه لا يوجد هـناك مـثل أعـلى تـلتف حـوله الطاقات، تلتف حوله القابليات والإمكانات، تحشد مـن أجـله التـضحيات، لا يوجد هذا المثل الأعلى، حينما يسقط هذا المثل الأعلى تسقط الراية التي توحّد الأُمة، يبقى كل إنسان مشدوداً إلى حاجاته المحدودة، إلى مصالحه الشخصية، إلى تفكيره في أُموره الخاصة، كيف يصبح؟ كيف يمسي؟ كيف يأكل؟ كيف يشرب؟ كيف يوفر الراحة والاسـتقرار له ولأولاده ولعـائلته؟ أي راحـة؟ أي اسـتقرار؟ الراحة بالمعنى الرخيص من الراحة، والاستقرار بالمعنى القصير من الاسـتقرار، يبقى كل إنسان سجين حاجاته الخاصة، سجين رغباته الخاصة، يبقى يدور، يبقى يلتف حول هذه الرغبات وحول هذه الحاجات، لا يرى غيرها إذ لا يوجد المثل، إذ ضاع المثل وتفتت وسقط في حالة من حالات هذه الأُمة، قلنا بأن الأُمة تتحول إلى شبح لا تبقى أُمة حقيقية، وانما هناك شبح أُمة. وقد علّمنا التاريخ انه في حالة من هذا القبيل توجد ثلاثة اجراءات، ثلاثة بدائل يمكن ان تنطبق على حالة هذه الأُمة الشبح.

---

(١) سورة الحشر: ١٤.

الإجراء التاريخي الأوّل: هو ان تتداعى هذه الأُمة أمام غزو عسكري من الخارج؛ لأنّ هذه الأُمة التي أُفرغت من محتواها، التي تخلت عن وجودها كأمة، وبقيت كأفراد كل إنسان يفكر في طعامه، يفكر في لباسه، يفكر في دار سكناه، ولا يفكر في الأُمة لن يبقى هناك من يفكر في الأُمة، وإنما كل إنسان يفكر في حاجاته حين يفكر. اذن في وضع من هذا القبيل يمكن ان تتداعى هذه الأُمة أمام غزو من الخارج، وهذا ما وقع بالفعل بعد ان فقد المسلمون مثلهم الأعلى وفقدوا ولاءهم لهذا المثل الأعلى ووقعوا فريسة غزو التتار حينما سقطت حضارة المسلمين بأيدي التتار، هذا هو الإجراء التاريخي الأوّل.

والإجراء التاريخي الثاني: هو الذوبان والانصهار في مثل أعلى أجنبي في مثل مستورد من الخارج، هذه الأُمة بعد أن فقدت مثلها العليا النابعة منها فقدت فاعليتها، وأصالتها حينئذ تفتش عن مثل أعلى من الخارج لكي تعطيه ولاءها، لكي تمنحه قيادتها. هذا هو الإجراء التاريخي الثاني.

والإجراء التاريخي الثالث: ان ينشأ في اعماق هذه الأُمة بذور اعادة المثل الأعلى من جديد بمستوى العصر الذي تعيشه تلك الأُمة، هذان الاجراءان، الإجراء الثاني والإجراء الثالث وقفت الأُمة امامهما على مفترق طريقين حينما دخلت عصر الاستعمار، حينما دخلت الأُمة عصر الاستعمار وقفت على مفترق طريقين: كان هناك طريق يدعوها إلى الانصهار في مثل أعلى من الخارج، هذا الطريق الذي طبقه جملة من حكام المسلمين في بلاد المسلمين «رضا خان» في إيران و«أتاتورك» في تركيا، حاول هؤلاء ان يجسدوا المثل الأعلى للإنسان الاوروبي المنتصر، ويطبقوا هذا المثل الأعلى ويكسبوا ولاء المسلمين انفسهم لهذا المثل الأعلى بعد ان ضاع المثل الأعلى في داخل المسلمين. بينما رواد الفكر الإسلامي في بدايات عصر الاستعمار وفي أواخر الفترة التي سبقت عصر الاستعمار، رواد الفكر الإسلامي ورواد النهضة

الإسلامية أطلقوا جهودهم في سبيل الاجراء الثالث في سبيل إعادة الحياة إلى الإسلام من جديد، في سبيل انتشار هذا المثل الأعلى وإعادة الحياة اليه وتقديمه بلغة العصر وبمستوى العصر وبمستوى حاجات المسلمين. الأُمة تتحول إلى شبح فتواجه أحد هذه الاجراءات الثلاثة»(١).

وأرى نفسي حريصة على ان انتهز هذه الفرصة لاذكر كلاماً جميلاً لعبد الرحمن الكواكبي، قاله في رد ابن خلدون الذي زعم ان الإمام الحسين(ع) قد أوقع نفسه في التهلكة. ما نصه:

«طالما اشكل على الباحثين أيُّ الحرصين أقوى؟ حرص الحياة أم حرص المجد، والحقيقة التي عول عليها المتأخرون وميزوا بها تخليط ابن خلدون، هي ان المجد مفضل على الحياة عند الأحرار، وحب الحياة ممتاز على المجد عند الاسراء، وعلى هذه القاعدة يكون أهل البيت(ع) معذورين في القائهم بأنفسهم في المهالك لأنهم كانوا أحراراً أبراراً يميزون طبعاً الموت كراماً على حياة ذل ورياء مثل حياة ابن خلدون الذي خطأ امجاد البشر في اقدامهم على الخطر ناسياً تقريره أنّ سباع الطير والوحوش تأبى التناسل في أقفاص الأسر، بل وجدت فيها طبيعة اختيار الانتحار تخلصاً من قيود الذل»(٢).

المعنى الخاص لأخلاق الثورة والمقاومة

إذا أنجز لنا المعنى العام للأخلاق مجتمعاً متماسكاً متآلفاً يشعر بمعنى الكرامة والعزة والاستقلال والوحدة في حياته، تأتي الحاجة إلى المعنى الخاص للأخلاق ليغذي هذا المجتمع بكل المفردات الأخلاقية التي تؤدي إلى مجتمع مقاوم، ومالم تنجز

(١) المدرسة القرآنية: ١٦٠ ـ ١٦٣، ط: دار التعارف.
(٢) الأعمال الكاملة لعبدالرحمن الكواكبي: ص ٢٦١ ـ ٢٦٢، إعداد محمّد عمارة.

المرحلة الأُولى أهدافها، وما لم نحصل على مجتمع متماسك متآلف ليس هناك فائدة من المرحلة الثانية؛ لأنّ المرحلة الثانية من الأخلاق تتطلب مجتمعاً انجز المرحلة الأُولى.

وفي المرحلة الثانية تأتي مفاهيم الإسلام عن قيم الشجاعة والبطولة والفداء والعزة والكرامة والغيرة والصبر والاباء والثبات والشرف والحياء والعزم والامل وعدم اليأس، وان العلماء حصون الإسلام، والحلم. فالذي لا يملك الشجاعة لا يستطيع ان يفكر، بل سيعيش مذعوراً، والإنسان المذعور عاجز عن التفكير، وعاجز عن الامساك بهدف ما، وعن مواجهة عدو ما، ومن يعيش بلا حياء يفعل ما يشاء، وقد قيل «إن لم تستح فافعل ما شئت» ومن لا يستحي لا يمتنع عن مسايرة العدو وخيانة الأُمة.

أنّ مجتمعاً غارقاً في النزعة الفردية لا يفهم معنى هذه القيم، ويراها أمراً مستثقلاً، أو يطبقها تطبيقاً سيئاً في نطاق همومه الفردية، ويحاول جاهداً تزييفها في النطاق الاجتماعي، والاستعاضة عنها بأمثال شعبية تجد النزعة الفردية وتسقط الحس الاجتماعي العام، مثل قولهم: «حشر مع الناس عيد» وتبرز فيه ظاهرة الاتكالية وتحويل القضية العامة إلى عهدة الآخرين مثل: الجيش، الأحزاب، الإمام المهدي، العلماء، دول الجوار الهيئات الدولية، وفي حالة من هذا القبيل يكون الاحتلال الأجنبي قريباً من ذوقه ومزاجه العام، وسيرى ذلك نوعاً من الفضل يقوم به الأجنبي لصالحه.

ومن هنا نجد الغرب يؤكد باستمرار على الغزو الفكري والفساد الأخلاقي كركائز داخلية للاستعمار؛ لأنّ ذلك يؤدي إلى سقوط الحس الاجتماعي العام وتضخم النزعة الفردية في المجتمع على حساب الوجود النوعي للأُمة.

ان الشجرة مدينة في وجودها للبستان، والفرد لا يستوفي وجوده المعنوي

والمادي إلّا من خلال وجود الأُمة، والفرد الذي لا يفهم معنى الأُمة فرد مريض مستلب مغرور وقع ضحية لابتسامة خادعة من الأجنبي.

برنامج الإسلام في حماية الأمة من النزعة الفردية

ومن أجل ذلك كان للإسلام برنامجاً حافلاً ومتكاملاً في مجال مكافحة النزعة الفردية وحماية الأُمة من مظاهرها.

فصلاة الجمعة والجماعة، والدعاء بلفظ الجماعة لا الفرد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذم الانانية، والحث على الايثار، ونشر قيم المحبة الإنسانية، وتمثيل المؤمنين بالجسد الواحد الذي إذا اصيب أحد اعضائه بمرض تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، والدعوة إلى الاهتمام بأُمور المسلمين، وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم منهم، وإلى أن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، والتحذير من تحوّلهم إلى غثاء كغثاء السيل، ومن تفرقهم وذهاب ريحهم وسقوط شوكتهم، وإضفاء خصائص رفيعة على الأُمة الإسلامية كالتي ذكرناها في الفصل السابق، والتأكيد على استحضار ذكر النبي (ص) في الأذان والصلاة والخمس لقرباه والصلاة عليه عند ذكره بوصفه المؤسس لهذه الأُمة. كل هذه القيم والأحكام والمؤشرات وما هو على غرارها مما لسنا بصدد استقصائه دليل على برنامج اسلامي حاشد هدفه كبح جماح النزعة الفردية وحماية الأُمة من مخاطرها.

ويكفي أنّ الأُمة الإسلامية تقوم على أساس رصين هو الإسلام نفسه، وأنّ تعريف الأُمة في الإسلام هو الجماعة ذات المقصد الواحد.

وهذا ما جعلها أُمة مقدسة تستحق الامتيازات المترشحة من الهدف عليها والتي مر ذكرها في الفصل السابق، وهي أُمة مكعبة تتطور في أُفق الزمان حتى تستوعبه، وتتطور في افق المكان حتى تستوعبه وتتطور في أُفق الحياة حتى

تستوعبه أيضاً، وهذا ما تنفرد به الأُمة المتمحورة حول هدف مقدس، فهي أُمة يدخل في عضويتها الزمان كلّه بكل أجياله منذ زمن آدم(ع) وحتى زمن المهدي (ع)، وتتسع للمكان كله وبوسعها ان يدخل في عضويتها كل إنسان في اي نقطة من الأرض إذا ما عاد إلى فطرته واذعن بالشهادتين، وتتسع لكل تطور نوعي في الحياة إضافة إلى التطور المادي، التطور المادي ينقل الإنسان من ركوب الحيوان إلى ركوب الطائرة، وهو تطور مكفول بحسب نظام الخلقة الإلهية للإنسان، والتطور النوعي الذي تنفرد به الأُمة ذات الهدف المقدس يتمثل في هدف مقدس يقود الطائرة نحو الخير ويمنعها من ارتكاب الشر، وهذا التطور المكعب خصيصة تنفرد بها الأُمة الإسلامية بما هي أُمة ذات هدف مقدس.

وواضح أنّ الانتماء لأُمة بهذا الحجم والنوع فخر يحلم به كل فرد، وما تتضخم النزعة الفردية إلاّ في فرد تصنع له أُمة وهمية محدودة منهزمة ذليلة على طول الخط.

وحينما يقوم الغرب باصطناع دويلات هزيلة ومجتمعات خاوية ويتحدى الإسلام من الخارج بإسلام ليبرإلى ومن الداخل بالطائفية المقيتة، يريد من ذلك كله اصطناع فرد يرى افتخاره في أن لا ينتمي لأُمته المهزومة الذليلة الهزيلة.

الفصل الخامس

فقه الثورة والمقاومة

منابع الثورة في الفقه الإسلامي

الفقه كائن حي يتسم بالثبات من جهة والمرونة من جهة أُخرى، ومن يدرس الفقه يحتاج إلى رؤية أصيلة وصحيحة تمكنه من فهم المعادلة الدقيقة والمتوازنة بين الثبات والمرونة، بحيث يضع كل شيء في موضعه، ولا تختلط عليه الجهتان فيضع الثبات في موضع المرونة والمرونة في موضع الثبات، ولا ينتهي الأمر إلى فقه يتلاعب به الشيطان من حيث لا يشعر الإنسان، كما نبه على ذلك الإمام الخميني (رض) فيما نقلناه من كلامه الشريف.

والموازنة الدقيقة تتطلب رؤية عقائدية سليمة وأصيلة، وهو ما عبرنا عنه بعقيدة المقاومة، وشخصية متوازنة في ملكاتها واستعداداتها النفسية وهو ما عبرنا عنه بأخلاق المقاومة، وهذا معنى ما نؤكد عليه باستمرار من ان المقاومة هي وليدة أركان ثلاثة متداخلة مع بعضها، فإذا اختل أحدها انتفت. فمن يمتلك عقيدة سليمة وشخصية متوازنة يجد نفسه تتجه بشكل تلقائي نحو فقه مقاوم، ومن يفتقد ذلك يجد نفسه تتجه بشكل تلقائي نحو فقه الهزيمة والاستسلام، ويتعسر عليه فهم مقولة الفقه المقاوم.

وكمثال على ذلك نجد ان النزعة الفردية التي تسوق المجتمع نحو الانحلال والهاوية إذا ما تحكمت في النفس وانعكست على الحركة الفكرية في المجتمع وتحكمت بالنظرة الفقهية كانت النتيجة عبارة عن نظرة فقهية قاصرة عن بلوغ الأصالة الإسلامية، وهذا ما تنبه له آية الله الشهيد السيد محمّد باقر الصدر في بحثه الموسوم

«الاتجاهات المستقبلية لحركة الاجتهاد»[1].

وذلك باعتبار أنّ الشريعة قائمة على أساس رؤية اجتماعية شاملة ومتكاملة فإذا ما سلطت عليها رؤية فردية كانت النتيجة عبارة عن فقه غريب عن روح الشريعة الإسلامية. ومفروضنا من الفقيه دائماً هو ذلك الإنسان المشبع بعقيدة تامة، وهو ما يعبر عنه بشرط الإسلام والإيمان في الاجتهاد، وملكات نفسانية تامة وهي ما يعبر عنه بالعدالة، والفقيه الحاوي لهذين الشرطين وحده القادر على استخدام آلة الاجتهاد.

إنّ منبع المقاومة في الشريعة الإسلامية عبارة عن أُمور ثلاثة:

١ ـ تعليل الشرائع السماوية باقامة العدل ومكافحة الظلم ،قال تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه بأس شديد..**﴾[2]، والشريعة التي لا تقيم العدل ولا تكافح الظلم تنقض مبررات وجودها وتفقد هويتها كشريعة سماوية جاءت لتنصر المظلوم وتكافح الظالم.

٢ ـ تعليل الشرائع بجلب المنافع ودفع المفاسد، قال تعالى: ﴿**ومن اعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم**﴾[4].

فمصلحة الإنسان لا تتحق إلّا في إطار العدل والحق، وكل مصلحة خارج هذا الإطار أنما هي مصلحة وهمية كاذبة، فإذا أخذ كل ذي حق حقه تحققت مصلحة

---

(١) انظر: الملحق الثاني الذي سنتطرق فيه إلى أثر النزعة الفردية في اختزال الرؤية الاجتماعية من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) الحديد: ٢٥.

(٣) طه: ١٢٤.

(٤) المائدة: ٦٦.

الآخذ والمعطي معاً، وإذا طلب الآخذ أكثر ورضي المعطي بذلك مجبراً فليس في ذلك مصلحة لا للآخذ ولا للمعطي، بل في ذلك مفسدة للطرفين وللمجتمع أيضاً. فالآخذ سيطغى أكثر والمعطي سيضمحل أكثر، والمجتمع سيهدده الظلم والفساد. فلا بد للشريعة من أن لا تسمح بظهور مفهوم للمصلحة خارج دائرة الحق والعدل المتمثلين بالشريعة نفسها، لأنّ ظهور ذلك يعني الانزلاق نحو الليبرالية والعلمانية وسقوط العدل وانهيار الحق.

٣ ـ انطواء الشريعة على مفهوم حقوقي متكامل على المستوى الفردي والاجتماعي والدولي، الأمر الذي يجعل هذه الشريعة حساسة على حدودها والخط الفاصل بينها وبين غيرها في هذه المستويات، فعلى المستوى الفردي هناك مؤمن طاهر وكافر نجس، وعلى المستوى الاجتماعي هناك حدود في الزواج بين المسلمين والكفار، وعلى المستوى الدولي هناك دار الإسلام ودار الكفر.

ومجموع هذه الأُمور الثلاثة يكون فقه المقاومة المنتشر في عموم الشريعة ومختلف أبوابها، والذي يأتي كتجسيد لشعار التوحيد القائل: لا إله إلّا الله، باعتبار أنّ فقه المقاومة هو التعبير القانوني عن نفي الشرك المؤدي إلى الظلم والفساد وإثبات التوحيد المؤدي إلى العدل والسعادة البشرية. فالعقيدة تنفي الشرك وتثبت التوحيد، والشريعة تجني الثمار الإنسانية المترتبة على ذلك والمتمثلة بنفي الظلم والفساد وإثبات العدل والمصالح الحقيقية للإنسان، بمعنى أنّ المقاومة هي جوهر الشريعة المنتشر في مختلف أبوابها ومجالاتها، فنجدها في الطهارة والصلاة والصوم والخمس والزكاة، والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمكاسب المحرمة وأبواب أُخرى.

والمقاومة والثورة في الفقه الإسلامي على قسمين، قسم يمكننا أن نطلق عليه تسمية فقه المقاومة والثورة بمعنى خاص، وهو ما يشمل كتاب الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر وكتاب الجهاد والدفاع، وقسم آخر يمكننا أن نطلق عليه تسمية فقه المقاومة بالمعنى العام، وهو ما يعم كل حكم شرعي في مختلف أبواب الفقه مما له بعد متعلق بالمقاومة والثورة، ويأتي مكملاً ومتمماً للمعنى الخاص، وله دور في نشر وتعميق المقاومة بحيث تأخذ صفة شمولية في حياة الإنسان المسلم، بحكم أنّ الإسلام تركيب من نفي وإثبات، وأنّ مساحة الإثبات مطابقة لمساحة النفي الشاملة لمختلف مجالات الحياة الفردية والاجتماعية. إنّ أحكام الإسلام على نوعين:

١ ـ أحكام تأسيسية، كأحكام الصوم والصلاة والزكاة وسائر ما جاء به الشارع المقدس اختراعاً وإيداعاً وابتداءً.

٢ ـ أحكام إمضائية أمضى فيها الشارع أحكام غيره وهي على ثلاثة أقسام:

أ ـ إمضاء لشرائع سابقة كالكثير من أحكام الحج والقضاء والنكاح والمعاملات التي كانت من بقايا تراث النبوة الإبراهيمية في الجزيرة العربية.

ب ـ إمضاء لسير عقلائية، كإمضاء الشارع لسيرة العقلاء بالتملك بالحيازة، وإمضائه للعمل بخبر الثقة، وتقليد الجاهل للعالم.

جـ ـ إمضاء لاحكام عقلية وعقلائية، كحكم العقل بحسن العدل وقبح الظلم وحكمه بحسن الصدق وقبح الكذب. وما ورد في الكتاب والسنة من نصوص بهذا الصدد أنما هي بمثابة الإرشاد إلى تلك الأحكام العقلية.

وقد خفي هذا التقسيم على كثير من الباحثين والمؤلفين، فتصوروا أنّ الإسلام أمضى تراث الجاهلية العربية وأحكامها، مع أنّ الإسلام لم يفعل ذلك، وليس فيه شيء قليل ولا كثير من تراث الجاهلية، وهذه الدعوى تعني نسبة النقص إلى الإسلام، وكيف يثور الإسلام على الجاهلية من جهة ويأخذ بتراثها من جهة أُخرى؟ فهل هذا إلّا التناقض؟، وكيف يحتاج الوحي على رفعته وقداسته إلى تكميل أمره بجاهلية جهلاء؟ نعم ما كان من الأقسام الثلاثة المذكورة أمضاها، وهي تعود

إمّا إلى شريعة سابقة، أو سيرة عقلائية، أو أحكام عقلية، وليس فيها شيء يعود إلى الجاهلية بما هي هي.

وعند التأمل نلاحظ أنّ القسم الثالث من الأحكام الإمضائية يمتاز بأنّه الأصل لما عداه، لأنّ الهدف من الأحكام التأسيسية والشرائع السابقة والسير العقلائية هو إرجاع الناس إلى الفطرة التي كانوا عليها، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتعود بالإنسان إلى العفة والنقاء الذي كان عليه في أصل خلقته، والصوم يؤدي إلى التقوىٰ والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، والحج حرب على الشرك وصقل لفطرة التوحيد، والتملك بالحيازة طريق من طرق حسم النزاع بين الناس وإرجاعهم إلى حالة الوحدة التي يريدها الله منهم، قال تعالى: **﴿كان الناس أُمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾**(١).

وهذه الآية تتحدث عن مرحلة ما قبل نبوة نوح(ع) وما بعدها، وتبيّن أنّ الناس كانوا قبل نوح (ع) أُمة واحدة في حالة فطرية ثم اختلفوا فبعث الله الأنبياء وأنزل الشرائع لإرجاع الناس إلى ما كانوا عليه من خلال حلّ النزاعات الطارئة بينهم، فالشرائع السماوية وسيلة لإرجاع الناس إلى الفطرة، وهذا الهدف أمر ممكن وسيتحقق في آخر الزمان على أكمل صورة وأتم حالة عند قيام الدولة المهدوية التي ستكون بمثابة عملية استرداد تاريخي لمرحلة الفطرة البشرية (٢) وهذا معنى قول الإمام علي(ع) في تفسيره للبعثة النبوية حينما قال: **«فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم انبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسيَّ نعمته، ويحتجُّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا**

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) يقول الشيخ عبد الله الجوادي الآملي في كتابه «فلسفة حقوق بشر» ص ٤٤: إن كل القواعد الاصولية والفقهية ترجع بالتحليل النهائي الى حسن العدل وقبح الظلم.

لهم دفائن العقول»[١].

إنّ العدل والحق وأمثالهما من القيم مقولات جاءت الشريعة من أجل تكريسها وتجسيدها وهي المبرر السماوي المعلن لبعث النبوات وإنزال الشرائع، باعتبار عجز الإنسان بمفرده عن تحقيق ذلك، وما كان بهذه المثابة فليس بوسع الشريعة أن تتخطاه بحال من الأحوال؛ لأنّ ذلك نقض للغرض وهو قبيح في العقل وعند العقلاء، ولذا لا يمكننا أن نتصور شريعة سماوية تأمر بترك الظلم والسكوت على الظالم، وقد مضى في بحث الإطلاق المكعب أنّ الحقيقة لا بد إن تتسم بصفة الإطلاق المكعب، والعدل بما هو حقيقة عقائدية وتشريعية وإنسانية لا بد أن تظهر في كل زمان ومكان وقضية، بمعنى أنه حقيقة فوق الزمان والمكان والقضايا، ولا بد أن يتجلّىٰ في هذه الأبعاد الثلاثة، ولذا فهو حقيقة خالدة يبحث عنها الإنسان في كل زمان، وحقيقة عالمية يبحث عنها الإنسان في كل صقع من أصقاع الأرض ومن أي بلد أو قومية كان، وحقيقة شمولية يبحث عنها الإنسان في مختلف قضايا الحياة ومسائلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحقوقية والدولية.

والدليل العقلي الذي يعتبر المصدر الرابع للشريعة الإسلامية يعود في جوهره إلى هذه القيم التي يعبر عنها بأحكام العقل العملي.

كتب السيد الشهيد محمّد باقر الصدر يقول: «إن أحكام العقل النظري قد تستقل في إثبات حكم شرعي، وأما العقل العملي فهو وحده لا يكفي لإثبات حكم شرعي ما لم نضم إليه حكم عقلي نظري سواءً كان حكماً منطبقاً على فعل العبد كحكم العقل بقبح الكذب مثلاً، فإنه بحاجة إلى ضم حكم العقل النظري بالملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع، أو كان متعلقاً بفعل المولى كحكمه بقبح تكليف

(١) نهج البلاغة من الخطبة الأُولى.

العاجز مثلاً فإنه لا يُستنبط منه حكم شرعي إلّا بضم حكمه النظري باستحالة صدور القبيح من المولى»[1]، ولأنّ الكتاب والسنة دليلان هدفهما البعيد إرجاع الإنسان إلى الحكم العقلي. لذا يمتاز الحكم العقلي بامتيازين على الحكم المستفاد من الكتاب والسنة هما:

١ ـ إنّ أدلة الكتاب والسنة تقبل التخصيص والاستثناء والتقييد، بينما الدليل العقلي لا يقبل التخصيص والاستثناء، فالصلاة لا تجب على الحائض والنفساء، بينما وجوب العدل لا يقبل التخصيص بإنسان دون آخر ولا بزمان دون آخر ولا بحالة دون أُخرى.

٢ ـ عند التعارض بين الأدلة يتم تقديم الدليل العقلي على أدلة الكتاب والسنة، ويعد الدليل العقلي وارداً على أدلة الكتاب والسنة[2]، ومعنى الورود هو أنّ الدليل العقلي سيكون دليلاً على انتفاء موضوع أدلة الكتاب والسنة ويجعلها سالبة بانتفاء الموضوع.

وهذا ما يبين أنّ لقضية الحق والعدل ومقاومة الظلم والباطل أساساً راسخاً لا يقبل المسامحة والإهمال والتلاعب، وأنّ الإهمال والمسامحة والتلاعب يعني أنّ الدين قد أبطل نفسه بنفسه، ونقض الغرض من وجوده، والدين الذي يتسامح في قضية العدل أنما يتسامح في قضية التوحيد، إذ لا إله في الوجود إلّا الإله العادل الآمر بالعدل، ولا وجود لإله يتسامح في قضية العدل، ولا يسكت الساكت عن الحق حتى يعود شيطاناً أخرسَ، وهذا ما يفتح أبواب البحث في إمكانية وجود عناوين شرعية مؤثرة سلباً على هذه القضية.

---

(١) بحوث في علم الاصول ١: ١٢١.

(٢) المصدر نفسه ٧: ٢٥.

الشريعة بين العنوان الأولي والعناوين الثانوية

يحدثنا التاريخ أنّ الإمام الصادق(ع) وقف موقفاً شديداً ضد القياس، وقال فيه كلمته المشهورة: «إنّ السنة إذا قيست محق الدين»[1]، وهذه الكلمة تفيد أنّ هناك تحديات تواجه الشريعة من شأنها أن تقضي على حكمة وفلسفة التشريع ومعنى وجوده في الحياة، وتحوله إلى حالة قشرية ظاهرية، وتجعله فاقداً للخواص والأهداف المطلوبة منه.

أن الاجتهاد وسيلة لاكتشاف أصالة الشريعة، وآلة لتجسيد أهدافها المقدسة في كل مكان وزمان، عبر اكتشاف الصور العصرية المناسبة لثوابت الشريعة خلافاً لما يحاوله البعض من تحويل الاجتهاد إلى وسيلة للفرار من الشريعة والتنكر لثوابتها والانزلاق من أصالتها، عبر التأكيد على مقولة المرونة والتجديد والتسامح والاستجابة للتغيرات ونبذ التطرف بشكل يؤدي إلى ظهور فقه رخيص يسترضي الطواغيت، ويحول الشريعة إلى صناعة لفظية يديرها أتباع الطواغيت الذين يجعلون الدين لعقاً على ألسنتهم يديرونه ما درت معايشهم وأنانيتهم، كما قال الإمام الحسين(ع).

صحيح أنّ الدين فيه ثابت ومتغير، لكن المتغير حالة ثانوية وشكلية وتابعة للثابت، والذين يؤكدون على الجانب المتغير والمرن في الإسلام كالذين يتركون محكمات القرآن ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. وليس معنى التجديد أن يتنكر الإنسان للثوابت، بل معناه أن يبحث الإنسان عن الصورة

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي، باب ٦٢، ح ١٠.

العصرية المناسبة لطرح ثوابت الشريعة وجوهرها العميق المتمثل بإقرار العدالة ونبذ الظلم. وتأكيد الإسلام على الاجتهاد تأكيد على قابلية الزمان والمكان مهما امتدّا على التأقلم مع ثوابت الشريعة، ووظيفة المجتهد ليست الفرار من ثوابت الشريعة، وإنما وظيفته اكتشاف الصورة التي يمكن من خلالها أقلمة الزمان والمكان طبقاً لهذه الثوابت، ذلك أنّ الشريعة شريعة بثوابتها، فإذا فقدت هذه الثوابت لا يبقى محل للاجتهاد، والشريعة التي تفقد وضوحها وقاطعيتها وثباتها تفقد معنى وجودها وصبغتها السماوية الإلهية، وتصبح حالة مطاطة تقبل الانطباق على كل موقف، والاصطباغ بكل صبغة، وتضمحل فيها الحدود الفاصلة بين الشر والخير وبين الحق والباطل على غرار مقولة: «سيدنا يزيد قتل سيدنا الحسين».

وقد ذكرنا أنّ المقاومة مفهوم يعود إلى الأحكام العقلية، وأنّ الأحكام العقلية لا تقبل التخصيص والاستثناء، وهنا يتولد سؤال عن علاقة المقاومة والأحكام العقلية عموماً بالعناوين الثانوية التي تمثل حالات استثنائية في الشريعة الإسلامية، لأنّ أحكام الشريعة الإسلامية تنقسم إلى أحكام بالعنوان الأوّلي مثل إباحة شرب الماء، وأحكام بالعنوان الثانوي مثل وجوب شرب الماء إذا توقف على ذلك حفظ حياة الإنسان. والفرق بين العنوان الأوّلي والعنوان الثانوي فرق بين الأصل والاستثناء، وحينما يقال: إنّ الأحكام العقلية لا تقبل الاستثناء فمقتضى ذلك أن لا يطرأ عليها عنوان ثانوي يغيرها من حالة إلى حالة أُخرى، ولا يجري عليها مثال شرب الماء. مع أنّنا نلاحظ أنّ التقية تجري في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد يجري بعضهم عناوين ثانوية أُخرى مثل: الضرورات تبيح المحظورات، وتقديم الأهم على المهم. وقاعدة رفع الحرج والعسر.

والجواب:

إنّ مبدأ الشريعة في علاقتها مع المكلفين هو الفضل والامتنان عليهم، وهذا

المبدأ يقتضي منها أن تسوق المكلفين نحو العدالة ومكافحة الظلم كأصل، وتضع للحالات الاستثنائية حكمها الخاص بها في إطار ذلك، بمعنى أنّ العنوان الأوّلي فضل وامتنان والعنوان الثانوي كذلك، وأنّ أحدهما مكمل للآخر، والعنوان الثانوي لا يمثل حالة فرار من العنوان الأُوّلي. مثال ذلك ما لو نودي للجهاد فاستجاب ألف شخص لهذا النداء، ثم فكّر القائد بأنّ الحملة الجهادية تحقق الغرض المطلوب منها بـ٩٠٠ مجاهد، فجاءه أفراد وطلبوا منه الرخصة بالانصراف فأعطاهم الرخصة، وكان عددهم أقلّ من مئة. فنداء الجهاد امتنان على المكلفين، وإعطاء الرخصة لطالبيها في حدود وشروط معينة امتنان على المنصرفين كذلك، ومظهر الامتنان في الانصراف مكمل لمظهر الامتنان في نداء الجهاد، لأنّ انصراف المنصرفين لم يكن فراراً ولا مخلاّ بالجهاد، والذين يجعلون العنوان الثانوي حالة فرار من العنوان الأُولى أنما يسيئون التعامل مع الشريعة ويحّولونها إلى صناعة ألفاظ، ومنشأ الخلل في سلوكهم معها يعود إلى أنهم يدخلون إلى الشريعة ابتداءً من جهة العنوان الثانوي، ويجعلونه الأصل في علاقتهم معها خلافاً لما هو المطلوب من دخول الشريعة من بوابة العنوان الأُوّلى وعدم الصيرورة إلى العنوان الثانوي إلاّ في سياق خاص لا يكون فيه فرار ولا إخلال بالعنوان الأُوّلى.

ومشكلة هؤلاء تعود إلى تغلغل النزعة الفردية فيهم واستحكامها في نفوسهم، وطبقاً لهذه النزعة يرى كل فرد نفسه منذ البداية مشمولاً بالعناوين الثانوية الترخيصية وغير مشمول بالعنوان الأُوّلى الإلزامي، وهذه عملية تحايل على الشريعة تؤدي إلى محق الدين وانتفاء حكمة التشريع.

أنّ أصالة الشريعة في عناوينها الأوّلية، والمسارعة إلى العناوين الثانوية سلوك الضعفاء من ضحايا النزعة الفردية الأنانية الانتهازية التبريرية الذين يتخذون آيات الله هزوا، وأحكامه سخريا، إنّ الأُمة الضعيفة تميت الدين القوي،

والأُمة القوية تحيي الدين الميت، وليس بوسع الضعفاء الخائفين المذعورين أن يفهموا حقيقة من الحقائق على وجهها، وشأنهم الدائم تقليب الأُمور، وقد ضرب القرآن الكريم مثالاً للمؤمنين بقوله تعالى: **﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾**[(١)]، فلم يبحثوا عن العناوين الثانوية وإنما تمسكوا بالإيمان بالله وازدادوا إيماناً إلى إيمانهم.

قد يسأل شخص عن حكم مصافحة النساء في البلاد الغربية التي تعتبر ذلك رسماً اجتماعياً طبيعياً ينتقد الممتنع عنه انتقاداً شديداً، وهنا يأتي المسارعون إلى العناوين الثانوية فيجرون قاعدة الأهم والمهم، وقاعدة رفع الحرج ليفتوا بالجواز في هذه الحالة على حساب حكمة التشريع، فإذا جاز هذا العمل لزيد وعمر وخالد... الخ فمن الذي سيبين حكم الإسلام للغربيين؟ ولماذا يتراجع المؤمن عن هويته ولا يتنازل الغربي الليبرالي عن هويته؟ ومن الأُولى بالصلابة والتمسك بالهوية، المؤمن المنتسب لدين سماوي خاتم أم الليبرالي؟ لماذا ننظر للمسألة من زاوية فرد ولا ننظر لها من زاوية أُمة ورسالة وهوية وحضارة؟ ولماذا نساعد هذا الفرد على الانهيار والضعف والتراجع ولا نساعده على العزيمة والبأس والمقاومة والثبات؟ ألا يعني ذلك أنّ المفتي يعاني من الانهيار قبل المقلِّد؟ إنّ الشريعة حقيقة ربانية قائمة على أساس النظرة النوعية للإنسان، ومن يريد أن يفهمها عليه أن ينظر بالمنظار نفسه، فإذا ترك النظرة النوعية وتمسك بالنزعة الفردية لم يستطع أن يفهم الشـريعة، لا عناوينها الأوّلية ولا الثانوية؛ لأنّ النزعة الفردية ترمي بالإنسان خارج الشريعة، ومن يساير هذه النزعة يبدأ مع الشريعة من جهة العناوين الثانوية، ثم ما يلبث أن يتحايل أكثر فإذا وجد نفسه في يوم من الأيام غير مشمول بعنوان ثانوي حاول أن

---

(١) آل عمران: ١٧٣.

يعجز نفسه ويجعلها في حالة اضطرار حتى تصبح مشمولة بعنوان ثانوي ترخيصي، مثل قاعدة «الضرورات تبيح المحظورات» فيتعلل عن إعداد القوة حتى لا يؤمر بالجهاد، ويتعلل عن السعي للوحدة حتى يبرر الاحتلال والخضوع للأجنبي، ومن يتحايل إنما يتحايل على نفسه، ومن ضاقت عليه المقاومة والقوة والعدل فالجور والضعف والاحتلال عليه أضيق ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[(١)].

إنّ عناوين التقية والاضطرار وتقديم الأهم على المهم لا يمكننا أن نفهمها بشكل منفصل عن العنوان الأُوّلي كعنوان مهيمن على الشريعة، وعنصر الترخيص في هذه العناوين مساوق لعنصر الترخيص في الوجوب الكفائي بالنسبة للأفراد الذين يسقط عنهم هذا الوجوب، والمقاومة في كل عناوينها الشرعية من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع واجب كفائي يتوجه إلى عموم المكلفين في الأُمة فإذا انبعث إليه من به الكفاية سقط عن الباقين، فهذا السقوط ليس ترخيصاً بالمعنى الحقيقي للترخيص وليس حالة فرار عن التكليف، وقد جاء هذا الترخيص بعد ما أحرزت الشريعة تحقق التكليف، وبلغت هدفها المنشود، وكذلك التقية والاضطرار وغيرهما عناوين تأتي كمفردات تفصيلية في سياق المقاومة، والذي يقرر ذلك إنسان في ميدان المقاومة ينسق أعمالها وفعالياتها وليس إنساناً مذعوراً ولا مهزوماً ولا ساكتاً عن الحق؛ لأنّ الساكت عن الحق شيطان أخرس.

وليس المطلوب من المكلف أكثر من أن يسير في اتجاه المقاومة ويلعب دوراً ما فيها بمقدار ما هو مستطاع ولازم منها ومن مقدماتها السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعسكرية والتعبوية، والأمر بهذا المقدار لا يجري عليه شيء من العناوين الثانوية المذكورة ولا يقبل الرخصة والاعتذار والاستثناء، إذ

---

(١) النحل: ١١٨.

ليس هناك إنسان لم يزوده الله سبحانه وتعالى بشيء من القدرة على ذلك، وما يقال عن أصل المقاومة يقال عن درجتها أيضاً، فكل درجة ممكنة ومستطاعة يجب بذلها باتجاه تحقيق الهدف المنشود، ولا آفة على الشريعة والمقاومة كآفة النزعة الفردية الأنانية التي تجعل الإنسان بخيلاً قصير النظر يبحث عن علل ومعاذير وتبريرات يتصور أنه ينجو بها من خطر معين، بينما هي تخرّجه من النجاة وتوقعه في السقوط، كما أنّ القدرة والاستطاعة أمر لا يمكن إحرازه إلّا إذا خرج الفرد عن فرديته ودخل المحيط الاجتماعي، وهذا ما يعبر عنه بالعقل الجمعي، فالفرد حينما يجلس في بيته يتصور نفسه لا شيء، لكنه إذا خرج إلى الشارع وانخرط في مظاهرة شعبية تغيرت روحيته ومعنويته وأحسَّ بأنّه يملك كل شيء وأنّ عدوه لا شيء. وهكذا تتصاعد عنده روح المقاومة من الصفر إلى المئة، رغم أنه كان في البداية يناقش ويجادل ويتصور أنه لا يقدر على شيء، والشيء إذا وجب وجبت مقدمته، وإذا حرم حرمت مقدمته المؤدية إليه، فإذا توقفت المقاومة على أن يخرج الإنسان من فرديته ويدخل المحيط الاجتماعي وجب عليه ذلك. وبذا يتضح أنّ قاعدة رفع الحرج وقاعدة الاضطرار وأنّ «الضرورات تبيح المحظورات» لا مجال لها في موارد المقاومة، خاصة مع كون المقاومة واجباً كفائياً يتعلق بعموم الأُمة فإذا قام من به الكفاية سقط التكليف عن الآخرين، فليكن الأفراد المشمولون بهاتين القاعدتين من جملة من سقط التكليف عنهم بعدما ضُمن الهدف بغيرهم.

ثم إنّ الكلام عن هاتين القاعدتين في باب المقاومة نظري أكثر مما هو عملي، فما هي الضرورة التي تبيح المحظور في باب المقاومة؟ وما هو الحرج الناشئ منها والذي ينبغي رفعه بقاعدة رفع الحرج؟ فالمقاومة أشبه بعملية جراحية يحتاجها مريض حياته مهددة بالخطر، ولو لم تكن المسألة بهذه المثابة لما وجبت المقاومة، وحينئذ فرفع الحرج والاضطرار يقتضيان إجراء العملية الجراحية ولا يقتضيان إبطالها، إلّا

إذا قيل بأنّ المريض سيموت ولا فائدة من إجراء العملية، فهذا بحث آخر لا ينطبق على مورد المقاومة، أو قيل بأنّ دفع الخطر يمكن أن يتم بغير العملية الجراحية، وهذا لا يؤثر فيما نحن فيه، فالمقصود بالمقاومة كل عمل يؤدي إلى الاستقلال التام الناجز، وهو ما لا يتم إلّا بقوة قهرية.

أما إذا كان غرض المتعلق بهاتين القاعدتين هو العجز عن المقاومة، فالمطلوب في كل التكاليف بذل الوسع واستنفاذ الممكن في سبيل الهدف ولو بالحجارة، والعجز فرضية كاذبة ينفيها الواقع والتاريخ والقرآن، وقول القرآن: ﴿**وأعدّوا لهم ما استطعتم مِن قوّة**﴾ يدلل على أنّ القوة التي عند أهل الحق كافية إذا ما أُعدت للانتصار على أهل الباطل.

أمّا تقديم الأهمّ على المهم فهذا متوقف على بيان المقياس لما هو أهّم، فإن كان المقياس للحكم على موقف بأنّه أهم من المقاومة استحسانياً من الإنسان نفسه فلا نتبعه؛ لأنه يؤدي بنا إلى الخروج عن حيز الشريعة، بل إلى مناقضة الشريعة، كما سيأتي ذلك مفصلاً عما قريب. وإن كان شرعياً فنتبعه، ولكن اتباع الأهم في هذه الحالة، وحتى في الحالة الأُولى التي رفضناها من الأساس، لا يلغي اتباع المهم، بل يعني ترتيب سلسلة الأولويات، وجعل الأهم من قبيل المقدمة للمهم، فإذا حكم الشارع بلزوم حفظ النظام العام وعدم جواز الإخلال به بنحو من الأنحاء، لما يؤدي ذلك إلى الفوضى وهدر النفوس والأموال، فهذا لا يعني إنكار المقاومة والثورة أساساً، بل يعني أنّ على القائمين عليهما مراعاة هذه القيمة الشرعية الإنسانية في عملهم، والتخطيط لخطوات عملية من شأنها ضمان الأمن العام أثناء فترة الثورة وبعدها، بحيث لا تكون الثورة شيئاً على حساب الأمن العام، ومن الممكن للإنسان أن يجمع بين مكافحة الظلم وحفظ الأمن العام في سياق خطة واحدة، ووصية الشارع بحفظ النظام العام انما هي بلحاظ مكافحة الظلم، فإذا كانت الثورة تعني

الفوضى واختلال النظام فهذا من قبيل نقض الغرض، ومكافحة للظلم بوسيلة تؤدي إلى ظلم أشدّ، والسكوت عن الحاكم الظالم في هذه الحالة أنما يجوز، بل قد يجب بلحاظ أنه مكافحة لظلم أشدّ، والشريعة تدور مدار مكافحة الظلم لذا توصي بالسكوت على الحاكم الظالم في هذه الحالة التي هي ليست استثناءً ولا تخصيصاً لحكم العقل بمكافحة الظلم، لكنه سكوت مؤقت يجب العمل على إزالة أسبابه، والسعي بالتدريج من مكافحة الظلم الأشد إلى مكافحة الظلم الأقل شدّة، من مكافحة الظلم الذي يمكننا السيطرة عليه بسهولة إلى مكافحة الظلم الذي يمكننا السيطرة عليه بصعوبة، وكما تجب الثورة على النظام الجائر يجب السعي لإنجاز المقدمات المؤدية إلى حفظ النظام العام بعدها، ووظيفة الإنسان الدائمة إمّا في الثورة، وإمّا في مقدماتها ولوازمها، وإذا نجحت الثورة في مكان وجب القيام بما ينبغي القيام به تجاه ظلم يقع في مكان آخر من الأرض ونصرة مظلومين هناك، فلا يخلو الإنسان بحال من الأحوال من وظيفة مكافحة الظلم، وهذا هو المعنى السامي والهدف المقدس للحياة، وبدونه يصبح الإنسان موجوداً عاطلاً لا لون ولا طعم ولا رائحة لوجوده، وحينئذ فتقديم الأهم على المهم هو بمعنى تقديم ما هو سهل على ما هو صعب في باب المقاومة، وتقديم ما هو مقدمة على ذي المقدمة، وتقديم ما هو ممكن الآن على ما هو ممكن لاحقاً، ولا يعني بحال من الأحوال إيقاف عجلة مكافحة الظلم التي يجب استمرارها ما دام هناك مظهر من مظاهر الظلم قليلاً كان أو كثيراً. وسيأتي أنّ خط العدالة ثلاثة أثلاث، ثلث إقامة النظام الإسلامي على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وثلث الدفاع، وثلث الجهاد من أجل السيطرة على بؤرة الكفر والظلم. وثلث الدفاع مقدم على ما قبله وبعده، وهذا التقديم يعني أنّ الإنسان مشغول دائماً بحفظ العدالة، بمعنى أنّ الوظيفة الشرعية لا يمكن أن تدور بين العدالة واللا عدالة، بل هي تدور بين ماهو أهم ومهم من خط العدالة.

وأمّا ما ورد عن النبي (ص) من إرجاع شخص مجاهد إلى أُمّه وأبيه كي يؤنسهما واعتبار ذلك أفضل من الجهاد، فهو بلحاظ الوجوب الكفائي للجهاد، والمهم أنّ الشخص نفسه قد استجاب لنداء الجهاد، وبوسع القائد أن يرخص من يمكن ترخيصه، وبوسعه أيضاً أن يعين التكليف على شخص بعينه فيصبح التكليف عينياً عليه، وكلما تعين التكليف على شخص في الجهاد أو الدفاع أو الأمر والنهي أصبح التكليف عليه عينياً رغم أن أصل التكليف كان كفائياً.

وهذا كلّه موافق لما أسلفناه من أنّ الأحكام العقلية لا تقبل التخصيص والاستثناء، وهو من مسلمات علم الأُصول، ويبقى الكلام في التقية والمصلحة.

أمّا التقية فالتأمل فيها يجعلنا ننفي أن تكون حالة استثناء وإسقاط للمقاومة، فهناك نار ورماد ونار تحت الرماد، والرماد هو السكون والاستسلام المرفوض، والنار هي المقاومة الإيجابية بحدها الأعلى الذي استطاعه الإنسان ووجب عليه القيام به، وإذا لم يتمكن منه انتقلت وظيفته إلى الحد الأدنى الذي لا يسقط بحال من الأحوال، وهو التقية التي تعني ناراً تحتفظ بنفسها تحت الرماد، توهم الظلم وتخدعه بأنها غير موجودة، لكنها موجودة ومتوثبة تنتظر الفرصة المناسبة للظهور، وتعمل لنفض الرماد عن نفسها، وتسعى لتحصيل هذه الفرصة، التقية تقول للإنسان: إذا لم يكن بوسعك أن تكون لهيباً يتلظّىٰ فلا يجوز لك أن تصبح رماداً، بل عليك أن تبقى جذوة متقدة تحت الرماد، وذلك أضعف الإيمان والحد الأدنى الذي ينبغي الاحتفاظ به على كل حال، لأنّ مكافحة الظلم واجب لا يقبل الاستثناء والإسقاط بحال من الأحوال، وإذا لم يكن بوسع الإنسان أن يكون ثورياً في هذه اللحظة فبوسعه أن يحتفظ بالخزين الثوري للحظة قادمة يخطط لتحويلها إلى فرصة ثورية، وكأنّ التقية حصانة ضد الاستسلام والهزيمة وفقدان روح المقاومة، وضمانة لاستمرار روح الثورة والتغيير في الواقع الإنساني، وهي جزء من ظاهرة تشريعية كبرى تتمثل

بدوران الشريعة بين الكمال ودفع النقيصة، الأصل في الشريعة أنها تسوق الإنسان نحو الكمال المتمثل بواقع إنساني يكافح من أجل العدل والكرامة والأخلاق والسلام، لكنها في الوقت نفسه تنظر إلى واقع يحتاج إلى شيء من المرونة وتجد فيه حالات لا تساعدها الشروط الموضوعية على الوصول لحد الكمال فتأتي وتضع أحكاماً وظيفتها الحيلولة دون الوقوع في النقص، لأنّ الشريعة لا يمكن أن تقبل بحال من الأحوال بالنقص، ولا يمكنها أن تلغي نفسها كقائد نحو الكمال، وهذه الظاهرة قائمة في أبواب واسعة من الشريعة، ومنها التقية، وليس للإنسان أن يختار التقية ابتداءً، إنما يختارها اضطراراً عندما يفتقد هو الكمال المتمثل بالمقاومة الإيجابية الفعالة، وليس له الإقامة على التقية على نحو دائم، بل عليه السعي للانتقال إلى حد الكمال بتهيئة المقدمات المؤدية إليه.

وبعبارة اخرى، ان التقية لا يمكن أن تكون بمعنى اللاابالية وترك الوظيفة، فهذا بمثابة نسخ الإسلام، وانما هي بمعنى تنظيم اولويات الوظيفة في سياق هادف، كل زمان بحسب ظروفه، وكل مؤمن مكلف بالدفاع عن الإسلام وتطبيقه كل بحسب قدرته وظروفه الزمانية والمكانية، وفي سياق اولويات هادفة، فتعطى الاولوية للأصول على الفروع وللأهم من الأصول على المهم منها كلما حصل التزاحم وضاق الوسع عن القيام بالمجموع، وهذا ما قام به الأئمة(ع)، فالإمام عليّ(ع) في فترة ما بعد النبيّ(ص) ترك الدفاع عن الامامة لصالح الدفاع عن أصل الإسلام، والأئمة من بعد الحسين فعلوا الشيئ نفسه، ولو انهم انشغلوا بمكافحة السلطات القائمة لما حصلت لهم فرصة لبيان معالم الشريعة وحقائقها. ولاختفى أمر الإسلام ولظهرت المذاهب الفقهية والكلامية الأُخرى وحدها في الساحة واختفى الحق عنها، فالتقية في سيرة الأئمة(ع) تعني تنظيم اولويات الوظيفة وليس إلغاءها، وفي زماننا يجب علينا ذلك بحسب ظروفنا وما نستطيع انجازه بحسب ما هو المتعارف عند عموم

البشر، ومن غير المعقول أن نحاكي عمل الأئمة(ع) لأن الاولويات بحسب الزمان، ولأن للأئمة(ع) ما ليس لغيرهم ولأن الدين قد كمل بيانه بهم، ولهم من هذه الجهة اولويات خاصة بهم لا يحق لغيرهم محاكاتهم بها، وعلى هذا فالتقية كعنوان ثانوي تلعب دوراً مكملاً للعنوان الاولي، ولا تكون لاغية له بحال من الأحوال، والوظيفة الشرعية لايمكن تحديدها بدقة من دون تنظيم اولويات وجمع العنوان الأولي مع العناوين الثانوية للشريعة في محل واحد.

المصلحة في الشريعة الإسلامية

هناك أربعة مجالات للبحث في العلاقة بين المصلحة والشريعة الإسلامية هي:

١ ـ دور الشريعة في ضمان وتشخيص المصلحة الإنسانية.

٢ ـ هل المصلحة مصدر من مصادر التشريع؟ وهل للمصلحة دور في الاجتهاد؟

٣ ـ تعيين الأهم والمهم في المصالح الإنسانية.

٤ ـ ارتباط مواقع الولاية الشرعية بالمصلحة.

ولابد من الخوض في هذه المجالات واحداً بعد الآخر حتى يتضح لنا هل أنّ المصلحة مؤثر سلبي أم إيجابي في المقاومة؟

أمّا المجال الأوّل فمما لا شك فيه أنّ المصلحة من الأُمور غير المتشخصة بنفسها، بل تتأثر تأثراً تاماً بطبيعة الوعي الإنساني لما حول الإنسان من حقائق واعتبارات، وهي بحد نفسها أمر عقلائي يتطابق عليه كل العقلاء، وليس بوسع أحد أن يدعو إلى إلغاء المصلحة وعدم اعتبارها، بل الإجماع البشري قائم على ضرورة الاستجابة للمصالح الإنسانية، وما النزاع الحاد بين الناس إلّا مظهر يحكي تمسك كل إنسان بمصالحه من جهة، واختلاف الناس اختلافاً شديداً في تحديد ما هو المصلحة من المفسدة، وما هو حجمها، وكيفية ترتيب المصالح في سلسلة أُولويات من جهة ثانية.

وما بعث الله الأنبياء وما أنزل الشرائع إلّا من أجل المصلحة الإنسانية، ومن الثابت لدى الفقهاء والمتكلمين والأُصوليين منذ تكّون علوم الفقه والكلام

والأُصول أنّ الشريعة الإسلامية معللة بجلب المصالح ودفع المفاسد، وما أصبح المؤمن مؤمناً إلّا لمصلحة له في الإيمان وفراراً من مفسدة الكفر، قال تعالى: ﴿والعصر إنّ الإنسان لفي خسر إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ وهذا القسم في صدر السورة الشريفة هو للتأكيد على قصور الإنسان عن بلوغ مصالحه لوحده واحتياجه في ذلك إلى عقيدة سماوية وشريعة ربانية.

ومنشأ القصور يعود إلى أنّ الإنسان وإن كان يدرك من ناحية عقلية وفطرية أنّ مصلحته في العدل والأخلاق والسلم لكنه من ناحية عملية لا يلتزم بذلك، وسرعان ما يتجه للظلم والعدوان وينسى قيم العدل والسلم، بل ويغالط في هذه القيم، فيجعل العدوان واحتلال البلدان الأُخرىٰ دفاعاً عن السلم، ويصور الظلم وقتل الشعوب مقدمة للعدل، ثم ينحدر إلى هاوية أكبر حينما ينكر وجود قيم اسمها العدل والحق والسلم، وأن المصلحة تكمن في انكار هذه القيم باعتبارها قيم الضعفاء، وتبني فلسفة القوة والمنفعة البراغماتية، وهكذا تتذبذب المصلحة عند الإنسان بين اتجاهين متعاكسين تماماً، فبعد ما كانت المصلحة في العدل والسلم والأخلاق أصبحت في إنكارها، وسرُّ هذا التذبذب يعود إلى أن القيم والأحكام الفطرية والأخلاقية أُمور لا يستطيع الإنسان الاحتفاظ بها إلّا حينما تكون هناك عقيدة سماوية تفعّلها في النفس وتضفي عليها طابعاً إلزامياً مقدساً. وذلك من خلال:

١ ـ الإيمان بإله خالق عظيم يتصف بالعدالة المطلقة.

٢ ـ الإيمان ببعد معنوي في الإنسان أهمّ من بعده المادي المحسوس.

٣ ـ الإيمان بأنّ الدنيا مقدمة لعالم آخر أهمّ وأكبر منها.

٤ ـ الإيمان بقانون العقاب والثواب الأُخروي.

بهذه العقائد الإيمانية الأربع يستطيع الإنسان أن يحتفظ ويفعّل الأحكام الفطرية والقيم الأخلاقية في سلوكه، ومن خلال ذلك تتحقق المصلحة الإنسانية

المنشودة، وبدون هذه العقائد تنسحب تلك الأحكام من الساحة الإنسانية التي تصبح أثر ذلك ساحة صراع وعدوان يفقد فيها الإنسان كل مصالحه. وهو يدّعي أنّ مصلحته في هذا الصراع والعدوان.

وبذا يتضح أنّ هناك منهجين في تشخيص المصلحة الإنسانية:

١ ـ المنهج الشمولي القائم على أساس انكشاف الواقع الكوني بتمام أبعاده، البعد الإلهي إلى جانب البعد الكوني، والبعد المعنوي إلى جانب البعد المادي، والبعد الدنيوي إلى جانب البعد الأُخروي، وبعد العقاب والثواب المترتب على أعمال الإنسان في الدنيا. وهذا هو المنهج الإيماني الذي أكّد القرآن الكريم على أنّ الإنسان سيقضي حياته خسارة بعد خسارة ما لم يؤمن بهذا المنهج **﴿آمنوا بالله﴾** ويطبقه **﴿وعملوا الصالحات﴾** ويصر عليه **﴿وتواصوا بالحق﴾** ويضحي من أجله **﴿وتواصوا بالصبر﴾**.

٢ ـ المنهج التفكيكي القائم على أساس التفكيك بين الإنسان وخالقه، وبين المادة والروح، وبين الدنيا والآخرة، وبين أعمال الإنسان وقانون العقاب والثواب، وحذف البعد الإلهي من الكون، والروحي من الإنسان، والأُخروي من الحياة، والعقاب والثواب من العمل، وفي ظل هذا المنهج يفقد الإنسان الإحساس بقيم العدل والأخلاق والسلم رغم وجودها في مواقفه، وبالتدريج ينكر أُصل وجودها، ثم ينحدر أكثر فيعتبر أنّ المصلحة تكمن في إنكار هذه القيم المعنوية والتركيز على القيم المادية كمقياس لها، فتظهر أثر ذلك فلسفة القوة ونوازع الدمار التي لمسناها في الفكر الغربي الحديث، وليس النزعة الفردية القائمة في الغرب إلّا مظهراً لهذا المنهج التفكيكي. حيث يتم التفكيك بين الفرد والمجتمع، والرجل والمرأة والقوميات والأعراق، ثم التأكيد على الفرد بما هو فرد بعيداً عن المجتمع والتأكيد على الرجل بما هو فرد، وعلى المرأة بما هي فرد بعيداً عن الأُسرة والتأكيد على القومية بعيداً عن

الإنسانية، ثم تصل النزعة الفردية ذروتها في الرأسمالية التي تحابي الفرد كوسيلة لإحراز انتصار الرأسمالي على المجتمع، وترفع شعار حقوق المرأة من أجل أن يحصل الرأسمالي على أيدي عاملة رخيصة تدخل المعامل وتشجع الرجال على العمل بأُجور زهيدة. وترفع شعار القومية؛ لأنها مظهر سلطان الرأسمالي، وترفع شعار حقوق الإنسان؛ لأنها الوسيلة المثلى لتوسيع سلطة الرأسمالي الشرير بحيث تشمل أكبر ما يمكن من المستعمرات، ومن الطبيعي في مثل هذه الحالة أن تصبح قيم الحق والعدل والسلام منبوذة؛ لأنها قيم مضرة بمصالح الرأسمالي، فلا بد من إنكار هذه القيم وإنشاء فلسفات تساعد على إنكارها كفلسفة القوة والفلسفة البراغماتية.

وواضح أنّ المصلحة المقصودة بالمنهج التفكيكي الليبرالي هي مصلحة الرأسمالي المناقضة لمصلحة الإنسانية. وإن كان الرأسمالي ينكر ذلك ويحاول أن يسخّر كل إمكاناته ووسائل إعلامه ونفوذه من أجل إقناع المظلومين المضطهدين بأنّ ما يقوم به شيء لصالحهم ومن أجل حقوق الإنسان ونشر الديمقراطية في العالم.

وأسوأ الحالات وأشنعها أن يصدق ضحايا هذا الرأسمالي الشرير بأنّ مصلحتهم قد اتحدت مع مصلحته. فهذه غاية الغلبة الرأسمالية الظالمة لهم، وأسوأ من ذلك أن يترك المظلوم المنهج الشمولي في تشخيص المصلحة رغم كونه منهج المظلومين الذي ينتصر لقضيتهم، ويتمسك بالمنهج التفكيكي الليبرالي الذي هو منهج الظالمين والمدافع عن مصالحهم وطغيانهم. وأسوأ منه أن يفعل المسلم ذلك، فإنّ معنى الإسلام هو أن يسلم المسلم أُموره للإسلام ويفوض مصالحه للشريعة، ولا معنى لأن يبحث الإنسان المسلم عن مصالحه خارج دائرة الشرع إلّا أن يخرج من الإسلام ويدخل في الليبرالية التي تجعل في ظاهرها مصلحة الإنسان في أن يتبع نفسه ولكن الواقع الميداني يقوده إلى التبعية لأقوى طرف فيه وهو الرأسمالي.

وهكذا فكلما حكّم الإنسان نفسه في تشخيص المصلحة فإنه يكون قد خرج

من دائرة المنهج الشرعي ودخل دائرة المنهج الليبرالي من حيث يريد أولا يريد، وأسوأ حالة تظهر عند الإنسان حينما يتصور أنّ مصلحة الإسلام مرتبطة بمصلحته ويعتبر نفسه مقياساً للمصلحة الإسلامية أو الوطنية. فهذه بداية المهالك وبداية الخروج من الإسلام والدخول في الليبرالية، وغاية الأنانية والانتهازية، هذا كله في المجال الأوّل، ومنه يتضح المطلوب في المجال الثاني فلما كانت الشريعة هي المتكفلة بمصالح الإنسان، فمن الضروري أن يترك المكلف كل حديث عن المصلحة ويحصر حديثه بالشريعة فيما تحرمه وما توجبه عليه، والمجتهد شأنه في ذلك شأن سائر المكلفين، فهو حينما يبحث عن حكم الشرع في مسألة من المسائل فآلته في ذلك الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والعقل القطعي.

ودور المجتهد ليس إنشاء وتأسيس الشريعة وإنما هو دور اكتشاف الشريعة الثابتة في طيات المصادر الأربعة المذكورة، وإذا أراد أن ينظر إلى المصلحة ولم ينظر إلى تلك المصادر فسيقع في اجتهاد يقابل النص وسيكون ليبرالياً براغماتياً. وسيكون سلوكه تكذيباً للشريعة التي نعتقد بأنها المعبر الوحيد عن مصلحة الإنسان، ومن هنا لا نجد فرصة لتأييد نظرية المصالح المرسلة التي طرحها بعض فقهاء أهل السنة واعتبروها مصدراً للتشريع في كل مورد لم يرد فيه دليل من كتاب أو سنة أو إجماع. فليست هناك مصلحة إلاّ جلبتها الشريعة بدليل من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو العقل القطعي. وليست هناك مفسدة إلّا ودفعتها الشريعة بدليل ما من هذه المصادر الأربعة، ولم تبق مصلحة ولا مفسدة خارج دائرة أوامر ونواهي الشريعة، ولولا ذلك لما كانت الشريعة شاملة ولا محصنة ضد تغلغل المنهج الليبرالي الذي يقف على طرفي نقيض مع الدين ويؤدي إلى محق الشريعة.

ولذا فحينما تدعو الشريعة إلى مكافحة الظلم وإقرار العدل والمقاومة في وجه الظالمين والطغاة فعلى كل مكلف أن يمتثل هذه الدعوة ويستجيب لها، والمجتهد من

جملة المكلفين المخاطبين بهذا التكليف، وليس له أن يدعي بمصلحة تقتضي عدم المقاومة، فمثل هذا الادعاء أشبه بالادعاء بمصلحة تقتضي ترك الصلاة، بل إن الادعاء الأوّل أشد بعداً من الادعاء الثاني، لما مرّ من أنّ الأحكام العقلية لا تقبل التخصيص والاستثناء بخلاف الأحكام التأسيسية التي تقبل ذلك. بل إنّ ادعاء المصلحة لا يقبل التصور ثبوتاً لأنّ المقاومة أنما وجبت دفاعاً عن مصلحة المظلومين والمضطهدين فكيف يتاح لنا أن نتصور أنّ مصلحة هؤلاء في السكوت عن الظالم؟ وكيف نتصور أن تكون للشاة مصلحة في عدم الفرار من أمام الذئب؟. إنّ هذا الادعاء لا تقبل به أغبى العجماوات فكيف يمكن نسبته إلى الشريعة؟

أمّا المجال الثالث المتعلق بتشخيص الأهم والمهم وتقديم الأوّل على الثاني فمثاله البارز تقديم مسألة حفظ النظام العام والحيلولة دون الفوضى واضطراب الأُمور على وجوب الثورة ومكافحة الجور، وقد مضى الكلام على هذا المثال واتضح أنّ هذا لا يؤدي إلى إسقاط وجوب الثورة ومكافحة الجور، وإنما هو من قبيل ترتيب الخطوات وتنظيم سلسلة الأولويات وبرمجة الأُمور انطلاقاً من الإيمان بحكمة التشريع؛ لأنّ الشريعة التي أوجبت الثورة أنما فعلت ذلك دفعاً للظلم، فإذا كانت الثورة تؤدي إلى الفوضى فهذا يعني انتفاء الحكمة المطلوبة منها، بحكم أنّ الفوضى ظلم لا يقل عن جور الجائرين بل قد يزيد عليه، والوظيفة في مثل هذه الحالة ليست السكوت وإنما البحث عن ثورة تخلو من الفوضى، وهي أمر ممكن إذا ما أُتقنت المقدمات والخطط والبرامج اللازمة، وحينئذ يصبح لدينا واجب متوقف على مقدمة معينة، وكلُّ ما توقف الواجب عليه فهو واجب، ومعنى تقديم الأهم هو أن تأتي المقدمة قبل ذيها، وليس معناه أن نلتزم بالمقدمة ونترك ذي المقدمة، لأنّ المقدمة لم تجب لنفسها وإنما وجبت من أجل ذي المقدمة، وحينئذ يجب العمل لضمان الأمن العام وتهيئة لوازم ذلك في سياق مكافحة الظلم والثورة على الظالمين. وهذا الأمر

كما يجري في التعامل مع حكومة جائرة مستبدة يجري في التعامل مع سلطة أجنبية محتلة أيضاً، لوحدة الملاك فيهما، نعم في سلطة الاحتلال الأجنبي جنبة إضافية تتمثل في مسألة السيادة والهوية التي تجعل الاحتلال ليس ظلماً مضاعفاً فقط، بل استئصالاً للوجود المعنوي للأُمة أيضاً، ومعلوم أنّ الإنسان يفكر في مصلحته بعد ما يحرز أصل وجوده، فإذا كان أصل وجوده وكرامته وسيادته على أمره وشؤونه الخاصة به منتهكاً وغير معترف به فلا معنى للبحث في أنّ المقاومة أفضل أم السكوت؟ وأنّ المصلحة تقتضي المقاومة أم تقتضي السكوت؟ أصل هذا البحث لا محل له في مثل هذه الحالة، وحتى البراغماتيون لا يجيزون لأنفسهم أن يتعاملوا مع مسألة السيادة الوطنية والقومية بمنهج براغماتي، إنما يتعاملون بهذا المنهج مع مستعمراتهم وعملائهم ويصرحون دوماً بالمبدأ القائل: لا صداقة دائمة ولا عداوة دائمة وإنما مصالح دائمة، بينما العملاء ومن فرط غبائهم وخيانتم وتقليدهم الأعمى لأسيادهم يطبقون هذا المنهج في علاقتهم مع الاستعمار الذي ينتهك سيادة بلدانهم، جهلاً منهم بأنّ هذا المنهج هو منهج المستعمرين وليس منهج المظلومين المضطهدين، فتراهم يدخلون مع الاستعمار في معادلات وحسابات بادعاء أن البراغماتية ستنصرهم على الاستعمار كما نصرت الاستعمار عليهم، والاستعمار ينظر إليهم وقد امتلأ جوفه ضحكاً على عقول ضحلة لا تستحق إلّا الاستحقار. ومن حكمة الله البالغة في كتابه قوله تعالى: **﴿لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾**[1] فجاء بالأداة «لن» ليفيد التأبيد، أي أنّ الله سبحانه وتعالى لن يشرع شيئاً ينافي سيادة المسلمين بحال من الأحوال، وليس هناك شيء أهم من الاستقلال والسيادة والكرامة والهوية حتى نقدمه عليها.

---

(١) النساء: ١٤١.

ونصل إلى المجال الرابع مما له صلة ببحث المصلحة في الشريعة الإسلامية، وهو علاقة مواقع الولاية بالمصلحة، فقد تصدت الشريعة لتعيين عدد من الأولياء في الأُمور الاجتماعية والسياسية، كتعيين الأب وليّاً على أُسرته، وتعيين الحاكم الشرعي ولياً على الأيتام، وتعيين المجتهد الجامع للشرائط متصدياً لأُمور المسلمين العامة، وحيث إنّ جعل الولاية هو لمصلحة المولى عليه دائماً لذا كانت الولاية مشروطة برعاية مصالح الرعية في كل هذه المواقع، ومعلوم أنّ المصلحة المقصودة لا بد أن تكون موافقة للشريعة من جهة وللعرف من جهة أُخرى، فلا يستطيع الولي أن يرابي بأموال اليتيم بادعاء المصلحة، ولا يستطيع أن يمنع ابنته من الزواج بحجة أن مصلحتها تقتضي ذلك، لأنّ هذا السلوك ليس عرفياً، بل العرف يعتبره مخالفاً للمصلحة، وعندما نراعي هذين الشرطين نجد أنّ الفقيه لا يستطيع من موقع الولاية أن يحكم بإبطال المقاومة بادعاء المصلحة لأنّ هذا الحكم سيكون مخالفاً للشرطين معاً، لثبوت حكم الشريعة بوجوب المقاومة دون اذن الفقيه من جهة، وعدم عرفية المصلحة المدعاة في هذا الحكم من جهة ثانية. بل سنجد أنّ مراعاة هذه الشرطين، وقاعدة تقديم الأهم على المهم تؤدي إلى تأكيد المقاومة لانفيها، بدليل حديث الإمام الباقر(ع) الذي يصف فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنّه أشرف الفرائض والفريضة التي تقام بها سائر الفرائض، ولذا كان الإمام الخميني (رض) يرى حفظ النظام الإسلامي أوجب من الصوم والصلاة والحج؛ لأنه مظهر لأشرف الفرائض من جهة، ومظهر للإمامة الإلهية وخط الشهادة الربانية الذي هو من أُصول الذين من جهة ثانية، وبهذا المعنى المجمع الموجود في النظام الإسلامي باسم «مجمع تشخيص مصلحة النظام» فالمصلحة المقصودة هي مصلحة الهدف والمبدأ التي تعلو فوق كل مصلحة، لأنّ الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، بمعنى أنّ المصلحة تجري لصالح المقاومة وليست ضدها، بل لا يمكن أن تجري بخلافها، وكذا تقديم الأهم على

المهم، فالأهم الذي لا أهم منه هو المقاومة التي هي أشرف الفرائض وبها تقام سائر الفرائض.

وهكذا يتضح أنّ المصلحة في المجالات الأربعة لا يمكن أن تجري على خلاف المقاومة، بل هي عامل مؤكد لها دائماً، وإن كل ادعاء بمصلحة تنفي المقاومة أنما هو ادعاء ناشئ من الوقوع تحت تأثير المنهج الليبرالي التفكيكي، وصورة التفكيك المؤدية إلى هذا الادعاء هي التفكيك بين قضايا المسلمين ومذاهبهم وبلدانهم، فيتصور البعض أنّ مقاومة هذا الفريق يجب أن لا تسير مع مقاومة فريق آخر، وهذا التفكيك مما لا يمكن القبول به بحال من الأحوال، لأنّ إمضاءه في صورة من الصور يعني القضاء على المقاومة وتكريس سلطة الكفر والجور إلى الأبد، ولا أساس شرعي ولا سياسي لهذا التفكيك، وهو مخالف لمقررات الشرع والسياسة والمصلحة معاً، وناشئ من تسرب النظرة الليبرالية إلى نخبة ترى نفسها البديل عن الأُمة، وأنّ مصلحة الإسلام منوطة في قيامها وقعودها، وهذا هو الشرك الخفي الذي يدب دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويؤدي إلى ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله الاوهم مشركون﴾.

بحث في آية التهلكة

قال تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين، وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إنّ الله يحب المحسنين﴾[1].

قال الطبرسي في مجمع البيان معلقاً على هذه الآية: «وفي هذه الآية دلالة على تحريم الإقدام على ما يخاف منه على النفس، وعلى جواز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الخوف، لأنّ في ذلك إلقاء النفس في التهلكة، وفيها دلالة على جواز الصلح مع الكفار والبغاة إذا خاف الإمام على نفسه، أو على المسلمين، كما فعله رسول الله(ص) عام الحديبية وفعله أميرالمؤمنين(ع) بصفين وفعله مع معاوية من المصالحة لما تشتت أمره، وخاف على نفسه وشيعته، فإن عورضنا بأنّ الحسين(ع) قاتل وحده؟ فالجواب: إنّ فعله يحتمل وجهين، أحدهما أنه ظن أنهم لا يقتلونه لمكانته من رسول الله(ص)، والآخر أنه غلب على ظنه أنه لو ترك قتالهم قتله المعلون ابن زياد صبراً كما فعل بابن عمه مسلم، فكان القتل مع عزّ النفس والجهاد أهون عليه»[2].

وبهذا البيان يتضح أنّ الآية تدخل في فقه المقاومة من جهتين:

١ ـ أثرها على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢ ـ أثرها في الصلح والهدنة.

---

(١) البقرة: ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢) مجمع البيان ٢: ٣٥، مؤســه الأعلمي.

ومنشأ الأثرين واحد، وهو دلالة الآية على حرمة الإقدام على ما فيه هلاك النفس، الأمر الذي يستدعي منا البحث في هذا المنشأ ثم في انطباقه على الجهتين المذكورتين.

إنّ نهي الآية عن ارتكاب ما فيه الهلاك أمر واضح جليّ[1]، ومراجعة كتب التفسير لا تزيدنا في ذلك شيئاً، والآية مؤيدة لحكم العقل بدفع الضرر، وإنما البحث كل البحث في أنّ التهلكة لها مقياسان، فهي بالمقياس الفردي شيء وفي المقياس الاجتماعي شيء آخر، وربما كان موقف معين يعد تهلكة بالمقياس الفردي، ولكنه بالمقياس الاجتماعي ليس تهلكة، والبحث الذي ينبغي الخوض فيه هو أنّ النفس التي يجب صيانتها عن التهلكة هل هي نفس الفرد أم نفس المجتمع؟ بعد الفراغ من أنّ الآية مطلقة تشملهما معاً، وتحرّم تعريضهما للتهلكة. وفي حال التعارض واقتضاء الأمر تعريض أحدهما للتهلكة صيانة للأُخرىٰ، هل ينبغي التضحية بالفرد أم بالمجتمع؟ وهل النفس التي تمت التضحية بها يصدق عليها حينئذٍ بأنها قد وقعت في التهلكة؟.

والشيء الذي يلاحظه الباحث أنّ الفقهاء والمفسرين لم يفرقوا بين الأمرين، وأجروا الآية على المقياس الفردي وأرسلوا ذلك إرسال المسلّمات، وكلما استدلوا بهذه الآية قصدوا الانتصار لفرد يخشى وقوعه في التهلكة، فأجازوا له ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفرار من الزحف كلما أدّى ذلك إلى وقوعه في التهلكة، ومن هنا جاء كلام بعضهم عن الإمام الحسين(ع) بأنّه قد أوقع نفسه في التهلكة، وحتى الذين دافعوا عنه(ع) كان دفاعهم عنه بالمقياس الفردي للتهلكة، فمارسوا نتيجة ذلك دفاعاً مضرّاً بالإمام الحسين(ع) أو مخالفاً للواقع التاريخي، مثل

(١) التبيان ٢: ١٥٢، دار احياء التراث العربي.

قولهم: إن الإمام غلب على ظنه أنه سيصل إلى حقه، ولم يكن في حسابه أنّ القوم سيغدرون به، وأنه همّ بالعودة لما سمع بمقتل مسلم بن عقيل لولا مطالبة بني عقيل بالثأر، وأنه(ع) لما رأى أن لا سبيل له إلى الكوفة سلك طريق الشام سائراً نحو يزيد بن معاوية حتى لقيه عمر بن سعد، وأنه(ع) قال لعمر بن سعد: اختاروا مني إمّا الرجوع إلى المكان الذي أقبلت منه أو أن أضع يدي في يد يزيد فهو ابن عمي ليرى فِيَّ رأيه، فلما رأى إقدام القوم عليه وأن الدين منبوذ وراء ظهورهم وعلم أنه إن دخل تحت حكم ابن زياد تعجل الذل وآل أمره من بعد إلى القتل التجأ إلى المحاربة والمدافعة[1].

وأنّ علماء الإمامية قد انقسموا في إقدام الإمام الحسين(ع) على الثورة رغم علمه المسبق بأنّه سيقتل إلى فريقين: فريق أجاز التعبد بالجهاد والصبر على القتال رغم العلم المسبق بالقتل من باب حسن الصبر إذا جوّز الظفر وبلوغ الغرض، وفريق آخر لم يجوّز ذلك؛ لأنّ دفع الضرر عن النفس واجب عقلاً وشرعاً ولا يجوز أن يتعبد بالصبر على القبيح، وإنما يتعبد بالصبر على الحسن، وأنّ علم الإمام الحسين(ع) بذلك لم يكن تفصيلياً وإنما كان على سبيل الجملة، وهذا ما اختاره السيد المرتضى[2].

وكل هذه الأفكار ناشئة من الالتزام بالمفهوم الفردي للتهلكة، ولو أنّنا أخذنا بالمفهوم الاجتماعي لها لوجدنا أنفسنا في مسير موافق لظاهر الآية وموافق لإطلاق أدلة الأمر والنهي وإطلاق أدلّة حرمة الفرار من الزحف، وموافق لثورة الإمام الحسين(ع)، ولما ظهر اتهام الثورة بالتهلكة ولما احتيج إلى دفع شبهة التهلكة بكلام

---

(١) تنزيه الأنبياء، السيد المرتضى: ٢٧٠ ـ ٢٧٢، ط: مكتب الاعلام الإسلامي.

(٢) تلخيص الشافي ٤: ١٨٩، ط: النجف.

مخالف لهذه الثورة العظيمة، ولما ظهر التعامل مع الثورة وكأنها مأزق يحتاج إلى تبرير وتبرئة. وغير ذلك مما ينبغي اعتباره دليلاً على شناعة المفهوم الفردي للشريعة الذي يتناقض بطبعه مع روح التشريع الإسلامي القائم على التعامل مع الإنسان من زاوية نوعية عامة تشمل الفرد والمجتمع، والذي يؤدي الالتزام به إلى إرباك الشريعة وايقاعها في تناقضات لا نهاية لها.

أنّ للشريعة موضوعات فردية وأُخرى اجتماعية، المخاطب في الموضوعات الفردية مثل الوضوء والتيمم والصلاة... الخ هو الفرد، والمخاطب في الموضوعات الاجتماعية هو المجتمع، والموضوعات الفردية تدخل في ضمن موضوعات المجتمع أيضاً بعنوانها العام، فالصلاة وإن كانت بحد ذاتها موضوعاً فردياً لكن المجتمع مكلف بإقامتها كركيزة عبادية يقوم عليها المجتمع الإسلامي، ولذا لم يرد في كل القرآن الكريم أمرٌ بالصلاة بصيغة فردية وإنما جاءت خطابات الصلاة في الأعمّ الأغلب بصيغة: إقام الصلاة، أقم الصلاة، أقاموا الصلاة... الخ.

قال تعالى: ﴿الذين أن مكناهم في الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر...﴾[1]. وهذه الآية ظاهرة في الحديث عن مرتكزات النظام الثوري الإيماني الذي يقيمه المؤمنون بعدما يتم لهم الانتصار، وإنه يقوم على ثلاثة مرتكزات هي: الصلاة كقاعدة عبادية إيمانية، والزكاة كرمز للنظام الاقتصادي الزكي الطاهر من كل تلوث، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقاعدة عامة للنظام السياسي والثقافي والاجتماعي القائم على كل معروف ونبذ كل منكر.

وهذا يكشف أنّ المنظار الأصلي للشريعة هو المنظار الاجتماعي العام، وأنّ

---

(١) الحج: ٤١.

المنظار الفردي منظار ثانوي، والمشكلة التاريخية التي تركت أثرها السيّئ على الفقه الإسلامي تتمثل في أن تأسيس وظهور وتبلور الفقه عملية تمت في حقبة تاريخية سيئة، فالفقه الشرعي ظهر وتبلور في أشدّ العصور السياسية عتمة وظلمة، وذلك في القرن الرابع الهجري ومابعده، مما جعله عرضة للتأثر بالنزعة الفردية التي تطغى وتستبد بالفكر والمجتمع في مثل هذه العصور وتسقطهما أيما سقوط، وتجعل الإنسان لا يرى أمامه أُمة ولا مجتمعاً، وإنما يرى أمامه فرداً تصطلمه المحن والنوائب من كل الجهات، ومن الطبيعي أن يرى الفقيه نفسه في مثل هذه الحالة فقيه الفرد لا الأُمة ولا المجتمع وعلى أساس ذلك تأسس الفقه الفردي وأصبح الحالة المثالية التي يستصحبها الفقهاء في المراحل التالية من خلال أُسس ومستندات نظرية، كالإجماع والانجبار بعمل الأصحاب مما له شأن في تكريس وترسيخ المرحلة التأسيسية بكل ما فيها من خصائص وامتيازات، إيجابية كانت أم سلبية، ومنها استصحاب النزعة الفردية في الفقه. والفقه السني وإن نشأ وتبلور في أحضان تجربة سياسية كانت قائمة آنذاك، إلاّ أنه تأثر تأثراً سلبياً بعاهات وتشوهات نظام الخلافة الأُموية والعباسية الذي كان قائماً آنذاك، فالفقه الشيعي جاء فردياً، والفقه السني حافظ على طابعه الاجتماعي لكن التزامه بنظام الخلافة جعله فقهاً اجتماعياً يخلو من الأصالة الإسلامية المنشودة.

وعندما نراجع كتب الفقه الحالية نجد الفقهاء يبدأون مراتب الأمر والنهي من مرتبة القلب ثم اللسان ثم اليد(١)، خلافاً للترتيب الوارد عن الرسول(ص) في الحديث المعروف: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الإيمان»**(٢)، والاختلاف في الترتيب يعود إلى أنّ النبي(ص)

---

(١) جواهر الكلام ٧:٦٨٣، ط: دار المؤرخ العربي.

(٢) صحيح مسلم ١:٥٠، ط: دار الفكر بيروت، انظر مثله في الوسائل ٦:١٣٥، ط: آل البيت مع تغيير طفيف.

ينظر إلى هذه الفريضة من الزاوية الاجتماعية العامة التي تقتضي أن تكون هـذه الوظيفة وظيفة الدولة من حيث الأصل، أو أنها تجري في ظل الدولة بحيث يُعارض المنكر أوّلاً باليد والقوّة الحكومية القاهرة التي تردع عن حصول المنكر، ومنها يُنتقل إلى اللسان، وعند فقدهما يقتصر على الإنكار القلبي الذي هو بمثابة تحصيل حاصل ووظيفة طبيعية، بينما نظر الفقهاء إلى هذه الفريضة من جهة الفرد المقهور الذي لا يملك سلطة على الآخرين فبدأوا من أضعف الإيمان وانتهوا إلى اليد.

أنّ المنظار الاجتماعي العام هو المنظار الأصيل للشريعة، حتى بالنسبة إلى الموضوعات الفردية، فضلاً عن الموضوعات التي هي اجتماعية بطبعها كالجهاد والدفاع والأمر والنهي، ومن الطبيعي في مثل هذه الحالة أن يتم إخضاع كل العوامل المؤثرة على هذه الوظائف إلى النظرة الاجتماعية العامة، ومنها التهلكة، بـمعنى ضرورة الأخذ بالمفهوم الاجتماعي العام لها، حتى لو لم يكن سياق الآية مساعداً عليه، كيف وإنّ سياق آية التهلكة سياق اجتماعي عام يتحدث عن القتل والقتال والجهاد مما هو راجع إلى شأن المجتمع والأُمة، وبالتالي فالمرجع الطبيعي الوحيد لتشخيص التهلكة هو المجتمع ممثلاً بالقيادة الشرعية التي تقود خط العدالة بفرائضه الثلاث: الأمر، والنهي، والدفاع والجهاد، والفقيه من موقعه العلمي ليس مرجعاً في تشخيص التهلكة؛ لأنه في هذه الحالة فرد كسائر أفراد المجتمع، نعم الفقيه من موقعه الميداني كحاكم شرعي وقائد ميداني لخط العدالة على الساحة الاجتماعية هو المرجع في تشخيص ماهو تهلكة وماهو ليس بتهلكة، وفقاهته ليست الملاك في ذلك، إنما الملاك في التصدي والقيادة وعنوان الولاية، وحينئذٍ فعلى القول بولاية الفقيه يجب على الفقيه النزول إلى ميدان المواجهة وقيادة المجتمع نحو العدالة في الفرائض الثلاث المذكورة حتى تستعين به الأُمة ولا تقع في التهلكة، وإن لم يكن هناك فقيه يتصدى، أو كان فقيه لا يقول بالولاية للفقيه تنتقل الوظيفة إلى عموم المجتمع، حيث يجب في

هذه الحالة انتخاب فرد مؤمن عادل يتكفل بإنقاذ الأُمة من التهلكة. وهذا القائد بصفته التمثيلية للأُمة والمجتمع هو المخاطب بالموضوعات والأحكام الاجتماعية والسياسية مثل: ﴿السارق والسارقة فاقطعوا ايديهما﴾ ولذا لا يجوز للفرد بما هو فرد أن يقيم الحدود حتى على نفسه، لأنّ المخاطب بها هو المجتمع ممثلاً بالقيادة الشرعية.

فهناك تهلكة يجب دفعها عن الفرد، وأُخرى يجب دفعها عن الأُمة، ويجب أن لا يدفع الفرد التهلكة عن نفسه بإيقاع المجتمع فيها، بل عليه أن يراعي المصلحة العامة، فإن سمحت له بذلك جاز له دفع التهلكة عنه وإلاّ فلا؛ لأنّ دفع التهلكة عن الأُمة أهم من دفعها عن الفرد، والتهلكة الفردية إذا اقتضتها المصلحة العامة لا تسمى تهلكة، بل هي تضحية وايثار ومنقبة محمودة، لأنّ المفهوم الاجتماعي العام هو الأساس والمصلحة العامة هي المحور، فإذا وقعت الأُمة في التهلكة وقع الفرد فيها، وإذا ضحى الفرد واندفعت التهلكة عن الأُمة نجت الأُمة ونجا الفرد.

إنّ مصير الفرد لا ينفصل عن مصير الأُمة، وتلهكة الفرد والأُمة تهلكة واحدة، وما تتعرض له الأُمة من منكرات في الداخل وعدوان على الحدود وكفر في الخارج يتهددها بشتى الأُخطار، امر واحد وتهلكة واحدة على الفرد والأُمة معاً، وترخيص المكلفين بترك الأمر والنهي في الداخل وترك الدفاع في الحدود وترك الدعوة إلى الإسلام ومجاهدة الكفر في الخارج كلما تعرضوا إلى أذى يؤدي إلى ايقاع الفرد والأُمة معاً في التهلكة، وحينئذٍ فآية التهلكة تستدعي الالتزام بفقه المقاومة ولا يمكن أن تكون بحال من الاحوال دليلاً على الرخصة في ترك اي فريضة من الفرائض الثلاث لهذا الفقه، المتمثلة بالأمر والنهي والدفاع والدعوة الإسلامية، وشأن الفقيه أن يعطي الكليات فيقول: إيقاع النفس في التهلكة حرام، اما التفاصيل فأمرها موكول إلى قيادة المجتمع التي تتولى مهمة توزيع المسؤوليات والادوار

وتنسيق الوظائف في إطار موازنة دقيقة بحيث تندفع التهلكة عن الفرد والأُمة من خلال برنامج اجتماعي شامل وبأقل ما يمكن من التضحيات. كما هو الشأن في كل مجتمع يدافع عن نفسه ضد أخطار في الداخل وعند الحدود وفي الخارج. فمرجع التقليد لا يستطيع أن يقول للمكلف: هنا تهلكة، اترك الأمر والنهي، أو اترك الدفاع، أو اترك الجهاد، هذه ليست مسألة علمية، وإنما هي مسألة ميدانية تطبيقية يشخصها قائد المجتمع الذي يخوض الوظائف الثلاث وعمليات المقاومة في الداخل وعند الحدود. الفقيه يعطي الكبرى الشرعية وعلى قائد المجتمع أن يطبق هذه الكبرى في مجالات الأمر والنهي والدفاع والجهاد من خلال ستراتيجية واحدة عنوانها دفع التهلكة.

وبذا يتضح أن الفقيه لا يستطيع أن يجيز للمكلف الفرار من الزحف إذا تعرض للتهلكة، فضلاً عن أن يوجب ذلك عليه كما فعل الفاضل المقداد السيوري[١]، وليس له أن يجيز للمكلف ترك الأمر والنهي، أو أن يبحث في وجوب أو عدم وجوب الصلح والهدنة استناداً لآية التهلكة، كما فعل صاحب مجمع البيان وعامة الفقهاء من قبله وبعده الذين اختلفوا بين من اباح الهدنة وبين من أوجبها وبين من جعلها منقسمة إلى الأقسام الخمسة للحكم الشرعي[٢]، فهذه صغريات تطبيقية يجب على قائد المجتمع أن يلتزم فيها بدفع التهلكة عن المجتمع ضمن ستراتيجية مدروسة، فقد يقرر الحرب كما فعل الإمام علي(ع) في بدء الأمر، وقد يقرر الصلح كما فعل(ع) بعد ذلك، وكما فعل الإمام الحسن(ع) من بعده ذلك، وقد يقرر الثورة كما فعل الإمام الحسين(ع)، وقد يقرر منهجاً تغييرياً ثورياً في سياق خاص كما اتضح

(١) كنز العرفان ١ : ٣٦٠، ط: المكتبة المرتضوية.

(٢) جواهر الكلام ٢١ : ٢٩٣ ـ ٢٩٦، ط: دار احياء التراث العربي.

آنفاً من فعل الأئمة(ع). واعمال الأئمة(ع) في هذه المجالات أنما هي من شؤون الإمامة بما هي قيادة شرعية، وليست من الخط التشريعي فيما هو الحلال والحرام من شؤونهم(ع)، ومعلوم أن سيرة الرسول(ص) وأهل البيت(ع) يتداخل فيها خط الأحكام الولائية مع خط الأحكام التشريعية، ويبلغ هذا التداخل أقصاه في المسائل المتعلقة بالدفاع والجهاد والأمر والنهي، وسيطرة النزعة الفردية على الفقه من جهة، وعدم الفرز بين الخطين في سيرتهم(ع) من جهة ثانية، أدّىٰ إلى أن تفقد الأحكام الولائية صفتها الاجتماعية المتغيرة ودخولها في سياق الفقه الفردي، واصبح الفقيه يستنبط احكاماً ليست من صقع الاجتهاد والفقاهة، وإنما هي من شؤون الولاية والقيادة، الأمر الذي أدّىٰ إلى إرباك الفقه وإرباك المجتمع وإرباك تاريخ الأئمة(ع) وإرباك عقيدة الإمامة نفسها.

فمن إرباك الفقه والمجتمع أنّ آية التهلكة أصبحت سبباً لفقه يؤدي إلى التهلكة، خلافاً لما أمرت به الآية، ولو عمل المجتمع برأي الفاضل المقداد الذي يوجب الفرار من الزحف كلّما أحسّ الجندي بالعجز عن المواجهة لما بقي جيش يقاوم عند المسلمين، وشاعت بيننا نظرية اشتراط عدم المفسدة في وجوب الأمر والنهي حتى فقد المجتمع حساسيته تجاه المنكرات، وغلب الفساق الأتقياء وأصبح الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر أندر من الكبريت الأحمر، وصار السكوت علامة الورع والتقوى، ومن لوازم الوقار والمروءة، وفارقنا نصوصاً قطعية دلت على أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان أجلاً ولا يبعدان رزقاً، أي لا يؤديان إلى مفسدة؛ لأنّ ما نسميه مفسدة هو تضحية محمودة، والشريعة ليست سبباً في هذه التضحية، وإنما السبب هو أهل المنكر الذين يجب درء خطرهم لئلا يتفشى وتكون هناك مفسدة أعظم.

ومن الإرباك في تاريخ وعقيدة الإمامة ما قرأناه في مجمع البيان وتنزيه الأنبياء

وتلخيص الشافي من تصوير مرتبك ومتناقض لقضية الإمام الحسين(ع)، ففي مجمع البيان أنّ الإمام الحسين ظنّ أنّ القوم لا يقتلونه، وأنه لو لم يقاتلهم لقتلوه، ولا أدري كيف اجتمع هذان الاحتمالان المتناقضان عنده، مع أنّ الإمام الحسين(ع) نعى نفسه منذ البداية وهو لا يزال في تخوم مكة.

وقرأنا في تنزيه الأنبياء: أنّ الإمام الحسين(ع) غلب على ظنه أنه سيصل إلى حقه ولم يحسب أنّ القوم سيغدرون به، وهذا مخالف لما نعرفه من نعي الإمام الحسين(ع) نفسه منذ البدء، وأنه حينما سئل عن حمل النساء قال: «**شاء الله أن يراني قتيلاً ويراهن سبايا**» وهذا الجواب يكشف عن خطة قائمة على التضحية القياسية كعامل أساس في هزّ وجدان الأُمة وارجاعها إلى السكّة الصحيحة.

وقرأنا أيضاً: أنّ الإمام الحسين همّ بالعودة لما علم بخبر مسلم بن عقيل لولا مطالبة بني عقيل بالثأر، وأنه اقترح على ابن سعد أن يذهب إلى يزيد. وهذا يعني أن ثورة الحسين(ع) كانت للثأر فقط، ثم إنه(ع) قرر الانصراف عن الثأر والذهاب إلى يزيد، ثم إنه حارب دفاعاً عن النفس وليس دفاعاً عن الإسلام، ولا أظنُّ في هذا الكلام أي جنبة دفاعية عن الإمام(ع)، بل هو إيذاء له، وحينما تخرج الثورة عن مضمونها الإسلامي الهادف، فأي شيء يبقى منها؟ وكيف أصبح الإمام الحسين(ع) سيد الشهداء؟ ومن أين جاءت له هذه المنزلة السامية؟ وما معنى الشعائر الحسينية التي تقام من أجله بشكل يكاد يكون يومياً في حياة المؤمنين؟ ولو أراد أُموي أن يهاجم الإمام الحسين(ع) فهل بوسعه أن يقول كلاماً أكثر من هذا؟ وما هذا القائد الذي يخرج ثائراً ثم يتراجع ثم يستسلم ليزيد ثم يقاتل من باب المحاصرة والدفاع عن النفس؟

وقرأنا في تلخيص الشافي اختلاف الإمامية في إقدام الإمام الحسين(ع) على الثورة رغم علمه بأنّه سيقتل، وأنهم طرحوا جوابين عن ذلك، ومعلوم أنّ السؤال

الخاطئ يجرُّ إلى أجوبة أشدّ خطأً. فإقدام الإمام الحسين(ع) علىٰ الثورة رغم علمه بالقتل ليس خطأً حتى يجاب عنه، بل هو منقبة عظيمة، وليس هناك مقياس للعظمة عند الأُمم والشعوب غير مقياس الإقدام على التضحية والفداء الذي أصبح الإمام الحسين(ع) مقياساً له. وهذه المنقبة العظيمة أنما أُصبحت إشكالاً بسبب المفهوم الفردي للتهلكة والرؤية الفردية للشريعة، وكفى بذلك دليلاً على شناعة هذا المفهوم وتلك الرؤية، وعلى خطأ الفقه الذي يبنى عليهما. ولو لم يقدم الإمام الحسين(ع) على ذلك لما استحق المنزلة السامية عند الله والأنبياء والأئمة والمؤمنين وباقي سكّان الأرض، والمفهوم الفردي هو الذي أربك خط الأئمة(ع) وجعلهم حالات متعددة متناقضة، ولا يرتفع هذا الإرباك إلاّ بالمفهوم الاجتماعي الذي يجعل الإمام (ع) مسؤولاً عن دفع التهلكة عن الأُمة بالحرب العلوية، أو الصلح الحسني أو الثورة الحسينية، أو بالمنهج الثوري الخاص الذي سلكه الأئمة(ع) من بعد الحسين(ع)، ولو أدّىٰ ذلك إلى أن يقتلوا جميعاً، فليست هناك تهلكة وقعوا فيها، وانما هناك تهلكة دفعوها عن الأُمة بتضحياتهم.

وإذا كان الفقه الإمامي فقهاً ولائياً يجتمع فيه خط الاجتهاد مع خط القيادة الشرعية للأُمة امتداداً لالتقاء خط التشريع مع خط الولاية السياسية عند الأئمة(ع) فمقتضى ذلك أن ينهض الفقيه بأعباء المسؤولية الاجتماعية والسياسية، ويدفع التهلكة عن الأُمة والفرد معاً، ومن موقع القيادة والأحكام الولائية يوزع الأدوار والمسؤوليات على المكلفين، ومن هذا الموقع أيضاً يرخصهم بترك الدفاع أو الجهاد أو الأمر والنهي إذا كانت الحسابات الميدانية ـ لا الاجتهادية ـ تسمح بذلك في حدود هذا الفرد أو ذاك فقط، ولا يمكننا بحال من الأحوال تصور أن يعطي الفقيه ترخيصاً عاماً للجميع بذلك؛ لأنّ الترخيص العام يؤدي إلى الوقوع في التهلكة، ولأنّ موقع القيادة قائم بتلك الوظائف، ولأنّ هذه الوظائف جزء من شريعة

خالدة[1].

ومن مجموع ما مضى يتضح أنّ فقه المقاومة والثورة لا يخضع لأي مؤثر سلبي، وأنّ كل ما يتصور عاملاً سلبياً هو في الحقيقة عامل إيجابي لصالح المقاومة، كالتقية والدوران بين الأهم والمهم، والتهلكة والمصلحة وقاعدة العسر والحرج وقاعدة الاضطرار.

(١) انظر في الملحق الثاني بيانات متممة لهذا البحث.

ضرورة حمل المسلمين مشعل العدالة في العالم

لقد بعث الله سبحانه وتعالى الأنبياء ليقودوا خط الثورة ضد الظلم ومن أجل إقرار العدل، وقد مضى في فصل عقيدة المقاومة بيان عجز الإنسان عن إدراك العدل والعدالة بدون الوحي والأنبياء، والإنسان هو الإنسان قديماً وحديثاً ومستقبلاً، في شرق الأرض وغربها، وما عمليات التفكيك بين قضايا الإنسان بحسب الأزمنة والأمكنة إلّا مظهر من مظاهر عجز الإنسان عن معالجة قضيته المصيرية المتمثلة بالعدالة بمفرده، بل هي مظهر من مظاهر الظلم الذي عانى منه الإنسان قديماً وحديثاً.

إنّ العدالة قضية لا تقبل التفكيك بحسب البلدان والأوطان والأزمان، فما هو سبب للظلم في زمان سبب له في كل زمان، وما هو سبب للظلم في مكان سبب له في كل مكان، وعلى البشرية جمعاء أن تبحث عن هذا السبب وتعالجه معالجة جذرية، وأن تتحد في هذا السبيل، وترفع شعار العدالة بوجه رمز الظلم في الأرض، وما اختار الله سبحانه وتعالى المسلمين كأُمة لدين خاتمي وكلفها بوظيفة الشهادة على البشرية والدفاع عن المستضعفين إلّا لأجل كونها الأُمة التي تحمل الحل لمشكلة الظلم على الساحة البشرية، ولأنّ الإسلام جاء ليسقط شعار شعب الله المختار. ويرفع بدلاً عنه شعار الأُمة الشاهدة الوسطية التي ترفع شعار العدالة في الأرض، ولا تريد بذلك لنفسها علوّاً ولا امتيازاً على أحد.

وحينما نؤمن بعجز الإنسان عن إدراك العدل لوحده، فلازمه أنّ الكفر هو علة العلل للظلم، وأنّ الإيمان علة العدل، بالنحو الذي مرّ بيانه في فصل عقيدة المقاومة،

وقد صرح القرآن الكريم بذلك. قال تعالى: **﴿ومن لم يحكم بما انزل الله، فأولئك هم الكافرون﴾**[١]، **﴿ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون﴾**[٢]، **﴿ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾**[٣]، **﴿والكافرون هم الظالمون﴾**[٤] وهذا من أشد التعابير في بيان الرابطة الصميمة بين الكفر والظلم ، والكفر في اللغة هو الستر، وسمي ما عدا الإسلام كفراً؛ لأنه يستر عن البشرية شعاع الإسلام ويظلمها بذلك، لأنه يحجب عنها النور والرحمة والعدالة الإلهية، وما بعث الله(١٢٤) ألف نبي لإعلان الحرب على أحجار الأصنام، وإنما بعثهم لأنّ هذه الأحجار تمنع عن الناس رؤية طريق العدالة والحرية، وحينما يقول تعالى: **﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾**[٥] فلكي يبين أنّ الشرك هو مصنع الظلم على الساحة البشرية. وقد قسم الإمام علي(ع) الظلم إلى ثلاثة أنواع وجعل أوّلها الشرك ووصفه بأنّه الظلم الذي لا يغتفر[٦]، لقوله تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾**[٧].

إنّ الكفر هو الوجه العقائدي للظلم، والظلم هو الوجه الاجتماعي للكفر، كما أنّ الإسلام هو الوجه العقائدي الوحيد للعدل، والعدل هو الوجه الاجتماعي للإسلام، بل هو روح الإسلام. وما أجمل قول الرسول الأعظم الذي جمع بينهما بالحديث المعروف عنه: **«أفضل الجهاد كلمة عدل عند امام جائر»**[٨]. فالجهاد كفاح ضد الكفر،

---

(١) المائده: ٤٤.

(٢) المائدة: ٤٥.

(٣) المائدة: ٤٧.

(٤) البقرة: ٢٥٤.

(٥) لقمان: ١٣.

(٦) نهج البلاغة من خطبة ١٧٦.

(٧) النساء: ٤٨.

(٨) وسائل الشيعة ١٦:١٢٧، ط: مؤسسة آل البيت.

وكلمة الحق كفاح ضد الجور، وأفضل صور الكفاح ضد الكفر الكفاح ضد الجور، فإذا ما كافحت الجور ورفعت شعار العدالة وقع الكفر في زاوية حرجة ووصل إلى طريق مسدود؛ لأنّ البشرية كلها تريد العدالة وستقف إلى جنبك وسيؤدي ذلك إلى بيان زيف شعارات الكفر واتضاح كونه علّة الظلم.

إنّ من يحارب الكفر أنما يحارب أُصول الظلم، ومن يحارب الظلم أنما يحارب ذيول الكفر ونتائجه، والتفكيك بين الجور والكفر يؤدي إلى أزمة في الوعي على صعيد العقيدة كما كان التفكيك بين الاستعمار وعملائه يؤدي إلى أزمة في الوعي على صعيد السياسة. وهذا من أكبر الشواهد الدالة على أنّ جور العملاء ناشئ من كفر الاستعمار، وعلى أنّ قضية الجور والكفر واحدة، وأنّ قضية العدل واحدة في كل الأرض. وأنّ من لا يفكر بأصل المشكلة لا يستطيع أن يفكر بفروعها، ذلك أنّ المسألة الإنسانية واحدة لا تقبل التفكيك، وكذلك قال (ص): **«من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم»**[1]، وهذا يعني أنّ المسلم هو الحامل للواء العدالة والحق في الأرض بحيث يجيب نداء كل مظلوم ولو لم يكن مسلماً.

والموقف من الباطل والظلم له ثلاث حالات:

١ ـ السكوت المطلق وعلى كل حال.

٢ ـ المقاومة في حالة الاعتداء والسكوت في حالة عدم وقوع الاعتداء.

٣ ـ المقاومة على كل حال.

والموقف الثالث هو المطابق لفلسفة التشريع الإسلامي؛ لأنّ النقيض لا يتعايش مع نقيضه وإن كان أحدهما في طرف من الأرض والآخر في طرف آخر، والظلام إذا دخل محلاً من باب خرج النور من الباب الثاني، والمبدأ لا يعرف الحدود، فالشرّ

---

(١) الكافي ٢: ١٦٤، ط: آخوندي.

يسعى للانتشار والتوسع، والخير بدوره يسعى بالاتجاه نفسه؛ لأنّ كلاً منهما يريد أن يصبغ ما حوله بصبغته ويخضعه لسلطته، سواء في ذلك الحق والباطل، والخير والشر، ومن هنا يرى كل منهما وجوده في نفي الآخر، ومعالم الشريعة مطابقة لهذا الواقع، فالشريعة تطارد الشرّ في الداخل بوظيفة الأمر والنهي ووظيفة الدفاع، وتطارده في الخارج من خلال مبادرة إيجابية تتمثل بالجهاد لاعلاء كلمة الله في الأرض، وبالدفاع عن المستضعفين من غير المسلمين وتكوين جبهة بشرية عريضة من المسلمين وغير المسلمين المتضررين من طواغيت الأرض ضد رمز الباطل والشر فيها.

وأبرز دليل على أنّ الموقف الثالث هو موقف الإسلام، إنّ مفهوم الجهاد في الإسلام يختص بمبادرة المسلمين إلى مكافحة الشرك والطواغيت، وأنّ الدفاع حالة ملحقة بالجهاد وليست من صميمه، ولذا كان الشهيد في الإسلام هو من قتل في حرب ابتدائية ضد الشرك، ومن يقتل في حرب دفاعية تجري عليه أحكام الشهيد بوصفه ملحقاً بالشهيد، الشهيد من يخرج من بيته قاصداً هدم بيت الطاغوت على رأسه، أمّا الذي يجلس في بيته فيدافع عن نفسه هجوم الطاغوت عليه فإن قتل فهو بحكم الشهيد وبهذا اللحاظ تجري عليه أحكامه.

إنّ الساحة البشرية من وجهة نظر الإسلام وحدة واحدة، وقضية العدل لا تقبل التفكيك إلى داخل وخارج وأوطان وبلدان وسائر ما هناك من تقسيمات إدارية شكلية ليست لها علاقة بصميم الواقع الإنساني وجوهره الثابت فوق متغيرات الزمان والمكان، وإذا كان الإسلام هو رمز الحق والخير الثابت في كل زمان ومكان، فلا بد من رمز للباطل والشر ينبغي على المسلمين مصارعته في كل زمان ومكان؛ لأنّ الحق لا يكون حقاً حتى يزاحم الباطل ويصارعه، والخير لا يكون خيراً حتى يحارب الشر ويكافحه. ولا معنى لإسلام لا يكافح الظالمين

والطواغيت، وما فائدة دين غامض يكون حالة مطاطة تجمع بين الشر والخير وينصح بالسكوت على الظلم؟ ما فائدة دين يبرر الواقع ويجعل الإنسان حالة ضعيفة أمامه ولا يقوده إلى حالة معنوية متسامية عليه؟ الدين ما كان ثورة على واقع فاسد، أمّا ما كان تبريراً لهذا الواقع فهو ليس بدين أبداً.

وحتمية وجود رمز للباطل ناشئة من وجود مظاهر للشر والعدوان والنزاع في حياة البشر، فما دامت هذه المظاهر موجودة فلا بد من رمز أوجدها.

ولقد ابتلي المسلمون في العصور المتأخرة بالتهاون في شعار العدالة فكان ذلك سبباً لانعزال الإسلام عن واقع المسلمين، وانصراف الناس إلى الشيوعية والاشتراكية بادعاء أنها حامية العدالة، حتى ذكر بعض الكتّاب في مؤلفاتهم أنّ العدالة شعار ظهر على يد ماركس وغيره من الاشتراكيين[١]، وإلى جانب الشيوعية ظهرت العلمانية بدعوتها إلى حذف الإسلام من الساحة الاجتماعية، وما شاعت هذه الفكرة إلّا لشعور الناس بعدم أهمية الإسلام للحياة الاجتماعية وقضية العدالة، ولو كانوا يشعرون بأنّ الإسلام هو الأساس الوحيد للعدالة لما سمحوا بظهور العلمانية الكافرة في بلادهم، بل وصل الأمر أن يترك المسلمون كل دليل عقلي ونقلي على انحصار العدالة بالإسلام ويشيعون فكرة ظهرت في مضيق تاريخي خاص تقول: بأنّ الكافر العادل أفضل من المسلم الجائر، رغم تصادم هذه الفكرة مع العقيدة الإسلامية ومع نصوص القرآن الكريم ومع تعريف الفقهاء المعروف للعدالة الذي يحصرها بالمسلم الملتزم بالواجبات والمنتهي عن المحرمات، ومن جملة مساوئ ذلك أيضاً غياب الرؤية الستراتيجية وأزمة الوعي على صعيد العقيدة، واستسلام البلاد الإسلامية للطروحات الغربية أملاً بالحصول على شيء منها.

---

(١) معجم العلوم الاجتماعية: ٣٨٥.

بينما كان الواجب علينا بدلاً عن ذلك أن نبشر بعدالة الإسلام وندلل على الرابطة الجدلية بين الإسلام والعدل من جهة، والكفر والظلم من جهة أُخرى، وما فشل الاشتراكية والشيوعية التي أرادت الانتصار للبشرية وللعدالة إلّا دليل تاريخيٌّ قاطعٌ على أنّ العدالة لاتنبثق في حضارة مادية، والبشرية الراهنة تواجه مصيراً أسود في ظل حاكمية العالم الرأسمالي المليء بالظلم. فالرأسمالية ظلم واضح، وكذلك الاستعمار، والقومية تعني توزيع الكرة الأرضية إلى قوميات يحكم القوي منها الضعيف تحت شعار العولمة وحقوق الإنسان ونشر الديمقراطية، ونوازع الدمار في الفكر الغربي التي مضى الحديث عنها مظهر يعبر عن ظلم صريح ومعلن قائم على أُسس أيديولوجية، ويكفي أنّ الفكر الغربي الحديث ينكر وجود شيء اسمه حق وعدل، ويؤمن بأنّ القوة إذا ذهبت إلى مكان قالت: هنا الحق. وقد سكر الإنسان الغربي بمظاهر الظلم هذه ولم يشعر بها؛ لأنها مسلطة على غيره وهو المنتفع بها، وإذا كانت الرأسمالية والديمقراطية وحقوق الإنسان شعارات تعني أن يقوم الرأسمالي بسرقة إمكانات وثروات الشعوب الأُخرى وتسخيرها لصالح الرجل الابيض وجعله ينتعش في رفاهية مسروقة تشبع غروره العنصري والسلطوي بحق الشعوب الأُخرى فلماذا لا يفرح هذا الرجل بهذه الشعارات؟ ولماذا لا يعتبر نفسه حامل لواء الحرية في العالم؟ ولو لم تقترن هذه الشعارات بمظاهر الظلم هذه لكان الغربيون أشدّ الثائرين عليها، بينما يحاول الإعلام الغربي تصوير تعلق الغربيين بهذه الشعارات على أنه امتياز عنصري حظي به الرجل الأبيض وجعله يدرك القيم الرفيعة ويتمسك بها ويكون الحامل لها في العالم دون سواه!! وهذا ظلم آخر يضاف إلى سلسلة المظالم التي تدلل بشكل حاسم على أنّ العدالة تقف على طرفي نقيض مع حضارة مادية كافرة.

وفي زمان كهذا يتوجب على المسلم أن يتحلّىٰ بعشق وحماس لا نهاية لهما

للإسلام، وأن يحمل على كتفيه وظيفة الدعوة إلى هذا الدين العظيم الذي يمثل الأمل الوحيد للبشرية في السعادة والسلام والحرية والعدالة. وهي وظيفة عقائدية لصالح الإسلام، وإنسانية لصالح البشرية، وسياسية لصالح قوى الحق ضد الرأسمالية المتفرعنة.

وقد أصبح واضحاً تماماً الآن مغزى قوله تعالى: **﴿وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير إلّا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أُمة وانا على اثارهم مقتدون﴾**[1].

فالرأسمالية هي الرمز للظلم الذي وقف بوجه عدالة الأنبياء منذ مطلع التاريخ وحتى الآن.

إنّ البشرية المعاصرة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب تبحث عن شيء واحد هو العدالة، وقد ضاقت ذرعاً بجور الرأسمالية، والإسلام هو المنقذ الوحيد لها من جور الرأسمالية وإرهابها، والعدالة في حياة الإنسان تعني كل شيء، فلا مصلحة بلا عدالة، ولا استقلال بلا عدالة، ولا حرية بلا عدالة ولا سلم ما لم تكن هناك عدالة.

ويحاول زعماء الرأسمالية محاربة الإسلام؛ لأنه الرمز الوحيد للعدالة، ويسعون لخداع البشرية بطرح بدائل زائفة عنه، فيصفون الإسلام بالإرهاب حتى ينقطع حنين الناس إليه، ويروّجون فكرة القرية العالمية الواحدة حتى يقنعوا الناس بعدم الحاجة إلى الاستقلال والكرامة، ويروّجون فكرة اتحاد مصالح الشعوب مع أمريكا حتى يصرفوا الناس عن الارتباط بالإسلام، ويشيعون فكرة الديمقراطية حتى يشغلوهم عن المناداة بالعدالة؛ لأنّ العدالة تعني الثورة ضد الصنم الرأسمالي الذي يسوق البشرية إلى الدمار، بينما الديمقراطية تعني أنْ تساق البشرية إلىٰ وضع يكون

---

(١) الزخرف: ٢٣.

فيه الرأسمالي هو المنتصر الوحيد والدائم في الساحة من خلال ما يملكه من وسائل القمع والاضطهاد وعمليات صناعة الرأي والتضليل، والعمليات الإرهابية الواسعة النطاق على مستوى العالم، التي من شأنها أن تقنع الرأي العام العالمي بأن الرأسمالي هو المنقذ الوحيد للبشرية وأنّ ما عداه إرهاب.

إنّ الديمقراطية شعار يرفعه الظالمون لتضليل شعوب مضطهدة تبحث عن العدالة، انه ماء آسن يُقدم لإنسان ظامئ كي يلهو به عن المطالبة بالماء العذب، ومناداة الشعوب الحالية بالديمقراطية ناشئة من التصور أنّ الديمقراطية تحقق شيئاً من العدالة، فالشعوب تقصد من الديمقراطية شيئاً منافياً لما يريده الرأسمالي، ولو كان هناك من يرفع شعار العدالة الإسلامية لما تحدث أحد من المظلومين عن الديمقراطية.

إنّ البشرية تنتظر بفارغ الصبر عدالة الإسلام، وعدالة الإسلام تنتظر بفارغ الصبر نهوض المسلم من سباته العميق.

فقه الثورة والمقاومة بالمعنى الخاص
المراحل الثلاث لخط العدالة الإلهية

وحينما نرفع شعار العدالة ومقاومة الظلم فلابد أن نعرف أنّ لهذا الخط ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأُولى: مكافحة الجور وإقامة العدل على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المرحلة الثانية: رفض العدوان الخارجي على أساس الدفاع عن دار العدالة الإسلامية.

المرحلة الثالثة: السيطرة على نواة الظلم في العالم على أساس الجهاد في سبيل الله.

فالعدالة خط واحد ثلثه الأوّل في دار الإسلام وثلثه الثاني في الثغور وثلثه الثالث على الساحة الدولية، ولا يقبل هذا الخط التفكيك والتجزئة؛ لأنّ دار العدالة تحتاج إلى دفاع والدفاع لا يتم بحفظ الثغور فقط، فلابد من مبادرة دولية تستهدف السيطرة على منبع الظلم في العالم وهو الكفر. فكما أنّ العدالة وحدة واحدة، الظلم أيضاً وحدة واحدة، الظلم يبدأ من الكفر، والكفر ينتج العدوان على ثغور الإسلام، والعدوان يبدأ من الثغور ثم يدخل إلى دار الإسلام فيؤسس حكومات فاسدة وديكتاتورية، وفي كل هذه المراحل تشتبك عدالة الإيمان وظلم الكفر، ولا يكون الظلم ظلماً في مرحلة من المراحل حتّى يكون وجهاً لدرجة من الكفر، كفر المرحلة الأُولى يتمثل بحذف الإسلام عن الساحة الاجتماعية، صحيح ان الحاكم ليس بكافر

لكنه يستند إلى مبدأ كفر بنحو كلي إذا كان ذلك المبدأ هو العلمانية، أو بنحو جزئي إذا كان ذلك المبدأ هو إسلام زائف مشوّه كإسلام العباسيين والأُمويين المشمولين بقوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما انزل الله فاؤلئك هم الكافرون﴾[1]، والمقصود بذلك مبدأ الكفر الكلي أو الجزئي، والمهم أنّ الظلم لا يتولد إلاّ عندما تختفي حاكمية الله على الإنسان، وأنّ الظلم مظهر حتمي للكفر المتمثل باختفاء الحاكمية الإلهية.

وكفر المرحلة الثانية يتمثل بعدوان الكفار أو عملائهم على دار الإسلام، أما المرحلة الثالثة فهي مكافحة عين الكفر الذي ينبع من دار الكفر ثم يمتد إلى دار الإسلام.

وقد تتفاوت الأثلاث الثلاثة لخط العدالة من حيث الأهمية، وقد نرجي ثلث الدولة العادلة إذا كان هناك خطر وعدوان على أساس العدالة المتمثل بالإسلام، وإذا تم الثلث الأوّل والثاني وجب القيام بالثلث الثالث بالدعوة إلى الإسلام ونشره في بلاد الكفر بما يؤدي إلى كسر شوكته والسيطرة على أخطاره بالجهاد إذا أمكن ذلك، بناءً على القول بوجوبه في زمن الغيبة عند القدرة والاستطاعة، كما هو مختار آية الله السيد الخوئي (قده)[2] وآخرين، بمعنى أنّ المسلم مكلف دائماً بثلث أو أكثر من خط العدالة، ولا يمكن أن يأتي عليه زمان لا يكون فيه مكلفاً بثلث من هذه الأثلاث، وما يقال عن تقديم الأهم على المهم أنما يجري بين خيارات المقاومة وأثلاث العدالة، ولا يمكن أن تجري هذه القاعدة بين العدالة واللاعدالة، ولا بين المقاومة واللامقاومة؛ لأنّ هذا يؤدي إلى دوران الأمر بين الإسلام واللاإسلام، وهو دوران باطل.

---

(١) المائدة: ٤٥.

(٢) منهاج الصالحين ١:٣٦٦، ط: ٢٨.

المرحلة الأولى: إقامة العدل على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[1]، وقال تعالى: ﴿كنتم خير أُمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[2]، وقال أمير المؤمنين (ع) في وصيته: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولّى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم»[3].

وصية الإمام علي (ع) تفيد أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة شرعية تؤدي إلى نفي حكم الأشرار، وإسقاط الظلم وإقامة الحكم العادل، والآيتان الشريفتان تفيدان أنّ هذه الوظيفة تقوم بها أُمة عادلة يوصي بعضها بعضاً بالحق وبالصبر، ثم يأتي قوله تعالى: ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[4] ليفيد أنّ لأصحاب المعروف ولاية شرعية على أصحاب المنكر، وأنّ أهل المعروف يتناصرون فيما بينهم على إسقاط المنكر وإقامة المعروف، وعلى أهل المنكر طاعتهم في ذلك، وأنّ هذه الوظيفة الشرعية وسيلة وضعتها الشريعة للأُمة لتدافع بها عن نفسها ضد المنكرات والموبقات.

ومجموع ذلك يفيد أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة تبدأ من بناء أُمة عادلة وتنتهي بإقامة حكم عادل، تبدأ من الجهاد الأكبر على صعيد صقل النفس العادلة وتهذيب البناء الداخلي للأفراد وتنتهي بالجهاد الأصغر على صعيد مكافحة الجور وإقامة الدولة، وهي تعتمد في ذلك على تربية الإحساس بالمسؤولية تجاه

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

(٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) نهج البلاغة من كتاب ٤٧.

(٤) التوبة: ٧١.

المجتمع والأُمة والإسلام ومكافحة النزعة الفردية الأنانية، وإشاعة مبدأ «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**» ومبدأ «**من أصبح ولم يهتم بأُمور المسلمين فليس منهم**» وإيجاد مواطن يشعر بأنّه أساس القضية ومتن الساحة، ومحور الحركة الاجتماعية؛ لأنّ الأُمة المنهزمة تبدأ من مواطن اتكالي تنتابه النزعة الفردية ويلقي بالمسؤولية على الآخرين دوماً.

كما أنّ المعروف عنوان عام يشمل كل محاسن الإسلام، ويمثل القاعدة العريضة لحضارته، والأمر به يعني الأمر بإيجاد حضارة المعروف، كما أنّ المنكر عنوان عام يمثل كلّ المساوئ المتفرعة عن حضارة الكفر والشرك، والنهي عنه عبارة عن إعلان الكفاح على حضارة المنكر والحيلولة دون تسلل هذ المساوئ إلى حيّز حضارة المعروف، وبالتالي فالأمر والنهي مظهر لصراع إيجابي تخوضه حضارة المعروف ضد حضارة المنكر.

وهذا أعلى مظهر لإسلام مقتدر فعال على الساحة الاجتماعية، إسلام يصنع أُمة عادلة وحضارة معروف وحكم عادل ويكافح حكماً جائراً وحضارة فاسدة، ولا معنى لإسلام عاجز، بل لا وجود لإسلام لا يفعل ذلك، ومن هنا كانت العلمانية مبدأً كافراً يستهدف حذف البرنامج الاجتماعي الحضاري من الإسلام، وتحويل الإسلام إلى سراب، والرأسمالية أنما تؤكد على العلمانية من أجل أن لا يكون هناك دين ينادي بالعدالة ويكافح مظالم الرأسماليين في العالم، ولأنّ الدين هو الطريق الوحيد لانتصار البشرية عليهم، فاخترعوا العلمانية كوسيلة لتكبيل الدين وتحويله إلى اسم بلا مسمى، والوظيفة تقتضي في هذا الزمان منا الكفاح من أجل إعادة ثقة البشرية بالإسلام كحل مقتدر وأمثل لمشاكلها، وفضح العلمانية والألاعيب الرأسمالية، والإصرار على مقولة الدولة الإسلامية و تأكيدها والدفاع عنها كرمز مقدس في حياة المسلمين، وهي ضرورة من ضرورات الإسلام عند السنة والشيعة، وغير

متوقفة على القول بولاية الفقيه كما قد يتصور البعض، بل ناشئة من اقتدار الإسلام وكونه مشروعاً لإسعاد الإنسان وحل مشاكله، واستلزام ذلك لأُمة تحوّل هذا المشروع إلى واقع، وما تلك إلّا الدولة، وبمعنى آخر أنّ مقولة الدولة في الإسلام ناشئة من كونه ديناً ينطوي على مفهوم حقوقي شامل للفرد والمجتمع والدولة والعالم بأجمعه، وما أحكام الجهاد والدفاع والأمر والنهي والمعاملات والمواريث... الخ، إلاّ معالم شاملة متكاملة لهذا المفهوم، ومثل هذا المفهوم ملازم للدولة بشكل حتمي، بحيث إنّ حذف الدولة يعني نسخ الإسلام وإبطال دوره الذي بعثه الله من أجله في الحياة، وبحسب مقياس العدالة هناك خمسة احتمالات بشأن رئاسة الدولة، كل دولة وهي: المعصوم، والمجتهد العادل، وعدول المؤمنين، والمسلم الجائر، والكافر.

وحكم المعصوم هو أعلى مرتبة في مقياس العدالة، وتتصف ولايته بأنها مجعولة من قبل الله سبحانه وتعالى، وليس بوسع المسلمين التدخل فيها إثباتاً ولا نفياً، ولأجل ما يتصف به المعصوم من عدالة قياسية يتحلى بولاية على الناس دون ولاية الله عليهم وأكبر من سائر الولايات، وهي قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾[1]، هذه الولاية تتيح للنبي(ص) وسائر المعصومين (ع) التدخل في الشؤون الشخصية للمؤمنين، كما في قضية زيد وزينب بنت جحش، حيث أمره النبي(ص) بطلاقها، وهذا المقدار الواسع من الولاية إلى حد التدخل في الأُمور الشخصية ما جاء جزافاً، وإنما جاء بعدما ضمنت عدالة المعصوم بشكل مطلق من خلال عصمته، بحيث يقطع بأنّه(ع) لا يتدخل إلّا بنحو موافق للعدالة، وإنما جاز له التدخل في الأُمور الشخصية من أجل أن يسوق المجتمع إلى عدالة تامة.

وبعدها تأتي ولاية المجتهد العادل، وتختلف عن ولاية المعصوم بكونها محدودة

---

(١) الأحزاب: ٦.

في الأُمور العامة للمسلمين دون الشؤون الخاصة للأفراد.

وبعدها تأتي ولاية عدول المؤمنين، وتختلف عما قبلها بسعة دائرة الانتخاب العمومي فيها، بخلاف ولاية المجتهد التي تسمح بدائرة ضيقة من الانتخاب هو الانتخاب في دائرة المجتهدين، بمعنى أنّ الناخب لا يحق له أن ينتخب غير المجتهد العادل. وولاية عدول المؤمنين يصار إليها بعد فقد إمكانية تحقيق ولاية المجتهد.

وبعدها تأتي ولاية الجائر المحرمة، التي لا يجوز امتثال أوامرها ونواهيها، ولا يجوز التعاون معها بنحو من الأنحاء، بل تجب مقاطعتها وممارسة فريضة الأمر والنهي معها، وتعبئة الرأي العام ضدها من أجل إسقاط الجائر أو إجباره على تغيير سلوكه. هذا هو الأصل في الموقف الشرعي من الحاكم الجائر، ويستثنى من هذا الأصل حالتان:

١ ـ ما إذا أدّىٰ إسقاط الحاكم الجائر إلى الفوضى واختلال النظام العام.

٢ ـ ما إذا أدّى إسقاط الحاكم الجائر إلى سقوط الأُمة وصيرورة الحكم بيد الكفار.

والوظيفة في الحالة الأُولى تقتضي السكوت عن الظالم مؤقتاً مع السعي لرفع موجبات هذا السكوت الاضطراري. من أجل العودة إلى الأصل، والوظيفة في الحالة الثانية تستدعي استنكار الجائر والكافر معاً من جهة والدفاع عن الأُمة من جهة ثانية. وسيأتي تفصيل ذلك في بحث الدفاع.

أمّا الكافر فولايته منتفية انتفاءً ذاتياً، لأنّ الكفر عين الظلم وأساسه، ولا تتصور له الولاية أصلاً، بخلاف الجائر الذي يمكن السكوت عنه اضطراراً لدفع ولاية الكافر أو دفع خطر الوقوع في ظلم أكبر.

فهذه حالات متدرجة من الولاية بحسب الحكم الشرعي والخصوصيات، وتبعاً لمستلزمات العدالة. وهناك عدالة متدرجة تبدأ من النموذج النبوي الأمثل،

وتنتهي بعين الظلم المتمثل بالكفر، وهناك أحكام متناسبة مع كل ولاية من هـذه الولايات.

المرحلة الثانية، رفض العدوان الخارجي على أساس الدفاع

العدوان الخارجي مظهر من مظاهر الظلم، ومكافحته مظهر من مظاهر العدل، ويصطلح عليها في الفقه اسم الدفاع، ومن أجل أن نعرف مرتبة هـذه المـرحـلة بالقياس إلى ما قبلها وما بعدها لا بد أن نحدد الهدف فيها بالقياس إلى الهدف فيما قبلها وما بعدها، فالهدف في المرحلة السابقة هو إيجاد العدل في الأُمة الإسلامية، والهدف في المرحلة التالية ـأي الثالثة ـهو تعقب الظلم إلى مكمنه المتمثل بالكفر، بينما الهدف في المرحلة الثانية هو الدفاع عن أصل الأُمة الإسلامية ضد عدو يريد إسقاطها ويحوّلها إلى أفراد مبعثرين على غرار قول الرسول (ص): **«يوشك أن تداعى عليكم الأُمم تداعي الآكلة على قصعتها. قيل: يا رسول الله فمن قلة بنا يومئذٍ؟ قال: لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل...»**[1].

إنجاز الحكم العادل في المرحلة الأُولى أنما هو إنجاز لمظهر من مظاهر الأُمة، والسعي الجهادي للسيطرة على الكفر سلوك يراد به الدفاع عن الأُمة الإسلامية من جهة والدفاع عن سائر المستضعفين في الأرض من جهة ثانية، ومعلوم من هذا السياق أنّ المرحلة الأُولى متوقفة على إحراز وجود أُمة مستقلة ذات سيادة، وكذا المرحلة الثالثة، بما يوضح أنّ المرحلة الثانية تحظئ بالأولوية على ما بعدها وقبلها، أمّا المرحلة الأُولى فقد تتقدم على الثالثة في ظرف وقد تتأخر عنها في ظرف آخر؛ لأنّ أساس الأُمة الإسلامية فيهما محرز، وما بعد إحراز الأُمة أهداف باتجاه تقدم الأُمة، فقد يرجح تقدم الأُمة في مضمار العدالة الداخلية على العدالة الخارجية، وقد

---

(١) كنز العمال ١١:١٣٢.

يرجح العكس تبعاً للظروف والإمكانات.

وليس في ذلك بحث مهم يستحق المعالجة، وإنما البحث المهم الذي وقع محلاً للابتلاء عند المسلمين في تقديم المرحلة الثانية على الأُولى، بمعنى أنّ الأُمة إذاكانت سعيدة بحكم عادل فلا بحث ولا كلام في وجوب الدفاع عن الأُمة وعن الدولة العادلة إذا تعرضتا إلى غزو خارجي، إنما الكلام فيما إذا كان هناك حاكم جائر يغتصب الأُمة وجاء عدو أجنبي وأراد إسقاط الغاصب والمغصوب معاً وتحويل المسلمين إلى أفراد مبعثرين، فما هو التكليف في مثل هذه الحالة؟

الساحة الإسلامية في مثل هذه الحالة تصبح مكلفة بوظيفتين، وظيفة الأمر والنهي دفعاً للحاكم الجائر، والجهاد الدفاعي دفعاً لعدو كافر، فإن كان المسلمون قادرين على أداء الوظيفتين معاً فلا شبهة ولا إشكال بوجوب القيام بالوظيفتين معاً، وهذا هو الأصل الذي ينبغي أن يكون المسلمون عليه. ولا يخرجوا منه إلّا بتقصير ما في مرحلة سابقة أدّت إلى وقوعهم في حالة محرجة بين حاكم جائر وعدو كافر، وأصبحوا بسبب ذلك بحاجة إلى البحث في أنّ الكافر أخطر أم الجائر؟ ومثلهم في هذه الحالة كمن سار في طريق خاطئ حتى وصل نقطة أصبح فيها محاصراً بين عدوين لا يدري بأيهما ينشغل وأيهما يترك؟

وفي مثل هذه الحالة يحتاج الإنسان إلى وعي مضاعف ونباهة استثنائية بحيث يتغلب على الطرفين معاً، ويضع لذلك ستراتيجية متقنة تضمن له النتيجة، إذ ليس المهم أن يسير الإنسان كيفما اتفق، وإنما المهم أن يسير في طريق يؤدي بشكل مضمون عند العقلاء إلى النتيجة المقصودة، ويتوكل في الوقت نفسه على الله سبحانه وتعالى. وهذا الأمر كما يجري في حالة دوران التكليف بين مواجهة جائر مسلم ومواجهة عدو كافر كذلك يجري في حالة دورانه بين مواجهة عدوين كافرين أحدهما من الشرق والآخر من الغرب، وكلتا الحالتين محل لاختبار ذكاء وفطنة

المؤمنين، وهنا لا بد من استذكار ما قررناه سابقاً من وحدة الظلم والكـفر، وأنّ الجائر في الداخل يتحد نوعاً مع الكافر المعتدي، وأنّ الكافر هو العمق والمنبع للظالم، وأنّ الظالم امتداد للكافر اخترق الأُمة الإسلامية رغم الاختلاف الطارئ بينهما، والمهم بالنسبة لنا أنهما خطر واحد علينا مواجهتهما معاً، فإما أن نبدأ بالظالم وننتهي بالكافر أو نفعل العكس، والموقف المطلوب ينبع من واقع المواجهة ومعطياتها، وفي ضوء ذلك لابد من تثبيت عدة مبادئ أساسية من شأنها الإعانة على استخلاص الموقف الصحيح في مسألة معقدة للغاية وهي:

١ ـ أنّ وحدة الظلم والكفر تستدعي اتخاذ موقف واحد منهما، وعدم تأييد أحد الطرفين ضد الآخر؛ لأنّ الكافر يريد إسقاط الجائر مع الأُمة، وتأييده يعني إعانته على إسقاط الأُمة، كما أنّ الجائر لا يمكن تأييده ضد الكافر؛ لأنّ ذلك يؤدي إلى ازدياد قبضة الظلم على الأُمة.

٢ ـ في معركة الجائر مع الكافر يجب الوقوف إلى جانب الأُمة ضدهما معاً، بمعنى العمل على حفظ مظاهر الأُمة من الجيش ومؤسسات الدولة ووحدة الأُمة وتعميق العقيدة الإسلامية والدفاع عنها باعتبارها الأساس الذي تـقوم الأُمـة بـوجوده وتشتد باشتداده وتضعف بضعفه وتزول بزواله، ولا بد من إبراز رموز وقـيادات تتحدث باسم الأُمة كرمز لوجودها ورسالتها ووحدتها ولا تتحرك بعنوان فئوي محدود.

٣ ـ التكتيك والخدعة أمر مألوف في المعركة شريطة أن يجري ذلك لصالح الأُمة لا ضدها، ولا يجري لصالح الأُمة إلّا في حالة الثبات على المبدأين السابقين، فمن الممكن التظاهر أمام الطرفين أو أحدهما بشيء خلافهما، شريطة أن يبقى ذلك في حدود التظاهر ولا يخل بحقيقتهما. ولا يخل بثقة الأُمة بقيادتها الإسلامية.

٤ ـ السعي لتسخير معطيات المعركة الجارية بين الكافر والجائر لصالح الأُمة

دون الإخلال بالمبدأين المذكورين، ومع الاحتراز الشديد من كل مساومة من شأنها جرّ الأُمة إلى الاحتراق بنيران المعركة الجارية بينهما، والإخلال بوضوح القيادة وأصالتها الإسلامية والوطنية.

٥ ـ أنّ عدم تأييد الطرفين يعني الحياد في المعركة، ولكن هذا الحياد له شروط وحدود؛ لأنّ المعركة لا تجري في بلاد الأجنبي وإنما تجري داخل دار الإسلام، ولا بد من رصد هذا الحياد في بدايته ونهايته، فإنّ الحياد يتخذ ابتداءً من أجل ظرف قاهر بحيث نسمح للأجنبي بإسقاط جزء من الأُمة وسيادتها عندما يكون ذلك ضرورياً لإسقاط الجائر وإطلاق المارد الشعبي من قمقمه من جهة، وتكون هناك خطط وبرامج وإمكانية لإعادة الأُمة من جديد وإخراج المحتل الكافر بحيث تخرج عن حالة الحياد الاضطرارية وتدخل المعركة ضد هذا المحتل بموقف إيجابي في لحظة تالية منتخبة. والفائدة من هذه العملية عبارة عن الخروج من قفص الجائر الذي ما كان بإمكاننا الخروج منه وظهور الاحتلال كقفص جديد يمتاز عن السابق بكونه مما يمكن الخروج منه. وهي أشبه بالعملية الجراحية التي يراد بها استئصال غدة سرطانية بيد جراح كافر جاء رغم إرادتنا لاستئصال هذه الغدة من أجل زرع غدة جديدة تنفعه أكثر من السابق فنحاول في مثل هذه الحالة أن نستفيد من خطوته الأُولى، فإذا سقط الجائر وأراد الكافر المباشرة بزرع الغدة الجديدة انتهى الحياد وبدأت وظيفة الأُمة بمواجهة هذا الجراح الكافر وإخراجه من دار الإسلام، كل ذلك شريطة الاطمئنان على إمكانية إعادة الحياة للمريض بعد طرد المحتل وعدم الاحتياج إلى المحتل لمعالجة المريض، والاطمئنان على إمكانية طرد المحتل، وإلّا سيكون الحياد بمثابة الانتحار للأُمة.

٦ ـ لا بد من استنفار الأُمة واعتماد الخطاب النهضوي الجهادي التحريضي ضد الطرفين بأعلى درجة ممكنة من أجل أن تكون القدرة على إنجاح العملية الجراحية

بأعلى ما يمكن. ولا بد من الاعتماد على حضور الجمهور ووعيه السياسي الإسلامي الأصيل في الساحة. وأسوأ شيء على الأُمة السكوت على العدوان الخارجي وعدم الانتصار لمشاعرها؛ لأنّ ذلك يؤدي إلى ردود فعل سلبية جداً.

٧ ـ المبادئ الستة السابقة تعتمد كستراتيجية للموقف تجاه معركة الجائر مع الكافر، أما معركة المسلمين مع كافر في الشرق وآخر في الغرب ففي مثل هذه الحالة يجب على المسلمين إعطاء الأولوية لأخطرهما، وهنا يقع البحث في مقياس الأخطرية، فقد يقال بأنّ الأخطر هو الأوضح والأشد كفراً، وقد يقال بأنّه الأخفى كفراً، والصحيح هو الثاني؛ لأنّ الكافر الواضح الصريح الحاد في كفره لا يمكنه أن يخدع الأُمة، ولا يمكن أن تسقط الأُمة أمامه، ولو سايرته من أجل ظرف تاريخي نفسي ضاغط لفترة معينة، لكنه على المدى الطويل لا يمثل خطراً ستراتيجياً، وذلك كالشيوعية والمعسكر الشرقي سابقاً، بخلاف الكفر الخفي الذي يمكن أن يخدع الأُمة بشعارات براقة وبعدم العداء للدين، مثل الليبرالية في المعسكر الغربي، ولذا كان الإمام الخميني (رض) يعتقد منذ بداية انطلاقته في انتفاضة خرداد عام ١٩٦٣ بأنّ الشرق والغرب شرٌّ في شرّ، لكن المواجهة مع الشيطان الأكبر المتمثل بأمريكا.

ومما يدل على صحة هذه البصيرة الخمينية الفائقة الحديث النبوي القائل: **«لتنقض عرى الإسلام عروة عروة، كلما نقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها»**(١) فالانتقاض عروة بعد عروة تعبير عن سقوط الأُمة أمام خطر خفي تدريجي يستدرج الأُمة مرحلة بعد أُخرى، وهو ما يتضمن دلالة التزامية على أنّ الأُمة الإسلامية لا تسقط بخطر حاد صريح دفعي كالخطر الشيوعي. وإنما تسقط بخطر تدريجي كالليبرالية.

---

(١) بحار الانوار ٢٨: ٤٠، ط: مؤسسة الوفاء.

وهذه المبادئ السبعة تمثل ستراتيجية عملية يمكن من خلالها اجتناب أكبر قدر ممكن من الشر واكتساب أكبر قدر ممكن من الخير، وأكبر شر يجتنب بهذه الستراتيجية هو الفتنة الداخلية التي يمكن أن تطحن المسلمين حينما يهيمن عليهم الضعف وغياب البصيرة، فينقسمون بين مؤيد للجائر ضد الكافر وآخر مؤيد للكافر ضد الجائر، أو بين مؤيد للشرق ضد الغرب وبين مؤيد للغرب ضد الشرق.

ومنشأ هذه الفتنة يعود إلى مقولة خاطئة جداً، هي أنّ الكافر العادل أفضل من المسلم الجائر، وقد اتضح مما مضى فسادها، وأنّ الكافر لا يمكن أن يكون عادلاً بحال من الأحوال على مستوى الحكم والدولة، وإن كان ذلك ممكناً كحالات عابرة في سلوك شخصي من بيع وشراء ونحو ذلك، بل إنّ الكافر أظلم من المسلم الجائر؛ لأنّ الجائر يعتدي على حقوق الأُمة، بينما الكافر يسقط الأُمة والإسلام ويحولها إلى شيع وأفراد متناثرين، وحينما يقول (ص): **«إن الله لينصر دينه بالرجل الفاجر»** فالمقصود بهذا النصر على الكافر، وقد جرت سيرة الأئمة (ع) على نصرة الأُمة في مواجهة الكافر والجائر معاً، فكان الإمام السجاد(ع) يدعو لأهل الثغور؛ لأنهم مظهر الأُمة وليسوا مظهراً للحاكم الجائر.

وما يتشبث به البعض من أنّ المغول قد دخلوا في الإسلام بعد سقوط بغداد فكرة خاطئة جداً؛ لأنّ معنى ذلك أن يسقط فرض الدفاع عن المسلمين، ويبقون بلا حصن ولا أبواب ولا ثغور تحميهم، وإذا كان للإسلام قدرة انتشارية واسعة وجاذبية كبيرة حتى في زمن هزيمة المسلمين وتقاعسهم فهذا لا يعني حسن الهزيمة والتقاعس ولا يعني ارتفاع قبحهما، ولا ارتفاع مسؤوليتهم عن ذلك، فما يفعله الإسلام للإسلام، وما يفعله المسلمون من المحاسن فهو لهم، وما يفعلوه من المساوئ فهو عليهم، واختلاق هذه التبريرات يفتح أبواب الشر على مصراعيها أمامهم.

وفي نهاية بحث الدفاع لا بد من التطرق لأحكام حيوية من هذا الباب وهي:ـ

١ ـ هناك مجال واسع لإثبات وجوب الدفاع من الكتاب والسنة والإجماع والعقل، وقد اعتبرنا ذلك صفحة مطوية لئلا يطول الكلام بأُمور واضحة ليس بين العقلاء من ينكرها[١]. وقد اتضح أنّ خط العدالة بمراحله الثلاث يعود إلى أحكام عقلية فطرية، وأنّ امتياز الإسلام يتمثل في كونه يعطي للأحكام العقلية بعداً سماوياً من أجل تنجيز تلك الأحكام وتقويتها وجعلها حالة حاكمة مهيمنة على الإنسان، ولولا هذا البعد تبقى تلك الأحكام حالة ضعيفة ينفلت الإنسان منها بسرعة في المرحلة الأُولى، وينكرها في المرحلة الثانية، كما نشاهد ذلك من الإنسان الغربي الذي ينكر قيم الحق والعدالة.

٢ ـ لا يحتاج الدفاع إلى إذن من أحد، صرح بذلك صاحب كشف الغطاء[٢] وصاحب الجواهر[٣] وقبلهما العلامة الحلي في التذكرة[٤]. وذلك لأنّ شرط الإذن يأتي إمّا من الملك أو الولاية، وبلاد المسلمين ليست مملوكة لأحد حتى يتصور الاستئذان منه، فتبقى مسألة ولاية الفقيه، ولا معنى لاشتراط الإذن من الفقيه حتى على القول بالولاية العامة للفقيه، لأنّ ذلك يتصور في مورد يمكن للفقيه فيه الإذن وعدمه، والدفاع خارج عن ذلك؛ لأنّ الإذن وعدمه لا بد وأن يكون منوطاً بالمصلحة، وقد مضى في بحث المصلحة أنّ تشخيص المصلحة لا بد وأن يكون عرفياً من جهة وموافقاً للشرع من جهة ثانية. والفقيه إن لم يأذن بالدفاع فلا بد أن يكون ذلك من أجل مصلحة عرفية موافقة للشرع، فمن جهة العرف جرى العقلاء على

(١) لمزيد من التفصيل انظر كتاب: وجوب النهضة لحفظ البيضة للسيد محمّد البغدادي: ٥٩ ـ ٦٢. وص ١٢١ – ٢٢٦، ط: النجف.

(٢) كشف الغطاء ٤: ٢٩٠، ط: مكتب الاعلام الاسلامي.

(٣) جواهر الكلام ٧: ٤٩٩، ط: دار المؤرخ العربي.

(٤) تذكرة الفقهاء ١: ٤١٠، ط: قديم.

الدفاع عن أُممهم وبلدانهم واعتبار المصلحة أمراً يأتي بعد إحراز وجود الأُمة، فالنقش بعد العرش، فإذا سقط العرش وسقطت الأُمة تحت الاحتلال الأجنبي وتحوّل المسلمون إلى أفراد لا جامع لهم يعبر عن وجودهم وكيانهم لا معنى للحديث عن النقش والمصلحة، وكما لا يحق للأب أن يمنع ابنته من الزواج بحجة المصلحة، كذلك لا يحق للفقيه أن يمنع الأُمة عن الدفاع بحجة المصلحة، لأنّ المصلحة؛ المدعاة في كلا الموردين مخالفة لعرف وسيرة العقلاء، أما من جهة الشرع فقد اتضح حكم الشارع بوجوب الدفاع، وولاية الفقيه لا يمكن أن تجري بنحو مخالف للشرع، ولا يمكن للشرع أن يحكم بشيء ثم ينصب ولياً يأذن بنفي ذلك الحكم، والمفروض في الفقيه أن يكون سلطة تنفيذية للشرع وليس وسيلة لإلغاء الشرع.

فاتضح بذلك أنّ الإذن لا يمكن تصوره في الدفاع حتى عند القائلين بولاية الفقيه. بل القائل بولاية الفقيه يجب أن يكون اشدّ الناس حرصاً ودفاعاً عن بلاد المسلمين، فإن لم يدافع الفقيه عن الأُمة والبلاد التي هو وليها وحاكمها الشرعي فمن المدافع الذي يرجى منه القيام بهذه الوظيفة بعده؟.

نعم إذن الفقيه شرط وجود وليس شرط وجوب، بمعنى أنّ الفقيه إذا تولى قيادة المقاومة وجبت طاعته من باب نظم الأمر كما تجب طاعة كل قائد غيره إذا تولّىٰ هذه الوظيفة الشرعية.

٣ ـ يحرم الود مع العدو الكافر؛ لقوله تعالى: **﴿يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق..... تسرون اليهم بالمودة وانا اعلم بما اخفيتم وما اعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾**(١).

وحينما يحرم الود تحرم معه مقدماته وذرائعه المؤدية إليه، وكل ما يؤدي إلى

(١) الممتحنة: ١.

وحدة شعورية معه يعد مقدمة إلى الود معه، و عدم استشعار خطره على الأُمـة، والثقافة واللغة والإعلام عوامل ثلاثة كل واحد منها يؤدي إلى وحدة شعورية مع الكافر المعتدي ، لذا ينبغي على المسلمين عدم التعاطي مع الغرب على صعيد هذه العوامل الثلاثة، لأنها تجر إلى اختفاء الحساسية ضد خطر ينبغي التنبه له، فينبغي تجنب المصطلحات الغربية كالديمقراطية والاشتراكية والقومية والليبرالية، بل يجب نقدها باستمرار بوصفها منظومة عقائدية كافرة أدت بمجموعها إلى ظهور الغرب كعدو حضاري شامل تجاه المسلمين.

واستعمال هذه المصطلحات يعني أنّ فيها خيراً وأنّ هناك خيراً خارج الإسلام، وأنّ الإسلام لا ينطوي على كل خير، بل على شيء منه، وأننا قد أصبحنا خارج دائرة الإسلام بحيث نجمع الخير من كل إناء، وهذا هو الخطر التدريجي والانحلال التدريجي للأُمة الإسلامية، هذا في مسألة التعامل مع الثقافة الغربية، اما اللـغات الأجنبية فهي وحدات شعورية جنبنا الإسلام الدخول فيها من خلال تأكيده على اللغة العربية كلغة للعبادات والثقافة الإسلامية من الفقه والأُصول وعـلم الكـلام والتفسير. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الإعلام الغربي وحدة شعورية أُخرى يـنبغي عدم الدخول فيها. وأن نقابلها بشخصية إسلامية حرة ومستقلة لا تخضع للاستلاب الفكري ولا تكرر ما يقوله الغربيون، قال تعالى: ﴿**يا ايها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾[1]، فإذا قالت أمريكا: إرهاب وديمقراطية وعولمة و وحقوق إنسان واستبداد ديني... الخ فينبغي الحذر من ترديد هذه المصلحات معها، وعلينا أن نخضع هذه المقولات للفحص والبحث الدقيق من جهات فكرية وسياسية وستراتيجية، ونتخذ موقفنا منها بعد إتمام عملية

(١) الحجرات: ٦.

البحث هذه وعلى أساس منها. وما لم نتخذ هذا الموقف الاحترازي الشديد من الوحدات الشعورية الثلاث هذه سوف نجد أنفسنا في حالة اتحاد شعوري مع العدو، وسوف ننسى أنه عدو، وبالتدريج سوف نجد أنفسنا كما لو كنا جزءاً طبيعياً من وجوده. وهذه الوحدات الثلاث تمثل بمجموعها ظاهرة التغريب التي زرعت الاستعمار في بلاد المسلمين واتكأ عليها كأساس للسيطرة عليهم.

٤ ـ الأصل أن يتولى قيادة الدفاع صلحاء الأُمة وأبرارها، ولكن هؤلاء إذا لم ينهضوا لهذه المسؤولية لا تسقط وظيفة الدفاع، بل تبقى واجبة حتى لو نهض للقيادة فاجر شارب للخمر؛ لأنّ الله يؤيد دينه بالرجل الفاجر[1]. أمّا الحاكم الجائر فإذا رفع راية الدفاع والجهاد الدفاعي جاء فيه الكلام السابق المتمثل بالمبادئ الستة المذكورة، وخلاصتها التمييز بين الأُمة والحاكم الجائر، والدفاع عن الأُمة وترك المعركة تدور بين الجائر والكافر وعدم تأييد أي منهما ضد الآخر، والاستعداد للانقضاض عليهما في لحظة منتخبة لاحقة. ولم يحصل في زمن أهل البيت (ع) نظير لهذه الحالة بحيث يمكن الاستدلال بموقفهم، وما جرى في زمانهم تحديات تواجه أصل الإسلام فسكت الإمام أمير المؤمنين(ع) دفاعاً عن الإسلام، ولم يكن هناك عدو خارجي، وكذلك في زمن الأئمة من بعد الإمام الحسين (ع) لم يكن هناك عدو خارجي يتهدد المسلمين بإسقاط الأُمة، وإنما كان هناك حاكم جائر يرفع راية الجهاد الابتدائي، وكان ذلك عمل لمصلحة الأُمة وتوسيعاً لنطاق الإسلام، فأمضى الأئمة أصل هذا الموقف واحتفظوا بموقفهم الرافض للجائرين كخط ثابت لا يقبل التغيير وبذا كان موقفهم يتمثل برفض الجائر والكافر معاً، ولم يدخلوا في فتنة تأييد الكافر ضد الجائر بدعوى أنّ الكافر العادل أفضل من

---

(١) تذكرة الفقهاء ١: ٤١٠، ط: قديم.

المسلم الجائر، ولم يدخلوا في فتنة تأييد الجائر ضد الكافر بدعوى أنّ الجائر أفضل من الكافر، لما مضى من الوحدة النوعية بين الجور والكفر. وهذا هو الموقف المطلوب في المحنة الراهنة للأُمة الإسلامية في المعركة التي أعلنتها أمريكا ضدها بادعاء إسقاط الديكتاتورية وإقامة الديمقراطية، حيث يجب الانتصار للأُمة والإسلام وعدم الانخراط في تأييد وتصديق أي من الطرفين، والاحتفاظ بموقف رافض لهما معاً.

٥ ـ الاستقلال والسيادة مظهر لا ينفك عن وجود الأُمة، الأُمة المستقلة أُمة موجودة حية، ولا وجود لأُمة غير مستقلة، بل أفراد وجماعات مبعثرين، من هنا يجب الدفاع عن استقلال الأُمة، ومفهوم الاستقلال في الإسلام ينطلق من ركيزة عقائدية، فتتحول إلى ظاهرة تشريعية، الركيزة العقائدية هي أنّ الإسلام هو مظهر الحق في الساحة الإنسانية، والأُمة الإسلامية هي أُمة الحق التي يجب أنّ تحافظ على استقلالها عما سواها، حفاظاً على هويتها هذه، باعتبار أنّ العقيدة في الإسلام تقوم مقام الحدود الجغرافية، وأنّ الأُمة في الإسلام أُمة عقائدية وليست جغرافية، والتهاون في الاستقلال يعني إبقاء المسلمين بلا حدود جغرافية ولا عقائدية، والظاهرة التشريعية عبارة عن فقه المقاومة بمعناه العام والخاص والذي يتبلور بشكل صريح في القاعدة المسماة بقاعدة نفي السبيل، استناداً إلى قوله تعالى: **﴿لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾**[١] والحديث النبوي: «**الإسلام يعلو ولا يعلى**»[٢]. وقد جاء القرآن الكريم بالاداة «لن» الدالة على التأبيد القطعي. فليست هناك صورة من الصور يمكن أن يسمح فيها الإسلام بجواز انتفاء السيادة

---

(١) النساء: ١٤١.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٦: ٢٠٥، ط: دار الفكر، وسائل الشيعة ٢٦: ١٤، ط: آل البيت.

الإسلامية على بلاد المسلمين. لأنّ هذا هو الحد الأدنى مما ينبغي الثبات عليه منها، والأصل في السيادة على الأرض كلها أن تكون بيد أهل الإسلام بملاك أنّ كلمة الله هي العليا، وكلمة الله موجودة فيهم، فينبغي عليهم إعلاء هذه الكلمة في أرجاء المعمورة لتتم السيادة الإسلامية على الأرض، وهي سيادة مبدأ التوحيد على البشرية وليست سيادة لمجتمع على آخر، وعلى أساس ذلك ليس هناك ما يسمح بالتفريط بالسيادة الإسلامية. باعتبار ذلك الحد الأدنى مما وقع بأيدي المسلمين منها، ويجب انتزاع البقية الباقية.

وقد نهى القرآن الكريم بشدة المؤمنين عن التبعية للكافرين وموالاتهم، وعدّ الموالين لهم منهم.

وفي ضوء ذلك ندخل في دراسة ما قاله أحد الأعلام قدست أسرارهم أجمعين. قال الشيخ النجفي في الجواهر ما نصه: «وكل من يجب جهاده فالواجب على المسلمين النفور إليهم إمّا لكفهم عن فسادهم كما في البغاة الذين هم من المسلمين، ومن هجم على بلاد الإسلام من غيرهم على وجه يخشى منه على بيضة الإسلام أو على أسرى المسلمين وقتلهم وسبي ذراريهم، وإمّا لنقلهم إلى الإسلام أو الإيمان أو إعطاء الجزية كما في الأقسام الثلاثة أيضاً... وكيف كان فلا إشكال في أصل الحكم بعد الأمر به والحث الأكيد عليه كتاباً وسنة، بل هو إن لم يكن من الضروريات فلا ريب في كونه من القطعيات، نعم قد يمنع الوجوب، بل قد يقال بالحرمة لو أراد الكفار ملك بعض بلاد الإسلام أو جميعها في هذه الأزمنة من حيث السلطة مع إبقاء المسلمين على إقامة شعار الإسلام وعدم تعرضهم في أحكامهم بوجه من الوجوه، ضرورة عدم جواز التغرير بالنفس من دون إذن شرعي، بل الظاهر اندراجه في النواهي عن القتال في زمن الغيبة مع الكفار في غير ما استثني إذ هو في الحقيقة إعانة لدولة الباطل على مثلها، نعم لو أراد الكفار محو الإسلام ودرس شعائره وعدم ذكر

محمّد صلّىٰ الله عليه وآله وشريعته فلا إشكال في وجوب الجهاد حينئذ، ولو مع الجائر لكن بقصد الدفع عن ذلك لا إعانة سلطان الجور...»[١].

وفي هذا النص عدة أبحاث مهمة لا بد من التحقيق فيها، وهي:

أ ـ معنى بيضة الإسلام التي جعلت مداراً لوجوب الدفاع إذا خشي عليها الضياع.

قال ابن الأثير في النهاية: «لا تسلط عليهم عدوا من غيرهم فتستبيح بيضتهم أي مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقر دعوتهم وبيضة الدار وسطها ومعظمها. أراد عدواً يستأصلهم ويهلكهم جميعهم، قيل: أراد إذا هلك أصل البيضة كان هلاك كل ما فيها من طعم أو فرخ. وإذا لم يهلك أصل البيضة ربما سلم بعض فراخها، وقيل أراد بالبيضة الخوذة، فكأنه شبه مكان اجتماعهم والتئامهم ببيضة الحديد»[٢].

ووردت كلمة البيضة في حديث عن الإمام الرضا(ع) ورد بطرق مختلفة وبنصين فيهما شيء من التفاوت. وفي كلا النصين وردت عبارة: **يقاتل عن بيضة الإسلام**، وعبارة: **إن خاف على بيضة الإسلام والمسلمين قاتل فيكون قتاله لنفسه لا للسلطان**، وعبارة: **إذا كان ذلك كذلك فلا يقاتل عن هؤلاء ولكن يقاتل عن بيضة الإسلام فإنّ في ذهاب بيضة الإسلام دروس ذكر محمّد(ص)**[٣].

والمعنى المتبادر من كلمة البيضة في كلام الإمام الرضا(ع) مطابق لما ذكره ابن الأثير، والمراد من البيضة في اللغة وفي الاصطلاح الشرعي شيء واحد هو ما يساوق مفهوم الأُمة والدولة والحاكمية التي تكون مظهراً ومحوراً لوحدة الأُمة

---

(١) جواهر الكلام ٧: ٥١٣ ـ ٥١٤، ط: دار المؤرخ العربي.

(٢) النهاية ١: ١٧٢، ط: المكتبة الإسلامية.

(٣) وسائل الشيعة ١٥ / الباب ٦ من أبواب جهاد العدو، الحديث الثاني، وكذلك الباب ٧ الحديث الثاني.

وشوكتها، فإذا ذهبت الأُمة والدولة والحاكمية ذهب محل اجتماع المسلمين وموضع سلطانهم ومحور شوكتهم الذي به يعلو ذكر محمّد (ص) في الأرض، ومعلوم أنّ هجوم الغربيين على بلاد الإسلام يستهدف دائماً إسقاط البيضة التي بها شوكة المسلمين، وتحويل المسلمين من أُمة مجتمعة على محور واحد إلى أفراد مبعثرين، خاصة في المرحلة الراهنة.

ب ـ رأي صاحب الجواهر سقوط وجوب الدفاع، بل حرمته فيما لو أراد الكفار ملك بعض بلاد المسلمين من حيث السلطة مع إبقائهم على إقامة شعار الإسلام واستدل على ذلك بحرمة التغرير بالنفس من جهة، ودخول هذه المسألة ضمن النواهي عن القتال في زمن الغيبة، من جهة ثانية، وأنّ ذلك إعانة لدولة الباطل على مثلها من جهة ثالثة. وكل هذه الجهات قابلة للدفع، بل مدفوعة فعلاً بالنقاط التالية:

جـ ـ إنّ فرض تسلط الكفار على المسلمين مع إبقاء شعار الإسلام مجرد فرض نظري، لأنّ التسلط بحد ذاته يعني علو شعار الكفر على شعار الإسلام. والشعار المتبقي للمسلمين هو على المستوى الفردي الشخصي؛ لأنّ الكافر حينما يأتي يسقط الأُمة ومظاهرها، ويبقي الفرد، ومعلوم أنّ شعار الإسلام قائم بالأُمة، فإذا سقطت الأُمة سقط شعار الإسلام، وأصبح المسلمون غثاءً كغثاء السيل، وقام شعار الكفر محله، وقد اتضح أنّ بيضة الإسلام تسقط بمجرد هجوم الكفار على المسلمين، فلا يبقى مجال لافتراض بقاء شعار الإسلام مع هجوم الكفار.

د ـ إنّ تسلط الكفار على بلاد الإسلام ملازم لذهاب بيضة الإسلام كما مرّ، فيجب الدفاع حينئذٍ، كما أنه مقدمة حتمية لوقوع المسلمين في ولاية الكفار التي نهى القرآن الكريم عنها نهياً شديداً في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا

لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾[1]. فكيف يعيش المسلم في دولة الكفار ولا يتبع أمرهم ونهيهم ولا يكون موالياً لهم؟

هـ ـ إنّ الاستقلال والسيادة وبمقتضى قاعدة نفي السبيل المذكورة آنفاً يمثل الحد الأدنى من حق المسلمين في السيادة على الأرض التي هي مظهر السيادة الإسلامية وعلو كلمة الله في الأرض. والدفاع عن السيادة دفاع عن كل شيء، والدفاع عن بلاد الإسلام وشعاره ملازم للدفاع عن السيادة والاستقلال، والتفكيك بين الأمرين مما لا يمكن تصوره إطلاقاً.

و ـ إنّ التضحية بالنفس من أجل الإسلام لا يسمى تغريراً؛ لأنّ التغرير يصدق مع موقف لا جدوى ولا ثمرة تترتب عليه، والدفاع يترتب عليه نصرة الإسلام وعزة المسلمين، حتى مع فرض عدم الغلبة على الكفر، ولو كان الدفاع تغريراً لما بقي معنى لآيات الجهاد وتكريم المجاهدين والشهداء، وإذا كان المدافع عن امواله الشخصية شهيداً في حسابات الإسلام، فالمدافع عن بلاد الإسلام واستقلال المسلمين وكرامتهم أولى بهذا الوسام منه.

ز ـ أمّا النواهي عن القتال في زمن الغيبة فهي مجموعة من الأخبار أوردها صاحب الوسائل في الباب الثالث عشر من أبواب كتاب الجهاد، وقد نوقشت بتمامها مناقشة تامة ولم يثبت في أي منها دلالة على حرمة القتال في زمن الغيبة[2].

ح ـ أمّا قوله: إنّ الدفاع في هذه الحالة نوع من إعانة دولة الباطل على مثلها فليس بدقيق، لأنّ الدفاع في مثل هذه الحالة عن شعار الإسلام وسيادة المسلمين. وليس دفاعاً عن دولة الباطل التي تغتصبها، ثم إنّ دولة الكفر أسوأ وأقبح من دولة

---

(١) النساء: ١٤٤.

(٢) دراسات في ولاية الفقيه ١: ٢٠٥ ـ ٢٠٦، ط: مكتب الاعلام الإسلامي.

الجور، والجور نتيجة الكفر كما اتضح آنفاً.

والحاصل أنّ تفصيل صاحب الجواهر مسألة الدفاع إلى صورتين، صورة يجب فيها الدفاع وأُخرى يحرم فيها ذلك مما لا أساس له. وهو من آثار النزعة الفردية التي تغلغلت إلى الفقه الإسلامي وأوجدت فيه ما لا ينبغي نسبته إليه، والنزعة الفردية بدورها من آثار عصر الانحطاط السياسي للمسلمين، وها نحن نشهد في أيامنا هذه نزعة فردية قاتله تلازم عصر الانحطاط السياسي الذي نعيشه.

المرحلة الثالثة، السيطرة على الكفر على أساس الجهاد في سبيل الله

للإسلام موقف جاد وستراتيجي تجاه قضية الإنسان والعدالة في الأرض، وهو يتابعها بصرامة من مرحلتها الأُولىٰ إلى مرحلتها الأخيرة المتمثلة بمرحلة الجهاد الهادفة إلى السيطرة على نواة الظلم القائمة في عمق الكفر، وعملية السيطرة هذه تتم من وجهة نظر الإسلام بوسيلتين:

١ ـ طلب إعلان الشهادتين ممن ينكر أصل التوحيد.

٢ ـ طلب الالتزام بشرائط الذمة ممن يلتزم بالتوحيد وينكر نبوة الإسلام، الوسيلة الأُولى خاصة بالملحدين والمشركين، وهي لا تعني الإكراه على الدين؛ لأنّ الدين لا يتم بالشهادتين، بل تعني أن يترك معلن الشهادتين الخصومة للإسلام ويمنحه الإسلام في مقابل ذلك التزاماً بحماية دمه وماله وحقوقه الأُخرى، والوسيلة الثانية خاصة بأهل الكتاب الملتزمين بأصل التوحيد، فيطلب الإسلام منهم شرائط الذمة كتعويض عن تنكرهم لنبوة الإسلام. باعتبار أنّ شرائط الذمة تعني الاعتراف بالسيادة الإسلامية، فكأنّ الإسلام يتسامح معهم في الاعتراف بأصل النبوة ويطلب منهم الاعتراف بحق هذه النبوة في السيادة، الأمر الذي يبين أنّ المقصود بالجهاد هو كسب الاعتراف من المنكرين للتوحيد أو النبوة بحق الإسلام في أن يكون محور

الحضارة البشرية وأن لا يكون غيره محوراً لها. فالمعركة معركة حاكمية وسيادة، وليست معركة إجبار على الدخول في الإسلام، وهدف الإسلام في هذه المعركة هو أن لا يكون الإنسان سيد الحضارة البشرية، بل يكون ذلك لله وحده، وفلسفة الإسلام في ذلك أنّ إعطاء السيادة للإنسان يعني إعطاء فرصة للأقوياء في اضطهاد الضعفاء، الأمر الذي يؤدي إلى الظلم والفساد وسفك الدماء، ولذا كان الجهاد معركة ضد الطغاة ولصالح المستضعفين، فالله سبحانه وتعالى يرعى المسيرة البشرية كما يرعى الأب بعطف وحنان سيرة الأُسرة ولا يسمح بتجبر أحد أفرادها على الآخرين، ولذا كان سبيل الله مصطلحاً قرآنياً يساوي سبيل البشرية. فأحد مصارف الزكاة مصرف اسمه سبيل الله، والمراد به الانفاق على المصالح العامة، مثل بناء الجسور والقناطر والمدارس وأشباه ذلك، وفي باب الجهاد طالب الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالجهاد في سبيل الله ﴿**والمستضعفين من الرجال والنساء الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً**﴾[(١)] فالجهاد هو سبيل تحرير المستضعفين من سلطة المستكبرين. وينبغي على المؤمنين أن لا يمنوا بذلك على المستضعفين؛ لأنّ العدالة في مجموع الكرة الأرضية قضية واحدة، ودولة الإيمان لا تستقر ولا تهدأ ما لم ترفع راية المستضعفين كوسيلة ستراتيجية لمحاصرة الكفر ورموز الطغيان، فهناك هدف إنساني مشترك يقتضي تلاحم المؤمنين مع المستضعفين ضد الطغاة، وما لم يرفع المؤمن شعار العدالة في الأرض فسيأتي الكافر ويضلل البشرية بشعارات الديمقراطية والحرب على الإرهاب بالنحو الذي يؤدي إلى محاصرة دولة الإيمان وإضعافها. الأمر الذي يبين ضرورة أن يتحلّىٰ المؤمن بروح رسالية وحماس متوثب لمبدأ إنساني، ولقيم سماوية أخلاقية ولحضارة العدل والتحرر

(١) النساء: ٧٥.

من الطغاة والمستكبرين، وفي سياق هذه المرحلة لا بد من التعرض لجملة من أحكام الجهاد:

١ ـ تجب الهجرة على كل مؤمن يقيم في دولة الكفر إذا لم يتمكن من إظهار شعائر الإسلام.

٢ ـ يحرم التعرب بعد الهجرة، بمعنى حرمة الخروج من دار الإسلام إلى بلد ينقطع فيه المؤمن عن ثقافة الإسلام وشعائره.

٣ ـ يمنع أهل الكتاب من استيطان الجزيرة العربية، من أجل إبقاء العاصمة الأُولى للحضارة الإسلامية ومنطقة الوسط الجغرافي للكرة الأرضية ومهبط الرسالة الخاتمة خاصة بالتوحيد الخالص.

٤ ـ يجب عند لقاء العدو الثبات في المعركة ويحرم الفرار من الزحف.

٥ ـ يجب على المسلمين كافة، خاصة الجاليات الإسلامية في الخارج ممارسة وظيفة الدعوة إلى الإسلام وبيان قدرة الإسلام على حل مشاكل البشرية الراهنة، وأنّ الإسلام هو الحضن الدافئ للبشرية جمعاء، وأنّ ما فيه من الجهاد والقتال خاص بالطواغيت ورموز الظلم في العالم، وهو من أجل السلام والعدالة والحرية في العالم.

٦ ـ الوظائف الثلاثة لخط العدالة وظائف كفائية عند المشهور، فالأمر والنهي، والدفاع والجهاد وظائف شرعية إذا قام بها من به الكفاية سقط الواجب عن الآخرين، لكن معنى الكفائية في هذا الزمان أصبح بشكل آخر، ففي السابق كان الواجب له مصداق واحد هو حمل السلاح، فإذا حمل من به الكفاية السلاح سقط التكليف عن الآخرين، ولكن الأمر في هذا الزمان أصبح مختلفاً؛ لأنّ الواجب لا يتم بالسلاح فقط، وهناك أنشطة إعلامية وتعبوية وثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية لا يتم الواجب الشرعي بها في كل مرحلة من هذه المراحل إلّا بمجموع هذه الأنشطة وإبرزها النشاط الجماهيري المتمثل بالتظاهرات الشعبية

المتواصلة حتى تحقيق الهدف المنشود. وحينئذ ينبغي على كل مسلم في هذا الزمان أن يلعب دوره ضمن النشاط الذي يمكنه القيام به، ولا بد من انبثاق هيئات اجتماعية وسياسية تدير هذه الأنشطة وتنسق الأدوار المختلفة للمكلفين.

الوحدة الإسلامية القاعدة المصيرية

إنّ خط العدالة في مراحله الثلاثة قائم بالأُمة، والمكلف به هو مجموع الأُمة، بغض النظر عن قومياتها ومذاهبها وقبائلها وبلدانها وما لم تتحد الأُمة على أساس هذا الخط المقدس لا يمكنها أن تحقق أي هدف من أهدافها، والتفرقة الطائفية من جملة مظاهر الظلم الذي تلحقه دول الكفر بالمسلمين، وأسوأ شيء في المسلم أن يتصور في انحياز المستكبر الكافر إلى جانبه ضد مسلم آخر مكسباً لصالحه، وهو تصور تترتب عليه المفاسد التالية:

١ ـ بقاء المسلم أسيراً لنظرة سطحية ومصالح وقتية جزئية عابرة. وفقدانه النظرة الستراتيجية والأُفق البعيد.

٢ ـ الإقرار الضمني بالكافر كسلطة عليا تسيّر الأطراف الإسلامية المتنازعة.

٣ ـ فقدان الحساسية العقائدية تجاه الاستكبار العالمي.

٤ ـ ظهور منهج التكفير بين المسلمين، والتعامل مع المسلم معاملة الكافر، ومعاملة الكافر معاملة الولي الحميم.

٥ ـ استمرار عوامل النزاع بين المسلمين.

٦ ـ تحول المسلمين إلى دمى ساذجة يحركها الأجانب بالصورة التي تقتضيها مصالحهم.

٧ ـ فقدان الإسلام كهدف مقدس ينبغي التضحية من أجله بالغالي والنفيس، وظهور المصالح السلطوية والانتهازية الزائلة كهدف بديل يتم التضحية من أجله

بالأُمة والإسلام معاً.

٨ ـ من نمّ لك فقد نمّ عليك، ومن يفرح بنفاق الكافر وانحيازه له ينبغي عليه انتظار يوم أسود ينافق الكافر فيه ضده ويقلب له ظهر المجن.

إنّ الطائفية خط يبدأ من رؤية خاطئة وينتهي محطة استعمارية تحقق كل شيء للاستعمار وتقضي على كل شيء في حياة المسلمين، وهي مفهوم يؤدي إلى تلاشي الأُمة الواحدة و ظهور الطائفية كأساس لأُمتين متصارعتين، وهما وجود غير شرعي وصراعهما غير شرعي أيضاً، ولا يجوز أدنى درجة من النزاع بين المسلمين فضلاً عن أن يستعين أحدهم بالكافر على إنهاء الآخر، والرؤية الخاطئة التي تبدأ الطائفية منها تتمثل في أن يبدأ المسلم فهمه للإسلام من الفروع التفصيلية الموبوءة بالخلاف ويتخذها منطلقاً لفهم أُصول الإسلام، فإذا بدأ المسلم مع الإسلام من بحث الإمامة فسيجد نفسه مضطراً إلى أن يرتدي نظارة شيعية أو سنية، وسيضطر إلى اصطحاب هذه النظارة في قراءته للنبوة والتوحيد حتى ينشق الإسلام يبين يديه إلى دينين وما هيتين مختلفتين، وسوف لا يلتفت إلى البعد الوحدوي عند أهل البيت أو عند الصحابة؛ لأنه بدأ من نقطة تفريقية تجعله يختزن الرؤية التفريقية ويصطحبها من الإمامة إلى التوحيد. وحينئذ يصبح كل شيء في نظره عبارة عن ماهيتين مختلفتين، الفقه والأُصول والتفسير والتاريخ والأُمة وعلم الكلام، ولو بدأ مع الإسلام من التوحيد ثم النبوة ثم الإمامة لتغلغلت في داخله رؤية وحدوية تنظر للخلافات المذهبية نظرة إيجابية.

ورفض الطائفية ومقاومة النفاق الأمريكي هو الوظيفة المقدسة التي تدخلنا في عداد العقلاء الذين يحولون التراب إلى ذهب، كما أنّ الاستسلام لهذا السلوك الخاطئ يدخلنا في عداد السفهاء الذين يحولون الذهب إلى تراب، وللوحدة الإسلامية مرتبتان:

١ ـ المرتبة النظرية وتتمثل هذه المرتبة بالخطوات التالية:

أ ـ إشاعة النظرة الوحدوية بين المسلمين والتأكيد على استحضار واستذكار آيات الوحدة وذم التفرقة في القرآن الكريم، وكذلك الأحاديث النبوية في هذا المضمار، وشواهد الوحدة في سيرة أهل البيت(ع) وصحابة الرسول الكرام.

ب ـ اعتماد المنهج المقارن في دراسة النظريات الإسلامية في الفقه والأُصول والتفسير.

هـ ـ إلغاء التراث التعصبي الذي يغالي بطرف ويذم طرفاً آخر، والحذر من اعتماده كمصدر لمعرفة حقيقة مذهب معين.

د ـ التمسك بالمنهج الوحدوي الذي يقرأ الإسلام من أُصوله وينتهي بفروعه، وترك المنهج العكسي الذي يفرز رؤية طائفية للإسلام بشكل حتمي.

هـ ـ تبادل الروح الوحدوية؛ لأنّ الوحدة تقوم بطرفين ولا تقوم بطرف واحد.

و ـ ابطال منهج التكفير باعتباره منهجاً لا يحظى بأساس من الشرعية عند أيّ من المذاهب الإسلامية التي تتفق جميعاً على أنّ من نطق بالشهادتين أصبح مسلماً، وأنه لا يحكم بكفره إلّا إذا فعل ما يوجب ذلك بقصد وتعمد والتفات من دون شبهة، بمعنى أنّ ارتكاب الكفر لا يوجب الاتهام به ما لم يثبت التعمد والالتفات وانتفاء الشبهة، الأمر الذي يجعله حالة نادرة تظهر كفلتات في التاريخ وعلى مستوى فردي لا على مستوى جماعات ومجتمعات.

ز ـ التوعية والتثقيف السياسي والعقائدي الذي يبين مساوئ الطائفية وخطرها الشديد على حياة المسلمين، وعدم انتفاع أحد منهم بها، وقيام الاستكبار العالمي عليها كركيزة من ركائز مشروعه الاستعماري.

٢ ـ المرتبة العملية:

أ ـ تشكيل هيئات علماء من المذاهب الإسلامية المختلفة على الصعد السياسية

والفكرية والاجتماعية والدعوية.

ب ـ تشكيل حركات اسلامية واحدة على صعيد قيادة الساحة ومواجهة التحديات الاستكبارية.

ج ـ وجوب التناصر بين المسلمين في القضايا الداخلية والخارجية التي تهمهم.

د ـ السعي باتجاه تشكيل حكومة اسلامية قائمة على مبانٍ مشتركة تجعلها تحظىٰ بصفة الإلزام الشرعي سواءً كان الحاكم سنياً أم شيعياً، وسواءً كان المواطن شيعياً أم سنياً. وهي أمر ممكن جداً بلحاظ أنّ الحاكمية الإلهية مقولة عقائدية فوق الفقه والمذاهب، ليس بوسع فقيه من فقهاء مذهب معين، أو مذهب من مذاهب المسلمين أن يتنكر لها، وهي لا تتأثر سلباً ولا إيجاباً بمذهب معين ولا باجتهاد فقيه معين. كما أن الدولة بحد ذاتها مقولة حقوقية قائمة على أساس الانتماء للشهادتين وليس للفقه ولا المذاهب أي تأثير سلبي ولا إيجابي عليها، وليس هناك ضرورة مذهبية تقتضي أن يكون مذهبٌ معيّنٌ حاكماً على سائر المذاهب، أو أن تكون طائفة معينة حاكمة على سائر الطوائف، فإنّ تعددية الاجتهادات والمذاهب تؤثر في العبادات والأحوال الشخصية وفي الاعتقادات والشعائر، وكل ذلك مما لا أثر سلبي له على مقولة الدولة الواحدة القائمة على حاكمية الله الثابتة في كل المذاهب والاجتهادات الإسلامية. ومن الممكن توزيع المناصب في هذه الدولة على اتباع المذاهب المختلفة على أساس نظام عادل معين لا يأخذ الصفة الطائفية بنظر الاعتبار ويحول دون انقسام الدولة إلى حصص طائفية حتى لو كانت تلك الحصص عادلة، وبذا تحتفظ الدولة بالعدالة كشعار جوهري ثابت لها، ولا تجد نفسها بحاجة إلى العدول عنه إلى الطائفية السياسية.

فقه المقاومة بالمعنى العام

أوّلا ـ كتاب الطهارة

في كتاب الطهارة مسألتان:

١ ـ نجاسة الكافر لقوله تعالى: ﴿**انما المشركون نجس**﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿**كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون**﴾[٢]، وعلى ذلك إجماع الإمامية، وقد اختصوا بذلك، وشاركهم فيه بعض أهل السنة كالفخر الرازي في تفسيره[٣]، وابن حزم في المحلى[٤]، وعامة أهل السنة على طهارة الإنسان المؤمن منه والكافر؛ لقوله تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بني ادم**﴾[٥]. ويمكن رد هذا الدليل بوجهين:

أ ـ أنّ الله كرم بني آدم كلهم، والكافر نجّس نفسه بنفسه.

ب ـ أنّ الحكم بالتنجيس لا ينافي التكريم، لأنّ النجاسة وإن كانت في اللغة بمعنى القذارة، إلّا أنّ الشارع توسع فيها وجعلها تشمل أشياءً غير مستقذرة كالدم الذي هو رمز الحياة، وكأنّ للشارع المقدس غرضاً في هذا التوسع هو أن يتجنب الإنسان أشياء فيها خطر عليه في جهة من الجهات. فربما كانت الحكمة ـ والله العالم ـ من نجاسة الدم أن يبتعد الإنسان عنه لئلا يقسو قلبه، وحينئذ يمكننا أن نتصور الحكمة في نجاسة الكافر هي أن يحتفظ المؤمن بحاجز نفسي وثقافي بينه وبين الكافر

---

(١) التوبة: ٢٨.

(٢) الانعام: ١٢٥.

(٣) التفسير الكبير ١٦: ٢٥، ط: دار الفكر طبيعة جديدة.

(٤) المحلى ١: ١٣٠، ط: المكتب التجاري.

(٥) الفقه على المذاهب الاربعة ١: ٦.

يحصنه من التأثر به، وأن يحتفظ لنفسه بموقع معنوي أرقىٰ من الكافر. أي أنّ هناك بعداً من أبعاد المقاومة الثقافية والعقائدية.

والكافر يشمل الملحد والمشرك والمرتد وأهل الكتاب ومنكر الضروري من ضروريات الدين مع الالتفات والانتباه إلى ذلك، وقد وقع البحث من مدرسة أهل البيت (ع) في نجاسة أهل الكتاب، فذهب المشهور قديماً وحديثاً إلى نجاستهم، وهناك من ناقش في ذلك. ويهمنا من ذلك أنّ الحكم بنجاسة الكافر يعد مظهراً من مظاهر المقاومة في الفقه الإسلامي.

وسيأتي في كتاب الأطعمة والأشربة وجه آخر للمقاومة في هذه المسألة.

٢ـ عدم جواز دخول الكفار المسجد الحرام إجماعاً عند عامة المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام﴾[(١)]، من غير فرق بين اللبث وعدمه ولا بين تعدي النجاسة وعدمها، أمّا غيره من المساجد فالمجمع عليه في مذهب أهل البيت عدم جواز ذلك، والدليل عليه أنّ الآية حرمت دخول المسجد الحرام عليهم، وبينت لذلك علة لا تختص بالمسجد الحرام، بل تشمل غيره من المساجد أيضاً، وهي النجاسة، فيثبت بهذه العلة أنّ الحكم شامل لكافة المساجد، وأيد الإمام مالك مذهب أهل البيت(ع) في ذلك[(٢)].

ووجه المقاومة في هذه المسألة لا يخفى، فإنّ المساجد حصون المسلمين والرمز المقدس لحضارتهم، والكافر إن كان حربياً كان دخوله فيها تحدياً سافراً لهم، وهو بمثابة الإعلان عن الانتصار عليهم، ولذا فالحكمة من منعه دخولها هي الحيلولة دون تحقق هذا الانتصار، والإصرار على كسر شوكته، وإن كان مسالماً ذمياً فعليه أن

---

(١) التوبة: ٢٨.

(٢) التفسير الكبير ١٦: ٢٧، ط: دار الفكر طبعة جديدة.

يحترم مقدسات المسلمين، ويعرف أنّ هناك أمكنة يجوز له أن يدخلها وأمكنة أُخرى لا يجوز له دخولها، وهي المساجد، وهناك أُمكنة لا يجوز له سكناها وهي الجزيرة العربية.

وقد رأينا كيف يدافع المسلمون الأشاوس في فلسطين عن كرامة المسجد الأقصى، وكيف كان اندلاع الانتفاضة الثانية بسبب قيام شارون الإرهابي بدخوله فيه. وكيف يدافع المسلمون في العراق عن مساجد هم والعتبات المقدسة هناك ويمنعون الكفار المحتلين من دخولها.

ثانياً ـ كتاب الصلاة

في كتاب الصلاة خمس مسائل هي:

١ ـ حكم التشبه بالكفار.

وهذه المسألة لها علاقة بلباس المصلي، وهي من أبرز مظاهر المقاومة الثقافية في الإسلام، فإنّ اللباس يمثل الهوية الثقافية لكل مجتمع، وعلى المجتمع الإسلامي أن يحافظ على هويته الثقافية المستقلة، والإسلام حريص أشد الحرص على ذلك، وقد ورد أنّ أهل الكتاب كانوا يؤذون النبي(ص) حينما يرونه يصلي إلى جهة المسجد الأقصى فيدعون أنّ ما عند النبي(ص) قد أخذه منهم وأنه لم يأت بشيء جديد، فنزل قوله تعالى: ﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام..**﴾(١). ولعل الحكمة من اختيار التقويم الهلالي القمري هي الاستقلال الثقافي عن النصارى الذين كانوا يعملون بالتقويم الشمسي، كما أنّ حرمة الاحتفال بأعياد الكفار ومشاركتهم فيها مظهر آخر من مظاهر المقاومة الثقافية في الإسلام، وقد قال الإمام علي(ع): «**قل من تشبه بقوم إلّا أوشك أن يكون**

---

(١) البقرة: ١٤٤.

منهم»[1] وكان ابن خلدون يرى أنّ التشبه بالكفار دليل الضعف والذلة والتهيؤ لقبول الكفار، وقد تنبأ لأهل الأندلس ذلك حينما رآهم يتزيون بزي النصارى وتحققت نبوءته فعلاً.

ومسألة ذم التشبه بالكفر، مما أجمع عليه المسلمون، ووقع الخلاف في حد ذلك على ثلاثة آراء هي:

أ ـ تكفير من يتشبه بالكفار إذا كان التشبه حاوياً لخمسة شروط هي: أن يكون في بلاد الإسلام، ولغير ضرورة، وكان اللباس المعين شعاراً للكفار، وإن لم يكن التشبه ميلاً للكفر، وأن يقع التشبه فيما هو المذموم من لباس الكفار وشعاراتهم وليس في كل شيء منهم، فإذا توفرت هذه الشروط الخمسة حكم بكفر المتشبه بهم، ذهب إلى ذلك الحنفية والمالكية وجمهور الشافعية.

لقول الرسول(ص): «**من تشبه بقوم فهو منهم**»، أخرجه أبو داود[2].

ب ـ حرمة التشبه بالكفار، ذهب إلى ذلك الحنابلة وبعض الشافعية ومنهم النووي في كتبه الفقهية.

جـ ـ كراهة التشبه بالكفار. وهذا ما ذهب اليه فقهاء الإمامية. عن الصادق(ع) قال: «**إنه أوحى الله إلى نبي من أنبيائه قل للمؤمنين: لا تلبسوا لباس أعدائي ولا تطعموا مطاعم أعدائي، ولا تسلكوا مسالك أعدائي فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي**»[3]، وخرج أمير المؤمنين على قوم فرآهم يصلون في المسجد قد سدلوا أرديتهم، فقال لهم: «**ما لكم قد سدلتم ثيابكم كأنكم يهود...**»[4]، وعنه(ع) أنه كره لباس البرطلة[5]، ومعلوم

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٢٠٧، انظر: تفسير الميزان ١: ٣٢٥، ط: الاعلمي.

(٢) الموسوعة الفقهية ١٢: ٥ ـ ٦، ط: الكويت.

(٣) وسائل الشيعة ٤: ٣٨٥، ط: مؤسسة آل البيت.

(٤) المصدر نفسه: ٤٠٠، ط: مؤسسة آل البيت.

(٥) المصدر نفسه: ٤٣٣، ط: مؤسسة آل البيت.

أنّ الحكم يختص بما صار شعاراً لهم وما هو من طبع الكفر فيهم؛ لوضوح أنّ النبي(ص) قد أمر بأخذ العلم ولو كان في الصين، وبأخذ الحكمة ولو من أفواه المنافقين. فإنّ الحضارة البشرية فيها ما هو تراث مشترك ناشئ من طبع العقل والعقلاء، وقد أمضت الشريعة هذا الجانب وسايرت العقلاء في سيرتهم وطباعهم، وليس لأهل الكفر أن يدّعوا أنّ هذا الجانب من نتاجهم وفضلهم، وينبغي لنا عدم تصديقهم في ذلك لو ادعوه، فالعلوم والصناعات والتكنلوجيا تنتمي إلى العقل المحض ولا تنتمي إلى أيديولوجية معينة، وهي بحد نفسها ليست مؤمنة ولا كافرة. نعم علينا مقاومة ورفض ما هو نتاج لأيديولوجية كافرة معينة مثل العلمانية والليبرالية والاشتراكية، والتعددية الدينية والديمقراطية التي يراد بها جزءاً من نسيج الليبرالية وأساساً لمشروعية الحكم والنظام الحاكم، باعتبار أنّ المشروعية في الإسلام لا تأتي من تأييد وعدم تأييد الناس لحاكم معين ونظام حكم معين، وإنما تأتي من تطابق سيرة هذا الحاكم مع الإسلام والقيم الإسلامية، والرفض شامل لها بما هي أنظمة ومفاهيم ومصطلحات، فينبغي ترك المصطلحات التي تنتمي لأيديولوجية معينة كالبرجوازية والبروليتارية والديالكتيك والديمقراطية والعلمانية والليبرالية والاشتراكية بمعنى عدم نسبة أي من هذه المصطلحات إلى الإسلام. باعتبارها مصطلحات غير محايدة وهي جزء من نسيج الكفر. نعم لا بأس بالمصطلحات المحايدة التي تمثل جزءاً من سيرة العقلاء بما هم عقلاء مثل مصطلحات: الدولة، القانون، الثورة، الحكومة، المقاومة، الجيش الشعبي، فلا مانع من أن نقول: دولة إسلامية وقانون إسلامي، وثورة إسلامية، وحكومة إسلامية، ومقاومة إسلامية، وجيش شعبي إسلامي، بينما لا يصح أن نقول: ديمقراطية الإسلام، الاشتراكية الإسلامية، القومية الإسلامية، العولمة الإسلامية..

٢ ـ صلاة الجماعة

وهي من المستحبات المؤكدة في الإسلام. وذهب الحنابلة إلى وجوب حضورها على كل مستطيع، ووجه المقاومة فيها أنها تربي المسلم على الروح الجماعية وتحارب النزعة الفردية فيه، أي أنها تساهم في صنع أخلاق المقاومة.

٣ ـ صلاة الجمعة

إضافة إلى ما في صلاة الجمعة من بعد جماعي هنا أبعاد تعبوية أُخرى واضحة، فامام الجماعة يتكئ على سيف، ويقرأ في الركعة الأُولى بعد الحمد سورة الجمعة المليئة بالتحذير من اليهود ومخاطرهم على المسلمين، ويقرأ في الركعة الثانية بعد الحمد سورة المنافقون المليئة بالتحذير من مخاطر الأعداء الداخليين والمنحرفين على المجتمع الإسلامي، ويأتي الإمام بالصلاة بعد ما ينتهي من الخطبتين اللتين يتعرض فيهما إلى مسائل المسلمين وما يواجهونه من تحديات ومخاطر مختلفة، وبالتالي فصلاة الجمعة عبارة عن استعراض عسكري وعملية تعبوية تجري داخل المجتمع الإسلامي في كل أُسبوع مرة واحدة.

٤ ـ صلاة العيدين

اتضح مما سبق أنّ صلاة الجمعة صورة من المقاومة متطورة عن صلاة الجماعة. ويتضح الآن أنّ صلاة العيدين أعلى مرحلة في تطور المقاومة بالنسبة إلى فريضة الصلاة. فإنّ العيد مظهر لانتصار حققته الأُمة الإسلامية في صيام شهر رمضان وفي حج بيت الله الحرام، فالصيام مظهر للانتصار على الشيطان والحج مظهر للانتصار على الشرك والمشركين، الصيام مظهر لأُمة واحدة تذعن لأمر الله وتطيع شريعة رسول الله (ص) في الإقلاع عن كافة المظاهر والأنشطة الدنيوية الطبيعية من أكل

وشرب وجماع وسائر ما هو لصيق بالحياة اليومية للإنسان بحيث يدخل الداخل الغريب إلى بلاد المسلمين فيرى أهلها في حالة إمساك عن الطعام والشراب من الشرق إلى الغرب امتثالاً لأمر الرسول (ص)، فيلمس من خلال ذلك دلالة أكيدة. على أُمة طائعة تقاوم كل محاولات التحريف وإغراءات العصيان، والحج مظهر لمؤتمر اسلامي شعبي ورسمي يمثل الأُمة الإسلامية كلها ويعبر بشكل سنوي متكرر على رفض الشرك والمشركين، في موقف وحدوي وحالة تعبوية استنفارية شديدة، ومن هنا قال الإمام علي: «**كل يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد**»[١]، بمعنى أنّ العيد مظهر للانتصار على الشيطان والقوى البشرية الذي تمثله على الأرض.

وقد ورد في صلاة العيد أن يقرأ المصلي هذا الدعاء: «**... أسألك بحق هذا اليوم الذي جعلته للمسلمين عيداً، ولمحمد(ص) ذخراً وشرفاً وكرامة ومزيدا...الخ**». فاليوم الأوّل من شوال والعاشر من ذي الحجة يوم له منزلة وقدسية خاصة عند الله سبحانه وتعالى بحيث يتوسل المؤمن بكرامته عنده، وصفة هذا اليوم أنه يوم عزٍّ ومجد وكرامة للرسول(ص) وأهل بيته الأطهار، وهذه تعابير تحكي انتصاراً معيناً يحققه المسلمون في هذين اليومين من كل عام.

ولأجل هذا المغزى كان وجوب صلاة الجمعة وصلاة العيدين منوطاً في مدرسة أهل البيت بحضورهم وبسط يدهم وظهور سلطانهم وحكمهم. لئلا يستفيد الطواغيت والظلمة من هذا الانتصار ويتخذوه انتصاراً لهم.

٥ـ اللغة العربية

يعبر عن اللغة بأنها الوحدة الشعورية للأُمة، وحينما يأتي العبد بعباداته بلغة هي العربية فذلك تأكيد من الإسلام على حفظ الوحدة الإسلامية بكل مراتبها ومنها

---

(١) نهج البلاغة: قصار الحكم ٤٢٨.

الوحدة الشعورية.

وقد يسأل سائل: لماذا جعلت الوحدة الشعورية مرتبطة بلغة معينة دون أُخرى؟. والجواب: إنّ هذا الارتباط ناشئ من خصوصيات في اللغة العربية تتمثل في أنها تنتمي لبيئة ساذجة من الناحية الفلسفية، باعتبار أنّ البيئة العربية ذات عمق توحيدي يعود إلى زمن إبراهيم(ع)، وما جرى في الجاهلية العربية لم يكن فلسفة مناهضة للتوحيد وإنما كان تحريفات ساذجة طرأت على التراث الإبراهيمي في الجزيرة العربية بخلاف ما كان عليه الأمر في الهند وبلاد فارس وروما وأثينة من فلسفات وأيديولوجيات قائمة بذاتها، وبالتالي فالوحدة الشعورية التي تربطنا بالجزيرة العربية أنما تربطنا بالتراث الإبراهيمي، خاصة مع ملاحظة النصوص النبوية القائلة بأنّ العربية ظهرت على لسان إسماعيل(ع). وملاحظة ما نعتقده من أنّ هذه اللغة كانت توقيفية نزل بها آدم إلى الأرض[1]، ولو أنّ الإسلام انتخب لغة أُخرى غير العربية لكان قد انتخب وحدة شعورية تربط المسلمين بتراث جاهلي محض، بمعنى أنّ انتخاب الإسلام للغة العربية يعد مظهراً لنوعين من المقاومة:

١ ـ مقاومة عقائدية وسياسية على صعيد الوحدة الإسلامية.

٢ ـ مقاومة ثقافية على صعيد الاندكاك في الثقافة التوحيدية ونبذ الثقافات الجاهلية.

ثالثاً ـ كتاب الصوم

الصوم مدرسة الإرادة ومصنع الحرية الحقيقية، الحرية الحقيقية هي أن يتحرر الإنسان من كافة المؤثرات التي تجعله تابعاً لإرادة معينة، فإذا تحرر منها استطاع أن

---

(١) بحثنا في كتابنا المعد للنشر قريباً «العالمية الإسلامية دراسة شاملة» هذا الجانب بشكل مفصل واثبتنا فيه توقيفية اللغة العربية.

يدرك الحقيقة وأن يتجه نحوها، لكنه متى ما كان خاضعاً لضغط الغريزة والحس لا يجد في داخله نوراً يساعده على إبصار الحقيقة ولا قدرة على الاتجاه نحوها، وبالتالي فالصوم مظهر لأُمة تربي نفسها باستمرار على أن يكون لها إرادة تامة في الحياة، وأن تكون متحررة من كل المؤثرات الشيطانية التي تحاول أن تقودها باتجاه شيطاني.

الأُمة التي تربي نفسها على الصوم من الأكل الشرب تستطيع أن تقاوم المحاصرة الاقتصادية إذا ما فرضت عليها، والأُمة التي تربي نفسها على الصوم من الجماع تستطيع أن تقاوم محاولات الإغواء والتحريف والإفساد الجنسي، والأُمة التي تربي نفسها على الصوم تجاه الغضب والسب والشتيمة والكذب تستطيع أن تقاوم الغزو الفكري الذي يواجهها في ميادين الصراع مع الآخرين، الصوم يعني انتصار الجياع على الرأسماليين وانتصار الزاهدين على المتخمين، وإضافة إلى بعد الإرادة والحرية في الصيام هناك بعد آخر هو البعد الجماعي والانخلاع من النزعة الفردية، باعتبار أنّ الصوم تربية ومران على أن يساوي الغني نفسه بالفقير ويتحد معه في إحساس واحد، فيدخلان في الحس الجماعي ويخرجان من النزعة الفردية.

رابعاً ـ كتاب الحج

الحج معركة ضد الشرك وإعلان للبراءة من المشركين والطواغيت وتربية للمجتمع الإسلامي في هذا الاتجاه، بالنحو الذي يتراءى لنا جلياً من أوائل سورة براءة. قال تعالى: **﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فسيحوا في الأرض اربعة اشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين، وإذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم**

وإن توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب اليم...﴾[١].

فيوم الحج هو يوم الحرب ضد الشرك والبراءة من المشركين والخزي للكافرين وهو يوم يصل فيه الإنسان إلى ذروة الرابطة التوحيدية مع الله سبحانه وتعالى.

خامساً ـ كتاب الزكاة

تظهر المقاومة في كتاب الزكاة من خلال صنف من أصناف المستحقين لها اسمه المؤلفة قلوبهم، وهم الكفار الذين يراد إلفتهم إلى الجهاد أو الإسلام، والمسلمون الذين عقائدهم ضعيفة فيعطون لتأليف قلوبهم[٢]، فالزكاة في جانب من جوانبها مشروع لتحصين المسلمين من مخاطر الأعداء.

سادساً ـ كتاب الخمس

وتظهر المقاومة في كتاب الخمس من خلال تحويل القدرة الاقتصادية في البلد إلى الفقيه الجامع للشرائط، فأموال الخمس واموال اخرى يتصرف فيها الفقيه من خلال موقعه المسؤول في الأُمة، وحتى الزكاة بوسعه أن يطلبها ويشرف على صرفها إذا أراد[٣].

وهذا يعني تحرير القدرة الاقتصادية في البلد من إرادة الرأسماليين الجشعين الذين قد يتخذونها وسيلة للتحكم بالمجتمع، واخضاعها لإشراف فقهاء عرفوا بالزهد والأمانة والتقوى والعدالة، ومعلوم أنّ الاستقلال السياسي وليد الاستقلال الاقتصادي، والبلد الذي يعيش تبعية اقتصادية للخارج لا يستطيع أن ينجز استقلاله السياسي، وإخضاع الموارد المالية للبلد لأشراف الفقهاء يساعد على إنجاز

---

(١) التوبة: ١ ـ ٣.

(٢) تحرير الرسيلة ١: ٣٣٦، ط: اسماعيليان.

(٣) تحرير الوسيلة ١: ٣٤٣.

الاستقلال الاقتصادي وضمان الاستقلال السياسي للبلد.

سابعاً ـ كتاب المكاسب المحرمة

وفيه المسائل التالية:

١ ـ يحرم بيع السلاح لأعداء الدين في حال الحرب، والأمر في حال السلم والهدنة موكول إلى مصالح الإسلام ومقتضيات الزمان التي يحددها وإلى المسلمين.[١]

٢ ـ معونة الظالمين في ظلمهم، بل في كل محرم حرامٌ بلا إشكال، بل ورد عن الإمام أنه قال: **«من مشى إلى ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام»**[٢]، وورد أيضاً: **«إذا كان يوم القيامة ينادي منادٍ أين الظلمة وأعوان الظلمة حتى من برئ لهم قلماً ولاق لهم دواة»**.[٣]

٣ ـ تحرم الإعانة على كل إثم ومنكر؛ لقوله تعالى: **﴿تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان﴾**.

٤ ـ يحرم حفظ كتب الضلال ونسخها وقراءتها ودرسها وتدريسها إن لم يكن غرض صحيح في ذلك، كأن يكون قاصداً لنقضها وإبطالها وكان أهلاً لذلك ومأموناً من الضلال، وأمّا مجرد الاطلاع على مطالبها فليس من الأغراض الصحيحة المجوزة لحفظها لغالب الناس من العوام الذين يخشى عليهم الضلال والزلل، فاللازم على أمثالهم التجنب عن الكتب المشتملة على ما يخالف عقائد المسلمين خصوصاً ما اشتمل منها على شبهات ومغالطات عجزوا عن حلها ودفعها، ولا يجوز لهم شراؤها

---

(١) تحرير الوسيلة ١: ٤٩٦.

(٢) الوسائل: كتاب التجارة، باب ٤٢، من أبواب ما يكتسب به، الحديث ١٥٨.

(٣) الوسائل: كتاب التجارة باب ٤٢، من أبواب ما يكتسب به، الحديث ١٦.

وإمساكها وحفظها، بل يجب عليهم إتلافها[1].

٥ ـ لا يجوز مع الاختيار الدخول في الولايات والمناصب والأشغال من قبل الجائر وإن كان أصل الشغل مشروعاً مع قطع النظر عن توليه من قبله[2].

٦ ـ لو كان في رد هدايا الظلمة وسلاطين الجور احتمال التأثير في تخفيف ظلمهم أو تخفيف تجريهم على مبتدعاتهم وجب الرد، ولا يجوز القبول، ولو كان بالعكس لا بد من ملاحظة الجهات وترجيح الجانب الأهم، ولو كان في قبول هداياهم تقوية شوكتهم وتجريهم على ظلمهم أو مبتدعاتهم يحرم القبول، ومع احتمالها فالأحوط عدم القبول[3].

٧ ـ يحرم صناعة وبيع الصلبان وسائر شعارات ولوازم الكفر. كما يحرم بيع الأشياء التي يعلم البائع أنّ المشتري سيستخدمها في ذلك.

ووجه المقاومة من هذه المسائل السبعة واضح لا يحتاج إلى بيان.

ثامناً ـ كتاب النكاح

وفيه المسائل التالية:

١ ـ لا يجوز للمسلمة أن تنكح الكافر، ولا يجوز للمسلم أن يتزوج غير الكتابية، أمّا الكتابية ففي الزواج منها عدة آراء، رأي بعدم الجواز، ورأي بالجواز، وثالث بالجواز في المنقطع وعدم الجواز في الدائم، هذا في مدرسة أهل البيت(ع)، أما عند أهل السنة فيجوز الزواج من الكتابية.

٢ ـ لو ارتد أحد الزوجين أو ارتدا معاً دفعة قبل الدخول وقع الانفساخ في

(١) تحرير الوسيلة ١: ٤٩٨.

(٢) المصدر نفسه: ٥٠٢.

(٣) للمصدر نفسه: ٤٧٧.

الحال.

٣ـ العدة في ارتداد الزوج عن فطرة كعدة الوفاة، وفي ارتداد الزوج عن ملة عدة الطلاق.

٤ـ لا يجوز للمؤمنة أن تنكح الناصب المعلن بعداوة أهل البيت(ع) ولا الغالي المعتقد أُلوهيتهم أو نبوتهم، وكذا لا يجوز للمؤمن أن ينكح الناصبية والغالية، لانهما بحكم الكفار. ويجوز زواج الشيعي من السنية وبالعكس[١].

ووجه المقاومة في هذه المسائل الأربع واضح، فإنّ الزواج يمثل ذروة الانصهار بين الزوجين، فلو لم تضع الشريعة حدوداً للعلاقات الزوجية بين المسلمين والكفار لفقد المسلمون هويتهم العقائدية وتسربت إليهم نوازع الكفر والانحلال في حضارات أُخرى معادية لهم، وهذا ما يبين فساد فكرة الزواج المدني التي يروج لها البعض؛ لأنّ هذه الفكرة تعني الغاء المفهوم الحقوقي المتكامل للإسلام وتطبيق المفهوم الحقوقي الاجتماعي الليبرالي الذي يتجاوز الأديان، وردّ مغالطة هؤلاء يتمثل في أنّ الإسلام ليس ديناً كسائر الأديان، وأنّ الجمع بين المسلمين وغيرهم لا يشبه الجمع بين البوذيين والهندوس؛ لأنّ الإسلام ينطوي على مفهوم حقوقي تام وشامل يدخل في صميم الحياة الفردية والاجتماعية والدولية، بخلاف سائر الأديان التي هي مجرد طقوس ورسوم. وإلغاء الإسلام من حيز العلاقات الزوجية يأتي انتصاراً وتطبيقاً لليبرالية الغربية التي تعتبر جميع الأديان لها شأن واحد هو الشأن الفردي المتمثل بالطقوس والرسوم.

تاسعاً ـ كتاب القضاء

قال تعالى: ﴿الم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل اليك وما انزل من قبلك

(١) تحرير الوسيلة ٢: ٢٨٦.

يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد امروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾[1].

وروى عمر بن حنظلة عن الإمام الصادق (ع) في رجلين تحاكما إلى حكام الجور قال (ع): «**من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذ سحتاً، وإن كان حقاً ثابتاً له؛ لأنه أخذه بحكم الطاغوت وما أمر الله أن يكفر به. قال الله تعالى: (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد امروا أن يكفروا به)** قلت: فكيف يصنعان؟. قال: **ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به حكماً، فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فإنما استخف بحكم الله وعلينا رد، والراد علينا الراد على الله وهو على حد الشرك بالله**»[2].

قال الإمام الخميني (رض): «يحرم الترافع إلى قضاة الجور، أي من لم يجتمع فيهم شرائط القضاء، فلو ترافع إليهم كان عاصياً، وما أخذ بحكمهم حرام إذا كان ديناً، وفي العين إشكال، إلّا إذا توقف استيفاء حقه على الترافع إليهم، فلا يبعد جوازه سيما إذا كان في تركه حرج عليه»[3] ووجه المقاومة في هذا واضح، فهو رفض للظلم وأنظمة الجور.

عاشراً ـ كتاب الصيد والذباحة

وهنا مسألتان:

١ ـ يشترط في الذابح أن يكون مسلماً أو بحكمه كالمتولد منه، فلا تحل ذبيحة الكافر مشركاً كان أم غيره حتى الكتابي على الأقوى[4]، وكذا في الصيد فلا يحل

---

(١) النساء: ٦٠.

(٢) وسائل الشيعة ٢٧: ١٣٦ ـ ١٣٧، ط: مؤسسة آل البيت.

(٣) تحرير الوسيلة ٢ : ٤٠٥.

(٤) تحرير الوسيلة ٢ : ١٤٦.

صيد الكافر باستثناء السمك[1] وذهب أهل السنة إلى حلية ذبيحة الكتابي وصيده بشروط عندهم[2]. ومنشأ الخلاف بين الطرفين في المسألة يعود إلى الاختلاف بين الشيعة والسنة في تفسير آية: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم﴾، حيث اعتبر أهل السنة هذه الاية دليلاً على حلية ذبيحة الكتابي وصيده، بينما تذهب مدرسة أهل البيت إلى أن المقصود بالطعام في الآية الحنطة والشعير وأشباههما من الحبوبات[3].

٢ ـ ما كان بيد المسلم من اللحوم والشحوم والجلود إذا لم يعلم كونها من غير المذكى يؤخذ منه ويعامل معه معاملة المذكى بشرط تصرف ذي اليد فيه تصرفاً مشروطاً بالتذكية على الأحوط، فحينئذ يجوز بيعه وشراؤه وأكله واستصحابه في الصلاة وسائر الاستعمالات المتوقفة على التذكية، ولا يجب عليه الفحص والسؤال، بل ولا يستحب بل نهي عنه، وكذلك ما يباع منها في سوق المسلمين سواءً كان بيد المسلم أو مجهول الحال. بل وكذا ما كان مطروحاً في أرضهم إذا كان فيه أثر الاستعمال كما إذا كان اللحم مطبوخاً والجلد مخيطاً أو مدبوغاً، وكذا إذا أخذ من الكافر وعلم كونه مسبوقاً بيد المسلم على الأقوى بشرط مراعاة الاحتياط المتقدم، واما ما يؤخذ من يد الكافر ولو في بلاد المسلمين ولم يعلم كونه مسبوقاً بيد المسلم، وما كان بيد مجهول الحال في بلاد الكفار أو كان مطروحاً في ارضهم ولم يعلم انه مسبوق بيد المسلم واستعماله يعامل معه معاملة غير المذكى، وهو بحكم الميتة، والمدار في كون البلد أو الأرض منسوباً إلى المسلمين غلبة السكان والقاطنين، بحيث

---

(١) المصدر نفسه: ١٣٦، ١٣٩، ١٤٣.

(٢) الفقه على المذاهب الاربعة ٢ : ٢١.

(٣) انظر موضع الآية الخامسة من سورة المائدة من تفسير المنار وموضعها في تفسير الميزان واجوبة العلامة الطباطبائي على ادلة صاحب المنار، ط: المكتبة التجارية.

ينسب عرفاً إليهم ولو كانوا تحت سلطة الكفار، كما أن هذا هو المدار في بلد الكفار[1].

ووجه المقاومة ما ذكرناه آنفاً من أنّ الإسلام ينطوي على مفهوم حقوقي تام وشامل لمختلف أوجه الحياة، والحقوق لها ملاكان:

١ ـ ملاك عمودي يتمثل في مدى الارتباط بعقيدة معينة بحيث يتم توزيع الحقوق الدنيوية بين الناس على أساس القرب والبعد من الله سبحانه وتعالى، تطبيقاً لمقولة: «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم»، وطبقاً لهذا الملاك تنقسم البشرية إلى ثلاثة أقسام عقائدية، لكل قسم مرتبة من الحقوق، وهي: المشركون، وأهل الذمة، والمسلمون.

أما المشركون فتُمنح لهم الحقوق بعدما يعترفون بحاكمية التوحيد من خلال اعلان الشهادتين، وهذا الاعلان لايعد دينا حتى يكون في الأمر إكراه في الدين وانما هو اقرار بحاكمية التوحيد في الأرض.

وأمّا أهل الذمة فلهم حقوق إنسانية في إطار التزامهم بشروط الذمة، وتحجب عنهم الحقوق السياسية، بمعنى أن شيئاً من مناصب الدولة لا يمنح لهم، لأنّ المنصب تعبير عن السيادة، والسيادة لا تكون لغير الإسلام الذي يعلو ولا يعلى عليه، كما ورد في الحديث النبوي، والذي لا يؤتمن على الإسلام وسيادته كيف يُمنح منصباً سياسياً؟

وأما المسلمون فلهم حقوق انسانية وسياسية تامة يتدرجون فيها بحسب قربهم من الله سبحانه وتعالى، فمن اكتفى بالشهادتين يحكم بطهارته وتحمل معاملاته على الصحة كذباحته وصيده وطهارة ما بيده واستحق جنسية الدولة الإسلامية وإن لم تحرز عدالته والتزامه الشرعي، ومن كان عادلاً منهم جاز الاقتداء به في امامة

(١) تحرير الوسيله ٢ : ١٥٤

الصلاة وقبلت شهادته في المحاكم والمرافعات وجاز توليه بعض المناصب، فإذا صار فقيها أُعطي القضاء والافتاء ورئاسة الدولة، وإذا كان معصوماً صار نبياً أو وصياً.

٢ ـ ملاك أفقي يتمثل في مدى الارتباط بالأرض المعبر عنها حديثاً بالوطن، وعلى أساس هذا الملاك تنقسم البشرية إلى أقسام كثيرة بحسب تعدد الأوطـان والبلدان، وطبقاً لهذا الملاك يمنح المواطن حقوقاً انسانية وسياسية تامة، اما الاجنبي فله أن يتمتع بحقوق انسانية فقط دون الحقوق السياسية.

ومن حق الإسلام أن يؤكد على مفهومه الحقوقي العقائدي وأن يركز على دور العقيدة في حياة الإنسان المسلم. وأن يدخل هذا الدور مأكل الإنسان ومشـربه وملبسه ونكاحه مما هو لصيق بحياته، لتكون العقيدة ألصق بحياته من هذه الأُمور. كحصانة تحول دون تسرب الملاك الأفقي الأرضي الليبرالي.

حادي عشر ـ كتاب الإرث

وفيه مسألة واحدة هي أنّ الكفر من موانع الارث، عن الإمام الباقر(ع) في نصراني مات وله ابن مسلم أيرثه؟ قال: **نعم، إنّ الله عزّ وجل لم يزدنا بالإسلام إلاّ عزاً، فنحن نرثهم وهم لا يرثونا**[1]، ونقل الصدوق عن الرسول(ص) قـوله: **الإسـلام يـعلو ولايعلى عليه**، والكفار بمنزلة الموتى لا يحجبون ولا يرثون[2].

قال الشيخ النجفي في الجواهر في مانعية الكفر من الإرث: إنه مما لا خلاف فيه بين المسلمين، بل الإجماع بقسميه عليه[3].

---

(١) وسائل الشيعة ١٢:٢٦، ط: آل البيت.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢٩٧:٤، ط: دار الاضواء.

(٣) جواهر الكلام ١٥:٣٩، ط: مؤسسة التاريخ الإسلامي.

ثاني عشر ـ كتاب الشفعة

فليس للكافر شفعة على مسلم، وادّعىٰ الشيخ النجفي في الجواهر الإجماع بقسميه عليه، واستدل عليه بقاعدة نفي السبيل[1].

ثالث عشر ـ كتاب الوقف

لا ولاية لكافر على مسلم في الأوقاف وسائر ما لَهُ دَخلٌ في الولاية، مثل جعل القيّم على الصغير والسفيه، وهكذا الحال بالنسبة إلى عموم المدارس والجامعات والمستشفيات وسائر دوائر الدولة، والمراد عدم صحة أي عقد يتضمن جعل الولاية لكافر على مسلم، والدليل على ذلك كله قاعدة نفي السبيل[2].

---

(١) المصدر نفسه ٣٧: ٢٩٤، ط: مؤسسة التاريخ الإسلامي.

(٢) القواعد الفقهية، البجنوردي ١: ١٧٣، ط: دار الكتب العلمية.

إنجازات فقه المقاومة في التاريخ المعاصر

سجل فقه المقاومة تاريخاً مشرقاً في ميدان المواجهة مع التحديات الغربية وكانت هذه المواجهة شاملة ومتكاملة ومستوعبة لكافة الجهات. وهي ما سنستعرضه بشكل سريع فيما يلي:

١ ـ خط الوحدة الإسلامية

بدأ خط الوحدة الإسلامية من مبادرة الشيخ موسى كاشف الغطاء نجل الشيخ الأكبر جعفر كاشف الغطاء للصلح بين الدولتين العثمانية والقاجارية، وقد لقب على أثرها بمصلح الدولتين. وتواصلت الخطوات بهذا الاتجاه من قبل الميرزا محمّد حسن الشيرازي والميرزا محمّد تقي الشيرازي والسيد محسن الأمين العاملي والسيد عبد الحسين شرف الدين والسيد حسين البروجردي والسيد محسن الحكيم والإمام الخميني، ومنذ البداية كانت فلسفة الوحدة عند هؤلاء الأعلام عبارة عن الاستجابة لمبدأ قرآني اكيد من جهة، ومواجهة التحديات الغربية من جهة ثانية.

٢ ـ خط الاستقلال الاقتصادي

وذلك في ثورة التنباك السلمية الرائعة التي اصدر فيها المرجع السيد محمّد حسن الشيرازي فتوى بتحريم استعمال الدخانيات لإسقاط اتفاقية ذليلة عقدتها الحكومة الإيرانية مع الانجليز. فكان سطر واحد كافياً لإسقاطها وتحرير الاقتصاد الإيراني من التبعية للأجنبي بفضل التزام الشعب الإيراني المسلم بالفتوى ومقاطعة الدخانيات. ويدخل في هذا الخط حركة تأميم النفط في إيران التي قادها السيد أبو القاسم الكاشاني.

٣ ـ خط الإصلاح السياسي ومكافحة الاستبداد

وفي جبهة الإصلاح ومكافحة الاستبداد ظهرت الحركة الدستورية الإيرانية بقيادة السيد محمّد الطباطبائي وعبد الله البهبهاني وفضل الله النوري والشيخ كاظم الخراساني والشيخ حسين النائيني.

٤ ـ خط الدفاع والجهاد الشعبي المسلح ضد الاستعمار

وبدأ هذا الخط بموقف الشيخ جعفر كاشف الغطاء ضد الاحتلال الروسي لمناطق من شمال إيران، وحركة السيد محمّد المجاهد في الاتجاه نفسه، وتواصل فيما بعد بحركة الجهاد ضد الاحتلال البريطاني للعراق سنة ١٩١٤ م، وثورة العشرين، والحركة الاستقلالية بقيادة الشيخ مهدي الخالصي والشيخ حسين النائيني والسيد أبي الحسن الأصفهاني وحركة الجهاد في لبنان وسوريا وجنوب إيران، ومقاومة السيد حسن المدرس لحكم رضاشاه.

٥ ـ خط الدفاع العقائدي والفكري

ويبدأ هذا الخط بالأعمال الفكرية للسيد هبة الدين الشهرستاني والسيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمّد جواد البلاغي، وبلغ ذروته في الأعمال الفكرية لآية الله الشيخ مرتضى المطهري وآية الله السيد الشهيد محمّد باقر الصدر.

٦ ـ خط الثورة وإقامة حكم الإسلام

ويتمثل بالثورة الإسلامية، التي تمخضت بإقامة تجربة الجمهورية الإسلامية الرائعة في هذا العصر وذلك بقيادة الإمام الخميني.

هذه الخطوط الستة تمثل الوجه الأصيل والمشرق للفقه الإسلامي في مواجهته للتحديات الغربية الظالمة. وقد تميزت بخصائص الأصالة والجذرية والعنفوان

والحالة التعبوية الشعبية الشاملة لمختلف قطاعات الأُمة وعدم الاقتصار على قطاع دون آخر. ويواصل الفقه الإسلامي الأصيل في المرحلة الراهنة مواجهة التحديات الاستكبارية الظالمة للعالم الإسلامي في فلسطين ولبنان والعراق وإيران وأفغانستان والسعودية.

الملحق رقم (١)
الجهاد مقولة حق لا إرهاب فيها

نظرية الجهاد الابتدائي في الإسلام

منذ تكون الفقه وتبلوره وحتى الآن والمسلمون على إجماع تام، سنة وشيعة، قدامى ومحدثين، على أنّ الجهاد الابتدائي فريضة إسلامية شرعت لاجل نشر الإسلام وبسط سيادته في العالم، بل إن هذا عندهم القدر المتيقن من معنى الجهاد، ولذا وقع البحث بين الفقهاء في أنّ الدفاع عن دار الإسلام هل يسمى جهاداً أم هو مجرد دفاع؟.

قال الشهيد الأوّل في الدروس: «وظاهر الاصحاب عدم تسمية ذلك كله جهاداً، بل دفاع، وتظهر الفائدة في حكم الشهادة والفرار وقسمة الغنيمة وشبهها»[١]، وإلى ذلك مال المحقق في الشرائع، واختار صاحب الجواهر كونه جهاداً مع التسليم قبل ذلك بأنّ: «الأصلي منه قتال الكفار ابتداءً على الإسلام، وهو الذي نزل فيه: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾، ويلحق به قتال من دهم المسلمين منهم، وإن كان هو مع ذلك دفاعاً»[٢] فجعل رد عادية الكفار دفاعاً ملحقاً بالجهاد، وليس هو الجهاد نفسه .

إلاّ أنّ الفترة المعاصرة شهدت محاولات عديدة لتفسير الجهاد بنحو معاكس

---

(١) الدروس الشرعية ٢ : ٢٩ .
( ) جواهر الكلام ٧: ٤٩٧.
(٢) المصدر نفسه: ٤٩٢.

تماماً، بحذف الجهاد الابتدائي، وإثبات أنّ مقصود الإسلام من الجهاد هو الدفاع فقط، فإذا حصل اعتداء على دار الإسلام. أو منعت حرية الدعوة إليه وجب الجهاد.

ومنشأ هذه المحاولات هو مغايرة الجهاد الابتدائي لمبدأين أساسيين من مبادئ الحضارة الراهنة وهما:

١ ـ مبدأ الحرية.

٢ ـ مبدأ حق الأُمم والشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها، وهو المبدأ الناشئ من مفهوم الوطنية والقومية، والذي بُني القانون الدولي الحديث على أساسه.

وقد ترسخ هذان المبدآن فى الرأي العام العالمي إلى حد اصبحت معه الخدشة فيهما امراً يساوق الإرهاب. ويشكّل احراجاً شديداً لمفهوم الإسلام عن الجهاد الابتدائي، فكان المدلول النفسي لظهور تلك المحاولات هو الدفاع عن الإسلام ورفع الحرج عنه عبر بيان مفهوم دفاعي ـ لا ابتدائي ـ للجهاد، وإن كان اصحاب هذه المحاولات لم يصرحوا بذلك، الا أن الذهنية الحاكمة والمنطبعة فيها تنبئ عن ذلك.

ومن الناحية المنهجية نلاحظ أنّ بسط البحث على غرار المنهج المعمول به في كتب الفقه الاستدلالي يجعله بحثاً مطوّلاً، وربما مشوباً ببعض التعقيد والغموض، فتوخياً للاختصار والوضوح في آن واحد اخترنا أن نعرض نظرية الجهاد الابتدائي في الإسلام بشكل مقدمات متسلسلة ومترتبة بعضها على بعض، ثم نقف عند المقدمة التي تشكل مثار بحث ونقاش عند المخالفين لها، والمقدمات هي:

١ ـ إنّ الإسلام دين دعوة وليس ديناً مغلقاً، وإنه دين عالمي يخاطب كل البشر.

٢ ـ إنّ على المسلمين حمل مشعل التوحيد وايصال نوره إلى كل إنسان.

٣ ـ إنّ على المسلمين مكافحة كافة العقبات السياسية والدولية التي تحول دون انتشار الإسلام بالمقدار المستطاع. وإن هذا التكليف والتكليف السابق عامان

يشملان الافراد والجماعات والمؤسسات والحكومات.

٤ ـ إنّ ثبوت المقدمات الثلاثة السابقة يستلزم انقسام الأرض إلى قسمين : قسم يتوطنه المسلمون الذين يجب عليهم القيام بالدعوة الإسلامية، وقسم آخر يتوطنه غير المسلمين الذين يخاطبهم الإسلام بالدعوة ويطالبهم بالدخول فيه، القسم الأوّل اسمه دار الإسلام والثاني اسمه دار الكفر.

٥ ـ إنّ سيادة الكفار على دارهم امر واقع من الناحية الدولية، لكنه غير مشروع من وجهة نظر الإسلام الذي يرى أنّ الحاكمية حق خاص لله، وأنّ السيادة حق خاص لشريعته، وحينئذ فلله الحق في أن ينزع هذه السيادة عنهم.

٦ـ إنّ الشريعة الإسلامية لم تكتف بايجاب الدعوة ونشر الإسلام في دار الكفر، وانما طالبت ببسط سيادة التوحيد على الأرض، ونفي كل سيادة أُخرى عليها أيضاً.

٧ـ إنّ بسط سيادة التوحيد على الأرض يمكن أن يتم بطريقتين، بطريقة سلمية، وهي أن تتم الدعوة إلى الإسلام. وبالنتيجة سيكون دخول الناس في الإسلام مؤدياً إلى خروجهم عن سيادة الكفر ودخولهم في سيادة التوحيد، باعتبار أنّ الحكومة التي ستظهر سوف تعلن الإسلام وتلغي الكفر.

وبطريقة قتالية هي أن يقوم المسلمون بمطالبة الكفار بالدخول في الإسلام، فإن أسلموا، وإلاّ جُردت حملة عسكرية عليهم بهدف فرض سيادة التوحيد ونفي لواء الكفر عن تلك الأرض.

٨ ـ إنّ خيار القوة ترد فيه خمسة احتمالات لا سادس لها هي:

أ ـ أن يكون الجهاد مشروطاً في صورة حصول اعتداء من الكفار على المسلمين.

ب ـ أن يكون الجهاد فريضة يؤتى بها في كل وقت.

ج ـ أن يكون مشروعاً في صورة وجود عراقيل تمنع من حرية الدعوة.

د ـ أن يكون ذلك من خصوصيات عصر صدر الإسلام وانه مشروط بحضور النبي(ص) أو الإمام المعصوم.

هـ ـ أن يكون مشروعاً حينما يرى المسلمون أن الغلبة ستكون لهم.

هذه سلسلة المقدمات المنتجة لنظرية الجهاد الابتدائي في الإسلام، فلننظر في اي منها تقع المناقشة؟.

اما المقدمة الأُولى فهي من المسلمات ولا مجال للمناقشة فيها.

واما المقدمة الثانية فكذلك، والدليل عليها قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة وجادلهم بالتي هي احسن﴾[1]، ولم يناقش أحد من المسلمين فيها. وسيرة النبي (ص) قائمة عليها.

وأمّا المقدمة الثالثة فالدليل عليها سيرة النبي(ص)، فانه (ص) لم يكتف في مقام الدعوة بالكلام والبيان، وانما عمل على تحطيم كافة القوى الاجتماعية والسياسية التي كانت تحول دون تقدم الدعوة الإسلامية إلى الإمام، وهذا الأمر من مسلّمات سيرته السياسية والجهادية (ص).

وقد حاول البعض أن يناقش في هذه المقدمة والمقدمة الثانية من جهة أنّ خطابات الدعوة لا تشمل الدولة ،بل انها خاصة بالافراد والجماعات المؤمنة، وأن للدولة حسابها الخاص.

وهذه المناقشة واضحة القصور، فإنّ الخطابات القرآنية ليست موجهة إلى الفرد بما هو فرد، ولا إلى المجتمع بما هو مجتمع، بل إلى الإنسان بما هو نوع، اعم من الفرد والمجتمع،ومقولة التمييز بين الفرد والمجتمع لا تحظى بارضية مناسبة في الإسلام،وانما هي من إبداعات الفكر العلماني الغربي، وأوضح دليل يردّ هذه المناقشة سيرة

---

(١) النحل: ١٢٥.

النبي(ص) في دعوة ملوك ورؤساء زمانه إلى الإسلام، وتحذيره اياهم من ردّ هذه الدعوة، وهو يومئذ رئيسٌ لدولة، ولم يكن فرداً من الافراد.

وأما المقدمة الرابعة فمستبطنة في المقدمات الثلاث المتقدمة، فإنّ ظهور الإسلام كدين عالمي لكل البشرية يعني بالنتيجة أن المجتمع البشري اما أن يكون من الداعين إلى الإسلام أو من المدعوين به، وأن الأرض إمّا أن تكون داراً للإسلام أو داراً للكفر. وهو انقسام دولي وسياسي وحقوقي تام، وليس انقساماً شكلياً كانقسام سكان ارض معينة إلى هندوس وبوذيين، مما لا أثر حقوقي وسياسي ودولي مترتب عليه. والفرق بين الحالتين يعود إلى أنّ الإسلام دين شامل وعقيدة ينبثق عنها نظام اجتماعي وسياسي وحقوقي شامل، بخلاف سائر الأديان القائمة في عالم اليوم.

وقد حاول الشيخ وهبة الزحيلي المناقشة في هذه المقدمة، وجعل مناقشته فيها ركناً مهماً من أركان محاولته الرامية لنفي الجهاد الابتدائي وإثبات مفهوم دفاعي للجهاد. حيث آمن بان تقسيم الدارين مبني على أساس الواقع لا الشرع، وانه من صنيع الفقهاء في القرن الثاني، وانه كان بسبب قيام حالة الحرب فعلاً، ولا ضرورة في أن يتواصل إلى الأبد، بل ينتهي بانتهاء الاسباب التي دعت اليه باعتباره مسألة زمنية عابرة[(١)].

ولكن سيتضح من خلال اثباتنا للمقدمات التالية أن هذا الانقسام ليس مسألة زمنية، وأن هذه مجرد دعوى تحتاج إلى إثبات، وأن الانقسام إلى الدارين إفراز طبيعي ونتيجة حتمية لمقدمات عقائدية، ككون الإسلام ديناً شاملاً وليس منهجاً روحيا فقط، وانه يرى التوحيد المنشأ الوحيد للحق والمقياس الوحيد له، وأنه الدين التوحيدي الحقيقي الوحيد في الأرض، وبالتالي فما عداه باطل يجب أن يزول،

---

(١) آثار الحرب في الفقه الإسلامي: ١٩٤.

وأنّ الحياة ساحة للصراع بين الحق متمثلاً بالتوحيد واتباعه، وبين الباطل متمثلاً بكل مخالف له. وإن كان هذا التقسيم من صنيع الفقهاء فهو صنيع حتمي لا مفرّ عنه، وليس ناشئاً عن حالة زمنية عابرة، ولو كان حالة زمنية عـابرة فـياترى مـاهو التقسيم الدولي الأصيل الذي يقرّه الإسلام؟، فإنّ الواقع الدولي لا يحتمل إلاّ أحد أُسس ثلاثة:

١ ـ فإمّا أن يقوم على أساس مبادئ الوطنية والقومية، كما هو الواقع القائم الآن.

٢ ـ وإمّا أن يقوم على أساس العدوان والقوة الغاشمة.

٣ ـ وإمّا أن يقوم على أساس فكرة الصراع بين الحق والباطل.

وواضح أنّ الأساس الوحيد المقبول في الإسلام هو الثالث، وأن الإسلام يرى نفسه هو الحق الذي يجب أن ينتصر ويهيمن، وأن ما سواه هو الباطل الذي يجب أن يزول .وهذا ما يرسي جذراً راسخاً لفكرة الدارين التي هي لازم حـتمي لفكـرة صراع الحق والباطل .

وقد كان على الشيخ الزحيلي أن يناقش فكرة الدارين في ضوء فكرة الإسلام عن الحق والباطل ليتوصل إلى ما أثبته الفقهاء من الفريقين قديماً وحديثاً.

وقد كان من المناسب جداً أن أورد الأحاديث النبوية الواردة فـي صـحيح البخاري وسائر كتب الحديث عند أهل السنة وأهل الشيعة مما ورد فيها مصطلح دار الحرب أو دار الشرك أو دار الإسلام على لسان النبي(ص) والأئمة(ع) من أهل بيته ليتضح من خلال ذلك أنّ تقسيم الدارين هو صنيع الشريعة لا الفقهاء، لولا أنّ قائلاً يمكن أن يجيب بأنّ: ورود هذه المصطلحات على لسان النبي والأئـمة لا يدل على ثبوتها كعنصر تشريعي ثابت، ومن الممكن أن يكـون ورودهـا عـلى لسانهم بلحاظ الوضع الزمني الذي كان قائماً انذاك. فكان مـن الواجب إثـبات

الصفة التشريعية الثابتة ونفي الصفة الزمنية المتغيرة لهذه المصطلحات بدلاً عن الدخول في بحث حديثي لا تترتب عليه ثمرة كبيرة بالنسبة إلى البحث، وستأتي بقية الكلام في المقدمة السادسة.

واما المقدمة الخامسة فقد اصبح أمرها واضحاً، فإنّ سيادة الكفار على دارهم من وجهة نظر الإسلام اما أن تكون مشروعة أو غير مشروعة فان كانت مشروعة، فما هو منشأ شرعيتها؟، وهل يُتصور منشأ للشرعية خارج نطاق التوحيد؟، وهل هناك أيديولوجية تقبل بمنشأ للشرعية خارج نطاقها؟، وهل بالامكان الجمع بين وصف الشرعية ووصف الكفر في كيان سياسي وحقوقي واجتماعي واحد يُعبر عنه بدار الكفر؟ .

إنّ الشرعية تساوق الحق، والكفر تعبير آخر عن الباطل، والجمع بينهما في محل واحد يعني الجمع بين الحق والباطل، وهل هذا الا التناقض بعينه؟ ولذا فليس بوسعنا إلاّ أن نؤمن بعدم شرعية سيادة الكفار على دارهم، وبذا نتهيأ للدخول في المقدمة السادسة.

فإنّ انحسار الشرعية عن دار الكفر وانحصارها بدار الإسلام، وكون دار الإسلام هي دار الحق، ودار الكفر هي دار الباطل يؤدي إلى المقدمة السادسة، فان الحق بحد نفسه قيمة مطلقة تجد في داخلها مبررات القيمومة والانتصار على الباطل ومكافحته حتى إزالته، قال تعالى:﴿**وقل جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا**﴾[1]. وكل شخص يرى نفسه على حق ويرى غيره على باطل يرى في الوقت نفسه لزوم ازالة الباطل كلّما أُتيحت له فرصة ذلك. وهذا امر وجداني يعلو على البرهنة والاستدلال، ولكنه يحتاج إلى قدر من البسط والتوضيح.

---

(١) الاسراء: ٨١.

إنّ عالم العقل يقسّم الأفكار إلى صواب وخطأ، كما أن عالم الروح يقسّم السلوك إلى حق وباطل. والعالمان متجانسان، فالصواب هو الحقّ والخطأ هو الباطل، وهما ـ أي العقل والروح ـ يحكمان بانّ الوجود ينبغي أن يكون مسرحاً لحركة الحق وحده، وأن الباطل وجود غير مشروع، وأن ظهوره في أي بقعة من الأرض انّما هو اغتصاب لها. وهكذا فللحق قيمومة طبيعية على الوجود؛ ومنه الأرض والمجتمع البشري الذي يستوطنها.

وطبقاً للنظرية السماوية التي تنطلق من الإيمان بإله أحدي أوجد الكون، وهو المدبِّر له والمهيمن عليه، فإن المقياس الذي يحكم به على كون الشيء حقّاً أو باطلاً يكون واضحاً. فالحق هو ما يقرّره الله سبحانه وتعالى من أحكام تأسيسية خارجة عن نطاق العقل. وما يقرّره العقل الوجداني السليم من أحكام تكون دائماً مورداً لتأكيد الشرع وإرشاده. وما الإسلام إلاّ اسم جامع لهذين النوعين من الأحكام والمبادئ. وبالتالي فهو الحق الذي يتمتع بصفة القيمومة وتكون الأرض بل الوجود ميدانه الذي يختص به، ومن هنا كانت العالمية هي الأصل في كل دين ونبوّة سماوية بحيث لا يتطلّب الأمر إثباتها بدليل، بل يحتاج التقييد إلى إثبات، ومن هنا أيضاً كانت النبوّات والأديان السماوية تجد نفسها صاحبة حق طبيعي في القيمومة على الأرض والانتشار فيها ومكافحة المعارضين لها، ففي نبوّة موسى(ع) ورد قوله تعالى:﴿ونريد أن نمن على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾[1].

فأتباع الأنبياء ـ نبوّة بعد أُخرى ـ هم الأئمة للبشرية وهم الوارثون للأرض من الكفّار الساكنين فيها. وهم الخلفاء والخلائف الذين جعلهم الله سادة البشرية.

---

(١) القصص:٥.

وهم فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، وهم الذين اختارهم الله على العالمين.

والإسلام هو الدين الحق الذي يجب أن يظهر على سائر الأديان ويكون أتباعه شهداء على سائر الناس وخلفاء الأرض؛ لأنّ كلمة الله فيهم، وكلمة الله هي العليا، وأن تكون العزة لهم وحدهم، وهذا ما يساوق السيادة، إذ لا تنحصر العزة بأحد من الناس إلاّ على أساس أن يذعن الآخرون له، وهذا ما يفرز قاعدتين في التصور السياسي الإسلامي هما:

١ ـ القاعدة الأولية، وهي أن تكون الأرض كلها إقليماً واحداً لدولة واحدة تسكنها أُمة واحدة هي أمة الإسلام، وأن المسلمين مكلفون ببسط سيادة التوحيد على الأرض وعدم ترك بقعة واحدة منها لراية أُخرى، وحيث إن تحقق هذه القاعدة موكول لانتصار المسلمين، لذا تظهر قاعدة أُخرى إلى حين ظهور الدولة العالمية الواحدة المستوعبة للأرض كلها وهي الدولة المهدوية.

٢ ـ القاعدة الثانوية وهي أن تنقسم الأرض إلى دارين، دار للإسلام ودار للكفر، وهذا الانقسام بلحاظ الواقع لا الشرعية، إذ لا شرعية للكفر في مطلق الظروف والاحوال، وماذكره الشيخ الزحيلي من أن الإمام الشافعي اعتبر الأرض داراً واحدة وأن التقسيم إلى الدارين امر طارئ[1] صحيح ولكن بهذا المعنى الذي اتضح الآن لا بالمعنى الذي يريده. فهو تقسيم طارئ بلحاظ معاندة المعاندين للسيادة الإسلامية، فإذا زال العناد واذعن الجميع لحق التوحيد في السيادة على الأرض اصبحت الأرض داراً واحدة تحت لواء التوحيد، يهنأ في ظله أهل الإسلام وأهل الذمة بالامن والسلام، وهذا هو الأصل الذي يجب أن تكون الأرض عليه.

وقد خرجت عنه إلى الاستثناء الذي هو التقسيم نتيجة لمعاندة المعاندين

---

(١) اثار الحرب في الفقه الإسلامي: ١٣٢.

للتوحيد. وهو انقسام حتمي ليس بوسع أحد الخروج عنه ما دام الإسلام كلمة الله، وغيره كلمة الكفر، وكلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا لابد أنّ تجعل السفلى، وما دامت الأرض هي ارض الله سبحانه وتعالى، فمن الطبيعي أن يتصرف فيها كيف يشاء، تكوينياً وتشريعياً، فمن التصرف التكويني قوله تعالى: **﴿افلا يرون انا نأتي الأرض ننقصها من اطرافها﴾**(١)، وقد يبلغ الأمر أن يأمرها بمعاقبة الكفار فتطيعه قال تعالى: **﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾**(٢)، وسيجعلها في يوم القيامة في صورة جديدة قال تعالى: **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾**(٣).

وبعد التصرف التكويني يأتي التصرف التشريعي كتحريم الفساد والبغي والعلو في الأرض قال تعالى: **﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾**(٤)، وقال تعالى: **﴿لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾**(٥)، وقال تعالى: **﴿تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا﴾**(٦).

ومن التصرف التشريعي في الأرض الأمر بالهجرة فيها من مكان إلى آخر. قال تعالى: **﴿الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾**(٧)، ولعل اهم وأكبر تصرف تشريعي في الأرض هو قانون الوراثة الإلهية للأرض الذي يتم بموجبه انتقال السيادة على الأرض من جماعة كافرة إلى جماعة مؤمنة، قال تعالى: **﴿إن الأرض لله يورثها من**

---

(١) الأنبياء: ٤٤.
(٢) القصص: ٨١.
(٣) ابراهيم: ٤٨.
(٤) البقرة: ٦٠.
(٥) الشورى: ٢٧.
(٦) القصص: ٨٣.
(٧) النساء: ٩٧.

يشاء من عباده﴾[1]. ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[2].

إنّ مصطلح وراثة الأرض في القرآن الكريم بمثابة المعادل لمصطلح السيادة في القانون الدولي الحديث، وينقل لنا القرآن الكريم تعابير الكفار عن فكرة السيادة عندهم على ارضهم وانكار الله لهم ذلك بإجلائهم عنها وتحويلها إلى المؤمنين، قال تعالى:﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا أو لتعودن في ملتنا، فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾[3].

وقد جرى قانون الوراثة في المسلمين. قال تعالى: ﴿وأورثكم ارضهم وديارهم وأموالهم﴾[4]، فاليهود كانوا يدعون أن خيبر ارضهم والقرآن يحكي هذه الفكرة عنهم، فينسب الأرض والديار والأموال لهم، ولكن الملكية والسيادة لا تحظى باحترام الشريعة ما لم تكن مستندة إلى أساس الهي، فان حيازة الأرض والسكن فيها لا تولد حقا للساكنين فيها، وأن امتد زمن السكنى طويلاً، والأصل في السيادة أن تكون للتوحيد، وسيادة الإنسان على ما حوله من الأرض والاموال والديار لا بد أن تكون مستندة إلى ذلك الأصل، وكلما تناقضت معه اصبحت غير شرعية مشمولة بقانون الوراثة الإلهية للأرض، وهذا ما تحقق في قضية خيبر وحكاه القرآن الكريم في هذه الآية.

فالمسألة ليست مسألة جماعة مقابل جماعة، وانما هي مسألة التوحيد الذي يرى لنفسه الحق في بسط سيادته على الجميع.

---

(١) الاعراف: ١٢٨.

(٢) الأنبياء: ١٠٥.

(٣) ابراهيم: ١٣ ـ ١٤.

(٤) الأحزاب: ٢٧.

وبذا تتضح مسألة ما هو الأصل في العلاقة بين دار الإسلام ودار الكفر، فقد حاول الشيخ الزحيلي أن يثبت أنّ الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم هي السلم لا الحرب، وأن ما قرره الفقهاء من جعل الحرب هي الأصل كان بلحاظ حالة الحرب القائمة فعلاً في الصدر الأوّل للإسلام وما تلاه، وليس بلحاظ الدليل القرآني والتشريعي القاطع الدلالة على أن الأصل هو السلم حتى يكون اعتداء[1].

وايده السيد محمّد حسين فضل الله في كتابه (الإسلام ومنطق القوة) قائلاً: «أنّ الجهاد مشروع في نطاق شروطه الشرعية، ولذا فإننا لا نستطيع اعتباره أصلاً يحتاج تركه إلى الرخصة» ثم يقول: «فربما كانت الفكرة الاكثر قربا للإسلام هي اعتبار السلم أصلاً لتكون الحرب قضية طارئة تخضع لمبرراتها، ولهذا ترجع اليه كلما زالت المبررات، أو ربما كانت قضية السلم والحرب خاضعة لمصلحة الإسلام والمسلمين فليس أحدهما أصلاً ليكون الاخر أثراً طارئاً»[2].

وقبل المناقشة في كلام هذين العلمين نحتاج إلى بيان معنى الأصل والاستثناء في العلاقة بين الدارين، فإنهما نظرا إلى الأصل كتعبير عن حالة دائمة والاستثناء كتعبير عن حالة مؤقتة، وكأن قول الفقهاء أن الأصل في العلاقة بين الدارين هي الحرب يعني أن الحرب هي المبدأ الأوّل والدائم للدولة الإسلامية، والحال أنّنا يمكننا أن نفهم الأصل بوجه آخر هو: أنّ الأصل في السيادة على الأرض أن تكون للإسلام وأنّ سيادة الكفار على ما تحت ايديهم منها غير شرعية، وأنّ من واجب المسلمين السعي لأقرار ذلك الأصل وبسط سيادة التوحيد في الأرض.

وفي ضوء هذا الأصل يتم تنسيق العلاقة مع الكفار، فقد تكون علاقة حرب،

---

(١) اثار الحرب في الفقه الإسلامي: انظر الصفحات ٥٥،٦٣،٧٤،١٢٥،١٣٢،١٣٥،١٧٢،١٩٤، ٧٣٩.

(٢) الإسلام ومنطق القوة: ٢٢١ ـ ٢٢٤.

وقد تكون علاقة هدنة، ويمكننا أن نتصور العلاقة الراهنة بين المسلمين وغيرهم من جملة علاقة الهدنة القائمة على أساس المواثيق والمعاهدات الدولية القائمة في عالم اليوم، ويمكننا أن نعتبرها علاقة سلم إذا كان السلم بهذا المعنى، وأمّا إذا كان السلم بمعنى الاعتراف للكفر بالسيادة على ما تحت يده وسيطرته فهو مما لا يمكن القول به؛ لأنّ هذا المعنى يؤدي إلى نفي الأصل الذي تم بيانه.

فجعل الفقهاء الحرب هي الأصل في العلاقة هو بمعنى الاحتفاظ بحق السيادة للتوحيد ونفي سيادة الكفر، وليس حتماً أن يكون بمعنى أن لا يخرج المسلمون من حرب حتى يدخلوا حرباً أُخرى، فإنّ مسألة الحرب والسلم أمر زمني متروك لتقديرات ولي أمر المسلمين في ضوء المصلحة والظروف الدولية القائمة، كما قرره الشيخ الزحيلي.

وبذا يتضح أنّ علّة القتال في الإسلام ليست كفر الكافر، فإنها لو كانت كذلك لوجب قتل الشيخ والمرأة والطفل الصغير وأهل الذمة، وقد عُلم من الإسلام عدم جواز ذلك، كما انها ليست محاربة الكافر واعتداءه على المسلمين؛ لأنّ التقييد بذلك يعني عدم وجود حق للإسلام في السيادة السياسية على الأرض، وقد ثبت ذلك الحق له فيما مضى من الكلام، وإنما هي ممانعة الكافر عن الخضوع لهذه السيادة، وبالتالي فالهدف من الجهاد ليس إكراه الناس على الإسلام، ولا دفع اعتداء الكفار عليه، وإنما الإمساك بزمام الحضارة البشرية.

أمّا المقدمة السابعة فلا كلام لأحد في أنّ الوسائل السلمية إذا كانت كافية لتحقيق هدف الجهاد، فإنها أفضل من القتال، بل وإنه لا يبقى في هذه الحالة مبرر لإعلان الجهاد.

إنما الكلام في المقدمة الثامنة وهي: متى يجب على المسلمين استعمال خيار القوة القتالية في تحقيق هدف الجهاد المتمثل ببسط سيادة التوحيد على دار الكفر؟ أو

بتعبير آخر: متى يجب الجهاد الابتدائي؟

الجواب ترد فيه عدة احتمالات هي:

١ ـ أن يكون الجهاد الابتدائي مشروطاً بحصول حالة اعتداء من قبل الكافر على دار الإسلام.

وهذا الاحتمال لا وجه له، لانه في هذه الحالة يكون دفاعاً وليس جهاداً ابتدائياً، ويعتقد الأُستاذ سيد قطب أنّ الذين يبرّرون الجهاد بحماية الوطن يغضون من شأن المنهج ويعتبرونه أقل من الموطن، بينما لا تجد الأرض في الإسلام قيمة ذاتية، وكل قيمة لها في التصور الإسلامي إنما هي مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها[١].

إنّ تحويل الجهاد إلى دفاع يعني في الحقيقة تجميد عالمية الإسلام وتحويله من دين إيجابي إلى دين سلبي تجاه قضية الإنسان والحضارة والتوحيد في الحياة، وهل بامكان دين شمولي عالمي خاتم خالد أن يقف موقف المتفرج إزاء هذه القضية؟

وقد مضى أن منشأ الجهاد عبارة عن أنّ الإسلام دين شامل وعالمي وخالد يعتقد في نفسه بما يمثله من خطاب إلهي أخير إلى البشرية انه صاحب حق في السيادة على الأرض، ومع ثبوت هذه الحقيقة لا معنى لتقييد الجهاد بحالة حصول اعتداء على المسلمين.

٢ ـ أن يكون الجهاد الابتدائي فريضة يؤتى بها دائماً وفي كل وقت، وهذا الاحتمال أيضاً لا يمكن القبول به، فالأوقات مختلفة والظروف متفاوتة، وربما كان المسلمون في ضعف بحيث لو قاتلوا الغلبوا وكانت النتيجة ضعف الإسلام لا انتصاره، وهذا الاحتمال يتناسب مع حالة الدفاع التي يجد الإنسان نفسه فيها ملزما بالقتال

---

(١) معالم في الطريق: ١٠٤.

مهما كانت الظروف والاحوال.

٣ ـ أن يجب الجهاد الابتدائي في حالة فقدان حرية الدعوة للإسلام، فإذا لم يُفسح المجال امام الإسلام للانتشار وبلوغ دعوته سائر الناس وجب اعلان الجهاد المسلح ضد القوى الكافرة المانعة من ذلك.

وهذا الاحتمال يؤكد عليه الكثير من الكتّاب والباحثين المعاصرين، ومن جملتهم الشيخ الزحيلي في كتابه المذكور، حيث كتب يقول: «أمّا حروب الإسلام ضد قريش والفرس والروم فانها لم تكن لنشر العقيدة بالسيف، وإنما هي تأديب لمن يكفرون بحرية العقيدة الإسلامية ويفتنون الناس عما تؤمن به قلوبهم وتطمئن له عقولهم...»[١].

ولكن هذا الاحتمال لا يتطابق مع سيرة النبي (ص)، فإنّا لو نظرنا في كتبه الموجهة إلى الرؤساء والملوك في زمانه وجدناه يطالبهم بالدخول في الإسلام، ولا يطالبهم بفسح حرية الدعوة أمام الإسلام، ومقتضى هذا الاحتمال أن يجهز النبي (ص) حملة سلمية للدعوة إلى الإسلام فيقوم الحاكم الكافر بغلق حدود بلاده في وجهها فيعلن النبي أثر ذلك الجهاد لاطلاق حرية الدعوة بالقوة. ولكن ذلك مما لا شاهد تأريخي عليه، إذ ليس في سيرة النبي(ص) ولا الخلفاء من بعده ما يشهد لحصول جهاد بهذا السياق، نعم المذكور في التاريخ أن المسلمين وطبقاً لتوصيات النبي (ص) كانوا يبدأون عمليات الفتح بالدعوة إلى الإسلام، فإن كان موقف الكفار إيجابياً اكتفى المسلمون بذلك عن القتال، وإلاّ أُعلن الجهاد لفتح ذلك البلد، وهذا شيء يخالف الاحتمال الثالث تمام المخالفة، وهل أن الذي حصل في صدر الإسلام كان تأديباً «لمن يكفرون بحرية العقيدة» كما يقول الشيخ الزحيلي؟ أم

(١) اثار الحرب في الفقه الإسلامي: ٧٤.

كان فتحاً لبلدان، وإسقاطاً لحكومات وأنظمة؟ فإذا كانت المسألة مسألة حرية العقيدة فبأي أمر يتم تفسير الفتوحات الإسلامية التي حصلت في صدر الإسلام؟، وكيف نفسر الأحاديث النبوية الكثيرة التي ينص فيها الرسول(ص) بقوله: «امرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله إلاّ الله وان محمّداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله[1]»؟

٤ ـ أن يكون وجوب الجهاد الابتدائي خاصاً بزمان حضور المعصوم(ع) ولا يشمل سائر الازمنة، وهذا هو الرأي المشهور عند الإمامية. واستدل عليه بالإجماع وببعض الروايات التي ادعي دلالتها عليه.

ويمكن الاستئناس له بأنّ أمر الجهاد شديد، لما فيه من القتل والسبي، وإرجاعه إلى المعصوم هو المناسب لحساسية الإسلام وعنايته الشديدة بالنفوس والدماء، وإيكال الأمر إلى غير المعصوم قد يعرض الإسلام إلى الأخطار الناشئة من التقديرات الخاطئة لمعادلات القوى الدولية عند إعلان الجهاد، أو من السلوكيات التي قد تكون طائشة لا تتناسب مع قيم الإسلام الرفيعة.

ويمكن تأييده أيضاً بأنّ الجهاد وإن كان فريضة من فرائض الإسلام الخالدة وركناً من أركان شريعته الدائمة والثابتة في كل زمان، ولكن الظروف الموضوعية التي كانت قائمة في زمان صدر الإسلام، وطبيعة المرحلة التاريخية التي كان الإنسان يجتازها آنذاك كانت تسمح بنجاح الجهاد الابتدائي في نشر الإسلام في العالم بحيث كان أهالي البلدان المفتوحة وبمجرد أن يلامس الإسلام قلوبهم يبادرون إلى اعتناقه، بل يبادرون إلى أن يكونوا في مقدمة الفاتحين في حملات جهادية جديدة،

(١) صحيح البخاري، ١: ١٤، مطبعة محمّد علي صبيح بمصر.

ومع انقضاء تلك المرحلة، ودخول الإنسان مرحلة جديدة من حياته، اصبحت الدعوة السلمية المجردة عن السلاح أفضل نتيجة من الجهاد المسلح.

وهذه الفكرة المرحلية عن الجهاد تنسجم مع ما نجده في القرآن الكريم من تميز تأريخي في الموقف السماوي من المعاندين للسماء، ففي المرحلة الأُولى من خط النبوات كانت السماء تواجه المعاندين بالاستئصال، كما في موقفها من قوم نوح عليه السلام، وفي المرحلة الثانية أصبحت تواجههم بعقوبات كونية عاجلة اقل من الاستئصال، كالتيه والرمي بالقمّل والضفادع على ما هو المذكور في قصة بني اسرائيل. وفي المرحلة الثالثة وهي مرحلة الإسلام اصبح الموقف السماوي منهم تشريعياً يتمثل بتجريد حملات الجهاد الابتدائي ضدهم بهدف فرض سيادة التوحيد عليهم، وانتفت العقوبة الكونية العاجلة، ومن المناسب لهذه المراحل أن نتصور أن المرحلة الثالثة تقع في فترتين فترة الجهاد المسلح الخاصة بعصر حضور المعصوم وهو عصر صدر الإسلام وما يليه، وفترة الدعوة السلمية التي تعني استمرار حكم الجهاد والموقف التشريعي من المعاندين لسلطان التوحيد ثبوتاً، كل ما في الأمر أن موضوعهما وهو الإنسان المعاند الذي لا يصلحه إلاّ السيف قد انتفى انتفاءً نوعياً، وإن كان هناك من لا يزال لا ينتفع بغير السيف، ولكن الحكم يتبع الأعم الأغلب.

٥ ـ أن يكون الجهاد الابتدائي واجباً في كل وقت وزمان كما هو الاحتمال الثاني مع إجراء تعديل عليه يتمثل بإحراز إمكان الغلبة وتحقيق الانتصار على العدو، فهو واجب كلما أحرز المسلمون إمكانية الغلبة وتحقيق الهدف المقصود.

وهذا ما اختاره أخيراً آية الله السيد الخوئي (قدس سره) مخالفاً بذلك مشهور الإمامية من اشتراط حضور المعصوم عليه السلام في الجهاد، واستدل عليه بأنّ: «الجهاد مع الكفار أحد أركان الدين الإسلامي، وقد تقوى الإسلام وانتشر امره في

العالم بالجهاد مع الدعوة إلى التوحيد في ظل راية النبي الأكرم(ص)... ومن الطبيعي أن تخصيص هذا الحكم بزمان مؤقت وهو زمان الحضور لا ينسجم مع اهتمام القرآن وأمره به من دون توقيت في ضمن نصوصه الكثيرة»[1].

وناقش أدلة المشهور بأنّ استدلال المشهور بالإجماع منقوض باحتمال كونه مدركياً ناشئاً من الاعتماد على رواية من روايات المقام، كما أنّ استدلالهم بالروايات منقوض بان اهم الروايات في المقام روايتان لاحجة فيهما؛ لورود المناقشة السندية والدلالية فيهما.

ثم يخلص إلى القول بـ«إنّ الظاهر عدم سقوط وجوب الجهاد في عصر الغيبة، وثبوته في كافة الأعصار لدى توفر شرائطه، وهو في زمن الغيبة منوط بتشخيص المسلمين من ذوي الخبرة في الموضوع أن في الجهاد مصلحة للإسلام، على أساس أنّ لديهم قوة كافية من حيث العدد والعدة لدحرهم بشكل لا يحتمل عادة أن يخسروا في المعركة، فإذا توفرت هذه الشرائط عندهم وجب عليهم الجهاد والمقاتلة معهم»[2].

وخلاصة البحث في هذه المقدمات الثمانية تبين أنّ نظرية الجهاد الابتدائي تامة بمقدماتها الثمانية، وأنّ الجهاد فريضة مشروطة إمّا بحضور المعصوم، أو بتشخيص أهل الخبرة من المسلمين بأن مصلحة الإسلام تقتضي ذلك، وأنّ الغلبة محرزة أو راجحة لجانب المسلمين في المعركة.

الجهاد حق لا اعتداء فيه

واجهت مقولة الجهاد في الإسلام اعتراضات غربية شديدة باعتبار ما فيها من

١- منهاج الصالحين ١ : ٣٦٣ ـ ٣٦٤، ط: ٢٨.
(٢) المصدر نفسه: ٣٦٦.

المخالفة لمبدأين أساسيين من مبادئ الحضارة الغربية هما:

١ ـ الحرية.

٢ ـ حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها.

والحقيقة أن المبدأ الثاني يعود في جوهره وروحه إلى المبدأ الأوّل الذي يعتبر المبدأ الأصيل والقاعدة العريضة للحياة الغربية، وقد عنى المفكرون الإسلاميون طيلة القرن العشرين بالإجابة على هذه الاعتراضات من منطلق الدفاع عن الإسلام وعن الحقيقة وإماطة اللثام عن المغالطة والخطأ.

فقد كتب أبو الأعلى المودودي يقول: «أن ما اصطلحوا عليه اليوم من تقسيم القتال إلى الهجومي والدفاعي لا يصح إطلاقه على الجهاد الإسلامي البته، وانما يصدق هذا المصطلح على الحروب القومية فقط؛ لأنّ هاتين الكلمتين المصطلح عليهما لا يُنطق بهما، وما جرى استعمالهما إلاّ بالنسبة إلى قطر مخصوص أو أُمة بعينها، واما إذا قام حزب عالمي مستند إلى فكرة انقلابية شاملة لا تفرق بين أُمة دون أُخرى ولا تخص قطراً دون قطر، يدعو جميع الأُمم والشعوب على اختلاف أجناسها ولغاتها إلى فكرته ومنهاجه، مفتوحة ابوابه لكل من يريد المشاركة في الدعوة... أمّا إذا كان الأمر كذلك فلا مجال في دائرته البتة لما اصطلحوا عليه من نوعي القتال الهجومي والدفاعي. وكذلك إذا نظرنا في المسألة بصرف النظر عن هذا المصطلح الشائع تبين لنا انه لا ينطبق هذا التقسيم إلى الهجومي والدفاعي على الجهاد الإسلامي بحال من الاحوال، فإنّ الجهاد الإسلامي إذا اردت الحقيقة هجومي ودفاعي معاً، هجومي لأنّ الحزب الإسلامي يضاد ويعارض الممالك القائمة على المبادئ المناقضة للإسلام ويريد قطع دابرها... وأمّا كونه دفاعياً فلأنه مضطر إلى تشييد بنيان المملكة وتوطين دعائمها حتى يتسنى له العمل وفق برنامجه وخطته المرسومة، وغير خاف عليك أنّ الإسلام حزب، فليس له من هذه الوجهة دار

محدودة بالحدود الجغرافية يذود ويدافع عنها، وانما يملك مبادئ واصولاً يذب عنها ويستميت في الدفاع عنها، وكذلك لا يحمل على دار الحزب الذي يعارضه ويناقضه وانما يحمل ويصول على المبادئ التي يتمسك بها، ولا يغيب عن بالك انه لا يريد بهذه الحملة أن يكره من يخالفه في الفكرة على ترك عقيدته والإيمان بمبادئ الإسلام ، وانما يريد الحزب الإسلامي أن ينتزع زمام الأمر ممن يؤمنون بالمبادئ والنظم الباطلة حتى يستتب الأمر لحملة لواء الحق ولا تكون فتنة ويكون الدين كله لله»[١].

وسئل السيد الشهيد الصدر (رض) عن مبررات الجهاد ووجه الفرق بينه وبين الاستعمار فأجاب بما حاصله: إنّ فكرة الله التي هي جوهر التوحيد وقاعدة الإسلام تستبطن في داخلها قيمومة الله سبحانه على حياة البشر، وبالتالي فمن الطبيعي أن تنطوي الرسالة الإسلامية على فريضة الجهاد باعتبارها التجسيد الطبيعي لقيمومة الله سبحانه على حياة الإنسان، بمعنى أنّ الجهاد ليس مما يحتاج إلى التبرير حتى يبرر، أو أنه يملك في نفسه مبرراته الذاتية. بخلاف ما يقوم به الغرب من سلوك استعماري تجاه الآخرين، لأنّ فكرة الحرية التي تقوم عليها الحضارة الغربية لا تسمح للغرب بان يقرر للآخرين مصيرهم ويصادر حريتهم، حتى مع فرض أنّ ما يفرضه عليهم أفضل مما يختارونه بأنفسهم، وانه يقدم لهم العلم والتقدم[٢].

إنّ الإسلام يتّسم بالحيوية ومصارعة الجمود وله مجتمع يتميّز بالنمو، ذلك أن المجتمع القائم على محور عقائدي يكون مجتمعاً نامياً في الكم والكيف، بينما يتّسم المجتمع القائم على أساس خصائصه البيئية بالجمود الكمي، لأنّ الرابطة الوطنية

---

(١) الجهاد في سبيل الله: ٤٥ ـ ٤٧.

(٢) المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد محمّد باقر الصدر ١٣ : ٥٩.

والقومية غير قابلة للاتساع، قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً ۞ محمّد رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[١].

فالمجتمع الإسلامي «محمّد والذين معه» يتخذ من عبودية الله «ركعاً سجداً». أساساً للنمو النوعي والكمي «كزرع أخرج شطأه.. فاستوى على سوقه» وهذه خصيصة نابعة من صميم المجتمع التوحيدي ولذا لا يحتاج المجتمع الإسلامي إلى من يبرر له اتساعه، بينما يحتاج المجتمع القومي إلى ذلك، لأنّ القومية ليس من شأنها الاتساع، فمن اين جاء الانجليز بامبراطورية لا تغيب عنها الشمس وهم قومية صغيرة؟، ومن اين جاءت هذه السيطرة الأمريكية على شرق الأرض وغربها؟

إنّ الحقيقة عالمية بطبعها، والتوحيد عالمي بجوهره، وما كان عالمياً بطبعه وجوهره لا يُسأل عن مبررات انتشاره وتوسعه، بينما تُسأل القومية عن ذلك؛ لأنها محلية بطبعها وجوهرها، فما حصل لها من الانتشار والتوسع لا يكون الا على أساس العدوان وعلى حساب القوميات الأُخرى.

ويحاول الشهيد مرتضى المطهرى أن يطرح المسألة من زاوية أُخرى فيتساءل: هل التوحيد حق شخصي، أم حق انساني عام، كالحق في الحرية والحماية؟ فإذا كان شخصياً فلا يجوز التدخل في الحقوق الشخصية للإنسان، وإن كان حقاً عاماً يكون التدخل واجباً من أجل حماية النوع، كالاجراءات الوقائية التي تفرضها الدولة ضد

---

(١) الفتح: ٢٨ ـ ٢٩.

بعض الأمراض الجرثومية، حيث تجد الدولة من حقها الزام الافراد بالتطعيم ضد الوباء، وأخيراً يصل إلى أنّ التوحيد حق عام، وبالتالي فبسط التوحيد في الأرض امر واجب[1].

ولكن النظر في الآيات القرآنية والنصوص الشريفة يساعد على كون التوحيد حقاً لله تعالى، قال تعالى: **﴿وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون﴾**[2]. كما أن القول المعروف للامام علي(ع): **«الهي ما عبدتك حين عبدتك طمعاً في جنتك ولا خوفاً من نارك، وانما وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك»**، يدلُّ على أنّ العبودية هي ايفاء لحق الله على الإنسان، وحق الله ينسجم تماماً مع حق الإنسان؛ لأنّ الله أولى بعبده واعرف بمصلحته وادرى بحاجاته وهو أرحم به من الإنسان بنفسه، وحينئذ تكون مشروعية الجهاد اشد وأقوى؛ لأنّ التوحيد سيكون حق الله بالذات وحق الإنسان بالعرض، ولو كان حقاً انسانياً محضاً لكان بامكان الإنسان أن يسقطه، فلا يبقى وجه للالزام بالتوحيد أو العقوبة على الشرك.

ويشهد لهذا المعنى بوضوح أن القرآن الكريم والسنّة النبوية يعبّران عن الجهاد باستمرار بأنّه جهاد في سبيل الله، فهو اذن من حقوق الله، ونسبته إلى الله انفع للإنسان مما لو يُنسب إليه؛ لأنّ الإنسان يسلم لحق الله سبحانه أكثر ممّا يسلم لحق الإنسان الآخر عليه.

ويعتقد الشهيد المطهري أن الحرية تعني ازالة ما يمنع عن فعالية قوة تقدمية وفكرة فعالة لدى الإنسان ، وعبادة الأصنام ليست من هذا النوع؛ لأنها جمود في الفكر والعواطف، وبالتالي فإنّ محاربتها لا تعني محاربة لحرية الفكر، وإنما اطلاق

---

(١) الجهاد وحالاته المشروعة في القرآن: ٣١ ـ ٣٢.

(٢) الذاريات: ٥٦.

لحرية الفكر والعقل[1].

ويؤيده العلامة السيد محمّد حسين فضل الله بالقول: «إنّ الشرك لا يعتبر بمثابة العقيدة التي يمكن أن يقام لها وزن في حساب الحرية لدى الإسلام... ومن هنا لابد من إخضاع أتباعه لسيطرة الدولة الإسلامية... كطريق عملي للسيطرة على عنصر الفساد والإفساد في الأرض»[2].

ولكن هذا الجواب يتم في الشرك ولا يتم في غيره من الجهات المقصودة بالجهاد، فالدهريون والملحدون الذين يفلسفون الحياة والمجتمع في ضوء المادة يجاهدهم الإسلام كما يجاهد المشركين. فيحتاج الأمر إلى جواب أعمّ منه.

إننا وقبل أن ننظر في أصل مقولة الجهاد علينا أن ننظر في الموقف الغربي منها، والمنشأ العميق لاعتراضه عليها، وهل انه منشأ سليم في نفسه أم لا؟، فربما انطلق الإنسان من أُمور يعتبرها مسلّمات ومقياساً لصحة وسقم أُمور أُخرى، رغم أنها قابلة للبحث والنقاش . ولدى التحليل نجد أن الاعتراض الغربي على الجهاد ينطلق من جهتين هما:

١ ـ إنّ الغرب يعتبر الحرية القاعدة الأُولى لحضارته، ومن الطبيعي في مثل هذه الحالة أن يعتبر الجهاد نقضا لهذه القاعدة، وبالتالي سلوكاً إرهابياً.

٢ ـ إنّ الغرب يعتبر الدين شأناً شخصياً، ومن الطبيعي في مثل هذه الحالة أن يرفض الجهاد بوصفه سلوكاً عسكرياً وسياسياً ودولياً ينطلق من أساس ديني.

ولكي نصل إلى حقيقة كاملة بشان الجهاد لا بد لنا من دراسة هاتين الجهتين دراسة تامة. خاصة أنّ القارئ سيجد أنّ هاتين الجهتين تمثلان ذروة التناقض بين

---

(١) الجهاد وحالاته المشروعة في القران: ٤٤.

(٢) الإسلام ومنطق القوة: ٢١٧.

الإسلام والغرب، وأنّ الجهاد يمثل نقطة الاصطدام الكبيرة بين حضارتين متنافيتين.

هل تستحق الحرية أن تكون قاعدة للحضارة؟

يولد الإنسان في الحياة وهو يحمل في داخله شعوراً مزدوجاً، فمن جهة يشعر بأنّه حر، ومن جهة ثانية يشعر بوجود نقطة كمال في الحياة عليه أن يصل إليها، وأنها نقطة الهدف في حياته.

وليس من شك في أنه بحاجة إلى كلا الشعورين، وليس هناك من ينكر أحدهما ويقتصر على الاخر، انما الجدل الدائر بين الفلسفات والأيديولوجيات والاديان والمذاهب الاجتماعية المختلفة في تقديم أحد الشعورين على الآخر، واي منهما يكون الأصل والأساس للآخر، بعدما اذعن الجميع بعدم امكان إعطاء الأصالة لهما معاً. لتفاوتهما الواضح في الماهية وفي الادوار .

ومن هنا انقسم العالم قديماً وحديثاً إلى معسكرين، أحدهما ينادي بإعطاء الأصالة للحرية والاخر ينادي بإعطاء الأصالة للكمال والمعاني المتفرعة عنه، كالعدل والأخلاق والقيم المعنوية والدين والحق والسعادة.

وقد كانت أوروبا من جملة المعسكر الثاني، لكنها انتفضت عليه وانكرته ودخلت معسكر الحرية، وآمنت بها كأساس وحيد للحضارة، وأن الكمال يتم ويتحقق من خلال الحرية، وما لم تكن هناك حرية لا يكون هناك كمال، ولكن سرعان ما تمخضت التجربة الأوروبية عن وليد جديد يناوئ معسكر الحرية وينتصر للمعسكر الثاني ويطرح شعار الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا كطريق لتحقيق العدالة في الحياة الاجتماعية، وقبل أن تؤذن الاشتراكية بالسقوط والرحيل تمخض الواقع الدولي عن وليد جديد يرفع شعار الكمال والعدالة ويقف بوجه المعسكر الحر بصلابة وشموخ، الا وهو الإسلام الذي كان ظهوره ايذانا

بدخول المعركة بين المعسكرين مرحلة عميقة وجذرية أكثر من السابق.

ويمكننا إيضاح نقطة الخلل الاساسية في جعل الحرية قاعدة للحضارة في سياق الملاحضات التالية:

١ ـ هل كان الغرب حراً في انتخابه الحرية قاعدة لحضارته، أم أنه وجدها الخيار الوحيد المتبقي أمامه بعد انهيار الكنيسة؟. ولو قدر للاشتراكية أن تظهر في لحظة سقوط الكنيسة لكان من الممكن أن يختار الغرب طريقاً آخر، ولأمكن أن يقال: إنّ الغرب كان حراً في انتخابه هذا الطريق.

والغرض من هذه الملاحظة الوصول إلى نقطة أعمق مما يبدو، وهي أنّ الإنسان مخلوق بين الأرض والسماء، ومعنى الحرية أن يكون الإنسان أمام عدة طرق فيختار أحدها دونما ضغوط وتأثيرات سلبية عليه، وما عليه النموذج الغربي شيء آخر، فالإنسان الغربي لما انفصل عن رابطته السماوية لم يبق له خيار آخر غير التشبث برابطته الأرضية وبالحرية كطريق للوصول إلى النظام الاجتماعي الجديد، اذلم يكن هناك نظامٌ اجتماعي جاهز يختاره، وكان عليه أن يختار الحرية كأساس، والتجربة كطريق للوصول إلى النظام الاجتماعي الجديد، وبمرور الزمن اتخذت الحرية طابعاً مقدساً وظهرت كما لو أنها الأساس الأوّل للحضارة، كما اتخذت جهة محددة هي الانفصال عن الرابطة السماوية والانحصار بالرابطة الأرضية، دونما التفات إلى أن هذه الجهة المحددة بمثابة الالغاء للحرية لا اثباتها، وهي تعني أنّ الحرية المقصودة هي الحرية بمفهوم معين ومن جهة معينة، ومهما أجهد الغربي نفسه لاقناع الآخرين بأنّه الحامل للواء الحرية. مع ذلك يبقى الفارق بينه وبين الآخرين شكلياً، فالماركسي يرى الحرية بمعنى التحرر من الطبقة البرجوازية، ولم يرفع ماركس شعار ديكتاتورية البروليتاريا إلا لانه يرى أن العالم الغربي محكوم بديكتاتورية الرأسمالية الجشعة، وأن الديمقراطية صورة خداعة يتم بها الهاء الطبقة الكادحة

والتنفيس عن معاناتها التي أن كبتت ادت بالمجتمع إلى سلوك طريق الثورة على القوى الرأسمالية الماسكة بزمام الحكم بنحو دائم، والإسلامي يرى الحرية بمعنى التحرر من اغراءات المادة وسلطانها الشديد على الإنسان، فيما يرى الليبرالي الحرية بمعنى التحرر من كل رابطة سوى الرابطة الأرضية، وحينئذ فالحرية ليست هي المنطلق الأوّل عند الليبرالي حتى يدعي انه الحامل للوائها، وأنها القاعدة لحضارته، وانما الرابطة الأرضية التي فرضت نفسها عليه بحكم كونها الخيار التاريخي الوحيد بعد انحلال رابطته السماوية هي المنطلق الأوّل له، فتصور خطأ انه حر فيها وانه قد جعل الحرية قاعدة لحياته، ولذا فانه حينما يرفض الجهاد الإسلامي لا يرفضه دفاعاً عن الحرية كما يدعي، وانما يرفضه دفاعاً عن الرابطة الأرضية التي جعلها أساساً لحياته، لأنّ الحرية هي ادعاء مشترك بين الإسلامي والليبرالي معاً. والفرق بينهما أنّ الإسلامي يرى الحرية تتحقق حينما يحكّم الإنسان رابطته السماوية ويكون قادراً على التحكم برابطته الأرضية، فيما يراها الليبرالي تتحقق حينما يتم نفي الرابطة السماوية وتحكيم الرابطة الأرضية. إذن فكل طرف يعتبر منهجه طريقاً مؤدياً إلى الحرية، ويعتبر سائر المناهج طرقاً مؤدية إلى الديكتاتورية.

٢ـ إنّ الحرية تعني نفي القيود، وهي بهذا المعنى لا تصنع الإنسان ولا تحقق شيئاً بالنسبة إلى مصيره الاجتماعي، والذي يصنع ذلك هو حسّ الكمال وما يتفرع عليه من معاني العدل والحق والأخلاق والقيم المعنوية والدين، نعم الحرية مقدمة ضرورية لتحقيق الهدف، ونجاح الطالب في الامتحان متوقف على ما يحمله ذهنه من إجابات صحيحة، نعم الحرية شرط ومقدمة وهبها الخالق سبحانه للإنسان ليمنحه فرصة الفوز باختيار الطريق الصحيح المؤدي إلى حياة طيبة سعيدة، وحينئذ فالفرق بين الحرية والكمال فرق بين شرط الشيء وأساسه، فالكمال أساس الحياة وقاعدة الحضارة، والحرية شرط ومقدمة،وحينئذ فليس للغرب أن يعارض الجهاد

الإسلامي، نعم له أن ينظر هل إنّ الجهاد يقدّم للحياة وللإنسان كمالاً وتقدماً أم لا؟ . فإنْ كان يقدّم ذلك فلا بد من الترحيب به، وإن لم يكن يقدم ذلك فعلى الغرب وسائر البشرية البحث عن مصدر بديل يؤمن الكمال للمسيرة البشرية، إن كان هناك بديل آخر.

٣ـ إنّ البشرية بكافة مذاهبها الاجتماعية وأديانها السماوية وغير السماوية قد اجتمعت على أن نهاية التاريخ ستشهد تحقق العدل والسعادة، وستصل البشرية إلى نقطة الكمال المنشود، وهذا يعني أن الحرية لا تمثل هدف المسيرة الإنسانية، وأن هدفها الوحيد هو الكمال.

وحينئذ فالموقف من الجهاد يجب أن يكون على أساس مايقدمه من عطاء لهذا الهدف، وليس صحيحاً أن يكون الموقف منه هو الرفض على كل حال. ومهما كانت نتائج الجهاد، فان موقف الرفض يمكن أن يكون صحيحاً لو كان الجهاد مناقضاً لهدف المسيرة الإنسانية، أو لو كانت الحرية هي الهدف لهذه المسيرة، وحيث لم تكن الحرية هدفاً لها، بل شرطاً ومقدمة، وكان الجهاد موافقاً لهدف المسيرة البشرية المتمثل بالكمال، فالموقف المنطقي حينئذ هو تأييد الجهاد لا الاعتراض عليه.

٤ ـ لو كانت الحرية هي المثل الأعلى للحياة والقاعدة للحضارة، فكيف يبرر الغربيون سلوكهم الاستعماري تجاه العالم غير الغربي؟، فالاستعمار عدوان حقيقي على حريات الشعوب والأمم، ولو كانت الحرية قاعدة الحضارة الغربية ومثلها الأعلى فكيف تمارس هذه الحضارة الاستعباد بحق الشعوب الأُخرى؟ الجواب على السؤال أما أن يكون بانكار الحرية كأساس للحضارة ومثلاً أعلى للحياة، وهو المطلوب والصحيح، واما أن يقال: بأن الحرية تحمل هذه الصفة وعمل الغربيين هو خيانة تاريخية لها، ولكن هذا جواب صوري فإذا خان الغربيون شعارهم فمن الذي يفي له بعدهم؟ وما بال كل من نادى بالحرية أن يكون خائناً لها؟، الأمريكي

والبريطاني والبرتغالي والاسباني والايطالي والالماني والفرنسي على حد سواء.

٥ ـ إنّ الإنسان يتخذ من الحرية مقدمة للاختيار، فما هو المهم والموجود في سلوك الإنسان هو الاختيار، والحرية تأخذ أهميتها في حياة الإنسان بما هي مقدمة للاختيار، والاختيار يعني طلب الخير وانتخابه من بين سائر الاختيارات المطروحة امام الإنسان، فالإنسان كائن باحث عن الخير دائماً، وحتى حينما يرتكب الشر لايقدم عليه وهو يراه شراً، وانما يقوم به لانه يعتبره من مصاديق الخير، والمشكلة التي تعترض الإنسان دائماً هي الخطأ في تمييز مصاديق الخير عن مصاديق الشر.

بمعنى أنّ الإنسان يرى نفسه حراً، ولكنه في الوقت نفسه يرى من الواجب عليه أن يتبع الخير والحق وأن يبتعد عن الشر والباطل، ومعنى الحرية عنده أن لا يجبر على الشر، وهكذا الأمر بالنسبة إلى سائر الأحكام العقلية لديه كحكم العقل بحسن العدل ولزوم اتباعه، وحكمه بحسن الأمانة وقبح الخيانة وحكمه بحسن الصدق ولزوم اتباعه وقبح الكذب ولزوم تركه، فالإنسان دائماً يرى الحرية بنحو ملازم لهذه الأحكام، ولا يرى نفسه حراً في تركها، ومن هنا انتفى عن السلوك الإنساني قصد العبث وقصد مخالفة الأحكام العقلية. وكان ملازماً دائماً لقصد التطابق معها، وكان الإنسان هادفاً دائماً، وليست الحرية عنده أن يفعل كل شيء، وإنما أن لا يجبر على شيء يراه شراً وباطلاً وخاطئاً، ولا يمنع عن شيء يراه صواباً وحقاً وخيراً. ومن هنا قيل بانتفاء الحرية وبعدم امكان تعريفها؛ لأنّ تعريفها يؤدي إلى وضع الحد لها، ووضع الحد يعني نفي الحرية.

ويمكن بيان العلاقة بين الحرية وقيم الحق والخير والكمال بصورة أُخرى، وذلك بان نقول: إنّ الحرية يمكن أن تطرح في حالتين مختلفتين هما:

١ ـ حالة وضوح طريق الحق والباطل، الخير والشر، العدل والظلم. الصواب

والخطأ عند الإنسان.

٢ ـ حالة خفاء هذا الطريق لديه.

إنّ سلوك الإنسان وموقفه من الحرية يختلف تبعاً لاختلاف هاتين الحالتين، ففي الحالة الأُولى يجد الإنسان أن معنى الحرية هو أن لا يمنعه أحد من سلوك الطريق الذي يعتقد انه طريق الحق والخير والعدل والصواب، فإذا ترك وشأنه سلك هذا الطريق واعتبر نفسه قد وصل إلى الهدف الذي يبحث عنه، وإذا منع عن ذلك طالب بالحرية، وهو في الحقيقة يطالب بالوصول إلى ما يراه حقاً وخيراً وعدلاً وصواباً، فالحرية مطلب مهم كمقدمة وطريق للوصول إلى الهدف الذي يـريده الإنسـان. وليست هي الهدف الحقيقي له، ولذا لا يطالب الإنسان به إلا في حالة وجود مانع يمنعه من الوصول إلى الهدف المنشود لديه، وإذا ارتفع هذا المانع فقد الإحساس بالحرية إلى درجة الصفر، واصبح حسّه مشبعاً بضرورة التزام طرق الحق والخير والعدل والصواب واجتناب كل شيء مخالف له، لكنه إذا انتقل إلى الحالة الثانية، وفقد الطريق المؤدي إلى الحق والخير والعدل والصواب والكمال استولى عـليه الشعور بالحرية، الا انه مع ذلك يجد في عمق نفسه انه يتمسك بهذا الشعور كبداية ضرورية للبحث عن الطريق المفقود والهدف المنشود، لانه إذا فقد الحـرية فـقد إمكانية تلمس ذلك والعثور عليه. وحيث إنّ الإنسان لا يهتدي إلى الحق والكمال والخير من تلقاء نفسه وأن ذلك متوقف على الإيمان بالله سبحانه وتعالى على غرار توقف اهتداء الضال في الصحراء على ظهور نجمة معينة في السماء تحدد له موقعه وموقع الهدف المنشود في تلك الصحراء، لذا يتعزز ويشتد عند غير المؤمنين بالله سبحانه وتعالى الشعور بالحرية ويتضاءل الشعور بالحق والعدل والخير والكمال إلى حد يوقعهم في انكار هذه القيم، وبالتالي الوقوع في السفسطة وانكار الهدفية في الحياة، ولذا فالفرق الجوهري بين الإسلام والغرب في مسألة الحرية هو ذاته الفرق

بين هاتين الحالتين، فالحالة الأُولى تمثل الإسلام والثانية تمثل الغرب.

إنّ الإنسان لا يجد نفسه حرّاً في أن يخالف الحق، بل يجد نفسه ملزماً باعتناقه، ولا يرى نفسه حراً في أن يفعل ما يشاء إلا حينما يجد الحق والخير والعدل قيماً وهمية لا وجود لها، ولذا تركز الفلسفات الغربية على انكار هذه القيم لتبرّر لنفسها تضخيم الشعور بالحرية إلى أعلى حدّ ممكن، بينما يركز الإسلام عليها ليعمق الشعور بالمسؤولية تجاهها، وليبين أنّ الحرية قيمة مقدسة إذا كانت مقدمة إلى تلك القيم، وخطر كبير على البشرية إذا اصبحت سبباً لانكارها.

ومن هنا أيضاً يتناقص حس الحرية عند الإنسان كلما آمن بوجود منهج اجتماعي يراه حقاً وصواباً، ويتضخم كلما افتقد هذا المنهج، ولذا نجد الإنسان الغربي حسّاساً تجاه الحرية كلما افتقد منهجه الاجتماعي في الحياة، ولا يكون حساساً تجاهها حينما يفتقد منهجاً اجتماعياً اخر لا يؤمن بصحته، وهكذا الأمر بالنسبة للإنسان المسلم، فانه لا يكون حسّاساً تجاه الحرية الا عندما يمنع عن العمل بالإسلام ويجبر على العمل بغيره، وكل منهما لا يجد معنى للمطالبة بالحرية حينما يجد منهجه الاجتماعي الذي يراه صواباً وحقاً مطبقاً في الحياة، بما يعني أنّ قاعدة الحضارة حتى عند الغربي نفسه ليست هي الحرية بذاتها، وانما هي مايعتقده الإنسان في شيء انه حق وانه صواب، فقاعدة الحضارة عند الجميع هي الحق والصواب. ومشكلة الإنسان الدائمة هي تشخيص مصداق ماهو حق وصواب وتمييزه عما هو باطل وخطأ. وقد اتضح أن الحرية وإن كانت في حد نفسها مطلباً انسانياً نبيلاً لكنها ومهما بالغ انصارها بها لا تستحق أن تكون قاعدة للحضارة، أو أن مبالغة الغربيين بها ناشئة من ملابسات تاريخية وفكرية معينة، وهنا تتولد مشكلة لا حل لها الا بالجهاد، وهي أن من خصائص الحق والصواب انه يسعى للتعميم على الآخرين، وكل من يرى نفسه على حق يرى نفسه ملزماً بتعميم هذا الحق على الآخرين، وهذا

هو المنشأ لظاهرة نزوع الحضارات نحو التوسع والانتشار دائماً بوسيلة أو بأخرى، الأمر الذي يؤدي إلى الصراع والعدوان، ولا يتصور لهذه المشكلة الا أحد حلين هما:

أ ـ الحل السلمي وهو أن نمنع كل حضارة عن النزوع نحو التوسع ونطالبها بالانحصار في حدود من ينتمي اليها ويؤمن بها، ويرد على هذا الحل اشكالان، أولهما: أن هذا الحل يمنع من ظهور قطب دولي جامع يكون محوراً لحل النزاعات البشرية، اذ لا يمكننا أن نتصور قطباً دولياً من هذا النوع لا ينتمي إلى حضارة معينة، وانتماؤه إلى تلك الحضارة يعني تحكيم تلك الحضارة في سائر الحضارات، وهذا هو التوسع الذي نريد منعه، وحينئذ فاما أن نقبل بهذه النتيجة، وإمّا أن نترك المجتمع البشري بلا قطب دولي، بما يؤدي إلى انتفاء السلم وظهور النزاع.

وثانيهما: أن هذا الحل اما أن يستند إلى مبنى فكري وهو القول بالتعددية والنسبية بالنسبة إلى الحق والصواب، وأن الجميع على حق وصواب نوعاً ما أو يستند إلى مبنى سياسي وهو القول بان الحق منحصر في إحدى الحضارات وأن الباقي على باطل، وحيث إنّنا لا يمكننا التمييز فلا بد من الحل السلمي درءاً للنزاع والصراع.

والمبنى الفكري لهذا الحل غير تام، لأنّ الحق لا يمكن أن يتعدد، والقول بتعدد الحقيقة يؤدي إلى السفسطة، والقائلون به لابد وأن يرونه حقاً، وحينئذ فهل يقبلون بالتعددية على صعيد القول بالتعددية نفسها؟، فإن لم يقبلوا فقد نقضوا قولهم، وإن قبلوا نقضوا قولهم بالتعددية أيضاً.

وإذا كان القول بالتعددية حقاً فلماذا تصرّ كل حضارة أن تقيم نفسها على قاعدة واحدة وتصرّ على رفض التعددية فيها؟، فان التعددية إن كانت صحيحة على صعيد الجمع بين الحضارات فلابد أن تكون صحيحة على صعيد البناء الداخلي

لكل واحدة من هذه الحضارات أيضاً، ولا يمكن أن تكون صحيحة في صعيد دون آخر، وكيف نقول لحضارة ترى نفسها حقاً محضاً: إنّ سائر الحضارات على حق أيضاً؟، أو بالاحرى كيف يتاح لهذه الحضارة أن ترى نفسها حقا محضاً وترى الآخرين في الوقت نفسه أنها على حق أيضاً؟ فإنّ هذا السلوك لا يمكن أن يتم على مبنى فكري، والمبنى المعقول الوحيد له هو المبنى السياسي.

أمّا المبنى السياسي فرغم معقوليته في حدّ نفسه لكنه لا يحل المشكلة، لفقدان الضمانات العملية الكافية التي تمنع الحضارة التي ترى نفسها على حق عن التوسع إذا كانت قادرة عليه، اذ لا توجد قوة دولية محايدة يمكنها فرض السلام على أطراف النزاع، ومن الممكن أن يلتزم البعض بالسلام، ولكن هذا يتوقع حصوله من طرف ضعيف، فمن الذي يضمن التزام طرف قوي يجد في نفسه الحق والقدرة على التوسع ولا يجد أمامه قدرة تمنعه من ذلك بالسلام؟.

ثم إنّ مجهولية الحق عند الإنسان تقتضي منه الإذعان بوجود قدرة عليا هي الخالقة للكون والوجود والمطلعة على اسراره وحقائقه، واستمداد معرفة الحق منها، نظير مالو جهل الإنسان علاج مرض ما، فإنّ مقتضى ذلك البحث عن الطبيب المتخصص، وتحقق الجهل بشيء دليل على وجود عالم به، على أن النزاعات البشرية لا تعود إلى الجهل بالحق، وانما تعود إلى أن الإنسان لا يريد أن يذعن لهيمنة إنسان آخر عليه، لما في ذلك من الإحساس بالنقص تجاه الاخر وإعطاء الامتياز له. وشدة هذا الإحساس وأهميته البالغة بالنسبة له تجعله يتناسى مسألة الحق والباطل. فأي حق هذا الذي يجعله ناقصاً ويعطي امتيازاً للآخر عليه؟، ولذا تدور الصراعات البشرية دائماً بين طرف يريد الهيمنة باسم الحق وآخر يقاوم بادعاء المظلومية وبدافع الرفض الشديد للشعور بالنقص وإعطاء الامتياز للآخر على حساب الأنا.

ب ـ الحل الجهادي

وهنا يأتي الجهاد ليحل المسألة حلاً جذرياً، فانه يأتي ليخاطب أطراف النزاع البشري بالقول: انكم تتنازعون على الهيمنة والاستعلاء وأنا أحلّ هذا النزاع بخلع هذه الصفة عن جميع الأطراف بما في ذلك أئمة الحق ﴿**تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**﴾[١]. وإثبات هذه الصفة لله وحده ﴿**سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى**﴾[٢]، ولدينه باعتباره كلمة الله وخطابه لعباده حتى تكون ﴿**كلمة الله هي العليا**﴾[٣] وليس من حق أحد أن ينادي: أنا ـ بريطانيا.. المانيا.. أمريكا... الخ ـ فوق الجميع، فالله وحده فوق الجميع: ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾[٤]. وهو نقطة تآلف البشرية ﴿**لو انفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم**﴾[٥] وعلى الجميع السعي في نشر كلمة الله وبسط سيادته في الأرض، وهذا سعي جهادي ايماني وليس سعياً قومياً لاعلاء قومية فوق أُخرى، وليس الجهاد حرباً موجهة من طرف ضد آخر، وإنما هو موقف الهي يهدف إلى تحرير البرية ممن يريدون الهيمنة عليها والتحكم بمصيرها، وتسليم مقادير الأُمور إلى آخرين ينتسبون إلى خط السماء والأنبياء ولا يريدون لأنفسهم علوّاً ولا هيمنة وإنما يريدون تحكيم القيم الإلهية في المجتمع الإنساني، وليس هذا الخط حكرا على أحد دون آخر فإنّ ﴿**اكرمكم عند الله اتقاكم**﴾[٦]. وهكذا فالجهاد فريضة الهية من أجل الحرية وليست ضدها، وهي لمصلحة الجميع وليس لصالح قومية ضد أُخرى، ولو كان كذلك لاقتصر على العرب ولم يحمل لواءه اخرون،

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) الأعلى: ١ ـ ٢.

(٣) التوبة: ٤٠.

(٤) الانعام: ١٨.

(٥) الانفال: ٦٣.

(٦) الحجرات: ١٣.

والتارخ يشهد أنّ لواء الجهاد قد ترادف على حمله العرب والفرس والترك والبربر، وإن كان العرب هم الأوائل في هذا المضمار باعتبارهم انطلاقة الإسلام الأُولى.

وبذا يتضح أنّ الحرية ـ كسائر المطالب الإنسانية النبيلة ـ هي أبرز ثمرة يحققها الجهاد للإنسان. وأنّ الإنسان المنفصل عن التوحيد يطالب بالحرية ويتصور خطأً وغروراً أن الانفصال عن التوحيد يحقق له ذلك، والحقيقة أنّ ارتباطه بالتوحيد هو الذي يحقق له ذلك؛ لأنّ الإنسان مخلوق بين الأرض والسماء، وانفصاله عن السماء يؤدي إلى هيمنة الأرض والقوى المادية عليه، ممثلة بالشهوات والغرائز والطواغيت والقوى الرأسمالية والاستعمار. وإذا وثق ارتباطه بالسماء أصبح ينظر إلى الأرض من أعلى، وقادراً على مقاومة هذه القوى وإغراءاتها وسعيها للهيمنة عليه.

وحينئذ فالقاعدة الصحيحة والوحيدة للحضارة الإنسانية هي التوحيد لا الحرية، وما الجهاد إلاّ وسيلة لإقامة هذه القاعدة وأداة لبناء البيت السعيد للإنسان. وبذا يتضح الجواب على المنشأ الأوّل لاعتراض المعترضين على الجهاد.

دور الدين في حياة الإنسان

المنشأ الثاني لاعتراض المعترضين على الجهاد هو تهميش الدين في واقع الإنسان، ومن المهازل أن يقوم الإنسان بعمل لا أساس منطقي له، ولما تضيق به الأُمور يبدأ بمهاجمة الآخرين، فقد ركز الغربيون على مسألة تهميش الدين وحصره بالمسألة الفردية، والسلوك المنطقي في تحديد هوية الآخرين أن نعتمد على إفاداتهم هم ولا نفرض عليهم الهوية التي نريدها ثم نقول: هذه هويتهم!! فإنّ هذه هويتنا التي نحن فرضناها عليهم وليست هويتهم التي انتخبوها لأنفسهم، وعلينا في مسألة الدين أن نسأله: هل أنت مسألة فردية أم اجتماعية؟ وليس منطقيا أن نفرض عليه

هوية فردية ثم نتعامل معه على هذا الأساس، وكلما اصطدمنا مع حلقة غير فردية فيه أخذنا بالتشنيع على تلك الحلقة. فهذا السلوك غاية الظلم للدين وللحقيقة وللإنسانية المحتاجة إليهما. وهو يجسد مهزلة الإنسان الحديث في تعامله مع الدين.

فإنّ الجهاد يمثل غاية ماينطوي عليه الإسلام من شمولية اجتماعية وسياسية وحقوقية تتجاوز الساحة الاجتماعية إلى الساحة الدولية، ومن هنا كان يمثل نقطة الاصطدام الشديد بين الغرب والإسلام، نتيجة لتأكيد الغرب الشديد على فرضيته القائلة بأن الدين مسألة فردية.

فإنّ الجهاد فريضة تنطلق على أساس ما يقوم به الدين من دور لا يمكن للإنسان أن يعيش بدونه حياة انسانية سعيدة، ومن التناقض أن يكون الإسلام ديناً شمولياً إلهياً عالمياً ولا تكون له على الساحة الدولية فعالية ايجابية تجسد اهتمامه بقضية الإنسان ومدى أهمية الدين بالنسبة لها، إنّ أهمية الدين في حياة الإنسان بمستوى أهمية أن تكون له حضارة صحيحة وحياة سعيدة، لأنّ الدين هو القاعدة الوحيدة لمثل هذه الحضارة، ولأنّ كافة الروافد التي تتطلبها مثل هذه الحضارة تنبع من الدين، فالحرية والعدالة والإصلاح والأخلاق وسائر القيم والمطالب الإنسانية النبيلة التي تمثل بمجموعها حضارة انسانية رفيعة لا يمكن تأمينها الا من خلال الدين وعلى أساس التوحيد، والعقوبات الكونية العاجلة التي كانت السماء تتخذها قبل الإسلام بحق المعاندين للتوحيد انما تنطلق من الانتصار لقضية الإنسان التي هي الوجه الارضي لقضية التوحيد، ولقضية التوحيد التي هي الوجه السماوي لقضية الإنسان، وهما قضية واحدة ذات وجهين ارضي وسماوي. وبمجيء الإسلام انتفت تلك العقوبة وحلت محلها فريضة الجهاد لتجسد استمرار اهتمام السماء بهذه القضية، وبضرورة أن يعيش الإنسان حضارة لائقة به تحقق له السعادة المنشودة.

وليس بوسع الإسلام أن يقف متفرجاً امام قضية الإنسان في العالم وهو دين

عالمي يشتمل على الحل الوحيد لهذه القضية، ومن يطالب الإسلام بترك الجهاد كمن يطالب الطبيب أن لا يعالج المريض ولا يقدّم له ما عنده من دواء. ويتركه بين يدي إنسان سيّئ يقدّم له المخدرات والسموم وهو يخدعه بأنّ ذلك هو الدواء الناجع لامراضه.

وعلى من يستغرق في شعار الحرية أكثر ممّا يجب، ويشجب الجهاد لاجل هذا الشعار أن يشجب قبل ذلك حضارة أُخرى تدعي الحرية وتذرف دموع التماسيح على الديمقراطية، لكنها مع ذلك تمارس الفرض والإجبار والهيمنة على البشرية، فالجهاد لا يفرض على البشرية الا النطق بالشهادتين، بينما تفرض الحضارة المعاصرة على البشرية انماط الحياة الغربية وسياقاتها ومفاهيم الرجل الابيض وافكاره، الا يدعو الأمريكان اليوم البشرية إلى احتذاء النمط الأمريكي في الحياة؟ ألم يقولون: إنّ كل من ليس معنا فهو ضدنا؟، ومن كان ضدنا فهو إرهابي؟ ومن كان إرهابياً فهو هدف لحملات عسكرية تبدأ بقنابل عنقودية وتنتهي بقنابل نووية؟

اذن الفرض والتوسع سلوك مشترك بين حضارة الحق وحضارة الباطل، ولكن الفرق بين الإسلام والغرب كفرق السماء عن الأرض. الإسلام يفرض الشهادتين فقط، وهما لا يمثلان قومية معينة وبالتالي فليس في فرضهما غلبة وانتصار لانسان على آخر وانما في ذلك غلبة وانتصار للتوحيد على الطاغوت المتمثل بالقوى المتسلطة على مصائر الشعوب والأُمم، وانتصار التوحيد يعني إثباته كمحور تدور البشرية من حوله وتتساوى الشعوب والمجتمعات في العلاقة به، فتنتفي بذلك نوازع العلو والتعالي بينها، ويصبح شعار البشرية حينئذٍ **﴿وتلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾**[1].

---

(١) القصص: ٨٣.

وبالتالي فهو فرض لأمر يجب فرضه حتى تجد البشرية طريقها إلى الإسلام والعلاقات الدولية القائمة على أساس المساواة لا الغلبة والقوة. تماماً كفرض التعليم لمحو الأُمية، أو فرض التطعيم ضد وباء معين كطريق وحيد لمكافحته. فهو فرض لمصلحة الجميع وليس فيه ضرر على أحد، بينما فرض الغرب وتوسعه ونهجه الاستعماري هو فرض غلبة للقوي على الضعيف من أجل مصلحة القوي وعلى حساب مصلحة الضعيف.

والمنشأ لهذا السلوك المشترك هو أنّ هناك نقطة على الساحة الدولية تمثل مركز القيادة للمجتمع البشري، وكل من يستولي على هذا المركز يرى نفسه صاحب حق في قيادة البشرية، فان جاءت حضارة الباطل واستولت عليه طبقت منهجها وتعاملت مع البشرية على أساس علاقة الحاكم والمحكوم، وإن استولت عليه حضارة الحق طبقت هي الأُخرى منهجها وتعاملت مع البشرية على أساس علاقة الحاكم والمحكوم. وهذا السلوك يدرس تارة من الزاوية الشرعية وأُخرى من الزاوية الأخلاقية.

ومن الزاوية الشرعية نلاحظ أن الحضارة الغربية التي تؤمن بقيم الحرية والديمقراطية لا يسوغ لها وطبقاً لهذه القيم أن تمارس اي نوع من الفرض والاجبار والتوسع، ويجب عليها أن تترك المجتمعات الأُخرى تمارس حريتها في الاختيار مصيرها ومستقبلها ونمط حياتها الاجتماعية والثقافية، وبالتالي فكل فرض تمارسه بحق الشعوب الأُخرى هو سلوك عدواني مرفوض من وجهة النظر الغربية نفسها فضلاً عن وجهة نظر الشعوب المعتدى عليها، وهذا ما تنبه له بعض فقهاء القانون الدولي الذين وجدوا أن القانون الدولي الراهن يفتقد إلى الصفة القانونية

الكافية[1]، لأنّ القانون لا يكون قانوناً حتى يكون ملزماً للآخرين، ولا يكون ملزماً للآخرين إلا إذا كانت هناك عملية انتخاب وتصويت، ومعلوم أن الهيئات الدولية المعاصرة ومنها هيئة الأُمم المتحدة، والقانون الدولي الذي يجري تطبيقه على الأُمم والشعوب لم يكن وليد عملية انتخاب وتصويت عالمي، وانما كان وليد إرادة القوى المنتصرة في الحرب العالمية الثانية، ويسعى الأمريكان اليوم باعتبارهم القوة المنتصرة على من سواها في الأرض إلى تحوير هذه الهيئة والقوانين بالنحو الذي يجعلها مسايرة لأهدافهم السلطوية في العالم، وهذا ما يرمز إلى بطلان المبدأ الليبرالي وعجزه في أن يكون مبدأً عالمياً يقود البشرية، إلا إذا آمنت واعترفت به البشرية كلها وجرت عملية تصويت وانتخاب لفرز القيادة العالمية بصورة ديمقراطية كاملة، وحيث إنّ هذا الشرط يكاد يكون مستحيلاً من جهة، وأن القوى الرأسمالية المتنفذة لا تسمح بانبثاق قيادة ديمقراطية حقيقية للعالم، كما هي لا تسمح بذلك في بلدانها من جهة أُخرى، لذا فان تسلط الحضارة الغربية المعاصرة على مقدرات البرية هو عدوان عليها، وهذا يؤكد ما أسلفناه من أنّ الحرية مفهوم لا يمكن أن يكون قاعدة للحضارة الإنسانية، وإن تمسك الغربيين به مغالطة تهدف إلى تمرير العدوان الغربي على البشرية. وهو مغالطة واضحة من خلال ما يؤمنون به من نظرية صراع الحضارات وفلسفة اللذة والقوة والمنفعة.

أما الناحية الأُخلاقية فهي أسوأ حالة من الناحية الشرعية، فإنّ الحضارة التي لا تملك مبرراً ذاتياً يتيح لها ادارة دفة المجتمع البشري تجد في ما تملكه من القوة الوسيلة الوحيدة لفرض هذا الواقع على البشرية، ولو أدّىٰ الأمر إلى استعمال الأسلحة النووية والعنقودية والجرثومية.

---

(١) فقه سياسي، عباس علي عميد زنجاني ٣: ١٠٨.

أمّا حضارة الحق المتمثلة بالإسلام فلا تواجه مشكلة أخلاقية ولا أيديولوجية حينما تسعى لفرض الشهادتين على الآخرين، لأنّ فرض الشهادتين عملية لا تنطوي على فرض لإرادة أُمة على أُمة أُخرى، ولا ثقافة إنسان على إنسان آخر، وانما هي عملية فرض كلمة الله وارادته على البشرية، بوصف أن الشهادتين تمثلان مطلباً إلهياً وإرادة ربانية، ولله حق ذاتي في السيادة على الإنسان، وهذا الأمر الذي يجري على المدعو قد جرى قبل ذلك على الداعي، فالذي يدعو إلى الشهادتين كان قبل ذلك مدعواً للنطق بهما، وليس هناك سيادة تفرض من قبل إنسان ضد إنسان آخر.

هذا من ناحية التبرير الشرعي والأيديولوجي، اما من الناحية الأخلاقية فقد يتصور الكثيرون أن هذه الدعوة ستكلف البشرية انهاراً من الدماء وسلسلة غير متناهية من الحروب، وهو تصور خاطئ ناشئ من القياس على الحروب والصراعات البشرية التي لا تبقي ولا تذر، وذلك لسببين أساسيين هما:

١ ـ إنّ الإيمان بالله امر فطري، وبالتالي فالجهاد يدعو إلى امر مطابق للفطرة ومنسجم مع هاتف وجداني داخلي يجده الإنسان في داخله قبل أن يسمعه من المجاهدين الذين يخاطبونه به، بخلاف الصراعات البشرية التي يجد الإنسان نفسه فيها مدعوّاً إلى المقاومة والصمود باعتبار أن هيمنة الآخرين عليه تخالف حقوقه المادية ومكانته المعنوية في الحياة.

٢ ـ إن المخاطب بالجهاد والطرف المستهدف به ليست البشرية؛ لأنها توّاقة إلى الإيمان في حقيقة أمرها، وإنما القوى الطاغوتية التي تحول بين البشرية وبين الإيمان بالله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة**﴾، والفتنة هي القوى الطاغوتية التي تتعملق وتتحول إلى آلهة تمنع الناس عن الوصول إلى رب العالمين، وفي معادلة قتالية كهذه تصبح الخسائر البشرية محدودة جداً. ولاجل

هذا كانت حملات الجهاد في صدر الإسلام تحقق انتصارات سريعة ومتتالية على القوى الكبرى والصغرى معاً في ذلك الزمان.

لا إرهاب مع الجهاد

وبذا يتضح أنّ مفهوم الإرهاب بما يشتمل عليه من عناصر الاكراه والاعتداء بعيد كل البعد عن الجهاد الذي يعني نزع سيادة الطواغيت في الأرض وإقرار سيادة التوحيد في حياة البشرية، فليست المسألة مسألة فرض الإسلام على أحد، وانما مسألة أن يكون زمام الحضارة بيد الله سبحانه لا بأيدي الطواغيت والرأسماليين، ولذا يكتفي الجهاد من أهل الكتاب بإعطاء الجزية، ومن غير أهل الكتاب بإبراز الشهادتين، وإن كان إبرازاً لفظياً فقط، والاكتفاء بهذا المقدار الشكلي يدل على أنّ هدف الجهاد هو تأمين سيادة التوحيد وليس فرض الإسلام على من لا يعتقدون به.

الملحق رقم (٢)
الإمام الحسين (ع) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد نقل إلينا التاريخ ثلاثة نصوص حسينية يعلّل فيها الإمام الحسين(ع) ثورته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي:

١ ـ ما ذكره في وصيته التي تركها في المدينة عند أخيه محمّد بن الحنيفة، حيث كتب فيها يقول(ع): **«واني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمة جدي(ص) أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين»**[١].

٢ ـ ما ذكره في خطبته بأصحاب الحر الرياحي، وذلك في طريقه إلى كربلاء حينما وقف بينهم وهو يقول: **«أيها الناس! إنّ رسول الله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده مخالفاً لسنّة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وانّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن واظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحق ممن غيّر...»**[٢].

٣ ـ ما ذكره في خطبته بأصحابه في كربلاء حينما قال(ع): **«أما بعد فقد نزل بنا من**

---

(١) مقتل الحسين، عبدالرزاق المقرم ١٥٦، ط: قم.
(٢) المصدر السابق: ٢١٨.

الأمر ما قد ترون وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها ولم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الأناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما»(١).

فهذه النصوص الثلاثة تتظافر فيما بينها على إعلان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كهدف للثورة الحسينية، ويتأكد هذا الهدف بملاحظة السياق التاريخي لهذه النصوص، فالنص الأوّل جاء في انطلاق الشرارة الأُولى للنهضة الحسينية. والنص الثاني صرّح به الإمام الحسين(ع) في منتصف المسيرة، والنص الثالث في الأيام الأخيرة منها، بما يعني أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمثل الهدف الأصيل الذي رافق المسيرة الحسينية من أول أوانها وحتى لحظاتها الأخيرة.

والمسألة التي تلفت نظر الباحث وتستحثه للتحقيق هي أن اعلان الإمام الحسين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كهدف مركزي لثورته يصدم الفقه الإسلامي ويخالفه في جهتين هما:

١ ـ إنّ الفقهاء يشترطون في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر احتمال التأثير، ولم يكن متوقعاً من حركة كالحركة الحسينية أن تؤثر في نظام يزيد وحكومته.

٢ ـ إنّ الفقهاء يشترطون في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الأمن من الضرر على النفس والمال والعرض والأهل والأبناء، بينما أسفرت ثورة الإمام الحسين عن أشد أنواع الضرر في هذه الجهات.

وهناك جهات أُخرى خالف فيها فقه الجمهور خاصة ثورة الإمام الحسين(ع)،

---

(١) المصدر السابق: ٢٣٢.

كقول المشهور عندهم بعدم جواز الخروج على الحاكم الجائر، بينما تمثل ثورة الإمام الحسين أعلى رمز ثوري في التاريخ البشري فضلاً عن التاريخ الإسلامي، ولكننا سوف لا نخوض في هذه الجهة؛ لأنّ لها مجالها الخاص الذي تبحث فيه وسنقتصر على البحث في الجهتين المذكورتين فقط.

فكيف يتاح لنا تحليل هذه المفارقة بين رؤية الإمام الحسين لفريضة الأمر والنهي ومنهجه الخاص في تجسيدها وبين رؤية مشهور الفقهاء لها ومنهجيتهم الخاصة في التعامل معها؟ وفي أي طرف تكمن الحقيقة الشرعية؟

هذه الدراسة تمثل محاولة في هذا الاتجاه نأمل أن تكون موفقة.

كلمة قبل البدء

وقبل أن ندرس هاتين الجهتين دراسة علمية كافية نلاحظ أنّ المفارقة المذكورة تحتمل تفسيرين لا ثالث لهما:

١ ـ فأما أن نقول بأنّ الفقه جاء لبيان الوظائف العادية لعامة المكلفين، وما قام به الإمام الحسين(ع) أمر استثنائي في الحسابات الرسالية والتأريخية، وأنّ الإمام الحسين قد أعدّ نفسه لوظيفة استثنائية خاصة به ولا تشمل غيره.

٢ ـ وأما أن نقول بأنّ الإمام الحسين كان ينظر إلى وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من منظار معين، بينما ينظر الفقهاء إلى هذه الوظيفة من منظار آخر، وحينئذٍ فعلينا أن نبحث عن المنظار الحسيني لهذه الوظيفة وندرس أسباب عدول الفقهاء عن هذا المنظار وعوامل ظهور منظارهم الخاص بهم وجهات الأرجحية في المنظار الحسيني على المنظار الفقهي.

والتفسير الأوّل لا يملك أرضية مساعدة للظهور عند غير الإمامية، لأنّ القول به يستلزم الإيمان بمكانة سماوية خاصة للإمام الحسين(ع) بحيث يكون له دور

استثنائي في الحسابات الرسالية والتاريخية وفي الوظائف الشرعية، وهو ما تؤمن به الشيعة الإمامية دون سائر المسلمين. ولكننا مع ذلك لانجد ما يشهد لصحة هـذا التفسير حتى عند الإمامية، لما مرّ من أنّ الإمام الحسين(ع) قد فسّر ثورته بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي بوظيفة شرعية عامة، بما يدل على أنّ الإمام لا يرى نفسه إلاّكسائر المكلفين، وقد صرّح انه احق من غيره بالتغيير لما له من الصلة بالرسول(ص)، وعلى هذا الأساس طلب النصرة من الآخرين أمثال: عبدالله بن عمر[١]، وعبيدالله بن الحر الجعفي، وحتى من عمر بن سعد[٢]، وقد كرّر الاستنصار في يوم عاشوراء أكثر من مرة، وهذه الاستنصارات المتكررة والمتواصلة عـلى امتداد خط الثورة من المدينة وحتى كربلاء تبين أنّ هناك وظيفة عامة كان على الأُمة أن تنهض بها ضد الحكم الأُموي، وانّ الإمام قد نهض بها ودعا الناس إلى مناصرته فيها، وإن عِظم التضحية التي قدمها الإمام الحسين انّما يعود إلى تقصير الأُمة في نصرته، وانحراف أكثر الناس عنه وتأييدهم الحكم الأُموي، وفي بعض المواطن كان يوبّخ المعرضين عن نصرته، كما في كلامه مع عبيدالله بن الحر الجعفي، حيث قال له أخيراً: **«وإني أنصحك كما نصحتني إن استطعت أنّ لا تسمع صراخنا ولاتشهد وقعتنا فافعل، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ولا ينصرنا إلّا أكبّه الله في نار جهنم»**[٣].

وقال لعمرو بن القيس المشرفي وابن عمّه في الموضع نفسه الذي التقى فيه مع عبيدالله بن الحرّ بعد أن طلب منهما النصرة واعتذرا عن ذلك: **«انطلقا فلا تسمعا لي واعية ولا تريا لي سواداً، فإنه من سمع واعيتنا أو رأى سوادنا فلم يجبنا أو يغثنا كان حقاً على**

(١) مقتل الحسين، للمقرم: ١٥٥ .

(٢) المصدر نفسه: ٢٤٨ .

(٣) مقتل الحسين، للمقرم: ٢٢٥ .

الله عزّ وجل أن يكبّه على منخريه في النار»[1].

فيكشف هذا كلّه عن أنّ الإمام الحسين(ع) نفسه ما كان يرى الواجب منحصراً به، وما كان يعتبر نفسه استثناءً من الأُمة كما هو المفترض في التفسير الأوّل.

نعم هو أولىٰ بالواجب وأحرص عليه وأقوى الناس إيماناً به. والأخبار الواردة في بكاء الأنبياء على الحسين(ع) وذكرهم المتكرر له، وكذلك إخبارات النبي(ص) عنه وعن قضيته لا تستلزم القول بكونه استثناءً من الأُمة في الحسابات السماوية، كما أنّ النصوص الحسينية الثلاثة التي أوردناها آنفاً تبين أنّ التكليف بالثورة والنهضة كان أمراً عاماً شاملاً لكل الأُمة، وانّ الإمام يقوم بذلك بما هو جزء من الأُمة وعضو فيها، لا بما هو استثناء منها.

وقد مال صاحب الجواهر إلى هذا التفسير فكتب يقول: «... وما وقع من الحسين(ع) مع انه من الأسرار الربانية والعلم المخزون يمكن أن يكون... على انه له تكليف خاص قد قدم عليه....»[2].

ولكن السرّ الرباني لا يكون بهذه المثابة إلا بموافقة الشريعة، لوضوح أن مخالفة الشريعة لا تجعل الشخص سرّاً ربانياً. فلابد من تصور تكليف شرعي كان الحسين(ع) المثال التطبيقي الفريد له حتى اصبح سرّاً ربانياً، ولابد من تصور ان هذا التكليف يستلزم بطبعه التضحية وتقبل الضرر فاقبل الحسين(ع) عليه وقدّم في سبيله اغلى التضحيات حتى صار في السماء سراً ربانياً وفي الأرض أعلى رمز ثوري في التاريخ، و لو كانت القضية تكليفاً خاصاً به فهل كان الشهداء معه اغراراً خدعهم الإمام ؟ و إذا كانوا كذلك فكيف يقول الإمام الصادق عنهم : ياليتنا

---

(١) المصدر نفسه: ٢٢٦ .

(٢) جواهر الكلام ٧: ٦٤٣.

كنا معكم ؟ و لماذا تجري اللعنة باستمرار على المتخاذلين عن نصرته ؟ بمعنى ان السر الرباني لا يستلزم تشريعاً خاصاً ينفرد به صاحبه عن سائر المكلفين، والتشريع الخاص لا يجعله سرّاً في السماء ولا قدوة في الأرض، ومن أجل الوصول إلى هذه المرتبة السماوية والأرضية الضرورية لابد من افتراض حكم شرعي واحد يتساوى فيه مع سائر الناس من حيث الأصل، لكنه(ع) يمتاز على سائر المكلفين بالدرجة القصوى من الامتثال والتطبيق والتضحية رغم أن التشريع يكتفي بالدرجة الدنيا منه وبأقل ضرر ممكن. وهذا هو المناسب للاستنصارات الحسينية، والنصوص الحسينية التي تعلل النهضة بفريضة عامة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد مرّ في بحث المنهج الثوري من الفصل الثاني الكلام عن دور الإمام الحسين(ع) في تصحيح مسيرة الأُمة والحيلولة دون سقوطها، وسيأتي من صاحب الجواهر ادعاء الخصوصية في عمل مؤمن آل فرعون وابي ذر الغفاري الذي أمضاه الإمام علي(ع) وغيرهما، وكأن الخصوصية هي المخرج من كل دليل معارض للمشهور، و لاشك أنّ الحسين(ع) قد امتاز بخصوصية الطاعة القياسية لحكم الله سبحانه وتعالى، فخصوصيته في الطاعة وليس في الحكم الشرعي.

وبطلان ذلك كلّه يسقط التفسير الأوّل عن الاعتبار، فينحصر الأمر بالتفسير الثاني، وهو أن يكون هناك منظار خاص ينظر فيه الإمام الحسين(ع) إلى وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير ما تعارف عليه مشهور الفقه والفقهاء فيما بعد. فما هو ذلك المنظار؟ وكيف تولدت المفارقة بين الطرفين؟

الإجابة على ذلك تستلزم البحث العلمي التفصيلي في الجهتين اللتين فارق فيهما مشهور الفقه ثورة الإمام الحسين.

الجهة الأولى: في شرط احتمال التأثير

ظهر هذا الشرط لأول مرّة في الفقه حسبما بأيدينا من المصنفات الفقهية، في كتاب الكافي لأبي الصلاح الحلبي (المتوفى سنة ٤٤٧ هـ)[١] وفي كتاب الاقتصاد للشيخ الطوسي (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ)[٢]، ومنها انتقل إلى سائر المتون، كالوسيلة لابن حمزة[٣]، والسرائر لابن إدريس (المتوفى سنة ٥٩٨ هـ)[٤]، والشرائع للمحقق الحلي (المتوفى سنة ٦٧٦ هـ)[٥]، وقواعد الأحكام للعلامة (المتوفى سنة ٧٢٦هـ)[٦] وسائر كتبه، واللمعة للشهيد الأوّل (المتوفى سنة ٧٨٦هـ)[٧]، ومسالك الأفهام للشهيد الثاني (المتوفى سنة ٩٦٦)[٨]، ومجمع الفائدة للمحقق الأردبيلي (المتوفى سنة ٩٩٣ هـ)[٩]. وهكذا حتى نصل إلى جواهر الكلام للشيخ النجفي (المتوفى سنة ١٢٦٦ هـ)[١٠]، وعلى ذلك فتوى المعاصرين ومنهم السيد الإمام الخميني (قده) في تحرير الوسيلة[١١].

وأول من استدلّ على هذا الشرط هو الشيخ الطوسي في كتاب الاقتصاد، حيث

---

(١) موسوعة الينابيع الفقهية ٩: ٤٢.
(٢) الاقتصاد: ١٤٩، ط: قيام، قم.
(٣) موسوعة الينابيع ٩: ١٦٥.
(٤) المصدر نفسه: ١٨٩.
(٥) المصدر نفسه: ٢١٩.
(٦) المصدر نفسه: ٢٦٨.
(٧) المصدر نفسه: ٢٧٥.
(٨) مسالك الأفهام ٣: ١٠٢، ط: قم.
(٩) مجمع الفائدة ٧: ٥٣٦، ط: جامعة المدرسين.
(١٠) جواهر الكلام ٧: ٦٨٠، ط: دار المؤرخ العربي.
(١١) تحرير الوسيلة ١: ٤٦٧، ط: اسماعيليان قم.

ذكر: أن للنهي عن المنكر ستة شروط، وعدّ الثالث منها أن يظن أنّ إنكاره مؤثر أو يجوّزه، ثم قال: «واعتبرنا الشرط الثالث من تجويز تأثير إنكاره لأنّ المنكر له ثلاثة أحوال، حال يكون ظنّه فيها بأن إنكاره يؤثر، فإنّه يجب عليه إنكاره بلا خلاف، والثاني يغلب على ظنّه أنّه لا يؤثر إنكاره، والثالث يتساوى ظنّه في وقوعه وارتفاعه، فعند هذين قال قوم: يرتفع وجوبه، وقال قوم: لا يسقط وجوبه، وهو الذي اختاره المرتضى‌ﷺ وهو الأقوى؛ لأنّ عموم الآيات والأخبار الدالة على وجوبه لم يخصه بحال دون حال...»[1].

فيستفاد من هذا البيان أن هناك حالة رابعة يسقط فيها وجوب الأمر والنهي عند الشيخ ،وهي ما إذا كان التأثير ممتنعاً، واستدلاله بعموم الآيات والاخبار يجعلنا نتأمل في حقيقة مراده الجدّي من تجويز التأثير، وسيأتي ترجيح أن يكون مراد الحلبي والشيخ من التجويز أمراً آخر يوافق ما نريد إثباته ويخالف المشهور.

واستدل العلامة في التذكرة[2] عليه بخبر مسعدة بن صدقة وخبر يحيى الطويل.

أما الأوّل فهو ما رواه الكليني بسنده عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبدالله(ع) انه سئل عن معنى قول النبي: **إنّ أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر: فقال(ع): هذا على أن يأمره بعد معرفته، وهو مع ذلك يقبل منه وإلّا فلا**[3].

وأما الثاني فهو ما رواه الكليني أيضاً بسنده عن يحيى الطويل عن الصادق(ع) انّه قال: **«إنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ، أو جاهل فيتعلّم، فأما صاحب**

---

(١) الاقتصاد: ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) تذكرة الفقهاء ٩: ٤٤٣، ط: مؤسسة آل البيت.

(٣) الوسائل ١٦: ١٢٧، ط: مؤسسة آل البيت.

سوط أو سيف فلا»[1].

ويرد على الاستدلال بخبر مسعدة بن صدقة أنّ مسعدة لم يوثق عند علماء الرجال من الإمامية، وعدّه العلامة الحلي في قسم الضعفاء من كتابه خلاصة الأقوال، وما استظهره البعض من توثيقه حدسي، كتوثيق المجلسي الأوّل والمامقاني[2]، وعلى فرض توثيقه فانّ القرائن تشهد لصدور الكلام من الإمام تقية؛ لأنّ مسعدة عامّي والسؤال عن الخروج على إمام جائر، فجاءت إجابة الإمام على وفق مذهب العامة، فحملها على التقية أولى من إثبات شيء بها من فقه الإمامية، ويؤيد ذلك أنّ تخصيص الحديث النبوي بحالة قبول الجائر للأمر والنهي لا ينسجم مع وصف هذا العمل بأنّه أفضل الجهاد، فإنّ أفضل الجهاد ما يتم به كسر شوكة الحاكم الجائر وما يستدعي جرأة وشجاعة وهذه خصائص تتلازم مع الجائر حينما يكون في جبروت وطغيان، ولا تنسجم مع حالته عندما يكون في لين وتراخٍ، فإنّ الأمر والنهي في الحالة الثانية يكون من انتهاز الفرص المناسبة ولا تترتب عليه مخاطر حتى يكون من أفضل الجهاد، كما هو واضح.

ويرد على خبر يحيى الطويل أنّ يحيى هذا مجهول الحال، لم يذكره النجاشي، ومن ذكره لم يصفه بمدح ولا ذم ولا توثيق ولا تضعيف. وعلى فرض توثيقه برواية صفوان وابن أبي عمير عنه فخبره قابل للحمل على التقية، وحمله عليها أولى من الاخذ بظاهره، لموافقته العامة ومخالفته لما سيأتي من الأدلة على أنّ الأمر والنهي فريضة مطلوبة بنفسها، وأنّ المطلوبية الغيرية امر متفرع عليها، وهناك احتمال اخر في تفسير هذا الخبر وخبر مسعدة بن صدقة سيأتي بيانه .

---

(١) الوسائل ١٦: ١٢٧، ط: مؤسسة آل البيت.

(٢) تنقيح المقال ٣: ٢١٢ .

وقال الشيخ النجفي في الجواهر مستدلاً على سقوط وجوب الأمر والنهي في صورة العلم بعدم التأثير: «.. انّ الأوامر مطلقة ومقتضاها الوجوب على الإطلاق حتى في صورة العلم بعدم التأثير إلّا أنه للاجماع وغيره سقط في خصوصها، أما غيرها فباقٍ على مقتضى الإطلاق من الوجوب...»[1].

فاستدل على شرط التجويز بالإجماع، وهو في المقام غيرحجة لاتضاح أنّ المسألة ظهرت في الفقه في القرن الخامس الهجري على يد الشيخ الطوسي وأبي الصلاح الحلبي، وليست متصلة بعصر المعصوم، وعلى فرض اتصالها به فالاجماع المدعى يحتمل كونه في المقام مدركياً ناشئاً من أحد الوجوه التي قيلت لإثبات شرط تجويز التأثير، ولم يبيّن الشيخ مراده من غير الإجماع الذي جعله دليلاً آخر في المسألة.

وقد يستدل على شرط التجويز بدليل آخر هو اللغوية، ببيان أنّ الأمر والنهي ممن يعلم بأن المخاطب لا يقبل ولا يتأثر يعد لغواً، والشارع المقدس لا يأمر باللغو، بل يجل المؤمن عنه.

والجواب أنّ الأمر والنهي في صورة عدم التأثير لا يعد لغواً، لأنه سيبين في هذه الحالة عزّة الشريعة ومنعة الدين بحيث تكون كلمته فوق كلمة المعاندين. ولا يكون العناد مأمناً يفزع إليه المعاندون ويحصلون على ضالتهم فيه، ولا يكون المؤمن والفاسق سواءً في الاعتبارات المعنوية لدى المجتمع، بل يكون المؤمن أعزّ وأرفع شأناً من الفاسق المعاند، فمن الواضح أنّ ترك المعاند وشأنه يؤدي إلى التشجيع على العناد، وبالتدريج يصبح للعناد شوكة وقوة بحيث لا تبقى أرضية للأمر والنهي إلّا على القليل النادر من الناس، بينما ملاحقة المعاند بكلمة هنا وأُخرى هناك تجعله

---

(١) جواهر الكلام ٧: ٦٨٠، ط دار المؤرخ.

يشعر بالاتهام والإدانة الاجتماعية العامة، وهذا إن لم يؤثر فيه فهو يؤثر في تطويق العناد وإذلاله وتحجيم دائرة المعاندين وجعلها دائرة اجتماعية منبوذة، ومع هذه الثمرات العظيمة كيف يتاح لنا وصف الأمر والنهي في صورة عدم التأثير في المخاطب باللغوية؟

الجهة الثانية ـ في اشتراط الأمن من الضرر

وأول من صرّح بهذا الشرط هو الشيخ المفيد (المتوفى سنة ٤١٣ هـ) في المقنعة(١)، وتبعه أبو الصلاح الحلبي في الكافي(٢)، والشيخ الطوسي في عدّة من كتبه منها الاقتصاد(٣)، وابن البراج في المهذب(٤)، وابن حمزة في الوسيلة(٥)، وابن إدريس في السرائر(٦)، والمحقق الحلي في الشرائع(٧)، والعلامة في أغلب كتبه ومنها القواعد(٨)، والشهيد الأوّل في اللمعة(٩)، والدروس(١٠)، واستدل الشيخ في الاقتصاد على هذا الشرط بأنّ المفسدة قبيحة، وردّ من قال بأنّ المفسدة تسقط الوجوب ويبقى الأمر والنهي حسناً إذا كان فيه إعزاز للدين، بأنّ المفسدة قبيحة، وأنّ الخوف على المال والنفس يسقط الوجوب والحسن في آن واحد(١١)، وكأنه بذلك

(١) الينابيع الفقهية ٩:١٤ .

(٢) المصدر نفسه: ٤٢ .

(٣) الاقتصاد: ١٤٩ .

(٤) موسوعة الينابيع الفقهية ٩:١٠٦ .

(٥) المصدر نفسه: ١٦٥ .

(٦) المصدر نفسه: ١٨٩ .

(٧) المصدر نفسه: ٢١٩ .

(٨) المصدر نفسه: ٢٦٨ .

(٩) المصدر نفسه: ٢٧٥ .

(١٠) المصدر نفسه ٣١:٢٣٢ .

(١١) الاقتصاد: ١٤٩.

يريد أن يقول بأنّ القبيح يتنافى مع الحسن سواء كان هذا الحسن واجباً أم مستحباً.

واستدل أبو الصلاح الحلبي في الكافي على هذا الشرط بأنّه: «لا يجوز عقلاً ولا سمعاً من المكلّف أن يختار القبيح ليرتفع من غيره».

وكرر المقدس الأردبيلي هذا الوجه بنحو آخر ولكن المفاد واحد، وذلك في مجمع الفائدة[١].

وذكر الشيخ النجفي في الجواهر عدّة وجوه للاستدلال على هذا الشرط هي:

١ ـ دعوى الإجماع المستفاد من قوله: بلا خلاف أجده فيه.

٢ ـ قاعدة نفي الضرر.

٣ ـ قاعدة نفي الحرج.

٤ ـ سهولة الملة وسماحتها وإرادة الله اليسر دون العسر.

٥ ـ قول الإمام الرضا المروي في العيون: «**والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان إذا أمكن ولم يكن خيفة على النفس**»[٢].

٦ ـ خبر مسعدة بن صدقة عن الإمام الصادق المذكور سابقاً.

٧ ـ خبر يحيى الطويل المذكور آنفاً.

٨ ـ خبر مفضل بن يزيد عن الصادق(ع): «**من تعرّض لسلطان جائر فأصابته بلية لم يؤجر عليها، ولم يرزق الصبر عليها**»[٣] [٤].

والآن نأتي على كل واحد من هذه الأدلة والوجوه.

فما ذكره الطوسي والحلبي والأردبيلي من قبح دفع القبيح بما هو قبيح مثله

---

(١) مجمع الفائدة ٧:٥٣٩.

(٢) الوسائل ١٦:١٢٩، باب ٢، من أبواب الأمر والنهي، ح ٨، ط: آل البيت.

(٣) الوسائل ١٦:١٢٧، باب ٢ من أبواب الأمر والنهي، ح ٣، ط: آل البيت.

(٤) جواهر الكلام ٧:٦٨٢، ط دار المؤرخ العربي.

صحيح في حدّ نفسه، ولكن تطبيقه على الأمر والنهي غير صحيح؛ لأنّ القبيح دفع القبيح بمثله كماً وكيفاً، أما دفع الضرر النوعي بضرر شخصي ودفع الضرر الكبير بضرر صغير، فهذا أمر عقلائي استقرت عليه حياة العقلاء وقامت عليه شرائع الأنبياء، فإنّ العمل في حد نفسه ضرر على راحة الإنسان وعمره وبدنه، ولكنه حينما يكون في مقابل أُجرة ومبلغ من المال يصبح أمراً يتنافس العقلاء عليه. وليس في العقلاء ولا المتشرعة من يقول: إنّ الفاقة ضرر والعمل ضرر آخر ودفع الضرر بالضرر قبيح؛ لأنّ العامل إنما يدفع الضرر الكبير الذي لا يُتحمل بالضرر اليسير المألوف عادة، والأمر والنهي من هذا النوع فإنه دفع للضرر النوعي المتوجه صوب المجتمع والذي يهدد أُسسه الدينية بالخطر بضرر شخصي لابد منه، ولو صحّ كلام الشيخ والحلبي لكان دفاع الرجل عن ماله وحريمه قبيحاً، مع أن النصوص الشرعية قد حثّت عليه وجعلت المقتول دون ماله وعرضه بمثابة الشهيد.

أما أدلة الجواهر، فجواب الدليل الأوّل: إنّ الإجماع المدعى محتمل المدركية؛ لاحتمال كون القائلين بهذا الشرط قد آمنوا به لدليل حسّي أو حدسي مما هو مذكور على ألسنة البعض كما في كلام الحلبي والأردبيلي وصاحب الجواهر. وهو مع هذا الاحتمال لا حجية فيه، على أن هذا الشرط وشرط تجويز التأثير غير معنونين في كلمات فقه الرضا والكليني والصدوقين، فكيف يدّعى الإجماع مع عدم مشاركتهم فيه؟

وجواب الدليل الثاني: إنّ الاستدلال بقاعدة لا ضرر على نفي هذا الشرط أولى من الاستدلال بها على إثباته، لأنّ الشارع بقوله: «لا ضرر ولا ضرار» إنما يلفت نظر المؤمنين إلى خطر أهل المنكرات عليهم، وضررهم على المجتمع الإسلامي، ويدعوهم إلى استئصال هذا الخطر والضرر، ووجه الأولوية أنّ قاعدة نفي الضرر يمكن جعلها ناظرة إلى ضرر المنكر على المجتمع، كما يمكن جعلها ناظرة إلى ضرر

الإنكار، وفي الحالة الأُولى يكون مفادها الأمر بدفع المنكر عن المجتمع، وفي الحالة الثانية يكون مفادها اسقاط وجوب الإنكار عن عاتق المؤمنين، وبدوران الأمر بين الحالتين يصبح حمل القاعدة على الأمر بدفع الضرر النوعي عن المجتمع أولى من حملها على دفع الضرر الشخصي، وسيأتي بيان هذا الوجه في مقام لاحق من البحث عندما سنثبت قيام الدليل على نفي الشرط المذكور.

وفي حدود دائرة ما نحن فيه الآن من إبطال أدلة من أثبت الشرط المذكور نقول: إنّ حديث «لا ضرر» لا يمكن أن يكون شاملاً لمورد الأمر والنهي لسببين هما:

١ ـ إن فريضة الأمر والنهي تعد من جملة الأحكام المستلزمة للضرر بطبعها، كالجهاد والصوم والزكاة والخمس، ولو سلّم ان هذا الحديث ناظر إلى مثل هذه الأحكام للزم منه أن يكون مبطلاً لأصول الأحكام وناسخاً لقواعد الشريعة، فلا محيص عن القول بأن الحديث منصرف عن هذه الأحكام وناظر إلى أحكام أُخرى يدور أمرها بين صورتين إحداهما ضررية والأُخرى غير ضررية، فيصرفها عن الصورة الضررية إلى الصورة غير الضررية، كما لو دار أمر المصلي بين أن يصلي بوضوء مع تحمل مشقة شديدة في الحصول على الماء من بذل ما أو التعرض لبرد شديد ونحو ذلك، وأن يتيمم ويصلي بطهارة ترابية، فيأتي حديث لا ضرر ليصرف المكلف عن الصورة الأُولى إلى الصورة الثانية. أما الأحكام التي لها صورة واحدة وتستلزم بطبعها نوعاً من المشقة والجهد والضرر كالصوم والجهاد، والأمر والنهي فلاتكون مورداً لحديث «لا ضرر».

٢ ـ ما ذكرناه آنفاه من أنّ سيرة العقلاء وشرائع الأنبياء جرت على دفع الضرر الكبير بالضرر اليسير، مع إلغاء النظر إلى الضرر اليسير وعد النتيجة نفعاً لا ضرر معه، كما في مثال العمل في مقابل الأُجرة، فمع أنّ العامل يبذل جهداً ويصرف وقتاً، لكنه لا يعد ذلك ضرراً تحمله في مقابل الأُجرة، بل ينظر إلى الأُجرة فقط، كما لو

كانت نفعاً محضاً. وما يتحمله الفرد من ضرر في الأمر والنهي هو من هذا القبيل لما ينتجه من صلاح المجتمع واستقامته ودفع خطر المنكرات عنه وجلب منافع المعروف له، فمقابل هذه المصالح النوعية لا يعد الضرر الشخصي الذي يتحمله الفرد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر شيئاً يلتفت إليه، وإنّما جاءت عناية الفقهاء بالضرر الشخصي على حساب المصالح النوعية العامة لعلّتين هما:

أ ـ تغلغل النزعة الفردية في الفقه بسبب عوامل وتراكمات عديدة بحيث أصبح الفقيه ينظر إلى زاوية الفرد الذي يسأله ويستفتيه ولا ينظر إلى زاوية المجتمع الذي ابتعد عنه وانشغل بالحكّام والأمراء والسلاطين بدلاً عن الفقهاء.

ب ـ تمادي زمان المنكر وتضخم المنكرات واستفحال أهل الباطل على أهل الحق بما يورث اليأس من الإصلاح الكلي للأُمور ويجعل الفرد المؤمن في صورة الضحية التي لا ينبغي تكليفها بتحمل مشاق الأمر والنهي بعد جور أهل المنكر عليه.

ولو قُدّر للفقه أن يتخلص من هاتين العلّتين وان ينظر لمسألة الأمر والنهي في نطاقها الطبيعي وضمن الصورة المتكاملة للحياة الإسلامية لما استأثر الضرر الشخصي بكل هذا الاهتمام الذي نراه في مقابل اهمال المصالح النوعية الكبيرة.

وجواب الدليل الثالث لصاحب الجواهر هو بعينه ما تقدم في جواب الدليل الثاني فلا نكرر، وفيما يأتي وجه آخر للجواب عن هذين الدليلين معاً، وهو جواب الدليل الرابع، وهو أن سهولة الملّة وسماحة الشريعة تعني أن الشريعة في حد نفسها لا تقصد التضييق والحرج، بل تقصد السهولة واليسر والسماحة ما أمكنها ذلك، ولم يكن مخلاً بمقتضيات الكمال الذي جاء الدين ليسوق الإنسان نحوه. فإذا اقتضى الكمال في موطن ردع الشر بصرامة وقاطعية فهنا لا يسع الشريعة أن تأخذ جانب السماحة واليسر والسهولة لما فيه من الاخلال بمقتضيات الكمال، والشدّة هنا ليست من الشريعة، وإنما من لوازم ردع الشر، بحيث لولا الشدة والقاطعية لما ارتدع الشر

ولانتفى الكمال عن المجتمع، فمقاصد الشريعة متكاملة تجمع بين السهولة واليسر، وبين مقتضيات الكمال، كل في موطنه وبحسبه، والإفراط في مقصد يؤدي إلى التفريط في مقصد آخر من مقاصد الشريعة، فلا ينبغي الخلط والاخلال بها، فإذا اقتضى الكمال الشدّة والضرر والحرج كما في أحكام الجهاد والخمس والصوم والحج والحدود والديات والقصاص فهي مع الكمال بكل لوازمه التي تأخذ هي الأُخرى صفة الكمال، فتكون الشدّة والضرر والحرج كمالاً يُتمسك به وليست نقصاً بحيث يتم البحث عن مخارج شرعية لدرئها عن المكلفين، وإذا اقتضى الكمال اليسر والسهولة والسماحة فالشريعة مع هذا الكمال بكل توابعه، والمهم أن سهولة الملّة وسماحة الشريعة تعني أنّ الشريعة في حد نفسها لا تطلب الشدة والعسر، بل إنها تطلب اليسر والسهولة، ولكن بمعنى متصل بمقتضيات الكمال وليس منفصلاً عنه؛ لأنّ الانفصال يؤدي إلى محق الشريعة. وهذا الوجه لا يتم به خروج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من كونه مورداً لقاعدة سهولة الشريعة فقط، بل يتم به أيضاً خروجه عن قاعدة رفع الحرج وقاعدة نفي الضرر أيضاً.

أما الأخبار الأربعة التي استدل بها صاحب الجواهر في الدليل الخامس وما بعده إلى الثامن فهي ضعيفة سنداً، أما خبر العيون فضعيف؛ لعدم ثبوت وثاقة الأعمش الواقع في سنده، وأما خبر مسعدة وخبر يحيى الطويل فقد مضى بيان ضعفهما، وأما خبر المفضل بن يزيد فهو الآخر ضعيف؛ لجهالة المفضل وعدم ثبوت وثاقته. وعلى فرض وثاقته برواية الأجلاء عنه كأحمد بن محمّد البزنطي وابن ابي عمير فمن الممكن حمل خبره وخبر مسعدة وخبر يحيى الطويل والاعمش على موقف زمني وحكم ولائي خاص كان الإمام الصادق(ع) قد اتخذه إزاء حكام زمانه بعدم التعرض لهم لاسباب خاصة كان الإمام يعتقد بها وكان يأمر اصحابه باتخاذ هذا الموقف تأسياً به، وبذا تنصرف هذه الأخبار عن جهة تشريع الأحكام

الثابتة إلى جهة السياسة الزمنية المتغيرة.

أدلة الوجوب بدون اشتراط الشرطين

بعد اتضاح بطلان الأدلة المدعاة لإثبات الشرطين المذكورين، نأتي ونقول: إنّ الأمر لا يقف عند هذا الحد، وإن كان كافياً لنفي الشرطين المذكورين، بل يتعداه إلى ثبوت الأدلة على وجوب الأمر والنهي بلا ملاحظة الشرطين المذكورين وهي:

١ ـ إطلاقات وعمومات أدلة الأمر والنهي، فإنّ كل ما دلّ من الآيات والأخبار على الأمر والنهي دلّ عليه بلا اشتراط، وقد اتضح فساد ما توهم فيه الدلالة على الشرطين المذكورين.

وقد مضى تمسك السيد المرتضى والشيخ الطوسي بإطلاقات وعمومات أدلة الأمر والنهي، وتمسكهما بذلك يجعلنا نتأمل في حقيقة المراد الجدي للشيخ (قده) من شرط التجويز الذي ذكره في أول كلامه، فإنّ مسألة التأثير لها عدة صور هي:

١ ـ صورة العلم بالتأثير، وهذه مما لا كلام لأحد في وجوب الأمر والنهي فيها.

٢ ـ صورة غلبة الظن بالتأثير، وهذه كذلك يجب الأمر والنهي فيها بلا كلام.

٣ ـ صورة احتمال التأثير، وفيها يتفق الجميع على وجوب الأمر والنهي أيضاً.

٤ ـ صورة غلبة الظن بعدم التأثير، وفيها ذهب الشهيد الثاني في المسالك[١] وشرح اللمعة[٢] وصاحب الجواهر[٣] إلى وجوب الأمر والنهي، فيما ذهب المحقق في الشرائع[٤] والعلّامة في التذكرة[٥] ومنتهى المطلب إلى عدم وجوب الأمر والنهي

---

(١) مسالك الافهام ٣: ١٠٢، ط: مؤسسة المعارف الاسلامية.

(٢) اللمعة الدمشقية ٢: ٤١٥، ط: دار الهادي.

(٣) جواهر الكلام ٧: ٦٨٠، ط: دار المؤرخ العربي.

(٤) انظر عبارته في المتن من المصدر السابق.

(٥) تذكرة الفقهاء ٩: ٤٤٣، ط: جامعة المدرسين.

فيها، ويلاحظ أنّ الجميع يستخدمون عبارة «تجويز التأثير» لكن أصحاب الرأي الأوّل القائلين بالوجوب يفسرون التجويز بـ«أن لا يكون التأثير عنده ممتنعاً بل يكون ممكناً بحسب ما ظهر له من حاله، وهذا يقتضي الوجوب ما لم يعلم عدم التأثير»[١].

بينما يتجه القائلون بالرأي الثاني إلى تفسير التجويز بقولهم: «أن يجوّز تأثير إنكاره، فلو غلب على ظنّه أو علم أنه لا يؤثر لا يجب الأمر...»[٢].

٥ـ صورة عدم احتمال التأثير، وهي التي يفتي فيها المشهور بعدم وجوب الأمر بالمعروف، بل ادعي الإجماع على ذلك.

٦ـ صورة امتناع التأثير امتناعاً عادياً، وهي التي نعتقد أنّ الشيخ الطوسي لا يرى فيها وجوب الأمر والنهي.

ومن هنا ينفتح البحث حول حقيقة مراد الشيخ الطوسي من تجويز التأثير عنده، وقد مرّ سابقاً في كلامه التصريح بالأخذ بالرأي الأوّل من الصورة الرابعة القائل بوجوب الأمر والنهي في صورة غلبة الظن بعدم التأثير، ولكننا نلاحظ مع ذلك ان تجويز التأثير عند الشيخ لا ينطبق على هذا الرأي تمام الانطباق، لأنّ تمسكه بإطلاقات وعمومات ادلة الأمر والنهي يقتضي نفي شرط التجويز من حيث الأصل، وبكلا التفسيرين المذكورين في الصورة الرابعة، خاصه وانه (قده) قد صرّح في تفسير التبيان بذلك في تفسيره لآية ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾[٣] حيث ذكر في تفسيرها انها تحكي حواراً بين جماعتين، تقول أحداهما: لماذا أنتم تعظون قوماً حكم الله عليهم بالهلاك؟ فتجيب الأُخرى بأننا نقوم بذلك طلباً للعذر

---

(١) مسالك الأفهام ٣: ١٠٢.

(٢) تذكرة الفقهاء ٩: ٤٤٣.

(٣) الاعراف: ١٦٤.

أمام الله سبحانه وتعالى، حتى لا نسأل يوم القيامة عن عدم قيامنا بوعظهم، ثم يعلق قائلاً: «وفي ذلك دليل على أنه يجب النهي عن القبيح وإن علم الناهي أنّ المنهي لا ينزجر ولا يقبل»[١]. وهذا تصريح واضح منه(قده) في نفي أصل اشتراط التجويز.

ولعلّ مراد الشيخ الطوسي من تجويز التأثير في عبارته المذكورة في أول البحث يتضح ببيان أنّ التجويز هو ما يقابل الامتناع، وأنّ الامتناع تارة يكون عقلياً وأُخرى عادياً، وبالتالي فالتجويز تارة يكون عقلياً بمعنى نفي الاستحالة والامتناع العقليين، وأُخرى عادياً بمعنى نفي الامتناع العادي، والمعنى الأوّل غير محتمل، لأنّ الامتناع العقلي لا يتطرق لمسألة احتمال التأثير، والتأثير يبقى محتملاً من الناحية العقلية مهما ساءت الظروف، نعم الامتناع العادي ممكن بحقه، وغرض الشيخ من تجويز التأثير حينئذٍ هو نفي الامتناع العادي، أما ورود كلمة الامتناع على لسان اصحاب الرأي الأوّل القائلين بوجوب الأمر والنهي في الصورة الرابعة فهي مسامحة في التعبير، لأنّ موردها عندهم هو عدم احتمال التأثير، وهو ليس من الامتناع في شيء.

وبذا يتضح أنّ الشيخ(قده) ليس من القائلين بشرط التجويز بالمعنى الذي عليه المشهور، بل إنه من النافين له، وأنّ عبارة التجويز عنده هي بمعنى نفي الامتناع العادي، وصورة الامتناع العادي ليست محلاً للبحث عند المشهور، إنما محل البحث عندهم هي الصورة الخامسة وهي صورة عدم احتمال التأثير التي يفتي المشهور فيها بعدم وجوب الأمر والنهي، بمعنى أنّ المشهور يريد من شرط التجويز نفي الوجوب عن الصورة الخامسة مع اختلاف في الموقف من الصورة الرابعة، بينما غرض الشيخ

---

(١) التبيان ٥ : ١٣، ط: مكتب الاعلام الإسلامي.

الطوسي من ذلك نفي الوجوب عن الصورة السادسة والحكم بالوجوب في سائر الصور ومنها الصورة الخامسة وهي صورة عدم احتمال التأثير، فالعبارة واحدة ولكن مراد الشيخ منها غير مراد المشهور.

ويؤيد ذلك كلام الحلبي في الكافي، فإنه كتب يقول: «واقتصرنا في الإيجاب على التجويز دون غلبة الظن بالتأثير؛ لأنّ أدلة إيجاب الأمر والنهي مطلقة غير مشترطة بظن التأثير. وإثباته شرطاً يقتضي إثبات ما لا دليل عليه، ويؤدي إلى تقييد مطلق الوجوب بغير حجة، وأيضاً فقد علمنا وجوب الجهاد مع قوة الظن بأنّ المجاهَد لا يؤمن، ومع حصول العلم بذلك يبطل اعتبار الظن في الوجوب.

إن قيل: إذا كان الغرض بالأمر والنهي حصول التأثير فينبغي إذا غلب الظن بعدمه أن يقبحا لكون ذلك عبثاً، ولهذا يقبح منا الإنكار على أهل المصر ما يؤتونه فيه من أخذ الاعشار.

قيل: المقصود في هذا التكليف مصلحة من وجب عليه، والتأثير تابع فجاز وجوبه وإن علم انتفاء التأثير كسائر المصالح... واتفاق الكل على وجوب الإنكار على أبي لهب مع العلم بأنّه لا يؤمن، وعلى كثير من انكار المعلوم أو المظنون كونهم ممن لا يختار الإيمان، وذلك يبطل ما ظنوه»(١).

وواضح من هذا الكلام أنه إثبات لما نريده ونفي لشرط التجويز بالمعنى الذي صار مألوفاً في الفقه من زمن المحقق إلى يومنا هذا، وبذا يتضح أنّ شرط التجويز بالمعنى الذي نريد نفيه لم يرد له ذكر في الفقه المأثور ولا في فقه القدماء، وإنما هو حادث في فقه المتأخرين من زمن المحقق الحلي ومن جاء من بعده.

٢ ـ إنّ الظاهر من أدلة الأمر والنهي أنهما مطلوبان بنفسيهما، وأنّ مسألة التأثير

---

(١) موسوعة الينابيع الفقهية ٩: ٤٣ ـ ٤٤.

بمثابة الحكمة والثمرة المترتبة عليهما، وبالتالي فربط الوجوب بالتأثير على نحو العلّة والمعلول لا دليل عليه، ولا أقل من كون المطلوبية النفسية احتمالاً قائماً ومقبولاً، كالمطلوبية الغيرية، بل سيتضح من مطالعة بعض نصوص الأمر والنهي التي سنذكرها في نهاية البحث أنّ المطلوبية النفسية هي المتعينة، وما قيل من لغوية الايجاب مع العلم بانتفاء التأثير يستلزم القول بلغوية المطلوبية النفسية، وهو باطل؛ لأنّ المطلوبية النفسية لها أمثلة شرعية عديدة وتترتب عليها أغراض شرعية متعددة، ومن أمثلتها ما ذكره الحلبي آنفاً من الأمر بجهاد الكفار بغض النظر عن توقع التأثير وعدمه فيهم، ومن أمثلتها قول النبي(ص): «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**» فإنّ السلطان الجائر لا يتوقع التأثير فيه، ومع احتمال التأثير فيه لا يكون الكلام معه أفضل الجهاد، إنّما أفضل الجهاد ما كان من الكلام مع الجائر في حال طغيانه دون ملاحظة لومة لائم وعقوبة حاكم كما هو واضح.

وأهم غرض شرعي يترتب على المطلوبية النفسية هو إظهار عزّ الشريعة ومنعة الدين وسدّ الطريق على تفشّي المنكر، والتشجيع على امتثال المعروف وإحيائه في المجتمع.

نعم الأمر والنهي مطلوبان بحد نفسيهما، وابتغاء التأثير وسلوك سبله مطلوب آخر مترتب عليهما.

٣ـ قوله تعالى لموسى وهٰرون(ع): ﴿**ٱذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾[١].

ببيان أنّ الله سبحانه أمر نبيّه بالإنكار على فرعون رغم انتفاء احتمال التأثير

---

(١) طه: ٤٣ ـ ٤٦.

وعدم الأمن من الضرر، يدل على انتفاء احتمال التأثير قوله تعالى: ﴿انّه طَغىٰ﴾ فإنّ الطغيان هو أوج المعاندة، ويدل على عدم الأمن من الضرر إضافة إلى وصف الطغيان الملازم للتعسف وإيذاء المسالمين فضلاً عن المعارضين، قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[1]، وهذا أبلغ بيان في نفي شرط الأمن من الضرر، فإنّه تعالى لم يقل لهما: اذهبا واحتملا المكاره ولا تشرطا الأمن من الضرر، وإنما قال لهما: «لا تخافا» فنهاهما عن المقدمة النفسية للضرر، وهو الخوف ليكون ذلك أبلغ في نفي اشتراط الضرر من هذا العمل.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[2].

فإنّه إضافة إلى إطلاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الآية وعدم تقييده بحالة دون أُخرى فرّعت الآية على ذلك الأمر أمراً آخر بالصبر على ما يصيبه من مصائب، وفسّر الشيخ الطوسي في التبيان ذلك بأنّه: «واصبر على ما اصابك من الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المشقة والأذى، وفي ذلك دلالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كان فيه بعض المشقة»[3].

وروى الطبرسي في المجمع رواية في ذلك عن علي(ع)[4].

وحاول الراوندي في فقه القرآن أن يقيّد الضرر المشار إليه في الآية بكونه: «مثل سب عرض أو ضرب لا يؤدي إلى ضرر في النفس عظيم أو في ماله أو بغيره،

---

(١) طه: ٤٦.

(٢) لقمان: ١٧.

(٣) التبيان ٨: ٢٧٩، ط: قم.

(٤) مجمع البيان ٨: ٣١٩، ط: صيدا.

لأنّ كل ذلك مفسدة»[1]. مع أنّ الآية مطلقة، بل قد يدعى أن فيها ما ينفي القيد المذكور، وهو قوله تعالى: ﴿إنّ ذلكَ مِنْ عَزمِ الأُمورِ﴾ ، فأن عزم الأُمور لا يتناسب مع مثال سب العرض أو الضرب القليل، بل يتناسب مع الضرر الكثير. فالآية تصف الصبر على الضرر الكثير بأنّه من عزم الأُمور، ومع هذا الوصف والمدح كيف يتاح لنا القول بأنّ الضرر الكثير مفسدة؟

٥ ـ قول الرسول(ص): «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» المعروف لدى المسلمين كافة، ومعلوم أن كلمة الحق هذه إذا جاءت بلا ضرر ولا خطر وكان السلطان الجائر متقبلاً لها لا تكون أفضل الجهاد، لوضوح أنّ الجهاد مشتق لغة من الجهد، ولا جهد في هذه الحالة فكيف تكون أفضل الجهاد؟ وسياق الكلام شاهد واضح على أن المراد به ارغام الجائر على سماع كلمة الحق على تمنع منه، ومواجهته بهذه الكلمة رغم ما يتوقع منه من التهديد والعقوبات الجائرة، فالحديث دليل على وجوب الأمر والنهي بلا اشتراط الشرطين المذكورين.

٦ ـ إنّ مقتضى كون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وكون الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، مقتضى ذلك ان يصدع الدين بكلمته في أسماع الناس الموافق منهم والمخالف، المؤمن والمعاند، المستعد للتأثر والتغير، والمستكبر الرافض، وان لا يتهيب من احتمال قيام المعاندين بالإضرار بحال المؤمنين، كما هو الشأن في الدول والحكومات التي تسن القوانين و تعلن تطبيقها ولا توقف العمل بها لأجل احتمال قيام المجرمين بأعمال إرهابية معينة، والحكومة التي تراعي مثل هذا الاحتمال أنّما هي حكومة هزيلة تحكم على نفسها بالفناء والزوال.

---

(١) الينابيع الفقهية ٩: ١٣٥.

نعم المداراة وابتغاء الحكمة أمر مطلوب، ولكن في طريق تكريس القانون وترسيخه، لا في ابطاله وايقاف العمل به.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر انما هو فريضة يتم بها إقرار القانون الإسلامي في حياة المسلمين، وبها تقام سائر الفرائض، فكيف يتصور أن تتراجع الشريعة عن قرار التطبيق تهيّباً من ضرر المجرمين المخالفين له؟ أو تحسباً لعدم تأثر بعض الناس به؟

٧ ـ ويشهد لما ذكرنا أيضاً موقف أبي ذر الغفاري (رض) من أعمال عثمان وولاته وما كان من تفريطه في بيت المال، وتأييد ومباركة الإمام علي(ع) لهذا الموقف وصدور تلك الكلمات الرائعة منه في تعضيده، فلو كان الإنكار بدون مراعاة الشرطين المذكورين قبيحاً فكيف يقوم الإمام بتأييده ومباركته؟ قد يقال: إنّ الشرطين يسقط بهما الوجوب ولا يسقطان الحسن بمعنى الاستحباب، فليكن عمل أبي ذر مستحباً حسناً غير واجب.

والجواب: إنّ الحُسن لا يجتمع مع القبح والمفسدة، وافتراض عمل أبي ذر حسناً ومستحباً يعني أنه خالٍ من القبح والمفسدة، بمعنى أنّ القبح والمفسدة يسقطان الحُسن بكلتي مرتبتيه الواجبة والمستحبة، وافتقاد عمل أبي ذر للشرطين معاً يعني كونه عملاً غير حسن لما فيه من مفسدة الضرر وقبح الإنكار بلا احتمال التأثير، وبالتالي فهو غير واجب وغير مستحب.

وأجاب الشيخ النجفي في الجواهر: بأنّ ما وقع من: «مؤمن آل فرعون وأبي ذر وغيرهما في بعض المقامات فلأمور خاصة لا يقاس عليها غيرها»[1]. دون أن يبين كيف أصبحت أُمور هؤلاء خاصة لا يقاس عليها غيرها؟ ومع هذا الإبهام لا يتم

---

(١) الجواهر ٧:٦٨٣، ط: دار المؤرخ.

الجواب، فالأصل عدم الخصوصية حتى تثبت، ولم يحصل الإثبات. وإذا كانت الخصوصية التشريعية لم تثبت للحسين(ع) فمن الأُولى أن لا تثبت لأبي ذر ومؤمن آل فرعون.

٨ ـ والدليل الأخير هو ما أشرنا إليه آنفاً من دلالة حديث «لا ضرر ولا ضرار» على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى مع العلم بحصول الضرر من ذلك على النفس والمال، فضلاً عن صورة الاحتمال التي نفى المشهور عنها الوجوب، وذلك بناءً على أنّ قاعدة نفي الضرر لا تختص حكومتها بالأحكام الوجودية فقط، كما بنت عليه المدرسة الأُصولية الحديثة عند الإمامية، وإنما تثبت احكاماً جديدة أيضاً، وقد اشتهر بين الأُصوليين أن شأن قاعدة نفي الضرر هو نفي الأحكام الضررية المجعولة فعلاً أو المتوهم صدورها من الشارع، وانها تنفي ولا تثبت، وذلك استناداً إلى أن «مقتضى كون وزان حديث نفي الضرر وزان حديث رفع التسعة وقاعدة نفي الحرج هو رفع الحكم الثابت بالعمومات أو الاطلاقات، حيث ان مفاد هذا اللسان تنزيل الموجود منزلة المعدوم، فيختص حديث نفي الضرر ونظائره مما يكون لسانه النفي بالأحكام الوجودية، وأن أبيت من ظهور ذلك في الاختصاص المزبور، فلا أقل من كونه المتيقن، فلا وجه حينئذٍ للاستدلال به على إثبات حكم يلزم من عدمه الضرر...»(١).

ويرد على هذا الكلام انّه تام في حديث رفع التسعة وآية رفع الحرج ولا يتم في حديث لا ضرر، لما فيه من مزية يمتاز به عليهما، وهي أن هذا الحديث نطق به النبي(ص) في حادثة نزاع الانصاري مع سمرة بن جندب، وكان سمرة لجوجاً عنيداً حتى مع النبي(ص) فضلاً عن ذلك الانصاري، ولم يكن متديناً حتى نتصور انّ النبي

(١) منتهى الدراية: ٦/٦٣٠ ـ ٦٣١.

قال هذا الحديث دفعاً لحكم شرعي بجواز عمل كان يتوهمه سمرة حتى يقال: بأن الحديث ينفي أحكاماً موهومة ولا يثبت احكاماً جديدة، بمعنى ان عمل سمرة كان طغياناً وعدواناً، وحديث لا ضرر جاء لردعه عن هذا العدوان، والتناسب بين الحكم والموضوع يقتضي أن يكون هذا الحديث نافياً لاحكام ضررية ومثبتاً لاحكام تزيل الضرر والعدوان عن المجتمع في الوقت نفسه. وبهذه النكتة يتم إثبات ان حديث نفي الضرر عام يشمل نفي كل سبب يؤدي إلى حصول الضرر سواء ما كان منه راجعاً إلى الشريعة فلا حكم ضرري فيها، وما كان منه راجعاً إلى طغيان الناس واضرار بعضهم ببعض، فلا تقبل الشريعة به وتسعى إلى نفيه عن المجتمع بتسبيب الأسباب الشرعية المؤدية إلى مصادرته ونفيه عنه، ومن جملة هذه الأسباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيصبح بذلك حديث نفي الضرر مثبتاً ـ فضلاً عن نفيه الأحكام الضررية ـ لأحكام تقطع دابر الضرر على المجتمع، وذلك بملاحظة النكتة المذكورة في حال سمرة، وكون مفاد النفي عاماً يشمل النهي التحريمي مع تسبيب الأسباب الشرعية المؤدية إلى قطع دابر الضرر على المجتمع(١).

وبتطبيق هذه النتيجة على باب الأمر والنهي نقول: إنّ قاعدة نفي الضرر يمكن التمسك بها لإثبات وجوب الأمر والنهي كطريق لقطع دابر ضرر المنكر على المجتمع، كما يمكن التمسك بها لإثبات عدم وجوب الأمر والنهي إذا كان ضررياً بحال المؤمن، فيتعارض الضرران، وحل التعارض يتم بتقديم الأهم على المهم، ودفع الضرر الأكبر بالأصغر، كما هي السيرة العقلائية الممضاة من قبل الشارع، ولا شبهة ولا

---

(١) أثبت آية الله السيد السيستاني في رسالته في قاعدة لا ضرر افادة هذه القاعدة لإثبات الأحكام الرادعة عن الضرر ببيان أن قوله(ص) «لا ضرر» يفيد نفي الأحكام الضررية وقوله(ص) في الجملة الثانية «لا ضرار» يفيد التسبيب الشرعي إلى نفي الاضرار، مع تفصيل وافٍ ذكره في محله: ١٣٤ ـ ١٥١. وهذا وجه آخر يثبت ما نحن بصدده.

اشكال في أن دفع ضرر المنكرات وفقدان المعروف أولى من دفع ضرر الأمر والنهي على حال المؤمن. فالأوّل ضرر نوعي يعم المجتمع ويتفشى فيه، والثاني ضرر شخصي خاص بالمؤمن، الأوّل ضرر موضوعه محرم والثاني ضرر موضوعه مباح، الأوّل ضرر يمتدح العقلاء دفعه، والثاني ضرر يمتدح العقلاء تحمله، فتكون قاعدة نفي الضرر دليلاً على وجوب الأمر والنهي وإن استلزم الضرر الشخصي.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين رؤيتين

والتأمل الدقيق في المفارقة بين ما عليه ثورة الإمام الحسين(ع) وأقواله ومواقفه وبين ما عليه مشهور الفقهاء من اشتراط الشرطين المذكورين في الأمر والنهي يقودنا إلى الإيمان بانطلاق الإمام الحسين(ع) في مسألة الأمر والنهي من رؤية غير تلك التي ينطلق منها المشهور الفقهي فيها، فإنّ فريضة الأمر والنهي يمكن أن نخضعها لرؤيتين مختلفتين، فنصل إلى نتيجتين مختلفتين:

١ ـ الرؤية الاجتماعية الحضارية المتكاملة باعتبار أنّ لكل مجتمع وحضارة قاعدة تنطلق منها، وأنّ هذه القاعدة في مفهوم الإسلام، إمّا أن تكون هي المعروف، وهي قاعدة المجتمع والحضارة الإسلامية، وإمّا أن تكون هي المنكر وهي القاعدة المشتركة لكل الحضارات والمجتمعات غير الإسلامية، ولذا كان التناقض بين الحضارتين والمجتمعين تناقضاً مستقطباً باعتبار استنادهما إلى قاعدتين متناقضتين تناقضاً حاداً، ومن هنا فإنّ ظهور مفردة من مفردات حضارة المنكر داخل حضارة المعروف يكون بمثابة الغزو الخارجي الذي يهدد سيادة حضارة المعروف بالخطر، والرد الطبيعي في مثل هذه الحالة هو أن تستنفر حضارة المعروف كل قواها وتجنّد كل طاقاتها لردّ المعتدي وضمان أمنها وسيادتها وانسجام نسيجها الداخلي، وتسترخص في هذا الطريق كل ضرر محتمل ومتيقن، ولا تراعي في أصل هذا

الموقف الستراتيجي احتمال وعدم احتمال استجابة المعتدي، وإن كانت تحرص من حيث التكتيك والأسلوب على إلحاق أنكر هزيمة به.

وهذه الرؤية تنطبق تمام الانطباق على ثورة الإمام الحسين(ع) وكلماته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما تنطبق على نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواردة في القرآن الكريم والسنّة النبوية وكلمات الأئمة عليهم السلام التي سيأتي إيراد أبرزها، وتنطبق بالتالي على النتيجة الفقهية التي أثبتناها في هذا البحث من إثبات وجوب الأمر والنهي بلا اشتراط الشرطين المذكورين، والتي بنيناها على هذه الرؤية الأصيلة.

٢ ـ الرؤية الفردية المحدودة التي تنظر لفريضة الأمر والنهي من زاوية الفرد المؤمن الذي يبدو وكأنه الضحية الذي سيخسر ما عنده من أجل المجتمع، فتنتصر هذه الرؤية لهذا الفرد وتحاول إبراء ذمته من هذه الفريضة الباهضة الثمن. دون أن تشعر بخطر المنكر على المجتمع وضرره الشديد على قاعدة المعروف التي يبتني عليها، ولا تفهم من نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذلك الاستنفار الشديد الذي فهمته الرؤية الاجتماعية منها. ومن الطبيعي في مثل هذه الحالة أن تجد نفسها متطابقة مع بعض النصوص التي يبدو منها التأييد لها، فتتمسك بها وتجعلها عمدة الرأي في المسألة رغم إمكانية حملها على التقية، أو على سياسة زمنية خاصة كان الإمام الصادق(ع) قد اتخذها اتجاه حكام زمانه وامر اصحابه بالتقيد بها لتتم بذلك خطته، كما تحاول في المقابل اهمال أو اغفال أو توجيه النصوص الأصلية والأصيلة فيها، وعدم إدخال النموذج الحسيني ومن كان على منواله كمؤمن آل فرعون وابي ذر الغفاري في الحسابات الفقهية المؤدية إلى استنباط الفتوى، فلا تجد أقوال الإمام الحسين(ع) في باب الأمر والنهي، مذكورة في كتب الحديث والفقه، ويستمر هذا التضعيف، حتى إنك لا تجد كتاب الأمر بالمعروف والنهي مذكوراً إلّا في

القليل من الرسائل العملية، أمّا تدريس هذا الكتاب وهذه الفريضة في الدروس الحوزوية في مرحلة البحث الخارج فأندر من الكبريت الأحـمر. بـينما يسـتمر التدريس في الأبواب الأُخرى سنوات طويلة.

والسبب كله يعود إلى تسرب الرؤية الفردية وتحكيمها في باب الأمر والنهي باعتبار أنّ الفقيه وجد نفسه معنياً بالإجابة على سؤال هذا الفرد الذي يسأله عن حكمه ووظيفته، ولم يجد أمامه مجتمعاً يسأله عن أمره، ولم يتح لهذا الفـقيه أن يدخل في حساباته بأنّ غياب المجتمع حالة استثنائية لا يمكن بناء الفقه عليها؛ لأنّ الشريعة نظرت للفرد والمجتمع نظرة متكاملة متوازنة، ولابد من بناء الفقه في ضوء هذه النظرة. باعتبارها النظرة الثابتة والأصيلة للشريعة بخلاف النظرة الفردية التي تستند إلى أدلة تحمل صفة استثنائية طارئة بحيث تقبل الحمل على التقية أو السياسة الزمنية الخاصة كما اتّضح آنفاً.

بل أدّت هذه الرؤية إلى أكثر من ذلك حينما نطالع التراث الكلامي والفقهي ونجد فيه هذا التراث يعالج ثورة الإمام الحسين(ع) كما لو أنها إشكال يحتاج إلى إجابة وتوجيه وتبرير.

وينبغي التذكر ـ ونحن في نهاية البحث ـ بأنه لا يلزم من النتيجة التي توصلنا إليها ان الأئمة(ع) من بعد الإمام الحسين(ع) قد تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لما تقدم في نهاية بحث الشريعة بين العنوان الاولي والعناوين الثانوية من ان الوظيفة الشرعية لاتتحدد تحديداً تاماً الاّ بعد تنظيم الاولويات وهـذا مـا كـان يقتضي منهم بيان مفهوم الإسلام ومعالم الشريعة في مقابل المذاهب والفرق التي ظهرت انذاك فراجع.

جملة من النصوص الشرعية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وفيما يلي نورد جملة من النصوص الشرعية في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع التنبيه على ضرورة ملاحظة مدى انطباقها على الرؤية الاجتماعية، ومدى غربة الرؤية الفردية عنها، ومدى توفر عنصر الاستنفار والغيرة الشديدة على المعروف كقاعدة للمجتمع الإسلامي، والمواجهة للمنكر كمعتدٍ متسلل إلى حياة المسلمين. وما تحظىٰ به من الإطلاق، وعدم الالتفات إلى اشتراط التأثير، وعدم المفسدة، وما تفيده من المطلوبية النفسية لا الغيرية.

ـ قال الرسول(ص): «**إذا أُمتي تواكلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليأذنوا بوقاع من الله**»(١).

ـ وقال النبي(ص): «**إنّ الله ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له فقيل: وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له؟ قال: الذي لا ينهى عن المنكر**»(٢).

ـ وقال(ص): «**لا تزال أُمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر والتقوى، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات وسلّط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء**»(٣).

ـ وقال الإمام علي(ع): «**أما بعد فانّه إنما هلك من كان قبلكم حيثما عملوا من المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك، وأنهم لما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك نزلت بهم العقوبات، فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر واعلموا**

---

(١) الوسائل ١٦ : ١١٨، ط: مؤسسة آل البيت.

(٢) الوسائل ١٦ : ١٢٣ .

(٣) المصدر نفسه.

أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لن يقرّبا أجلاً ولن يقطعا رزقاً...»[١].

ـ وكتب الإمام الصادق(ع) إلى شيعته يقول: «ليعطفنّ ذوو السن منكم والنهى على ذوي الجهل وطلاب الرئاسة أو لتصيبنكم لعنتي أجمعين»[٢].

ـ قال الإمام الرضا(ع): «لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهنّ عن المنكر، أو ليستعملنّ عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»[٣].

ـ وقال الإمام الباقر(ع): «يكون في آخر الزمان قوم يتبع فيهم قوم مراؤون يتقرؤون ويتنسكون حدثاء سفهاء لا يوجبون أمراً بمعروف ولا نهياً عن منكر إلّا إذا أمنوا الضرر، يطلبون لأنفسهم الرخص والمعاذير، يتبعون زلّات العلماء وفساد عملهم يقبلون على الصلاة والصيام وما لا يكلمهم في نفس ولا مال، ولو أضرّت الصلاة بسائر ما يعملون بأموالهم أبدانهم لرفضوها كما رفضوا أسمى الفراض وأشرفها[٤]، إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، هنالك يتم غضب الله عزّ وجل عليهم فيعمهم بعقابه، فيهلك الأبرار في دار الفجار والصغار في دار الكبار، إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتأمن المذاهب وتحل المكاسب وترد المظالم وتعمر الأرض وينتصف من الاعداء ويستقيم الأمر فانكروا بقلوبكم والفظوا بألسنتكم وصكوا بها جباههم ولا تخافوا في الله لومة لائم، فإنّ اتعظوا وإلى الحق

---

(١) المصدر نفسه: ١٢١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الوسائل ١٦ : ١١٨، ط: مؤسسة آل البيت.

(٤) من المناسب جداً الاشارة إلى أن صاحب الجواهر حمل كلام الإمام الباقر(ع) على قوم مخصوصين موصوفين بهذه الأوصاف ٧ : ٦٨٣ وقد مضى منه ادعاء الخصوصية في الحسين(ع) ومؤمن آل فرعون وأبي ذر الغفاري، ط: دار المؤرخ، وحمله صاحب الوسائل: ١٦: ١٢٩، على وجوه ضعيفة أخرى، وهذا من نتائج الرؤية الفردية، وقد اتضح عدم الداعي إلى الحمل، والحديث متطابق تماماً مع الرؤية الاجتماعية.

رجعوا فلا سبيل عليهم، «إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، أُولئك لهم عذاب أليم»، هنالك فجاهدوا بأبدانكم وابغضوهم بقلوبكم غير طالبين.. حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويمضوا على طاعته قال وأوحى الله عزّ وجل إلى شعيب النبي(ع) إني معذب من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم فقال(ع): يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عزّ وجل إليه: داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[1].

وقال الإمام علي(ع): «من ترك إنكار المنكر بقلبه ولسانه ويده فهو ميت بين الأحياء»[2].

(١) الكافي ٥ : ٥٥ ـ ٥٦، ط: دار الكتب الإسلامية.
(٢) الوسائل ١٦ : ١٣٢، ط: آل البيت.

فهرست الكتاب

المقدمة.. ٨

مدخل

إلى نظرية الثورة والمقاومة في الإسلام

واقع ومستقبل العالم الإسلامي في ظل التحديات الراهنة.................. ١٧
بين نظرية العولمة وستراتيجية صراع الحضارات.................. ١٧
الخطر الأكبر على الإسلام والبشرية.................. ٢٣
معالم الستراتيجية الاستكبارية الجديدة وأهدافها.................. ٢٤
١ ـ أزمة الوعي.................. ٢٤
٢ ـ عمليات النفاق وإثارة الفتن بين المسلمين.................. ٢٥
٣ ـ الإسلام الأمريكي الجديد.................. ٢٦
٤ ـ ربط المقاومة بالتخريب والإرهاب والأسماء المنبوذة.................. ٢٧
٥ ـ مشروع الاضطراب واللااستقرار المستمر.................. ٢٧
٦ ـ الروح الهجومية الارغامية.................. ٢٧
٧ ـ نشر الخوف والذعر من القدرة الأمريكية التي لا تقهر.................. ٢٨
٨ ـ ربط الشعوب بالوعود الفارغة دائماً.................. ٢٨
٩ ـ كذبة مكافحة الإرهاب.................. ٣٠
١٠ ـ كذبة فكرة نهاية التاريخ.................. ٣٠

١١ ـ التأكيد علىٰ ضرورة إسقاط الدولة الإسلامية الفتية في إيران ٣١
١٢ ـ الاتكاء علىٰ عامل الجريمة ٣١
أزمة الوعي الراهنة في العالم الإسلامي ٣٣
الاستعمار من خط العمالة إلى أزمة الوعي ٣٦
كيف قامت أمريكا بتأزيم الوعي في المنطقة؟ ٣٨
مظاهر أزمة الوعي ٤٠
خيارات المسلمين في المواجهة الراهنة ٤٣
مبررات خيار التسليم ٤٥
مبررات خيار الثورة والمقاومة الشاملة ٤٧
المواجهة المقدسة ٥٢
معالم الستراتيجية الإسلامية ٥٥
١ ـ ضرورة التمسك بنظرة استراتيجية ٥٥
٢ ـ ضرورة حل أزمة الوعي ٥٨
٣ ـ ضرورة استنفار الجمور بأقصى حدّ ممكن ٦٢
٤ ـ ستراتيجية التكليف لا النتيجة ٦٥
٥ ـ ستراتيجية محاصرة الطاغوت وتحويل الضعف إلى قوّة ٦٦
٦ ـ ستراتيجية الحماس والشهادة ٧٠
٧ ـ ستراتيجية الأمل والثقة بالمستقبل ٧١
٨ ـ إبطال دعوى الإرهاب ٧٢
٩ ـ إبطال دعوى الديمقراطية ٧٤
١٠ – ضرورة تفعيل أركان المقاومة في المجتمع الإسلامي ٧٧

الفصل الأوّل

الثورة والمقاومة مفهومهما وأركانهما وخصائصهما

المقاومة والثورة في اللغة والاصطلاح الحديث ٨١
المقاومة لغة واصطلاحاً ٨١
الثورة لغة واصطلاحاً ٨٤
مفهوم الثورة والمقاومة وأركانه في الإسلام ٨٦
مفهوم الثورة والمقاومة في الإسلام ٨٦
أركان الثورة و المقاومة ٩٢
خصائص مفهوم الثورة والمقاومة في الإسلام ٩٥
١ ـ مفهوم حضاري شامل ٩٥
٢ ـ مفهوم حيوي ٩٩
٣ ـ مفهوم مرن يدور بين حدّين ١٠١
٤ ـ المقاومة مفهوم هادف ١٠٣
نظرية الصمت والسكوت ١٠٥
أثر نظرية السكوت على العقيدة ١٠٦
أثر نظرية الصمت على الأخلاق ١٠٩
أثر نظرية السكوت على الفقه ١١٢
من هو المخاطب بنظرية الثورة؟ ١١٥

الفصل الثاني

الثورة والمقاومة في إطارها العقائدي الشامل

الإطار العقائدي للحياة البشرية واقع وضرورة ١٢٠

ثمرات الإطار العقائدي وإنجازاته ١٢٤

العقيدة والثورة في مرحلة مكافحة الواقع الفاسد ١٢٦

١ ـ الوعي الثوري السليم ١٢٦

٢ ـ وضوح الخط والمنهج ١٢٨

٣ ـ المرحلية في الثورة ١٢٩

٤ ـ الثورة بين التطرف والاعتدال ١٣١

٥ ـ وحدة الأُمة الإسلامية ١٣٣

٦ ـ البصيرة أوانكشاف واقع المعركة ١٣٧

٧ ـ العمق الستراتيجي المتكامل للثورة ١٣٩

٨ ـ الثورة المقدسة ١٤٢

٩ ـ الثورة الواجبة ١٤٤

١٠ ـ الثبات ١٤٥

١١ ـ العقيدة مصنع النصر الحتمي ١٤٦

١٢ ـ دور العقيدة في تحديد المنهج الميداني المطلوب للمواجهة ١٥٠

المنهج النخبوي ١٥١

المنهج الثوري ١٥٤

١ ـ الجمهور ١٥٦

٢ ـ البطل أو القيادة الصالحة ١٥٩
٣ ـ الثقافة الثورية........ ١٦٣
العقيدة والثورة في مرحلة إقامة الحضارة المطلوبة ١٦٦

الفصل الثالث

عقيدة الثورة والمقاومة

الثورة والمقاومة في محور التوحيد........ ١٧٧
الثورة والمقاومة في محور العدل ١٧٩
الثورة والمقاومة في محور النبوة ١٨٨
الإسلام وخصوصية الإطلاق المكعب ١٨٨
خصائص الأُمة الإسلامية في القرآن الكريم........ ١٩٦
الموقف من الحضارة الغربية المعاصرة........ ١٩٩
١ ـ نظرية المؤامرة........ ٢٠١
٢ ـ ضرورة نقد الفكر الغربي........ ٢٠٤
٣ ـ منهجية نقد الحضارة الغربية ٢٠٨
الجاهلية المعاصرة........ ٢١٠
خصائص الجاهلية المعاصرة........ ٢٢٢
الثورة والمقاومة في محور الإمامة ٢٣١
١ ـ الوحدة الإسلامية عند أهل البيت(ع)........ ٢٣١
٢ ـ الرابطة الكاملة بين القائد والأُمة ٢٣٦

٣ـ القيادة العاشورائية........ ٢٣٨
٤ـ العقيدة المهدوية ٢٤٠
٥ ـ مرجعية الفقهاء في زمن الغيبة ٢٤٢
المرجعية في ثلاثة مجالات........ ٢٤٤
مقتطفات من مدرسة الإمام الخميني ٢٤٨
الثورة والمقاومة في محور المعاد ٢٥٧

الفصل الرابع
أخلاق الثورة والمقاومة

المعنى العام لأخلاق الثورة والمقاومة ٢٦١
المعنى الخاص لأخلاق الثورة والمقاومة ٢٧٠
برنامج الإسلام في حماية الأُمة من النزعة الفردية........ ٢٧٢

الفصل الخامس
فقه الثورة والمقاومة

منابع الثورة في الفقه الإسلامي........ ٢٧٦
الشريعة بين العنوان الأُولي والعناوين الثانوية ٢٨٣
المصلحة في الشريعة الإسلامية........ ٢٩٤
بحث في آية التهلكة........ ٣٠٣

ضرورة حمل المسلمين مشعل العدالة في العالم ٣١٥
فقه الثورة والمقاومة بالمعنى الخاص ٣٢٣
المرحلة الأُولى: إقامة العدل على أساس الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ٣٢٥
المرحلة الثانية: رفض العدوان الخارجي على أساس الدفاع ٣٢٩
المرحلة الثالثة: السيطرة على الكفر على أساس الجهاد في سبيل الله ... ٣٤٤
الوحدة الإسلامية القاعدة المصيرية ٣٤٧
فقه المقاومة بالمعنى العام ٣٥١
أوّلاً ـ كتاب الطهارة ٣٥١
ثانياً ـ كتاب الصلاة ٣٥٣
ثالثاً ـ كتاب الصوم ٣٥٨
رابعاً ـ كتاب الحج ٣٥٩
خامساً ـ كتاب الزكاة ٣٦٠
سادساً ـ كتاب الخمس ٣٦٠
سابعاً ـ كتاب المكاسب المحرمة ٣٦١
ثامناً ـ كتاب النكاح ٣٦٢
تاسعاً ـ كتاب القضاء ٣٦٣
عاشراً ـ كتاب الصيد والذباحة ٣٦٤
حادي عشر ـ كتاب الإرث ٣٦٧
ثاني عشر ـ كتاب الشفعة ٣٦٨
ثالث عشر ـ كتاب الوقف ٣٦٨
إنجازات فقه المقاومة في التاريخ المعاصر ٣٦٩
الملحق رقم (١) الجهاد مقولة حق لا إرهاب فيها ٣٧٢

نظرية الجهاد الابتدائي في الإسلام ٣٧٢
الجهاد حق لا اعتداء فيه ٣٨٩
هل تستحق الحرية أن تكون قاعدة للحضارة؟........................ ٣٩٥
دور الدين في حياة الإنسان ٤٠٥
لا إرهاب مع الجهاد ٤١١
الملحق رقم (٢) الإمام الحسين(ع) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤١٢
كلمة قبل البدء........................ ٤١٤
الجهة الأُولى: في شرط احتمال التأثير ٤١٨
الجهة الثانية ـ في اشتراط الأمن من الضرر ٤٢٢
أدلة الوجوب بدون اشتراط الشرطين ٤٢٨
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين رؤيتين ٤٣٨
جملة من النصوص الشرعية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.... ٤٤١
فهرست الكتاب........................ ٤٤٥

آثار أخرى للمؤلف

* من أعلام القيادة و الفكر و المرجعية . صدر في بيروت عن دار المحجة البيضاء.

* دروس في الأحكام الإسلامية . صدر في جزءين عن المنظمة العالمية للحوزات و المدارس الإسلامية

* الدولة الإسلامية دولة عالمية . صدر عن الامانة العامة لمجلس خبراء القيادة في ج.أ.أ

* مرجعية أهل البيت الشاملة . سيصدر قريباً إن شاء الله تعالى

* العالمية الإسلامية دراسة شاملة . معد للنشر

* تحقيق كتاب تنبيه الأُمة و تنزيه الملّة للنائيني صدر عن مؤسسه أحسن الحديث

* تحقيق كتاب الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية للشيخ سليمان بن عبدالوهاب شقيق محمّد عبدالوهاب مؤسس الوهابية . صدر عن دار الهداية

* تحقيق كتاب المراجعات للعلامة شرف الدين صدر عن المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

* عشرون كراساً في أبحاث عقائدية و فقهيه مقارنة بين السنة و الشيعة في موضوعات مختلفة . صدرت عن المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام